





أمحمّد صافي المستغانمي

مسار ومنجزات

- أعمال الملتقى الدّولي -

(الجزء الثّاني)

منشورات المجلس 2021

وجاء الرّجلُ المنير بحسن التّدبير، وبما أحاط حوله من جماعة التّفكير. وأخرج الملفَ من مغلاق الأبراج، وأعمل فيه البصر والبصيرة بالعلاج وها نحن نشهد الحلّ لمشكلة المعجزة، وما كان من الخيال أضحى حقيقة. إنّ الفضل لدور هذا الشّيخ، إنّه الأستاذ (أمحمّد صّافي) المستغانمي الذي ينال اليوم التّكريم، لفعله السّليم؛ وهو أهل لكلّ تسنيم.

أيّها الصّافي؛ هي شينيّةُ التّشريف لشخصكم الشّديف، في ما أشَعْتم من استبشار الجذور؛ التي شاطرتم بها زملاءنا في المعجم التّاريخيّ؛ الذي تجشّمتم نشاطَه في تقميش ما أُشيع وما أُهمِل، وتقريش إحياء الشّباب في مشمول حروف العربيّة المحشيّة بالمستعمِل والمهمَل، في وحشات الكتب الصّفراء الشّحيحة، وتشاطرون غشيان الشّارد في وحشته وتعملون على إشراق شمسه؛ حتى تعودَ الى مشرح الاستعمال لا شاكٍ بل شافٍ. ويأتي هذا المشروع شارحاً؛ يغشاه البِشْر بشهادة الشّهد وبتباشير الرّشد، لا يحمل المشاحنة، ولا يُشْظي الأشطان، فَشَرَفاً للشّيخ الصّافي شَرَفاً، وشغفاً بعملكم كاشفاً.



المجلس الأعلى للغة العربية

52، شارع فرانكلين روزفلت

ص.ب 575 ، ديدوش مراد، الجزائر

الهاتف : 16/17 07 23 21 213+

النّاسوخ : 07 07 23 21 213+

الموقع الإلكتروني : www.hcla.dz





الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة
رئاسة الجُمهوريّة
المجلس الأعلى للغة العربية



أمحمّد صافي المستغانمي

مسار ومنجزات

أعمال الملتقى الدّولي

الجزء الثّاني

منشورات المجلس 2021

الفهـرس

القسم الثالث

-المحاضرات العامّة-

18	**الشّاهد الشّعري في كتاب (مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة) أمحمّد صّافي المستغانمي. (الغايات الجماليّة والأهداف الإقناعيّة).** د. عبد الرّحمن بن زورة. ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم.	الجزائر.	450-413
19	**علم البيان وأثره في التّحليل الدّلالي عند أمحمّد صافي المستغانمي.** د. علي يحياوي. ج. عمّار ثليجيّ، الأغواط؛ مخبراللسانيات التّقابلية.	الجزائر.	478-451
20	**جماليّات الأسلوب في كتاب (مفاتيح النّجاح) لــ أمحمّد صافي المستغانمي.** أ.عمارة عبد الرّحمن. ج. يحيى فارس، المديّة.	الجزائر.	492-479
21	**تنضيد آليّات اشتغال الفعل الخطابيّ بين التّأثيروالإقناع في كتاب: (الخطيب النّاجح بين عوامل الاقناع ووسائل الامتاع) لـــ أمحمّد الصّافي المستغانمي.** د. قاضي الشّيخ. ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم.	الجزائر.	516-493



المحاضرات العامّة

إصابة المرامي في سيرة المستغانمي
-وقفات ومحطات في مسيرة أحمد صافي العلميّة-

أ.د. مختارية بن قبلية
ج. عبد الحميد بن باديس - مستغانم



1. الملخص: لا يخفى على أحد من ذوي الألبابِ فضْل مجالسة العلماء ومتابعتهم، والتّنقيب عن مآثرهم، والاطّلاع على مؤلّفاتهم وتصانيفهم، لذلك يَحرص طالب العلم الجادّ على أن يحتذي حذوهم، ويتّبع سمْتَهم، ويتأسَّ بسيرتهم ويقتدي بأفعالهم. ولهذا كلّه؛ وجب عليه أن يختار له من المشايخ من يكون قدوة فيأخذ من هذا وذاك ووجب علينا نحن تقديم النّماذج والتّعريف بها، فكيف لشبابنا اليوم أنّ يهتدوا إلى هؤلاء الرّجال من دون مرافقتنا وتوجيهنا، فصار لزاما علينا التّحرّي عن خيرة أبناء هذا الوطن، واستقصاء أخبارهم، وتعقّب مسيرتهم؛ لِنَيْلِ المقاصد وإصابة المرامي ولأجل ذلك، حرصَتْ جامعتنا على تكريم واحد من خيّرة أبناء مستغانم؛ رجل ذاع صيته في الدّيار العربيّة والإسلاميّة، وأبى إلاّ أنّ يَقرنَ اسمهُ باسم الأرض التي شهدت مولدهُ، واحتضنَتْهُ طفلا فشابًّا، إلى أن حان وقت

هجرته. إنّه فضيلة الشّيخ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي الذي سنستفيد من سيرته في هذه الوريّقات التي عنونّاها بإصابة المرامي في سيرة المستغانمي.

الكلمات المفتاحيّة: السّيرة الذّاتية، اللغة العربيّة، مجمع اللغة العربيّة، الدّراسات القرآنيّة، القدوة، أعلام مستغانم.

1. مقدّمة: الاقتداء بالآخرين هو فعل غريزيٌّ خلقه الله ﷻ في داخلنا، فيبدأ تقليدا ثمّ يتدرّج ليكتسب طابعا انتقائيا، ومنْ هنا وجب أنّ يكون هذا الانتقاء عقلانيّا، فإنْ عَلِمْنا أنَّ قُدوتنا الأولى نبيّ الأمّة ﷺ كان يقتدي بالسّابقين من الأنبياء والرّسل بأمر من المولى ﷻ، سنتأكّد من أنّه مِنهاج حياة؛ قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾الأنعام: 90. قال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: (أولئك)، هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله والانتهاء عما فيه من نهيّه، فوفّقهم جلّ ثناؤه لذلك (فبهداهم اقتده)، يقول تعالى ذكره: فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم والتّوفيق الذي وفّقناهم (اقتده)، يا محمّد، أي: فاعمل، وخذ به واسلكه، فإنّه عمل لله فيه رضًا، ومنهاجٌ مَنْ سَلَكَهُ اهْتَدى).[1]

إنّ خير من نقتدي به بعد الرُسل والصّحابة رضوان الله عليهم والسّلف الصّالح رجُلٌ حافظٌ للقرآن عامل بتعاليمه، قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِّ إِكْرَامَ ذِي

الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»[2] حديث حسن. والدّكتور صافي المستغانمي نموذج من خيّرة حملة القرآن في وقتنا هذا، لذلك وجب علينا إكرامه، علّها تكون خطوة لإكرام غيره من بُناةِ هذا الوطن الحبيب.

2. **مولّده وطفولته:** وُلد شيخنا الدّكتور أحمّد صافي في السّابع من أكتوبر سنة 1965م بمدينة مستغانم، في أسرة بسيطة مقيمة ببلديّة عين النّويصي. ويحكي لنا الشّيخ عن هذا التّاريخ فيقول: "عندما أُسأل عن تاريخ ولادتي، ارتبط في ذهني أن أجيب بأنّني وُلدت في سنةٍ أفَلَ فيها نجمٌ عظيمٌ من نجوم الجزائر بل من نجوم العرب والمسلمين قاطبة. أعني عامّ 1965م الذي انتقل فيه إلى الرّفيق الأعلى علاّمة الجزائر وجهبذها وحامل راية البيان العربيّ والإصلاح الدّيني فيها العلامة الإمام محمّد البشير الإبراهيمي".[3] وكأنّنا به يقول: قد غادرتَنا يا شيخنا الإبراهيمي لكنّنا هنا نقتفي آثارك، ونسير على دربك، لنُكمل مسيرتك التي بدأتها من أجل إعلاء شأن لغة القرآن الكريم.

لمدينة مستغانم قدرٌ كبيرٌ من الحبّ في قلب شيخنا؛ حتّى أنّه اختارها رفيقة له في شهرته حينما سُلّطت عليه الأضواء خارج الدّيار الجزائريّة، يقول عنها في مذكراته: "على الرّغم من أنّنا كنّا نسكن في قريّة صغيرة هي قريّة عين النّويصي التي تقرب من مستغانم بـ 16 كلم، إلاّ أنّ الله تعالى شاءت حكمته أن أرى النّور في مدينة مستغانم التي ارتبط حبّها بقلبي منذ صباي وفتوّتي الأولى، وكلّ امرئ لمسقط رأسه

في قلبه نصيب وأي نصيب"،[4] وها هي ذي مستغانم تحتفي به اليـوم وتُقـدّم سـيرته لأبنائها من الجيل الجديد، لتصنع المزيد من المستغانميّين وأكثر من ذلـك الجزائـريّين النّاجحين الطّموحين.

لم يولد المستغانمي وفي فمه ملعقة من ذهب، فسرعان ما فقدت عائلتـه البسـيطة عائلها، حيث فارق والده الحياة في شهر يناير من عامّ 1972م، وكان شـيخنا حينهـا طفلا غضًّا طريًّا لم يتجاوز السّابعة من عمره، فذاق مع إخوته الفقـر والغـبن واليـتم وقلّة ذات اليد في قريّة عين النّويصـــي، لكـنّ الله عوّضـهم بحضـن والـدتهم التـي دفعتهم جميعا إلى النّجاح، فصنعت منهم الرّجـال والنّسـاء، فرحمـة الله عليهـا وعـلى موتى المسلمين أجمعين.

3. **تعليمه وشهاداته:** وهب الله ﷻ شيخَنا قلبًا مُحبًّا للعلم بـالفطرة، ولـه في ذلـك قصة طريفة يحكيها لنا قائلا: "منذ صغريّ كنت منجـذبا إلى حـبّ الدّراسـة بشـكل عامّ. تروي لي والدتي رحمها الله تعالى أنّني حين كنت في سنّ الرّابعـة والخامسـة مـن عمري، قبل الانخـراط في صـفوف تلاميـذ السّـنة الأولى الابتدائيّـة، وكنّـا نسـكن بجانب المدرسة، كنت متأثّرا وحزينا لماذا لم يسـمحوا لي بالـدّخول مـع التّلاميـذ إلى المدرسة؟ وأعترض عند أمّي وحين يحاولون إقناعي بـأنّني لم أبلـغ السّـنّ القانونيّـة التي تسمح لي بالانخراط في صفوف الدّراسة، فإنّني كنـت يومهـا أغضـب وأثـور وألتقط عددا مـن الحجـارة والحصـباء وأرمـي بهـا بوابـة المدرسـة ومـا ظهـر مـن

الصّفوف، واشتكوا إلى والدتي بهذا الشّأن كثيرا".[5] فكيف لا يكون طفلٌ كهذا من المتفوّقين فيما بعد؟!

كان التّلميذ أحمّد صافي من زبدة التّلاميذ في المدرسة، والأوّل طيلة مراحل دراسته من الابتدائيّة إلى الجامعة، حتّى أنّه وُجّهَ إلى شعبة الرّياضيات في المرحلة الثانويّة؛ نظرا لتفوّقه في هذه المّادة وغيرها، إلاّ أنّه اختار تغيّير وجهته إلى شعبة الأدب العربيّ التي نادته لتصنع منه العالم الأريب والأديب النِّحرير واللغويّ الفذّ الذي نعرفه اليوم، إنّه الهوى والشّغف بلغة القرآن الكريم الذي نشأ على ترتيله وحفظه مُذْ كان في مرحلة التّعليم المتوسّط. ثُمّ نادته جامعة وهران لِيَلْتَحِق بمعهد الأدب العربيّ ويتفوّق على زملائه، فتخرّجَ الأوّل على دفعة 1988م بتقدير امتياز. وتوالت بعدها الشّهادات والإجازات، فنال إجازةً في حفظ القرآن الكريم وتلاوته بروايّة ورش عن نافع المدني من دمشق بسوريّة، ثمّ إجازةً في القراءات العشر من الفاتحة إلى الأعراف من دمشق أيضا، ثمّ حصل على شهادة الماجستير في البلاغة العربيّة بتقدير امتياز بعد مناقشة رسالته الموسومة بعنوان: (**تصريف القول في القصص القرآني، دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام**) من جامعة الشّارقة بدوّلة الإمارات، وكان الأوّل على دفعة 2009م، ثمّ نال شهادة الدّكتوراه من ماليزيا في الاختصاص ذاته، بعد مناقشة أطروحته الموسومة بعنوان: (**بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم**)، وهو مؤَلَّفٌ طبعته جائزة دبيّ الدّولية للقرآن الكريم (ط1/ 2020م).

4. **شغفه بالقرآن ولغة البيان:** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».[6] ومن نِعم الله ﷻ على شيخنا المستغانمي أنْ فتَحَ لهُ هذا الباب المُبارك فرزقه حافظة قويّة في صغره واهتماما بالدّراسة والمذاكرة منقطع النّظير،[7] فلم يكتفِ بما تُقدّمه له المدرسة، فراح يحفظ كلام الله ﷻ اقتداء بأخيه الحاج عبد القادر صافي وله في مذكّراته ما يقصّه علينا حول انجذابه للقرآن الكريم، فيقول: "أوّل من كان سببا في انجذابي للقرآن الكريم هو أخي الحاج عبد القادر، حيث رجع يوما من الثّكنة العسكريّة التي كان يقضي فيها الخدمة العسكريّة، وكان في تلك الأيام -بتوفيق من الله تعالى- مواظبا على الصّلوات وقراءة القرآن، فقال لي: لِمَ لا تحفظ معي القرآن؟ وكان يعلم حبّي للدّراسة واجتهاديّ، فبدأنا يومها بسورة البروج فانجذبت إلى إيقاعها الصّوتي وكلماتها وعباراتها أيّما انجذاب، ومنذ ذلك اليوم وأنا في السّنة الثّانية في المدرسة الإعداديّة ذقت حلاوة القرآن، وبدأت رحلتي مع كتاب الله تعالى".[8] وهكذا كانت بداية العالم الفتيّ، فقد أتمّ حفظ كلام الله ﷻ في سنّ الثّامنة عشرة فنال شهادة حفظ القرآن الكريم وشهادة الباكالوريا في السّنة ذاتها.

ما كان للفتى الذي أحبّ القرآن الكريم وحَفظَه إلاّ أنّ يكون عاشقًا للغة البيان ليصبح بعدها فارسا من فرسانها، وقد ظهر هذا الاهتمام عنده في وقت مبكّر، وفي ذلك يقول: "كنت في شعبة الرّياضيات، وطلبت من إدارة الثّانوية تحويلي إلى الشّعبة الأدبيّة. رفض الأساتذة في بداية الأمر لأنّني كنت متفوّقا في الرّياضيات، وحينما رأوا إصراري على الشّعبة الأدبيّة انصاعوا إلى اختياري، وكان ما قدّره الله تعالى لي حيث

انخرطت في المرحلة الجامعيّة في صفوف طلاب اللغة العربيّة في كليّة الآداب بجامعة وهران".[9] وفي هذه القصّة عبّرة كبيرة لبعض طلبتنا الذين يُنقصون من شأن شعبة اللغة العربيّة وآدابها، ففي الأجيال السّابقة عدد لا يُحصى من أساتذة اللغة العربيّة الذين دخلوا الميدان من الشّعب الرّياضيّة والعلميّة، وهذا ما صار نادرا اليوم.

كانت هذه هي البداية الرّسمية لرحلة الكفاح من أجل ما بدأه ابن باديس والإبراهيمي في إعلاء راية اللغة العربيّة في الجزائر أوّلا ثمّ خارج الدّيار، ولم يكن ذلك إلاّ لغيّرةٍ لا يفهمها إلاّ فرسان الضّاد، وهذا شيخنا يتأسّف على حال لغة القرآن كما فعل سلفه، فيقول: "إنّ اللغة العربيّة اليوم غريبةٌ في دارِها، منبوذةٌ بينَ أهلها، منكَّسةٌ أعلامها، كادَ لها أعداؤها قديمًا وحديثًا، وجنى عليها أبناؤها، فحيثُما التفتَّ سمعتَ ناعقًا بإحدى الرَّطانات الأجنبيّة، وحيثُما ولَّيتَ وجهكَ قابلتَ منْ تَعنو جِباهُهم نحو الغربِ مُقتفين آثار أبنائهِ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، وإذا رأيتَ خطيبًا في أحد المحافل أو المجامع، سمِعْتَ ما يسوؤك وينوؤك، وأدرَكتَ أنَّ الخَطْبَ جَلَلٌ وأنَّ المصيبة عظيمةٌ، ويَحِقُّ لِكُلٍّ مِنّا أن يقول:

وإذا أُصيب القَوْمُ في (أقوالِهم) فَأَقِم عليهم مأتمًا وعويلا[10]

أمَا حان لنا أنّ نعود إلى سابقِ عهدنا فنتباهى ونُفاخر بلغةٍ سَمت وارتقت إلى العالميّة لا لشيء إلاّ لأنّها لغة الأمس واليوم والغدّ، فلا الحروب دمّرتها ولا الفقر أضعفها ولا الزّمن أنهكها، بل ظلّت شامخةً تنظر إلى لغات العالم وهي تتشتت وتتحوّل وتهوي تاركة مكانها للّهجات.

5. تأثير المعلّم على المستغانمي: ليس من السّهل أنْ يصل أيّ معلّمٍ إلى درجة التّأثير الكلّي على تلامذته لدرجة المُشاركة في رسم شخصيّاتهم المستقبَليّة، لأنّنا هنا أمام عمليّة بناءٍ ليست عاديّة، وأدواتها ليست متاحة إلاّ للمعلّم النّبيه الذي يعرف أنّ التّعليم رسالة نبيلة شرّفه الله بحملها، ويحضرنا هنا قول الإمام الإبراهيمي رحمه الله:

أي أبنائي المعلّمين:

إنّكم في زمن، كراسيّ المعلّمين فيه أجدى على الأمّم من عروش الملوك، وأعود عليها بالخير والمنفعة. وكراسيّ المعلّمين فيه أمنع جانبًا وأعزّ قبيلًا من عروش الملوك: فكم عصفت العواصف الفكريّة بالعروش، ولكنها لم تعصف يومًا بكرسيّ المعلّم.

إنّكم تجلسون من كراسيّ التّعليم على عروش ممالك، رعاياها أطفال الأمّة فسوسوهم بالرّفق والإحسان، وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التّربية إلى مرحلة أكمل. إنّهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمّة بين أيديكم، سلّمتهم إليكم أطفالًا لتردّوهم إليها رجالًا، وقدّمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الرّوح، وألفاظًا لتعمروها بالمعاني، وأوعيّة لتملؤوها بالفضيلة والمعرفة". [11]

نعود إلى الحديث عن مسيرة فضيلة الشّيخ صافي العلميّة، لنتبيّن أثر أساتذته فيه وحينما سألناه عن هذا الأمر ردّ قائلا: "بالجملة؛ أستطيع القول إنّي تأثّرت بجميع من تتلمذت على أيديهم، وما من معلّم أو معلّمة إلاّ وأفدت من خبرته وطرق تعليمه وتشجيعه، وهكذا النّجباء يفعلون، وكنت أعدّ نفسي من الحريصين على

مقاعد الدّراسة، أحضر قبل حضور المعلّمين، وأنصرف بعد انصرافهم إجلالا لهم".[12] وفي هذا القول ردّ لبعض جميل كلّ من علّم شيخنا ولو حرفا.

ثمّ حدّثنا فضيلة الشّيخ صافي المستغانمي عن أكثر المعلّمين المؤثّرين في شخصيّته، وكم تعجّبنا من دور أستاذ الرّياضيّات الذي كان له فضل التّأثير في الصّغر، وكيف كانت له اليد الطّولى والفضل العظيم في تحبيب ذاك الشّاب الفتيّ في مطالعة أمّهات الكُتُبِ؛ يقول: "حين كنت أدرس في الصّفّ الأوّل الإعدادي، كان يدرّسني مادّة الرّياضيات أستاذ من مدينة غردايّة اسمه (رفيس أحمد). كان هذا المعلّم بارعا ومبدعا في تقديم مادّة الرّياضيات إلى الطّلاب، يتميّز عن غيّره بطرقه الذّهنيّة المختصرة التي يُوَصّل بها المعلومة غضّة طريّة دونما عناء إلى طلابه، وكنت من النّجباء بين يديه، فكان يُقرّبني إليه كثيرا".[13]

لقد أصاب أستاذ الرّياضيات هذا أيّما إصابة حينما قرّر انتقاء الزّاد الذي يناسب هوى تلميذه، يقول شيخنا: "ولمّا رأى ميولي اللغويّة والأدبيّة منذ فتوّتي الأولى، كان يجلب إليّ من المكتبة العامّة من مدينة مستغانم الجزء تلو الجزء من كتاب الأغاني طبعة بولاق القديمة، فكنت أجدُ فيها متعتي وراحتي ولذّتي ونشوتي، وغذاء أشواقي وأنا لم أتجاوز سنّ الثّالثة عشرة من عمري. أستطيع القول: إنّ هذا المعلّم كان ممّن شاء الله تعالى أن تتفتّق أكمام الإبداع وحبّ القراءة في كياني على يديه، ولمّا بلغت سنّ المدركين وَعَيْت ما كان يفعل بي ذلك المعلّم المربّي ذو الرّؤية الثّاقبة".[14]

أمّا عن أساتذة الجامعة؛ فقد تأثّر الدّكتور بأستاذين أكثر من غيرهما، وقد قصّ لنا شيئا ممّا تحفظه ذكرياته؛ ممّا يطيب لنا نقله بحرفه كما وصلنا:

يقول الدّكتور صافي: "واستمرّ الاجتهاد والتّفاني في طلب العلم على تلك الحال إلى أنّ انخرطت في صفوف طلاب جامعة وهران في كليّة اللغة العربيّة وآدابها حيث ارتويت من معين العربيّة نحوا وصرفا وعروضا وبلاغة ولسانيّات وفقه لغة وغيرها من المواد. وأمانة للتّاريخ أقول: إنّ الرّعيل الأوّل من أساتذة الجامعات كانوا في جملتهم على مستوى عالٍ من العلم والخلق وحبّ المعرفة والإحاطة بمادّة التّدريس وحبّ تعليم النّشء، ولقد أفدت أنا وزملائي كثيرا ممّا جادت به قرائحهم كلٌّ في تخصّصه إلاّ أنّ ذاكرتي الكليلة لا تزال تحتفظ باسمين لامعين كان لهما أثرٌ جميل في العهد الجامعيّ هما: الأستاذ الدّكتور منهوج مدرّس العروض، والأستاذ الدّكتور عبد الملك مرتاض الذي كان يدرّسنا الأدب الجزائريّ.

أمّا الأستاذ منهوج فإنّه كان صنّاجة يتغنّى بأوزان الشّعر ويُقسّمها في ذهنه مُحرّكا رأسه ومقطّعا الأبيات إلى تفعيلاتها مُحِدثا بحركات يديّه وأصابعه وصفحات وجهّه ما يغمرنا به متعة وسعادة ونحن نتشرّب من يديه الكريمتين مادّة العروض.

إنّ المعلّم المتميّز الموهوب يترك آثارا لا تمّحي في تلاميذه وطلاّبه، وكنت في تلك الفترة الذّهبيّة من الدّراسة الجامعيّة مفتونا بمادّة العروض، محبّا للشّعر العربيّ، أقلبّ فيه الطّرف صباح مساء لا تكادُ يدي تخلو من ديوان من دواوين جهابذة الشّعر قديما وحديثا، وكنت في الوقت نفسه أقتفي خطى الدّكتور منهوج في تقسيم

الأبيات والتّغنّي بها، ولَعَمْري لقد جنيت الكثير من تلك الطّريقة التي اكتسبتها منه، وها إنّي أنظم الشّعر اليوم على جميع الأوزان، ويعود الفضل لله أوّلا ثمّ للمعلّم البصير الذي استقيت من علمه الكثير.

أمّا القامّة العلميّة الثّانية والقمّة الأدبيّة الشّامخة الذي وفّقني الله تعالى للجلوس بين يديه في مدرّج الإبراهيمي وبعض قاعات الكليّة فهو جهبذ البيان وعاشق الأدب وعميد التّرسل الأديب الأريب ذو القلم السّيّال والأدب المشرق والرّواية الممتعة والكتابات الأدبيّة النّاضرة العاطرة الآسرة الذي يتأنّق في الألفاظ والكلمات والجمل والعبارات فيجعلها تتراقص بين يديه وتتوامق وتتعانق في أسلوب كلُّهُ متعةٌ وحيويّة وأدب رفيع فهو الدّكتور عبد الملك مرتاض حفظه الله ورعاه وأكرمه في دنياه وأخراه على ما قدّم للعربيّة.

خُلقت ألوفا وفيّا لو رحلت بي الذّاكرة إلى مرحلة الشّباب وشحذتها للحديث عن مرتاض وأمثاله لنسيت الموضوع الذي بدأت الكتابة عنه، ولكن أقول بإيجاز: كان لثقافته الواسعة ولسانه الفصيح الجميل وكتاباته البليغة أكبر الأثر في نفسي فكنت أتقمّص شخصه في بعض الكتابات التي أخطّها في شتّى الأجناس التي وفّقني العليم الحكيم للكتابة فيها، واجتهدت إلى أن لان لي بعض حديدها وأطاعني بعض عويصها في فنّ الكتابة وقرض الشّعر". [15]

كان هذا نصّا مطوّلا عن أستاذين أثّرا في شيخنا بشكل مباشر، أمّا عن معلّمه الذي لم يلتق به؛ بل ولم يُزامنه، فهو الإمام محمّد البشير الإبراهيمي الذي لمسنا

تعلّقه به في حديثه عن تاريخ مولده، وعن هذا أخبرنا الشّيخ قائلا: "أمّا قدوتي الأكبر وأسوتي الأعظم في الإبانة والتّبيين والفصاحة والإفصاح الذي مَلَكَتْ كتاباته منّي الكيان وغمرت الفؤاد وسكنت السّويداء فهو علاّمة العربيّة مشرقًا ومغربًا دون منازع الشّيخ الإمام محمّد البشير الإبراهيمي الذي ارتويت من معين ما قدّمت يداه من مقالات وكلمات ارتجلها أو خطّها دفاعا عن العربيّة والأمّة الجزائريّة في بصائره المُبْصِرة.

كانت كتابات الإبراهيمي ولا تزال معينا لا ينضب أعود إليها بين الفينة والأخرى لأدخل يديّ في البحر الذي كان يغترف منه، وألمس الصّخور التي كان ينحت منها بيانه المشرق وبلاغته المعجزة، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وجزاه عن العربيّة والإسلام خير الجزاء".[16]

ومِنْ شِيَمِ شيْخنا أنَّه لا يبخس حقّ أحد من معلّميه من الشّكر والثّناء؛ لذلك ختم رسالته عن تأثيرهم فيه قائلا: "لا يعني أبدا أنّني حين ألمحت في إيجاز شديد إلى هؤلاء الأعلام أنّني لم أتأثّر بغيرهم، بل إنّي أرى، وهذا من عصارة تجاربي التي خضتها في غمرات العربيّة ولججها مشرقًا ومغربًا، أنّ الإنسان يتعلّم كلّ يوم شيئا جديدا، وأنّ المثقفين والمتعلّمين والأدباء والعلماء تجمعهم وشائج شتّى وتربطهم قرابات كثيرة، عنوانها الكبير أنّ العلم رحمٌ بين أهله، والعاقل يفيد وينهل من جميع الموارد والعيون العلميّة التي يردها، ويدعو لأهلها بالخير والبركة"[17] (انتهى نصّ الرّسالة).

6. رحلاته:

للسّفر فوائد لا تُحصى، عدّد منها العلماء الكثير، وَمِمَّا يُنْسَبُ لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ﷺ قَوْلُهُ:[18]

تَغَرَّبْ عَنْ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَا
وَسَافِرْ فَفِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
إزَالَةُ هَمٍّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ
وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةُ مَاجِدِ
فَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِهْنَةٌ
وَقَطْعُ الْفَيَافِي وَارْتِكَابُ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ
بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

لهذه الأسباب وغيرها؛ عزَم الدّكتور المستغانمي على شدّ الرّحال، متزوّدًا بعلمه ومكارم أخلاقه، وكأنّنا به يعمل بنصيحة شيخنا الإبراهيمي حين قال: "أوجه النّداء إلى جميع أبنائنا المهاجرين إلى الشّرق العربيّ، أو إلى أطراف المغرب العربيّ، أو إلى أوربا، ... إنّكم يا أبناءَنا مناطُ آمالنا، ومستوح أمانينا، نعدكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة، ولاستحقاق الإرثّ، وهو ذو تبعات وذو تكاليف، وننتظرُ منكم ما ينتظره المدلج في الظّلام من تباشير الصّبح. وإنكم يا أبناءَنا فارقتم الأهل، وفيهم الآباء والأمّهات، وفارقتم الديارَ التي خلعتم فيها التّمائم، وفارقتم الوطن الذي له على كلّ حرّ كريم دَين! وفاؤه الحب، وكفاؤه النّفع والجميل، وما هوّن فراقكم على

آبائكم وهوّن فراقهم عليكم إلاّ الآمالُ اللائحة لكم ولهم في مستقبلكم، ولما تعودون به من علم يصحبه فخر، وحسنُ ذكر، وطيبُ أحدوثة".[19]

كانت أوّل رحلة لشيخنا المستغانمي نحو البقاع المقدّسة، حيث وفقه الله ﷻ للحجّ مع والدته رحمها الله ﷻ في عامّ 1992م. فكانت فاتحة خيّر عليه، وتكرّرت رحلاته بعد ذلك، إذ انتقل للعيش في أمريكا الشّمالية في سنة 1993م فأقام بمدينة شيكاغو مدّة عامين مدرِّسًا للّغة العربيّة لأبناء الجاليّات العربيّة وغيّرهم، لكنّه لم يجد ضالّته في تلك الأرض، فغادرها إلى سوريّة الشّقيقة، وأقام بها سنتين هي الأخرى وحرص ألاّ يخرج منها إلاّ بالغنائم، فدرس فيها علم القراءات: روايّة ورش عن نافع، والقراءات العشر من الفاتحة إلى سورة الأعراف. وكانت محطّته التّالية إلى دولة الإمارات العربيّة التي احتضنته فاستقرّ بها إلى يومنا هذا، ومنها توالت الرّحلات إلى عدد من الدّول العربيّة والأجنبيّة التي نذكر منها: تونس، والمغرب وموريتانيا ومصر، والمملكة السّعودية وسوريا ولبنان، والكويت، وسلطنة عُمان، والأردن وتركيا وفرنسا وإيطاليا، وألمانيا وبريطانيا، وكرواتيا، وأمريكا وغيرها... وخلال كلّ تلك الفترة لم تخرج الجزائر من رحلة أسفاره، فكان مداوما على زيارة أهله وأقاربه وأحبّائه بين الفينة والأخرى، فلم يمنعه عنهم إلاّ الأزمة العالميّة لتفشي وباء كورونا الذّي نسأل الله ﷻ أنْ يرفعه عنّا.

إنّ المتأمّل في انطلاقة مسيرة فضيلة الشّيخ المستغانمي بالهجرة لَيَجِد تشابها بينها وبين انطلاقة العالم الجزائريّ ابن معطي الزّواوي البجائي الذي لم يحصر نفسه

وعلمه في الأراضي الجزائريّة، بل سافر إلى دمشق أيّام الدّولة الأيوبيّة طلبا للرّزق بعد انتهائه من نظم دُرّتِهِ الألفيّة، وذلك لِما كان شائعا عن إعجاب الولاة بالعلم وأهله هناك، واستقبله السّلطان عيسى بن محمّد الأيوبي، حيث تقلّد مسؤوليّة النّظر في مصالح المساجد، والتّدريس هناك، ثمّ أُعجب به الملك الكامل وأخذه معه إلى مصر ليُصبح مدَرّسا لطلبة العلم من المسلمين. وإنّنا لا نبالغ إنّ رأينا في الدّكتور محمّد صافي (ابن معطي) القرن الواحد والعشرين الذي اختارته دولة الإمارات العربيّة أمينا عامّا لمجمعها اللغويّ بالشّارقة.

إنّ من آلاء الله ﷻ على شيخنا أن جعل إقامته بدولة الإمارات العربيّة المتّحدة سببًا في التقائه واحتكاكه بالعلماء واللغويّين من شتى الدّول العربيّة، وتلك فائدة من أعظم فوائد السّفر؛ وهي فرصة مكّنته من اكتشاف ذاته وتطوّير مكتسباته العلميّة والمعرفيّة، وعن ذلك يقول: "هذه المسؤوليّة الجسيمة التي كلّفني الله تعالى بها، فتح لي بسببها أبوابا عظيمة للقاء مع أعظم علماء اللغة العربيّة المعاصرين الذين ما كنت لأجالسهم أو أستمتع بالحديث معهم لولا فضل الله ورحمته من أمثال: الدّكتور أحمد مطلوب رئيس المجمع العراقي السّابق، وزوجته خديجة الطّائي، والدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح رئيس المجمع الجزائري للّغة العربيّة، والدّكتور صالح بلعيد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة، والعلامة الشّيخ الجليل حسن عبد اللطيف الشّافعي رئيس اتّحاد المجامع اللغويّة العلميّة العربيّة، والدّكتور عبد الحميد مدكور الأمين العامّ لاتّحاد المجامع، والدّكتور أحمد الضّبيب مدير جامعة الملك

سعود سابقا والدّكتور عبد السّلام المسدي، والدّكتور عبد الملك مرتاض والدّكتور الخليل النّحوي والدّكتور بكري الحاج رئيس مجمع السّودان، وجميع رؤساء المجامع اللغويّة الذين وفقني الله تعالى للتّنسيق بينهم في شؤون المجامع".[20]

لا شكّ أنّ الإقامة بعيدا عن الأهل والوطن فيها من الألم والشّجن ما فيها، إلاّ أنّه مدرسة لا تضاهيها أيّ مدرسة، وهذا ما لمسناه في قول شيخنا: "علّمتني الحياة في الغربة وعلمتني الرّحلات الكثير، وأسأل الله تعالى أن يوفقني لتسجيلها لتكون عبرة للأجيال ودروسا لأبنائنا: السّفر يصقل المواهب، ويعلّم الإنسان دروسا لا تعطيها المدارس لتلاميذها ولا الجامعات لطلابها"؛[21] وهذه من أهمّ المرامي التي أصبناها في سيرة المستغانمي.

7. **شعره:** أحبّ أحمّد صافي الشّعر حفظًا ونظمًا، لكنّه ترك معظم قصائده حبيسة دفاتره بعد أنْ أخذ تفسيرُ القرآن كلّ اهتمامه، وفي ذلك يقول: "وفّقني الله تعالى إلى نظم الشّعر، وفزت بجائزة البردة في عامّها الأوّل في أبو ظبي ثمّ طلّقت الشّعر طلاقا غير بائن ويمّمت وجهي نحو تفسير القرآن الكريم الذي لا يضلّ من اتبع هداه".[22] وبالرّغم من انشغالاته وضغط عمله، إلاّ أنّه كان يحاول نظم بعض القصائد في المناسبات التي أثّرت فيه.

نال جائزة البردة سنة 2004م بقصيدة المديح النّبويّ (**يا صاحب الحوض العميم تحيّة**) التي يقول فيها:[23]

وليلٍ بطيءٍ أثقلَتني كلاكِلُهُ
ووَجْدٍ عميقٍ أسهَرَتْني بلابِلُهْ

أحاطَــتْ بيَ الأشــجانُ مِــنْ كــلّ جانــبٍ
وفاضــتْ دُمــوعُ الشّــوقِ واشْــتَدَّ وابِلُــهْ
وهبّــتْ ريــاحُ الحُــبِّ تَكْــوي مشــاعري
وحِبّــي رســولٌ لا تُعَــدُّ فضــائلُهْ
وهــلْ تســبُرُ الأشــعارُ كُنْــهَ محبّتــي
وَحِــبُّ فــؤادي لا نَبِــيَّ يُشــاكِلُهْ
نبِــيٌّ أشــادَ الأنبيــاءُ بفضــله
فــلا مَــنْ يُدانيــه ولا مَــنْ يُســاجِلُهْ
وزُيِّنَــتِ التَّــوراةُ قــدْمًا بِــذِكرِهِ
أناجيــلُ عيســى بشــّرَتْ ورســائلُهْ
تفتّحــتِ الأكــوانُ يــومَ مجيئــهِ
وأشرقَ نــورُ الخــيرِ راقــت أصــائلُهْ
وزُعــزِعَ أصــلُ الشــّركِ واجْتُــثَّ أضــلُهُ
وزُحــزِحَ بيــتُ الشــّركِ هُــدّتْ هياكِلُــهْ

وله في حُبِّ لغة الضّاد قصيدة **لغةُ التّنزيل**؛ يقول فيها:[24]

ورُعْبوبــةٍ غيــداء قــلَّ نظيرُهــا
وفــاحَ بأرجــاءِ الــبلاد عبيرُهــا
فســاتينُها بــيضٌ بهِــيٌّ جمالُهــا
إذا أبصــرَتْها العــينُ زادَ سرورُهــا
لهــا أعــيُنٌ دُعْــجٌ وضيءٌ جبينُهــا
وإيقاعُهــا عــذبٌ وكُــلٌّ أســيرُها

لهـــــا في صــــــدور العـــــارفين مَحَبَّـــــةٌ
وكُــــلُّ أديـــــبٍ حِبُّهـــــا وعشـــــيرُها
لـــئنْ أَجَّ مــــاءُ البحــــر كُـــلَّ أُجُوجـــةٍ
فقـــــد عَــــذُبَتْ أوازُنُهـــــا وبُحورُهـــــا

***

أيـــا لُغـــــةَ التّنزيـــــلِ عُـــــذْرًا مُضـــــاعَفًا
فـــإنَّ هُــــذَيْلَ الشـــعر غـــابَ أميرُهـــــا
وإنَّ بنــــي القــــرآن تـــاهوا عــــن الهُـــدى
وإنَّ ريــــاحَ الغَـــــرْبِ هبَّـــت حَرورُهـــــا
وإنَّ أُســـودَ الغـــابِ غـــابوا عــــن الحِمـــى
ضراغِمُهــــا نامـــــت ونــــامَ زئيرُهـــــا
وأبناؤُنـــــا صِــــــنفان: صِــــنفٌ مُمَيَّـــعٌ
وطائفــــةٌ أُخـــــرى عجيـــبٌ غُرورُهـــــا
فأمّـــــا ذَوُو التَّمييـــــع فـــالغربُ رأسُـــــهم
وأفظِـــــعْ بنــــيرانٍ تُغَــــذّى ســـــعيرُها
وأمّـــــا ذوو التّغريـــــر فالجهــــلُ ذَنـــبُهم
يجوبـــــون جهــــلاءَ شـــــديدا هجيرُهـــــا

***

وممّا نظّمه في شعر المناسبات ما جاد به من أبيات في فوز مدرسة الحكّمة الخاصّة التي قادها إلى الأمام طول عمله بها، فقال بمناسبة فوزها بالمركز الأوّل على مستوى المدارس المتميّزة في التّعليم في دولة الإمارات العربيّة:[25]

فَوزُ أبو ظبيٍّ عظيمٌ ودائم

عـــلى قَـــدْرِ أهــــلِ العِلــــمِ تــــأتي المَغــــانِمُ
ولِلْحِكمـــــةِ الغَــــرَّاءِ تُسْــــدَى المَكــــارِمُ

وبالبِشــــــْرِ والتَّرحــــابِ نُهْــــدي إِلَــــيْكُمُ
قُطـــــوفَ نجــــاحٍ حَقَّقَتْـــــهُ العَــــزائِمُ

وغَنَّــــى بيـــــاني بالنَّجـــــاحِ مُغَــــرِّدًا
وَغَنَّـــتْ بِأَشـــعاري الطُّيـــورُ الحمائِـــمُ

وَسُرَّتْ بِأنبـــــاءِ النَّجــــــاحِ نُفُوسُـــــنا
يُشـــــرِّفُنا فَـــــوزٌ تليـــــدٌ وقــــائم

تَرَقَّـــتْ إلى العليـــاءِ والمَجـــدِ حِكمـــةٌ
يُؤَيِّــــدُها الـــرَّحمنُ والنَّــــصرُ قــــادِمُ

هنيئًـــا أيـــا عَجــــمانُ تيهـــي بِحِكمـــةٍ
فـــلا مَـــنْ يُـــدانيها ولا مَـــنْ يُـــزاحمُ

وَهَبْنــــي تَجــــاوزْتُ الحقيقـــةَ مادِحًـــا
أَيَخْفـــى ضِـــياءُ الصُّـــبْحِ والصُّـــبحُ صـــارِمُ

***

وله من الشّعر قصائد أخرى نذكر منها:

- معارضة قصيدة (وفي السّبعين من عمري): وهي قصيدة أرسل بها إلى المجمع شاعرٌ سبعيني يرغب في العمل فيه فأجابه د. صافي من باب المعارضة والمجاملة بتلك القصيدة، وألقاها بمناسبة دورة التّحرير المعجميّ في الشّارقة جوان 2019م؛
- ألاّ أيّها القاموسُ طال غيابكم: وألقاها بمناسبة دورة التّحرير المعجميّ في الشّارقة جوان 2019م أيضا؛
- تحيّةٌ لآلـ شنقيط.

وله قصائد أخرى لم نذكرها، بالإضافة إلى عدد من الأوبرات الشّعرية التي نوردُ منها: ملحمة السّلام، ووأمحمّداه، وهويّتي وفاء وانتماء، وباني الإمارات زايد الخير واليُتم نجاح.

8. **وظائف ومسؤوليّات تقلّدها:** زاول الدّكتور صافي في بداية مشواره مهنة التّدريس الثّانوي من 1988م إلى 1992م في ثانويّة الإخوّة والي ببلديّة عين النّويصي، واشتغل في الفترة نفسها مدرِّسًا مساعدًا في جامعة التّكوين المتواصل بمستغانم لِمادتي البلاغة العربيّة والعروض 1991-1992. ثمّ غادر أرض الوطن ليبدأ رحلة حافلةً بالنّجاحات على صعيديّ الوظيفة والتّحصيل العلميّ.

حينما استقرّ فضيلة الشّيخ في الإمارات، بدأ مشواره بالتّعليم، ثمّ تدرّج شيئا فشيئا نحو العمل الإداريّ، ومن أهمّ مراحل حياته العمليّة اشتغاله بالتّدريس ثمّ

العمل الإداريّ التّربوي في مدرسة الحكّمة الخاصّة في عجمان حيث تدرّج فيها من مُعلِّمٍ إلى منسّقٍ إلى موجّهٍ إلى مديرٍ.

بقي شيخنا في مجال التّعليم، لكنّ ذلك لم يهزم روح الباحث فيه، فواصَلَ مشواره في البحث العلميّ في ميدان يليق بحامل القرآن الكريم، ولمع نجمه وعرفه الجمهور حينما أطلّ عليه من برامجه التّلفزيونيّة النّاجحة، وَعُرِف اسمه داخل الجزائر والإمارات وخارجها؛ ولمّا نجح برنامجه (في رِحاب سورة) على قناة الشّارقة الفضائيّة توالت بركات القرآن الكريم، فاختاره حاكم الشّارقة أمينًا عامًّا لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة. وفي الأسطر الآتية مختصر الوظائف والمسؤوليّات التي تقلّدها ابتداءً من الآن ورجوعا إلى الوراء:[26]

1. الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة حاليًّا.

2. رئيس تحرير مجلة العربيّة لساني حاليًّا، مجلة أدبيّة لغويّة تصدر عن مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة.

3. نائب مدير المدرسة الأمريكيّة للإبداع العلميّ للعامّ الدّراسي الحالي 2015م- 2016م.

4. نائب مدير مدرسة المعارف الخاصّة: 2013م – 2014م.

5. محاضر متعاوّن بجامعة الشّارقة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، قسم اللغة العربيّة.

6. موجّه تربويّ لمادتيّ اللغة العربيّة والتّربية الإسلاميّة في مدرسة المعارف الخاصّة دبي. 2012م–2013م.

7. مدير إدارة التّنمية البشريّة والشّؤون التّعليميّة بمؤسّسة الحكّمة التّعليميّة منذ مايو 2007م إلى 2011م.

8. مساعد المديرة لقسم البنين في مدرسة الحكّمة الخاصّة من 2003م إلى 2007م.

9. منسّق مادتيّ اللغة العربيّة والتّربية الإسلاميّة بين فروع مدارس الحكّمة الخاصّة من 1997م إلى 2011م.

10. منسّق الأنشطة الفنيّة والشّعريّة والثّقافيّة بين جميع أقسام مدرسة الحكّمة منذ الانتساب إليّها.

11. مدرّس لمادة اللغة العربيّة المرحلة الثّانوية في مدرسة الحكّمة الخاصّة من 1997م إلى 2003م.

12. مدرّس مساعد في جامعة التّكوين المتواصل بمستغانم: مدرِّس مادتيّ البلاغة العربيّة والعروض 1991م–1992م.

13. مدرّس مادة اللغة العربيّة في المرحلة الثّانويّة بالجزائر من 1988م إلى 1992م بثانويّة الإخوّة والي، عين النّويصي، مستغانم.

14. **عضويّته في المشاريع واللّجان العلميّة والتّربويّة:**[27] يُعدّ الدّكتور صافي عضوا فاعلا في مجموعة من اللّجان والمشاريع العلميّة والتّربويّة فلا نجده مشاركًا

في فريقٍ إلاّ وكانت له بصّمته الواضحة على إنتاجه العلميّ أو التّربـويّ، وإنّنـا نلمـس فيه مهارة القيادة في أعمال جماعيّة عديدة، ولعلّ أهمّها على الإطـلاق مشـــروع المعجـم التّاريخي لكوّنه مشروع أمّة، وقد شاركت فيـه الجزائـر إلى جانـب الإمـارات العربيّـة المتّحدة ومصر وموريتانيا وغيرها من البلدان العربيّة وصدر نتيجةً لهذا العمـل الجبّـار ثمانيّة مجلّدات في انتظار صدور مجلّدات أخرى في الفـترة القليلـة القادمـة بحـول الله. يقول المستغانمي: "وكلّفني سموّ حاكم الشّـارقة الشّـيخ الـدّكتور سـلطان القاسـمي حفظه الله تعالى لأكون مديرًا تنفيذيًا لمشروع المعجم التّاريخي للّغة العربيّـة الـذي ظـلّ العرب يسوّفون من أجل إنجازه أكثـر مـن 80 سـنة، وهـا أنـتم أولاء –والحمـد لله والفضل له والمنّة له –تروّن باكورة إنجازه وسيسعد بـه العالمـان العـربيّ والإسـلاميّ بعد حين قريب". [28] ويمكننا حصر أهمّ عضويّات فضيلة الشّيخ صافي فيما هو آتٍ:

1. عضو اتّحاد المجامع اللغويّة العلميّة العربيّة.
2. عضو مجمع اللغة العربيّة في القاهرة.
3. عضو المجلس الاستشاريّ للّغة العربيّة لدى وزارة الثّقافة وتنميّة المعرفة.
4. المدير التّنفيذيّ لمشروع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة.
5. عضو مجلس الأمناء بالجامعة القاسميّة.
6. المنسّق العامّ لجائزة الألكسو الشّارقة للدّراسات اللغويّة والمعجميّة.
7. عضو في المجلس الاستشاريّ في كليّة الآداب جامعة الشّارقة.

8. عضو في المجلس الاستشاريّ في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة جامعة عجمان للعلوم والتّكنولوجيا.

9. عضو لجنة تحكيم مجلة العلوم الإنسانيّة جامعة محمّد الخامس أبو ظبي.

10. رئيس لجان التّصحيح في الامتحانات الفصليّة والسّنويّة من 2003م إلى 2012م.

11. **مؤلّفاته:** بعد أنْ استقرّ الدّكتور أمحمّد في الإمارات بانت بوادر التّأليف لديه فألّف وصنّف عددا من المؤلّفات في مجالات اللغة العربيّة والدّراسات القرآنيّة وتطوّير الذّات ولعلّ متصفّح هذه الكتب ينتبه إلى كثافة مادتها ودقّة منهجها وكثرة فوائدها، ومنها ما وصل عدد صفحاتها إلى 600 صفحة. ومن تلك المؤلّفات ما هو مطبوع ومنها ما هو تحت الطّبع، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المقالات والبحوث المنشورة في المجلات والجرائد، وسنذكر من كلّ ذلك ما هو آت:[29]

المؤلَّفات المطبوعة:

- **كيفَ تُصبِحُ فصيحَ اللِّسان؟** دار الصّحابة للنّشر والتّوزيع، القاهرة 2007م؛
- **الخطيبُ النَّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**، دار الصّحابة للنّشر والتّوزيع، القاهرة 2009م؛
- **تصريف القول في القصص القرآني**: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام (رسالة الماجستير بالشّارقة تحت الطّبع لدى دار عالم الكتب الحديث عَمَّان)

- **مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة**: رؤية تأصيليّة: دار ابن حزم، بيروت 2013م؛
- **مشارق الأنوار من صحيح الأذكار**: مجموعة من الأذكار المختارة مع تعليقات موجزة؛
- **بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم**: جائزة دبيّ للقرآن الكريم 2017م؛
- **جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور**: منشورات القاسميّ الشّارقة/ دار ابن كثير – بيروت 2017م؛
- **ديباج القرآن وعرائس الفرقان**: وقفات تدبّرية في سور ﴿آل حم﴾؛
- **هندسة السّورة القرآنيّة**.

مؤلّفات تحت الطّبع:

- **دُررُ البيان في توجيه متشابه القرآن**: جزءان؛
- **الموسوعة القرآنيّة الجامعة**: أكبر موسوعة في تفسير القرآن: لغويًّا وبلاغيًّا وعلميًّا، مع طرائق حديثة في عرض آيات القرآن ودراسة شخصيّات السّور القرآنيّة؛
- **من روائع البيان القرآني**: جزءان؛

- **الأساور المرصّعة في فواتح السّور والأحرف المقطعة**: دراسة للهندسة اللفظيّة للقرآن الكريم وفق الأحرف المقطعة في بدايات السّورة (نظرة إعجازيّة حديثة).

بحوث محكّمة منشورة:

- ملامح التّعبير في سورة الرّحمن: بحث محكّم: 2015م؛
- ملمح الاتساق في سورة الأنبياء: رؤية تأصيليّة: بحث محكّم: 2015م؛
- المصّطلح البلاغيّ عند الزَّمخشري في الكشاف؛
- الفاكهة في القُرآن الكريم بحث تمهيديّ لنيل الماجستير في الدّراسات الإسلاميّة تحت إشراف الدّكتور إبراهيم أدهم، 2006م؛
- التَّوجيه اللغويّ لروايّة ورش عن نافع: دراسة تحليليَّة لسورة المؤمنون؛
- التَّعبير بين صعوبة المادَّة وضَعف الطّرائق، تحت إشراف الدّكتور إبراهيم السّعافين 2006م–2007م؛
- جهود العلماء في بيان الإعجاز القرآني من عصر الجاحظ إلى عصر الجرجاني بحث تحت إشراف الدّكتور عبد العزيز طشطوش 2006م–2007م؛
- تأمّلات بيانيّة في سورة الإنسان، تحت إشراف الدّكتور رشاد سالم 2006م–2009م؛
- الدُّروس الخصوصيَّة بين الأمانة العلميَّة والتِّجارة المُمَوَّهة: بحث تربويّ تمَّ تقديمه إلى جائزة حمدان للأداء التّربوي المتميّز 2005م–2006م؛

- الظّواهر النّحويّة في روايّة ورش عن نافع (من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف)، تحت إشراف الدّكتور فوزي الشّايب 2006م-2007م.

المقالات المنشورة في الجرائد والمجلاّت:

- العربيّة الفصحى معين لا ينضب: مقال نشرته جريدة الخليج العدد 8296؛
- لا مفتاح للنّجاح إلاّ القراءة: تم نشره في جريدة الاتّحاد؛
- فريضة الحجّ دروس وعبر، مقال نشرته جريدة الخليج، العدد 8314؛
- الحياة قفل رقميّ: مفتاحه تطوّير الذّات: بحث حول كتاب السّر-لروندا بايرن في البرمجة العصبيّة، تم ّنشره في جريدة الاتّحاد، صفحة دنيا، 2009؛
- ادرس بذكاء لا بجهد، مقال تربويّ عن الامتحانات نشرته جريدة الخليج العدد 10957؛
- أسّس النّجاح بين القرآن الكريم والبرمجة العصبيّة: بحث في جريدة الاتّحاد 2009م.

12. **برامجه التّلفزيونيّة:** عُرف الدّكتور صافي منذ شبابه بموهبته في الخطابة فكان وما يزال يمارس هذا الفنّ في الجلسات الاجتماعيّة والنّدوات الثّقافيّة والتّظاهرات العلميّة، وتَكَلَّلَ كل ذلك بدخوله ميدان السّمعي البصريّ، فبدأ ضيفًا في بعض الحصّص التّلفزيونيّة على الفضائيات العربيّة، ثمّ أخذ الموضع الذي يُناسبه فأطلّ على جمهوره من برامج خاصّة به.

جاء اهتمام الرَّجُل بالتّنظير لمجال الخطابة بعدما رأى حالها السّقيمة عند بعض مَنْ يدّعون الإمساك بمفاتيحها بهتانًا، وتبيّنًا تحسّره من قوله: "وإنّما الذي حرّك أشجاني ودفعني إلى كتابة هذه السّطور حول الخطيب النّاجح أنّي رأيتُ السّواد الأعظم من خطباء المساجد والمحافل اليوم خِلوًا من زاد فنّ الخطابة، يعتلون المنابر وبِضاعتهم من العلم الشّرعي مُزجاة، وحظُّهم من اللِّسان العربي قليلٌ، بل لا أَكونُ مُبالغًا إذا قلت إنّ أعدى أعدائهم النّحو العربيّ، حيثُ يلجؤون إلى العاميّات والرَّطانات ظنًّا منهم أنّهم يُلطِّفون بها أجواءَ خُطبهم، مُستَهينين بالعربيّة الفصحى وأبنائها".[30] وخصّص لهذا الفنّ العريق كتابًا عنونه بـ(الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)، ودعم تنظيره بالتّطبيق الذي وصلنا في خطبه ومحاضراته التي أطَلّت علينا من الفضائيّات العربيّة.

يرى الدّكتور صافي أنّ البرامج التّلفزيونيّة المتنوّعة تصقل مهارات الإنسان وتدعو إلى الإعداد والتّحضير، وكلّ من يكون ملزما بالتّحضير فإنّه ينال كثيرا من النّتائج ويجني الفوائد، وعند الصّبح يحمد القوم السُّرى. وله في هذا الميدان الكثير من الحصّص واللقاءات التي نذكر منها:[31]

- إلقاء حلقات في تلفزيون الشّارقة 10 حلقات: لغة الجسم في القرآن الكريم؛
- برنامج: **الأمثال في القرآن**: 30 حلقة في قناة المجد العلميّة (دبي)؛
- برنامج: **البيان القرآني**: مائة وعشر حلقات: قناة المجد العلميّة؛
- 4 استضافات في برنامج **مع القرآن** للمذيع الشّيخ شيرزاد؛

- برنامج: **في رِحاب سورة**: برنامج قرآنيّ أسبوعيّ في قناة الشّـارقة الفضـائيّة: مستمر إلى حدّ الآن، 340 حلقة.

13. **الدّورات والمؤّتمرات الخارجيّـة:** شـارك الشّـيخ المسـتغانمي في عـدّة دورات ومؤّتمرات، ذكر لنا منها في سيرته:[32]

1) دورة الذّكاءات المتعدّدة (مركز جمعة الماجد) 2009م.
2) دورة منهجيّة التّغيير (مركز المسارات للتّنمية والتّدريب) 2003م.
3) مؤّتمر دبي الدّولي للقُصَّر 2006م.
4) مؤّتمر التّعليم المتميّز تحت رعاية كليّة الجودة الشّاملة 2003م.
5) ملتقى تعريفيّ ببرنامج (CAMI) في غرفة تجارة وصناعة الشّارقة 2009م.
6) مؤّتمر إصلاح التّعليم: تحت رعايّة وزارة التّربية والتّعليم.
7) الملتقى الفقهيّ حول القاضي عبد الوهاب البغدادي تحت رعاية دار البحوث في دبيّ.
8) دورة الباكلوريا العربيّة، بيروت، 2012م (IAB).
9) اجتماعات اتّحاد المجامع اللغويّة والمجلس العلميّ.

خاتمة: في ختام هذه الأوراق المختصرة المعتصرة عن سيرة ومسيرة فضيلة الشّيخ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، نحسب أنّنا قد أصبنا بعض المرامي وتركنا للمتلقي إصابة غيرها؛ أمّا ما أصبناه فنوجزه في هذه النّقاط:

1) **المرمى الأوّل**: لعلّ أوّل مرمى أصبناه هو التّعريف بقامة علميّة جزائريّة وصل صيتها إلى مختلف الأقطار العربيّة والإسلاميّة ووجب أن يَعرفها أبناء الجزائر من الجيل الجديد علّهم يجدون فيه القدوة.

2) **المرمى الثّاني**: إنّ حفظ القرآن الكريم وتلاوته وتدبّر معانيه مفتاحٌ من مفاتيح النّجاح.

3) **المرمى الثّالث**: لم يكن الفقر يومًا معيقًا لأصحاب الهِمَم، ولم يكن اليُتم سببًا في توقّف الحياة.

4) **المرمى الرّابع**: للسّفر فوائد جمّة لابدّ من إصابة عدد منها إنّ لم نقل كلّها.

5) **المرمى الخامس**: لا بدّ لكلّ طالب من البحث عن أكثر من قدوة من رجال السّلف والخلف، والاستفادة من سيَرهم العطرة.

6) **المرمى السّادس**: لا بدّ لطالب العلم من مجالسة العلماء والاستفادة من تجاربهم وعلومهم، ولعلّ البديل في حال التعذّر هو متابعة خطبهم ومحاضراتهم المسجّلة بالصّوت أو بالصّوت والصّورة.

7) **المرمى السّابع**: الوصول إلى القمّة لا يكون بخطوة واحدة أبدًا، ومشوار النّجاح لا يتمّ إلاّ بالكفاح.

14. قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم بروايّة حفص عن عاصم.

1- آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي (-1385هـ)، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلاميّ، ط 1، 1997م.

2- أمحمّد صافي المستغانمي، المجموعة الشّعرية، غير مطبوعة.

3- أمحمّد صافي المستغانمي، طموح: ذكريّات أيّام وسجلُّ أعوام، غير مطبوع.

4- أمحمّد صافي المستغانمي، وقفات في مسيرة الحياة (السّيرة الذّاتية)، غير مطبوع.

5- أمحمّد صافي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ط 1 2017م دار ابن كثير، بيروت، لبنان.

6- رسالة من أمحمّد صافي المستغانمي إلينا عن: تأثير المعلّم فيه.

7- سنن أبي داود، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا - بيروت، لبنان، د ط.

8- شمس الدّين السّفاريني (-1188هـ)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب مؤسّسة قرطبة، مصر، ط 2، 1414 هـ/ 1993م.

9- صحيح البخاري، دار طوّق النّجاة، ط 2، 1422هـ.

10- محمّد بن جرير الطّبري (-310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمّد شاكر، مؤسّسة الرّسالة، ط 1، 1420هـ - 2000م.

الهوامش والإحالات:

[1]– محمّد بن جرير الطّبري (–310هـ)، جامع البيان في تأوّيل القرآن، تح: أحمد محمّد شاكر مؤسّسة الرّسالة، ط 1، 1420هـ – 2000م، ج 11، ص 518، 519.

[2]– سنن أبي داود، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت، لبنان، د ط ج 4، ص 261.

[3]- أمحمّد صافي المستغانمي، طموح: ذكريات أيّام وسجلُّ أعوام، غير مطبوع.

[4]– نفسه.

[5]– نفسه.

[6]– صحيح البخاري، دار طوّق النّجاة، ط 2، 1422هـ، ج 6، ص 192.

[7]– يراجع، أمحمّد صافي المستغانمي، طموح: ذكريات أيّام وسجلُّ أعوام.

[8]– نفسه.

[9]–نفسه.

[10]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ط 1، 2017م دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ص 8.

[11]– آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي (–1385هـ)، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلاميّ، ط 1، 1997م، ج 2، ص 112.

[12]– رسالة من أمحمّد صافي المستغانمي إلينا عن: تأثير المعلّم فيه.

[13]– نفسه.

[14]– نفسه.

[15]– نفسه.

[16]– نفسه.

[17]– نفسه.

[18]– شمس الدّين السّفاريني (–1188هـ)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، مؤسّسة قرطبة مصر، ط 2، 1414 هـ/ 1993م، ج 2، ص 447.

[19] – آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي (–1385هـ)، ج 3، ص 201.

[20] –أمحمّد صافي المستغانمي، طموح: ذكريات أيّام وسجلُّ أعوام.

[21] – نفسه.

[22] - نفسه.

[23]– أمحمّد صافي المستغانمي، المجموعة الشّعرية، غير مطبوعة.

[24]– نفسه.

[25]– نفسه.

[26] – يراجع، أمحمّد صافي المستغانمي، وقفات في مسيرة الحياة (السّيرة الذّاتيّة)، غير مطبوع.

[27] – نفسه.

[28]– أمحمّد صافي المستغانمي، طموح: ذكريّات أيّام وسجلُّ أعوام.

[29]– أمحمّد صافي المستغانمي، وقفات في مسيرة الحياة (السّيرة الذّاتيّة).

[30]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص 9.

[31]– أمحمّد صافي المستغانمي، وقفات في مسيرة الحياة (السّيرة الذّاتيّة).

[32]– نفسه.

حُسن الفَهم في كتاب بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم للدّكتور أحمّد صافي مستغانمي

دراسة في الرّؤى والاستيعاب والمفهوم.

أ.د. أحمد علي إبراهيم الفلاحي
ج. الفلوجة،العراق

لم تكن معجزة القرآن الكريم في الفصاحة فقط والتي تحدى بها العرب آنذاك ببضاعتهم التي افتخروا وتميّزوا بها، بل أنّ القرآن مفتاح المعرفة والعلوم ومنهجًا قيمًا للسّلوك الإنساني الذي ترتقي به النّفس وتستقيم الحياة.

وللقرآن فضل وأثر كبير في الثّقافة الإنسانيّة عمومًا والعربيّة على وجه الخصوص وذلك لأثره في نشوء العديد من العلوم المعرفيّة نحو البلاغة والأدب والنّقد فضلًا عن العلوم الشّرعية والعلوم التّطبيقية في عصرنا الحاضر.

لذلك انتقلت بفضله أمّة العرب من الانطباعيّة إلى الحضارة والمعرفة ومن الشّفوية إلى الكتابيّة وإلى التّمدن والرّقي الفكريّ والعمرانيّ، وهذا كله لأنّ القرآن الكريم يعدُ مصدرًا للمعرفة الغيبيّة الإلهيّة المطلقة فضلًا عن كوّنه معجزة جاء بها الرّسول الكريم ﷺ.

ويُعدُّ الاتّصال ووسائله اليوم عصب الحياة والسّمة المميّزة لعصرنا الحاليّ التي تعدّدت طرائقها بين المقروء والمسموع والمرئيّ، لكن اللغة قد لا تكفي وحدها لإيصال المعرفة كاملة ولا بدّ من التّواصل البصري حتى يُدرك المتلقي العواطف والانفعالات التي تجسّدت فيها بعض آليّات إيصال المعرفة.

وتأتي اليوم حركات الجسم التّواصلية (لغة الجسم) لتكون ذات أهميّة بالغة في هذا التّواصل المعرفيّ والإنسانيّ لذلك نجد أنّ علماء الاتصال فضلًا عن علماء النّفس وعلماء الاجتماع وعلماء التّربية يشيرون إلى أهميّة هذا الأمر في حياتنا اليوميّة وأشارت العديد من الدّراسات التي تهتم بالمنهج القرآني إلى بعض ملامح هذه اللغة في القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة مستندين على معاني بعض الآيات القرآنيّة الشّريفة ودلالاتها نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾[1].

فاستخدم الرّمز كما مال إلى الإشارة في قوله تعالى﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾.[2] لتغتني مكتبتنا العربيّة بالعديد من الدّراسات التي حاولت النّظر في دلالات هذه اللغة ومدى أثرها في عواطف المتلقين وعقولهم في مقارنات بين الاتّصال غير اللفظيّ (الصّامت) والاتّصال النّاطق ومدى التّكامل المعرفيّ بينهما حين يأتي منفصلًا أو مصاحبًا للكلام، وهو يمثّل الرّسائل التّواصلية الموجودة في الكوّن الذي نعيشه ونتلقاها عبر حواسنا

الخمس، ويتمّ تداولها عبر قنوات متعدّدة وتشمل كلّ الرّسائل التّواصليّة والتي يتداخل بعضها مع بعض ببناء اللغة اللفظيّة أو النّاطقة، وقد تجلّت هذه اللغة أو التّواصل الصّامت في تغيّرات الوجه وحركات الجسم وإيماء العين والشّم واللمس والذّوق والمسافة والمظهر وما إلى ذلك.[3]

لذلك فالقرآن الكريم غنيّ بالعديد من هذه المفاهيم في الاتّصال الصّامت ودلالاته عن طريق الأمثلة النّصية التي حفلت بدلالات متعدّدة ومؤّثرة، وقد نخرج منها فضلًا عن ذلك بنواة لمعجم لمفردات التّواصل الصّامت، إذ يشير بعض الباحثين إلى أن 72٪ من الآيات في القرآن الكريم تضمّنت بعض معاني الاتّصال غير اللفظيّ،[4] وأيًّا كانت نسبة صحة هذه النّسبة فإنّها تشير إلى أهميّة هذا الموضوع ودراسته في القرآن الكريم.

وقد أشار اليوم العديد من العلماء في العلوم المختلفة إلى أهميّة هذه اللغة في حياتنا اليوميّة، وأنّها باتت أساسيّة وجوهريّة في نقل المعلومات والتّأثير في المتلقين ويرون أنّها ربما تفوق في أهميّتها وسائل الاتّصال اللفظيّ المتمثّلة في الصّوت والنّطق، ولا أرى أنّ دور الاتّصال غير اللفظيّ يتحدّد في نقل المشاعر والأحاسيس والعواطف كما يذهب إلى ذلك باحث حديث، ويرى كذلك أن الأفكار وتبادل المعارف انحصرت كليًا في الاتّصال اللفظي،[5] إذ تشير أغلب الدّراسات إلى أن نقل المعلومة يعتمدّ أوّلا على حركات الجسد قبل النّطق وبنسب متقدّمة جدًا، ويذهب علماء النّفس إلى أنّ الاتّصال يكون بنسبة 7٪ فقط بالكلمات و 38٪ بنبرة الصّوت و 55٪

بلغة الجسد ويميل الفرد إلى تصديق لغة الجسد لو خالفت الكلمات[6] وهـذا يعنـي أنّ التّواصل البشـريّ هـو مـزيج مـن الكلـمات ونـبرات الصّـوت وحركـات الجسـد وإيماءاته وقد يكون لكلّ منها معنى بمفرده.

ولغة الجسم هي رسائل شعوريّة ولا شعوريّة يطلقها الإنسان مـن جسـده لنقـل رسائل أو مفاهيم معنية للآخر المتلقي.

وربما اليوم صارت لغة الجسد أو الجسـم- كـما يميـل إلى ذلـك الـدّكتور أمحمّـد المستغانمي- توظّف في التّمثل الصّامت والعروض المســرحيّة وكـذلك في الفنّـون التّشكيليّة وعروض الأزياء لتصل إلى السّياسة كذلك.

وفي القرآن الكريم نلمس آيات كريمات عـلى أوصـاف مـن الحركـات الجسـديّة المؤديّة إلى معان، إذ تشمل الحركة سبيلا من سبل وصف المعنـى وتشـكيله وتكـون كناية عن معنى كتقليب الكفين كناية عن النّدم أو تقـديم رجـل وتـأخير أخـرى في مقام الحيرّة والتّردد.

والباحث يلمس جملـة مـن المقوّمـات التـي توسـلها الأداء التّعبـيري في القـرآن الكريم لتشكيل الصّورة التي تنقل لنا المعنى، فهذه المقوّمات قد تتجاوز الاسـتخدام المعياريّ العادي للغة إلى آفاق ومستويات تعبيريّة تحقّق بلاغة المعنى أداء وايحاءً.

لكن دراسة الدّكتور أمحمّد مستغانمي الموسومة بـ: (**بلاغة النّظم في لغـة الجسـم في القرآن الكريم**) قد تخرج من هذا الإطار المحدّد في لغة الجسد لتمتـد إلى مسـافات

أكثر طولا وامتدادًا لتشمل كلّ التّعابير والتّراكيب اللغويّة لأعضاء جسم الإنسان في دراسة تحليليّة في محاولة جادّة من الباحث سعى إلى فهم الدّلالات البلاغيّة فيها.

إذ يشير الباحث إلى بيان التّعابير اللغويّة في القرآن الكريم وتحليل المعاني المرتبطة بأعضاء الجسم، وكيف كانت الرّؤية في أسلوب القرآن الكريم وآليّة توظيفها مع الرّؤية البلاغيّة لألفاظ الاتّصال غير اللفظي (الصّامت) ولم ينس الإشارة إلى النّظم وإبراز الجانب الجماليّ فيها وآلية التّوظيف المقصود لهذه الألفاظ.

وهو يعبّر عن معلومات وجدانيّة من خلال تعابير لغة الجسم والتي تتّصل بمعلومات عن المضمون قد تنقل لنا الحبّ والبغض والاهتمام والثّقة والرّغبة والدّهشة، وما إلى ذلك وقد يمدنا بأدوات لتفسير الكلمات التي نسمعها منها نبرة الصّوت.

إذ نلمس فيها سعي الباحث إلى توظّيف بعض آليّات نظريّة النّظم لعبد القاهر الجرجانيّ حين عمد إلى بيان معاني النّحو فيها فضلًا عن دلالات ترتيب الألفاظ والتّراكيب في ذهن القائل والواقع اللفظيّ الماديّ.

إذ أشار الباحث إلى التّعابير اللغويّة القرآنيّة التي تتعلّق بالرّأس والنّاصية وكذلك العنق وكيف تصرّف البيان القرآني في العرض والتّوظيف مع بيان رؤيّته بلاغيًا، ثمّ ينتقل إلى ذكر الألفاظ والتّعابير المتعلّقة بالوجه وتقسيماته، ويشير أيضًا إلى الألفاظ والصّيغ المعلّقة بالأطراف والقلب والصّدر والأعضاء الأخرى والتي

خضعت كلّها للتّحليل الدّلالي والبلاغي على وفق رؤية استمد الكاتب خيوطها من نظريّة النّظم.

وتنماز هذه الدّراسة بالجدّة ضمّن معايير بلاغم النّظم والتي تجلى فيها الجمال الفنيّ والبيانيّ والبديع في هذه الآيات.

إذ سعى الباحث إلى الجمع والتّفسير والتّوضيح والشّرح والتّحليل والوصف مستندًا بالشّروح والدّراسات البلاغيّة والقرآنية السّابقة، فضلًا عن التّفاسير التي اهتمّت بالجانب البلاغي في القرآن الكريم نحو الكشّاف للزّمخشري، والبحر المحيط للغرناطي، وتفسير الآلوسي، وإرشاد الفعل السّليم للعمادي، وتحرير التّنوير لابن عاشور، وروح المعاني.

وممّا يحسب للباحث في هذه الدّراسة أنّه أشار إلى الجمال التّصويريّ في هذه الآيات حين مال إلى تواشج الآيات مع سيّاقها ومقامها لعرض بيان دلالة لغة الجسد ومفاهيمها ودلالاتها في السّياق القرآني مع تحليل بلاغيّ دقيق لتلك المفردات والتّعابير لعرض جماليّات الصّورة البلاغيّة في طيّاتها.

وجاءت هذه الدّراسة مقسّمة على أبواب بحسب استعمال الألفاظ وتوظيفها وبُني المبحث الأوّل على ثلاثة فصول خُصص الأوّل فيها في مناقشة التّراكيب اللغوية المتعلّقة بالرّأس والنّاصيّة، واكتفى الفصل الثّاني بالتّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالعنق والرّقبة والجيد، أمّا الفصل الثّالث فقد تعرض للتّراكيب اللغويّة المتعلّقة بأعضاء أخرى في الجسم.

والمستغانمي هنا خطّ لنفسه طريقًا ربما ميّزه من بعض الدّراسات الأخرى لاسيما حين أسهب في بيان جوانب دلاليّة متعدّدة، فعمد إلى تفسير الآيات، ثمّ ينتقل إلى بعض الجوانب الإبداعيّة باحثًا عن الوجوه الجماليّة فيها، فضلًا عن حسن التّنظيم ولم ينسَ تجسيد الصّورة الفنيّة في تلك الآيات البينات، نحو رؤيّته في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [7] والتي ورد ذكرها هنا في الفصل الأوّل المتعلّق بالرّأس والنّاصية.

فنجده يقف فيها على حركة (إقناع الرّأس) مشيرًا إلى ترابط الحركات التّعبيريّة الجسميّة في المشهد الواحد فسعى إلى القول في بيان الصّورة الكبرى للتّوظّيف القرآني لتعابير الأعضاء في وصف مشاهد يوم القيامة في محاولة منه لتقريبها إلى الأذهان.

اعتمد أوّلا في دراسته على بعض التّفاسير، فذكر جملة الأوصاف والتّعابير في وصف الظّالمين في ذلك اليوم المهول ولاسيما حين تكون أبصارهم شاخصة مرتفعة وأعينهم متفتّحة ساكنة لا تطرف، وكذلك البيان في مهطعين بمعنى منطلقين سراعًا إلى الدّاعي، وكيف هم (مُقنعي رؤوسهم) أي ناصبين رؤوسهم يمدونها إلى أعلى ولا يرتد إليهم طرفهم، أي تظلّ أعينهم مُفتحة ممدودة مشدودة جاحظة، أمّا أفئدتهم هواء فيعني أنّ قلوبهم فارغة غير مستقرّة في مكانها فهي تمور في أجوافهم إلى حلوقهم.[8]

ثمّ ينتقل بعد بيـان تلـك الأوصـاف إلى الإشـارة إلى بعـض اللّمسـات اللغويّـة والبيانيّة نحو إشارته إلى أن الآيتين هنا بدأتا بوصـف الأبصـار لأنّهـا أوضـح مـا في الجسم تعبيرًا، ثمّ وصف حركة الظّالمين وهـم (مهطعـون مسـرعون إلى الـدّاعي). وانتقل إلى الإشارة إلى التّرتيب بين الجوارح حين ورد ذكر شـخوص الأبصـار أوّلا لأنّ حركة البصر هي أوّل ما يُعبّر عن حال صاحبه ثمّ ثنّـى ببيـان سرعـة حـركتهم وثلّث بوصف إقناع رؤوسهم ويؤكّدها بقوله تعالى ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ وذلـك من فرط الفزع شُخّصت أبصارهم وبقيت مفتوحة لا ترتدُّ إليهم.

وصيغة الفعل (تشْـخص) جـاء في المضـارع للدّلالـة عـلى استحضـار الصّـورة والمشهد وكأنّ المشهد مُجسد أمامنا، ولم يـنسَ تقـديم الجـار والمجـرور (فيـه) المفيـد للظّرفية دلالة على الاهتمام بيوم القيامـة وأفـاد تـأخير (الأبصـار) لتشـويق القـارئ والمتلقي إلى معرفة ما يشخص في ذلك اليوم العسير.

ثمّ أنّ الأبصار جاءت معرّفة عوضا عـن المضـاف إليـه أو للعهـد أي تشـخيص أبصار الظّالمين وثمّة إيجاز للجار والمجـرور بعـد (مهطعـين) والتّقـدير مهطعـين إلى الدّاعي. أنّ كلمة مهطعين جاءت جمعًـا لاسـم الفاعـل (مهطـع) الـذي يـدلّ عـلى الحدث وفاعله.

ومقنعي رؤوسهم تعني رفع الرّأس والنّظـر بـذل وخشـوع، وكلمـة رؤوسـهم المضافة إلى ضمير الجمع للدّلالة على كثرتهم، ثمّ أنّ توالي اسناد الألفـاظ إلى ضـمير الظّالمين (رؤوسهم) و(طرفهم) يدل على أنّهـا صـفات لا تنفـكّ عـنهم وأحـوال لا

تفارقهم، أمّا (لا يرتد إليهم طرفهم) فقد وظّف التّعبير القرآنيّ ارتداد الطّرف في مقابل إرسال الطّرف الذي اعتاد العربُ التّعبير به عن توجيه النّظر إلى اتجاه معين والجملة هنا كناية عن هوّل ما شاهدوه، وإفراد (طرفهم) لإفادة الجنس والطّرف في الأصل مصدر أُطلق هنا على الفاعل وهو العين، والطّرف: الجفن أيضًا.

وأفئدتهم هواء هنا جمع فؤاد والخرق بين الفؤاد والقلب: إنّ الفؤاد غشاء القلب إذا رقّ نفذ القول فيه، أمّا إفراد (هواء) وإن كان خبرًا عن جمع لأنّه في معنى فارغة وخاليّة وجملة (وأفئدتهم هواء) تشبيه بليغ إذ شبهت افئدتهم بالهواء في الخُلوّ من الإدراك لشدّة الهول.

وهو في تحليله ورؤّيته هنا يحاول أن يوضح لنا كيف وظّف البيان القرآني أربعة تراكيب لغويّة تتعلّق ببعض أعضاء جسم لإنسان نحو: شخوص الأبصار، وإقناع الرّؤوس وارتداد الطّرف، وخلّوا الفؤاد، لتصوير معانٍ وانفعالات يعيشها النّاس والظّالمون خاصّة في ذلك اليوم العصيب، فحملت التّعابير المتعلّقة بأعضاء الرّأس والعين والفؤاد تلك المعاني والدّلالات والانفعالات، وتجسّد الموقف في صورة تهزُ القلوب هزًا وتؤثّر في الوجدان، لتكون الصّورة عبرة لنا.[9]

وفي قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ ،[10] إذ يقف فيها هنا عند تركيبين لغويين يتعلّقان بالجسم هما (وهن العظم مني) و(اشتعل الرّأس شيبًا) فأشار إلى كمال العنايّة بتحقيق مضمون الجملة الأولى بعد توكيدها بإن، فضلا

عن وضوح ظاهرة الإجمال والإتيان بالتفصيل بعده، إذ قال أوّلا (وهن العظـم) ولم يقل وهن عظمي لأنّ الإجمال أوّلا والتّفصيل ثانيا (مني) أشدّ وقعا في النّفوس.

ثمّ تحدث عن الاستعارة التّصريحية في قوله تعالى ﴿واشتعل الرّأس شيبًا﴾ واشار إلى قول ابن الاثير إلى أنّ أربعة عناصر تجمع بين المشبه والمشبه به في هذه الجملة وهي سرعة الانتشار وتعذر تلافيه وعِظم الألم في القلب به، وأنّه لم يبق بعده إلاّ الخمود.[11]

ويشر كذلك إلى جمال الاستعارة المتمثّل في اللفظ المستعار وطريقة رصف الكلام وترتيبه مستعينًا بتفصيل عبد القاهر الجرجاني في هذه القضيّة.

واشار إلى أنّ إسناد الاشتعال إلى الرّأس من قبيل المجاز العقليّ، لأنّ الاشتعال من صفات النّار المشبه بها الشّيب فكان الظّاهر إسناده إلى الشّيب فلما جيء باسم الشّيب تميزًا لنسبة الاشتعال حصل بذلك على خصوصيّة المجاز وغرابته وخصوصيّة التّفصيل بعد الإجمال مع ما أفاده تنكير (شيبًا) من التّفخيم والتّعظيم.[12]

وجاء في لفظ (الرّأس) معرفا بالألف واللام عوضًا عن الإضافة للدّلالة على أنّ علم المخاطب بتعيُّن المراد يُغني عن التّقييد، وهذا اللّون من التّعبير أعطى معنى الإضافة من غير إضافة،[13] وهذا يشير إلى أنّ الغرض من الإسناد الخبريّ في العبارتين هو إظهار الضّعف والتّخشع.[14]

ومن الألفاظ والتّراكيب المتعلّقة بالعنق أشار إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾.[15] بيّن فيها الدّلالة اللغوية لألفاظ (العنق)

و(الغلّ) ثمّ تفسيرها، وكلمة أعناق في هذا السّياق مجرورة بحرف الجرّ (في) دلالة على الظّرفية، فأعناق الكافرين ظروف لهذه الأغلال المؤّلمة التي تمنعهم من طأطأة الرّؤوس والالتفات، والجار والمجرور (في اعناقهم) متعلّقان بالفعل (جعلنا).

ثمّ حاول المؤلف بيان المعنى اللغوي للمفردات مستعيناً بالمعاجم ثمّ الشّرح والتّفسير.

ويشير إلى أنّ الأعناق هي مظهر شموخ الإنسان وارتفاع قامته في أحسن تقويم ولكن لما ينحرف صاحب العنق عن سواء الصّراط فجزاؤه الذُل ويهان ويُسوَر عنقه بالغلّ الذي يمنعه من تحريك العنق، ويشير إلى أنّ الآية وصفت حالة اعناقهم المغلولة ووصفت رؤوسهم المقمحة الممنوعة من الحركة ولا يخفى ما بين العضوين من اتّصال في بنيّة الجسم، وهذا عذاب إهانة وإذلال يلحقهما ويمسَّهما كليّهما في سياق واحد.[16]

ثمّ يشير إلى التّناغم والتّناسق الصّوتي بين أعناق وأغلال فكلاهما على وزن أفعال وهذا ربما يفسّر بعض دلالات عدم استعمال لفظ (رقاب).

ومن التّراكيب المتعلّقة باللحيّة والذّقن والتي أشار لها المؤلّف في هذا الباب قوله تعالى ﴿**لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي**﴾ في المحاورة التي دارت بين موسى عليه السلام وهارون عليه السلام وبعد أن بين آراء المفسرين فيها وتعدّد الرّؤى فيها تحدث عن التّركيب اللغويّ في أنّ كلمتي (اللحيّة) و(الرّأس) مستعملتان في معناها الحقيقيّ وجاء اللفظان (لحيتيّ) و(رأس) مجرورين بحرف الجرّ ومتصلين بياء المتكلّم التي

تعود على النّبي هارون عليه السلام فهارون عليه السلام يتحدّث عن لحيته هو، ولم يرد لفظ اللحيّة في غير هذا المقام من القرآن الكريم.[17]

وأسهب المؤلّف في مبحث آخر في بيان الدّلالات للتّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالعطف ومن ذلك (ثَنْيُ العِطْف) في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾[18] ففسّر النّص القرآني مستندًا على كتب المفسّرين وبيّن الدّلالات اللغويّة التي فسّرها لسان العرب مشيرًا إلى أنّ الثّنيْ: ليُّ الشّيء والعِطْف: بسر العين المنْكِب أو الجانب الذي يعطفه الإنسان ويلويه ويميله وثنْيُ العِطف معناه المجازي التّكبّر والخيلاء.

وأشار إلى آراء المفسّرين في أن المعنى يتراوح بين الإعراض والتّكبر والخيلاء وأنّ المعنيين متقاربان وأنّ كلا من الكبر والإعراض يستلزم ثَنْـي العِطـف عـادة، فـذُكر اللازم وأُريد الملزوم وهو أخصُّ معنى الكنايّة،[19] ولم يرد ذكر لهذه الحركـة الجسـميّة (ثني العطف) في غير هذا المقام من القرآن الكريم.

أمّا الباب الثّاني فكان بعنوان بلاغة النّظم في التّراكيـب اللغويّـة المتعلّقـة بالوجـه وما حوى، قسّمه المؤلّف إلى أربعة فصول تعرض الفصل الأوّل للتّراكيـب اللغويّـة المتعلّقة بالوجه في حين خَصّص الفصل الثّـاني لدراسـة التّراكيـب اللغويّـة المتعلّقـة بالعين، أمّا الفصل الثّالث فتناول التّراكيب اللغويّة الخاصّة بالأنف والأذن، في حـين

جاء الفصل الرّابع ليختصّ بالتّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالفمّ واللّسان والحلقوم والحنجرة.

ونلمس هنا المفاهيم التي انطلق منها المؤلّف في رؤيّته من أنّ الله –سبحانه– الذي أحكم تصوير الخلق وتجلّي حقيقة ماديّة قد منح أحوال لفظه البيان والبديع والبلاغة عامّة بصورة معجزة، وكما أحكم الله خلقنا وتصويرنا في أحسن الصّور أحكم التّصوير في الحديث البياني المتفرّد، لذلك نلمس الانسجام والتّجانس في المستوى الموضوعيّ للتّصوير في القرآن الكريم ومستوى الأداء، فالسّمات البلاغيّة والأسلوبيّة للفظ القرآني تتواشج مع طبيعة الموضوع المصوّر على مستوى الصّوت والتّركيب.

وهو يعبّر عن معلومات وجدانيّة من خلال تعابير لغة الجسم والتي تتّصل بمعلومات عن المضمون قد تنقل لنا الحبّ والبغض والاهتمام والثّقة والرّغبة والدّهشة، وما إلى ذلك وقد يمدّنا بأدوات لتفسير الكلمات التي نسمعها منها نبرة الصّوت.

فنلمس صورتين، صورة رسمها الأداء على مستوى الخطاب ومظاهره اللغويّة الفنيّة وصورة متوازيّة رسمها الإيحاء على مستوى التّخييل، بمعنى أثر الخطاب في ذهن المتلقي وإشارة المؤلّف هنا الموقع المكين للتّصوير القرآني في القلوب والعقول وقدرتها في إيّصال شتى القيّم بأسلوب إيحائي فيمتد في كلّ معنى ظلاّلا يدركها المتلقي في رؤيّة جماليّة وروحانيّة خاطب فيها القرآن الكريم إحساسنا فضلا عن القلب والعقل والرّوح.

كما نلاحظ الإشارة إلى بعض السّمات الجماليّة لـلأداء وهـي بمثابـة مقوّمـات فنيّـة للصّورة نحو الانسجام والتّناسق والتّجسيد والتّشخيص فضلا عـن التّـأثير الصّـوتي ممّا يعكس قدرة الخطاب القرآني في بيان بعـض سـماته بأسـلوب فنـيّ أدبيّ، إذ تتعـدّد مستويّات الايحاء ولاسيما الصّورة في الخطاب القرآني وذلـك تبعًـا لتنـوّع الأغـراض والمقاصد التّبليغيّة وحسب مقتضى المناسبة والمقام وكذلك أحوال المخاطـب، إذ يـأتي هذا الايحاء روحيًا أو نفسيًّا أو حجاجيًا أو إقناعيًا أو اجتماعيًا أو إرشاديًا ليُلقـي ظلالـه على المعنى، فالوجه هو المرآة التي تعكس ما يختلج في النّفس البشـريّة مـن أفكـار ومـا يعتري الإنسان من عواطف فحينما نتأمّل في الوجه فأنّنا نكتشف ما يدور في ذهنه.

وفضلا عن التّصريح في الخطاب القـرآني، ففـي الدّراسـة بعـض الاشـارات إلى مسلك التّبليغ الإيحائي والذي يحيل إلى قيّم روحيّة ودينيّة تعدّ الغاية الجوهريّـة التـي سيقت لأجلها أحداثه، فكلّ ظاهرة فنيّة تلفّ في طياتهـا مغـزى دينيًـا معينًـا أثـر في الأذواق والملكات،[20] كذلك تهزّ أريحيّة النّفـوس إنّ سرى إلى مكامنهـا حـزن وغـمّ فالمسحة النّفسية للصّورة في القرآن الكريم بمثابة الوتد والسّبب الذي يشـدّ الـنّفس ويوقظ إحساسها بالجمال وتوجّيه الاهتمام إلى غايـة الهدايّـة، والـذي بلـغ ذروتـه في انسجام الصّدق بالجمال وائتلاف الغرض الدّيني بالغرض الفنـيّ ليحقـق الإعجـاز غايته، ففي هذا الجمال معنى قـد تعجـز عنـه الكلـمات ليقـف وراء الفهـم والجـدل الفلسفيّ والتّأويل.

وفي التّعبير القرآني دلالات وألفاظ متعدّدة في وصف الوجه والذي بدوره يميّز شكل الإنسان من غيره.

لذلك حاول الباحث دراسة هذه التّعابير في دلالات الوجه المختلّفة منها سَوْدُ الوجوه في قوله تعالى ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾.[21]

فأشار إلى المعنى اللغويّ والدّلالي فيها وبيّن كيف أنّ فعل الإساءة يظهر على الوجوه ولأنّ الإنسان إذا قويّ فرحه انبسط روحُ قلبه إلى الأطراف فاستبشر وجهه وإذا ازداد غمه تختنق روحه ويثقل قلبه ويبان أثره إلى الوجه، فمساءة الوجه كناية عن الغمّ الشّديد،[22] لأنّ الأعراض النّفسية المتولّدة في القلب تظهر على الوجه.

ومن أصناف الوجوه وأوصافها الوجوه الخاشعة العاملة النّاصبة في قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾.[23]

وبعد أن فسّر وشرح بين أنّ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ من النّاحية التّركيبية جملة مستأّنفة وهي جواب سؤال مُقدّر كأنّه قيل: ما هو؟ أو مستأّنفة استئّنافا نحويا لبيان ما تضمّنته من وجود وجوه في ذلك اليوم متّصفة بالصّفات التي ذُكرت. أمّا لفظ (وجوه) فجاء مرفوعًا على الابتداء وإنّ كان نكرة لوضعه في مقام التّفصيل والتّنويع،[24] وفي علم البيان المعنى المراد من الوجوه هو أصحاب الوجوه، إذ جعل اسناد الخشوع للوجوه من قبيل المجاز العقليّ.

والملاحظ أنّ صفات الوجوه في هذا اليوم جاءت على صيغة اسم الفاعل التي تدل على ثبات الوصف في صاحبه،[25] كما أنّ اسم الفاعل غير مرتبط بزمان ممّا يعني أنّها تمثّل الزّمن في كلّ حالاته.

كما أشار الباحث إلى الآيات التي تتّحدث عن تمدّد العينين وكذلك مدّ العين التي وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم والتي اختيار فيها القرآني المشبه به من حركات العين السّريعة جدًا، وفي هذا إشارة إلى أنّ حركة العين هي أسرع حركة تصدر عن أعضاء الجسم وكذلك بين دلالات إزلاق البصر والتي تدل على الكراهيّة والضّغناء التي يُكنّها الذين كفرّوا لنّبيّ الأمّة ﷺ.

وعن نظر المغشي في قوله تعالى ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾[26] يشير(سيد قطب) أنّه تعبير لا تكّمن محاكاته ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى وهو يرسم الخوف إلى حدّ الهلع والضّعف إلى حدّ الرّعشة، ويبقى بعد ذلك متفردًا حافلا بالظّلال والحركة التي تشغف الخيال، وهذه الحركة الممتدّة من العين بفعل النّظر تشخص حالة فريدة من الذّهول والقلق والخوف .[27]

وأمّا دلالات الطّرْف الخفي في قوله تعالى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[28] ففيه كناية عن الخوف والرّعب الشّديد من هول ما يرون، لذلك يُسارقون النّظر للنّار تخوفًا،[29] والجملة كلّها في موضع الحال من ضمير (خاشعين) لأنّ النّظر من طرف خفيّ حالة الخاشع الذّليل.

وبين الدّلالـة التّفسـيريّة اللغويّـة في قولـه تعـالى ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ واللّمسة البيانيّة هنا هي أن لفظ (أذن) جاء نكرة ومفردة دلالة على قلتها، إذ يـذهب الزّمخشـري إلى أنّ التّنكير والتّوحيد ـ الإفراد ـ إشارة إلى أن الوعاة فيهم قلّة ولتوبيخ النّاس بقلّته من يعي منهم.[30]

وأسـهب في توضـيح الإرضـاء بـالأفواه في قولـه تعـالى﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾[31] وكذلك بُدُوُّ البغضاء من الأفواه والتي ورد ذكرها في سورة آل عمران وبين فيهـا أثـر الايقاع الصّوتي الذي يُضيفه إسناد ضمير الغائبين (هم) إلى أفواههم، أيديهم أرجلهـم وادرك القول في ذكـر الأفـواه الـذي جـاء في قولـه تعـالى﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وقولـه تعـالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.[32] وهنا وصف لحال الكافرين وحمقهم في رفض دعوة نبيّ الرّحمة محمّد ﷺ وشبيه حالهم بمن يريد أن ينفخ في نور عظيم مُنبث في الآفاق ليُطفئه بنفخه.

وهذا الاسناد هو مجازي ضمن الاستعارة التّمثيلية والتي بـيّن المؤلّـف دلالاتهـا وأن المستعار مجموع المركّب الموضوع للهيأة المشبه بها للهيأة المشـبهة، ووجـه الشّـبه: الاشتعال بها لا يُقدَر عليه لكونه مُحالا بالبديهة.[33]

واختص الباب الثّالث في هذه الدّراسة بدراسة بلاغة النّظم في التّراكيب اللغويّـة المتعلّقة بالأيدي والأرجل وما حوت، إذ تعرّض الفصـل الأوّل فيهـا إلى التّراكيـب اللغويّة المتعلّقة بالأيدي واليمين والعضد، في حين نـاقش الفصـل الثّـاني بإسـهاب

التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالأنامل والكفّين والأصابع، وخصّص الفصل الثّالث لدراسة التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالأرجل والأقدام والأعقاب والسّاق.

ومن مثال ذلك الإتيان عن اليمين في قوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [34] إذ جاء استعمال لفظ اليمين على المجاز، ذلك أنّ اليمين يتمنوّن بها واستعيرت لجهة الخير وجانبه فقيل أتاه عن اليمين أي من قبل الخير وناحيته. وفي قوله تعالى ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾.[35]

إذ بيّن الباحث كيف أنّ المقصود هو التّأثير في الوسيلة التي يقاتلون بها، وإنّ تكّرار فعل الأمر جاء من باب التّوكيد وتقديم الجار والمجرور (منهم) لبيان توجيه الضّرب للمقاتلين أنفسهم ثمّ بيّن بإسهاب المراد بضرب البنان وآراء العلماء فيه ولمن وِجه الخطاب للمسلمين أم للملائكة.[36]

أمّا في قوله تعالى ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [37] فعبارة (يقلب كفيّه) تحمل معاني النّدم والحسرة، إذ جاءت في باب خبر أصبح وجاء فعل التّقليب بصيغة المضارع، الذي يشير إلى استمراريّة فعل النّدم وتقلب الكفين، واختيار صيغة (التّفعيل) يُفيد المبالغة تأكيدًا لشدّة النّدم الذي أصابه، وأشار إلى أنّ البيان القرآني عبّر عن معنى النّدم بطريقة حسيّة عن طريق الكفين وحركتهما وتقليبهما الذي يشير إلى النّدم والحسرة وربما أصبحت هذه الحركة لغة عالميّة للجسم يدرك معناها كلّ متحسّر وغيّره.

وعن عضّ الأصابع للدّلالة على الغيظ يشير (سيد قطب) إلى أنّها صورة كاملة السّمات ناطقة بدخائل النّفوس وشواهد الملامح تسجل المشاعر الباطنة والانفعالات الظّاهرة والحركة الذّاهية الآيبة.[38]

ويُعدّ زلّل القدم من الأساليب العربيّة التي تشير إلى الوقوع في الخطأ لذلك وظّف القرآن الكريم المعنى نفسه في قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[39] وأراد بذلك الانحراف عن محجّة الإسلام النّاصعة وجادته الواضحة أما زيادة (بعد ثبوتها) لتأكيد أنّ الزّلل لا يتصوّر إلاّ بعد الثّبوت لتصوير اختلاف الحالين وإنّه انحطاط من حال سلامة إلى حال محنة.[40]

وفي قوله تعالى ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾[41] فالمشهد هنا يصوّر المحتضِر في لحظاته الأخيرة وقد لفت ساقه بالأخرى ثمّ ما تلبث الآية أن تحملنا على خلفيته الماضيّة في دنياه.

فضلا عن هذا التّناسق في تعبير القرآن ونظمه نلمس تناسقه الموسيقي وائتلاف نغمه وإيقاعه مع معانيه بتأثير حسن أثار مكامن الحسن في المتلقي.[42]

كما أشار إلى الصّور المتجسّدة في هذه الآيات ومنها الصّورة اللمسيّة وذلك في سياق الحديث عن المرسلين وهم في ضيافة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام وتوقّع لمس الطّعام من ضيوفه للتّعرف على هويّتهم بعد أن نكرهم وما يُبرّر مخاوفه أن عُرف

أهل ذلك العصر كان يقتضي أنّ النّازل ببيت متى أضمر موجدة لصاحبه رأى أن تتناول طعام القِرى بمثابة عهد على المسالمة.

ولابد من أن نشير إلى أنّ التّراكيب اللغويّة (الرّد على الأعقاب)، و(النّكص على الاعقاب) و(الانقلاب على الاعقاب)، هي جمل متقاربة في الدّلالة العامّة على الرّجوع، إلاّ أنّ بعض الفروق رجّحت استعمال كلّ فعل في الموضع الذي جاء فيه واستُعمِل الرّد في محاورة المؤمنين للمشركين، والرّد كلمة عامّة، ولا يُتصوَّرُ من المؤمنين أن ينكصوا أو أن ينقلبوا لذلك جاء استعمال الفعل (نُرَدُّ) العامّ في معناه وجاء بصيغة المضارع المبني للمفعول إيذانًا بأنّ المؤمن لا يرتدُّ عن دينه أبدًا طواعيّةً.

بينما جاء استعمال الفعل (نكص) في سياق الحديث عن الشّيطان الذي نكص بمحض إرادته، والإسناد حقيقيّ وهو يرسم صورة بشعة للشّيطان وهو ناكصٌ على عقبيه، وكذلك استعمال الفعل (تنكصون) في سياق وصف المشركين الذين كانوا ينكصون على أعقابهم حين تتلى عليهم آيات الله تعالى.[43]

والباب الرّابع والأخير في هذه الدّراسة خصّصه المؤلّف لدراسة بلاغة النّظم في التّراكيب المتعلّقة بالقلب والصّدر وما جاورها وجاء في أربعة فصول اختصّ الأوّل منها لدراسة التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالقلب والفؤاد في حين خصّص الفصل الثّاني لدراسة التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالصّدر والجنب والتّرقوة، وتعرض الفصل الثّالث إلى التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالبطن والجوف، أما التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالظّهر والصّلب والأزْر والدُّبر فقد اختصّ بدراستها الفصل الرّابع، إذ يتضح لنا

أنّ البحث في إعجاز القرآن يُشرّع بابًا واسعًا للبحث في أسرار البلاغة وعلّل التّأثير وأسباب الشّجاعة في تبليغ الخطاب، إذ أنّ للقرآن الكريم وجوه إعجاز كثيرة، لكن الوجه الذي تحدى به العرب آنذاك ومن ثمّ النّاس أجمعين هو الوجه اللغويّ البلاغيّ والمتعلّق بالفصاحة وأسلوب الصّياغة وطريقة النّظم.

ندرك من هذه الدّراسة التي تعلّقت ببعض الشّذرات من نظريّة النّظم إلى أنّ الإعجاز البلاغيّ لا يتأتى من الألفاظ المفردة العذبة فحسب ولا بالمعاني المجردة مهما علّت وكذلك ليس بالعناصر الأسلوبيّة في ذاتها من استعارة وتشبيه ومقابلة ومجانسة أو تنكير وتعريف وتقديم وتأخير ... إلخ إنّما من التّركيب النّحوي الذي أراده المتكلّم لإفادة المعنى المراد.

فممّا تعرض له في الفصل الأوّل وصف القلب بالسّلامة في قوله تعالى﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾،[44] وقوله تعالى﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴾.[45]

وأشار إلى أنّ لفظ سليم يمكن أن يكون بمعنى فاعل أي بقلب سالم وخالص أو أن يكون بمعنى مفعول أي بقلب مُخلص أخلصه الله تعالى من الشّرك والشّك أو من التّعلق بغيّره تعالى.[46]

ويجوز كذلك أن يكون (سليم) بمعنى حزين من السّليم بمعنى اللدّيغ أي الملدوغ، فإنّ العرب سمته سليمًا تفاؤلا بسلامته.

ومن أشار بالتّفصيل في الفصل الثّاني النّأي بالجانب والتي وردت في سورة الإسراء آية 83 وسورة القصص آية 51 فعبارة (ونئا بجانبه) تأكّيد للإعراض لما

بينها من تقارب في المعنى، إذ إنّ الإعراض عن الشّيء هو أن يوليه الإنسان عُرض وجهه والنّأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره وهاتان الحركتان ملازمتان للمستكبرين.

والباء في (بجانبه) للمصاحبة أي: يَعُدَّ مصاحبا لجنبه أو مُبعدًا جانبه.

وجملة (أعرض ونئا بجانبه) في الآيتين في موقع جواب أداة الشّرط (إذا) لتفيد تحقّق الوقوع. أما التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالجوف فقد استشهد الباحث هنا بقوله تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾.[47]

والجوف كما معلوم وفسّره علماء التّفسير هو باطن الإنسان صدره وبطنه وهو مقرّ الأعضاء الرّئيسة عدا الدّماغ.[48] وقد بين الباحث نكران أن يكون لأحدٍ من قلبين في جوفه كما كان يدعي البعض في الجاهليّة وفي سياقها النّحوي والدّلالي أشار إلى أنّ كلمة (رجل) نكرة في سياق نفي كذلك هي تقتضي العموم، والفعل (جعل) جاء في سياق النّفي يقتضي العموم أيضًا، لأنّ الفعل في سياق النّفي مثل النّكرة في سياق النّفي.

وقد سُبق المفعول بحرف الجر (من) في قوله تعالى (من قلبين) وتوجيه ذلك أنّ صيّغ الجموع والتّثنية كلمة لا كُلّ، فالرّجال قائمون تعني كلّ واحد قائم، فلو قال (ما جعل لرجل قلبين) لأوهم نفيّ القلب الواحد، لذلك أفاد هنا أنّ المراد نفيّ مجموع القلبين من حيث هو مجموع لا نفيّ الواحد لأنّها في النّفس لاستغراق الجنس.[49]

وحاول الباحث أن يُصحّح مصطلح لغة الجسد وإطلاق مصطلح (لغة الجسم) ذلك أنّ لفظ (الجسد) في القرآن الكريم جاء إطلاقه على ما لا روحَ فيه أو الجثة الهامدة، أمّا لفظ الجسم فأطلقه القرآن على الأحياء، كما أشار إلى استعمال كلمة (أعين) عند التّحدث عن جمع العين الباصرة واستعمال (عيون) عند التّحدث عن عيون الماء. كما حاول الباحث تحليل العبارات بلاغيًا وبيان مواطن الجمال في التّعبير القرآني وبيّن الفروق بين ذكر المعنى الذّهني منفردًا وبين ذكره مُجسدًا في حركة أو هيئة جسميّة.

ومن محاسن هذه الدّراسة بيان الفروق بين الكلمات المتقاربة نحو القلب والفؤاد، والعين والبصر والطّرف والعنق والرّقبة والجيّد وما إلى ذلك.

وأشار الباحث أنّ ميّل البيان القرآني لتقنيّات تعابير الجسم هو سبق قرآني في علم الاتّصال غير اللفظي. لذلك نجح في أن يفرّق بين الاستعمال الحقيقيّ والاستعمال المجازيّ لأعضاء جسم الإنسان وبيان الفروق الجماليّة الدّقيقة، وأشار إلى التّوظيف الجماليّ للكناية والاستعارة، لذلك أشار الباحث إلى الثّروة البيانيّة التي تشكّلت منه تفاسير القرآن الكريم.

ونلمس من هذه الآيات البينات أن التّواصل بين البشر يتمّ بالكلام المنطوق فضلا عن وسائل وصور أخرى التي تتمثّل في حركات الجسم سواء أكانت مستقلة أو مصاحبة للّغة المنطوقة، لذلك جاءت لغة الجسم بعدّة صور إذ أنّ المعاني والدّلالات تتغيّر بتغيّر العضو وحركته. ولمسنا أنّ لغة الجسم لها أنماط عديدة منها

لغة العيون ولغة الوجه ولغة الاشارة وحركات الأعضاء، ولغة الجسم في الهيأة وأوضاع الجسم. إذ أنّ الوجه يؤدي دورًا في عمليّة التّواصل وكلّ عضو فيه يشكّل أداة لإيصال الأفكار للأخرين.

ونلمس كذلك إقرار القرآن الكريم لأهميّة لغة الجسم وضرورة توظّيفها في التّواصل واستثمارها في ميادين الحياة التّربوية والسّياسية والاجتماعيّة والوعظيّة، إذ إنّ لغة الجسم على الرّغم من ارتباطها باللغة المنطوقة إلاّ أنّها قد تعمل منفردة وتؤدّي معنى كاملا منفصلا عن الكلام، فتختصر الجهد والوقت ولاسيّما حين تقوم حاسة بدعم حاسة أخرى، لذلك حذر القرآن الكريم من ممارسة بعض الحركات الجسديّة التي تؤذي الآخرين في مشاعرهم مثل الغمز واللمز والهمز، كما حث على استعمال وتوظّيف بعض الحركات الجسديّة التي من شأنّها أن تشيع أجواء إيجابية في المجتمع ولاسيما التي ترتبط بالوجه كالابتسامة والسّمت الحسن.

فالتّعبير القرآنيّ يؤلّف بين الغرض الدّيني والغرض الفني فيما يعرضه من صور ومشاهد بل أحيانًا يجعل الجمال الفنيّ أداة مقصودة للتّأثير الوجداني فيخاطب حاسّة الوجدان الدّينية بلغة الجمال الفنيّة، ذلك أنّ إدراك الجمال الفنيّ دليل استعداد لتلقي التّأثير الدّيني حين يرتفع الفنّ إلى هذا المستوى الرّفيع وحين تصفو النّفس لتلقي رسالة الجمال.[50]

وفي هذا الأداء يعبّر بالصّورة الحسيّة المتخيّلة عن المعنى الذّهني والحالة النّفسيّة وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ليرتقي بالصّورة التي رسمها فيمنحها

الحياة الشّاخصة فإذا المعنى الذّهني متجسّد في حركة أو هيئة وإذا الحالة النّفسية لوحة أو مشهد، ذلك أنّ التّناسق في القرآن الكريم يأتي بعدّة صور منها التّنسيق في تأّليف العبارات وتخيّر الالفاظ أو الايقاع الموسيقيّ النّاشئ من تخيّر الألفاظ ونظّمها في نسق حسن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

ـالاتّصال الإنساني من النّظرية إلى التّطبيق، نضال أبو عياش، نشر كليّة فلسطين التّقنية ـ ط1، 2005؛

ـ الاتّصال غير اللفظيّ في القرآن الكريم، د.محمّد الأمين موسى، دار الثّقافة والإعلام ـ الشّارقة ـ ط1، 2003؛

ـ إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القران الكريم محمّد العمادي أبو السّعود، دار احياء التّراث العربي ـ بيروت، د.ط؛

ـ بلاغة النّظم في لغة الجسم في القران الكريم، د. أمحمّد صافي المستغانمي، مطبوعات جائزة دبيّ ط1 ، 1442هـ ـ 2020م؛

ـ التّحرير والتّنوير، محمّد الطّاهر بن عاشور، الدّار التّونسية للنّشر، تونس 1984 ، د.ط؛

ـ التّصوير الفنيّ في القرآن، سيد قطب، مطبعة أنوار دجلة ـ بغداد، د.ت ، د.ط؛

ـ تفسير ابن عرفة، محمّد بن محمّد ابن عرفة الورغمي تحقيق جلال الاسيوطي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت ط1 ، 2008م؛

ـ حاشيّة محيي الدّين زادة على تفسير البيضاوي تحقيق محمّد عبد القادر شاهين ـ دار الكتب والعلميّة بيروت ـ ط1 ، 1419هـ ـ 1999م؛

– حاشية القونوي على البيضاوي –إسماعيل بن محمّد الحنفي – دار الكتب العلميّة بيروت،2001م؛

ـ الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، ابو العباس السّمين الحلبيّ تحقيق علي محمود معوظ وأخرين، دار الكتب العلميّة بيروت، ط1 ، 1414هـ ـ 1994م؛

ـ دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة؛

- سيكولوجيا الواقعيّة والانفعالات، محمّد محمود بني يونس، دار المسرة، عمان ـ ط1 2007؛

ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشّروق، القاهرة، ط32 ، 1423هـ ـ 2003م؛

ـ الكشّاف، ابو القاسم محمود بن عمر جار الله الزّمخشري تحقيق، عبد الرّزاق المهدي، دار احياء التّراث بيروت؛

ـ لباب التّفسير، محمّد السّعدي، المؤسّسة العربيّة الحديثة، القاهرة، ط1، 2003؛

ـ المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح محمّد محيي الدّين عبد الحميد،المكتبة العصريّة بيروت ـ 1999 ـ 1420 هـ؛

ـ المطوّل، شرح تلخيص المفتاح، سعد الدّين مسعود بن عمر التّفتازاني ـ تحقيق أحمد عزو عناية، دار احياء التّراث العربيّ، بيروت، ط1 ، 1425هـ ـ 2004م؛

ـ معجم الفروق في المعاني، محمّد فريد عبد الله دار المواسم، بيروت، د.ت، د.ط ؛

ـ مفاتيح الغيّب، فخر الدّين محمّد بن عمر الرّازي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1 1421هـ/ 2001م؛

ـ الوحدة الفنيّة في القصّة القرآنيّة، محمّد الدّالي، مون للطّباعة والتّجليد، ط1، 1993 ـ 1414هـ.

الرّسائل الجامعيّة:

ـ بلاغة الصّورة في الخطاب القرآنيّ. مقاربة تحليليّة في جماليّات الأداء والإيحاء- نور الدّين دحماني،أطروحة دكتوراه- جامعة وهران- الجزائر- 2012م.

المواقع الإلكترونيّة:

Wirli https//ar.m.wikipedia.org

الهوامش:

[1]– سورة آل عمران، أية 41.

[2]– سورة مريم، الآية 27 ـ 29.

[3]- ينظر: الاتّصال غير اللفظيّ في القرآن الكريم، د. محمّد الأمين موسى، دار الثّقافة والإعلام ـ الشّارقة ـ ط1، 2003، ص40.

[4]– ينظر: م.ن، ص18.

[5]– ينظر: الاتّصال الإنساني من النّظرية إلى التّطبيق ـ نضال أبو عياش ـ نشر كليّة فلسطين التّقنية ـ ط1، 2005، ص219.

[6] – Wirli https//ar.m.wikipedia.org، وينظر سيكولوجيا الواقعيّة والانفعالات ـ محمّد محمود بني يونس ـ دار المسرة ـ عمان ـ ط1، 2007، ص340.

[7]– سورة إبراهيم، آية 42 ـ 43.

[8]– ينظر: لباب التّفسير ـ محمّد السّعدي ـ المؤسّسة العربيّة الحديثة، القاهرة، ط1، 2003، 2/ 1148.

[9]– ينظر: بلاغة النّظم ـ ص34 ـ 39، معجم الفروق في المعاني ص277، التّحرير والتّنوير ـ ابن عاشور 13/ 247، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون لشهاب الدّين السّمين الحلي 4/ 277.

[10]– سورة مريم، آية 40.

[11]– ينظر: المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح محمّد محي الدّين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ 1999 ـ 1420 هـ، 1/ 383.

[12]– ينظر: التّحرير والتّنوير، 16/ 84.

[13]– ينظر: دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح محمود محمّد شاكر ـ مكتبة الخانجي، القاهرة د.ت، ص100.

[14]– ينظر: المطوّل ـ شرح تلخيص المفتاح، التّفتازاني، ص148.

[15]– يس، آية 8.

[16]– ينظر: بلاغة النّظم، 55 ـ 58، وينظر التّحرير والتّنوير، 22/ 350.

[17]– ينظر: بلاغة النّظم، ص82 ـ 83، والكشّاف للزّمخشري 3/ 84، ومفاتيح الغيب ـ فخر الدّين محمّد بن عمر الرّازي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط1، 1421هـ/ 2001م، 22/ 93.

[18]– سورة الحجّ، آية 8 ـ 9.

[19]– ينظر: بلاغة النّظم، 93 ـ 94، وحاشيّة القونوي على البيضاوي، 9/ 21.

[20]– ينظر: بلاغة الصّورة في الخطاب القرآني، ص260.

[21]– الاسراء، آية 7.

[22]– ينظر: حاشيّة زادة على البيضاويّ، 5/ 376. وينظر بلاغة النّظم، 113.

[23]– سورة الغاشيّة، آية 2 ـ 3.

[24]– ينظر: إرشاد العقل السّليم ـ أبو سعود، 9/ 148.

[25]– ينظر: بلاغة النّظم، ص131.

[26]– سورة الاحزاب، آية 19.

[27]– ينظر: في ظلال القرآن ـ سيد قطب، 6/ 3296.

[28]– سورة الشورى، آية 45.

[29]– ينظر: بلاغة النّظم، ص231 ـ 233.

[30]– ينظر: الكشّاف، 4/ 600.

[31]– سورة التّوبة، آية 8.

[32]– سورة الصّف، آية 8.

[33]– ينظر: حاشيّة القونويّ على البيضاويّ ـ القونويّ، 16/ 177.

[34]– الصّافات28.

[35]– الانفال 12.

[36]– ينظر: بلاغة الخطاب 246 ـ 247.

[37]– الكهف، 42.

[38]– ينظر: في ظلال القرآن 1/ 452.

[39]– النّحل 94.

[40]– ينظر: التّحرير والتّنوير 14/ 269.

[41]– القيامة 26 ـ 30.

[42]– ينظر: الوحدة الفنيّة في القصّة القرآنيّة ـ محمّد الدّالي ـ مون للطّباعة والتّجليد، ط1، 1993 ـ 1414هـ، ص220.

[43] – ينظر: بلاغة النظم، ص376.

[44] – الشّعراء 89.

[45]– الصّافات84.

[46]– ينظر: حاشيّة زاده على البيضاويّ ـ زادة ـ 7/ 140.

[47]– الأحزاب 1 ـ 42.

[48]– ينظر: التّحرير والتّنوير 21/ 256.

[49]– ينظر: بلاغة النّظم، ص507 ـ 508، وينظر: تفسير ابن عرفة ـ ابن عرفة 3/ 285.

[50]– ينظر التّصوير الفنيّ في القرآن ـ سيد قطب، ص37، 87، 143 ـ 144.

أسرار تصريف القول ولمساته البيانيّة في قصّة موسى عليه السلام:

قراءة في كتاب

(تصريف القول في القَصص القرآنيّ)

للدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي.

أ. أحمد قوفي

ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم

الملخّص: فهذا السِّفر يبحث في القضايا البلاغيّة واللطائف الفنّيّة في القصص القرآني بالتّركيز على تمظهرات (تصريف القول في النّظم القرآني) وقد عُنيّ بدراسة قصّة موسى عليه السلام وتحليلها مبرزًا أسرار تصريف القول فيها، وإظهار الأساليب البلاغيّة وتبيين الأغراض التي أدّتها من خلال نظم الآيات. ومن هنا، سوف نحاول تبيّن هذه الوجوه البلاغيّة واللّطائف البيانيّة التي عُني بها الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي، وكيفيّة عرضه لتنوُّع التّعابير القرآنيّة.

وقد سلَّط الأضواء على قصّة موسى عليه السلام بوصفها أكثر قَصَص الأنبياء تكريرًا في القرآن، فهي تُساق لغرض دينيّ وبصدق واقعيّ وفنِّي، ومنه جاءت موزَّعة على مقامات تناسبها في مقاصد الذِّكر والموعظة.

المقدمة: يأتي كتاب(تصريف القول في القصص القرآني – دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصة موسى‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏ﷺ) لصاحبه الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي ضمّن سلسلة مؤلّفاته القمينة بالدّراسة، نحو: (بلاغة النّظم) و(جواهر الدُّرر)؛ ولعل ما يجمع بين هذه المصنّفات هو أسرار الأسلوب القرآنيّ، بمجازه وإيجازه والوقوف على أفانين القول في القصص الرّباني وجماليّات المفردة، وبداعة الصّورة بمشاهدها النّابضة بالحياة وكمال النّظم، وتمام الوصف؛ ناهيك عمّا نلفيه من لمسات بيانيّة كالذِّكر والحذف والتّقديم والتّأخير، والفصل والوصل والتّكرار والالتفات، وما شاكل ذلك من بيان وبديع ومعان.

قال تعالى:﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ الكهف، الأية:54.

وقد صحَّ عزّمه على دراسة قصّة موسى عليه السلام، وما حوته من لطائف بلاغيّة ومقاصد إلهيّة، ومشاهد مصوَّرة تصويرًا يبدو وكأنّه ماثل أمامك، تدركه البصيرة ولا يدركه البصر، وتعيه القلوب الحيّة والنّفوس المطمئنة؛ لا يسعها المكان، ولا يحدُّها الزّمان؛ إنّه النّظم القرآنيّ المعجز!

الإشكاليّة: نقف مع الدّكتور صافي المستغانمي أمام الأسئلة المشروعة التي أسَّست لكتابه (تصريف القول) بل أقول لمشروعه الكبير ألاّ وهو (إعجاز النّظم القرآنيّ) والسّؤال: ما الإضافة التي سوف يبشِّر بها في خضم الحشد الكبير من الأبحاث السّابقة؟ وما الوجوه الدّقيقة والفروق الرّائعة التي تكمن في تنوّع التّعابير

القرآنيّة؟ وإلى أيِّ مدى استطاع تجاوز النّكت المتعلّقة بتنوّع الأساليب عند القدامى بمعنى هل أغفل السّلف جوانب ظلّت غير مكتشفة أو سطحيّة يُطلب الكشف عنها؟

العرض: لقد اجتهد الأستاذ صافي المستعانمي في تجاوز بعض القضايا التي أثيرت في الدّراسات السّابقة التي كان لها الفضل؛ فضل السّبق في مباشرة العنوان (تصريف القول) وتفسير المضامين القرآنيّة، وإثبات التّوحيد، والبعث والجزاء، أو الحديث عن القصص القرآني، والإشارة إلى الأنبياء السّابقين بشكل عامّ.[1]

وقد شغف أستاذنا بالقصص القرآنيّ؛ ومن ههنا يفرد لنا دراسة متقصيّة حول قصّة (موسى) عليه السلام على سبيل النّمذجة، فيها لجأ إلى المقارنة بين التّعابير المتنوّعة والحكّمة من ورودها ضمّن سياقات تتباين مقاصدها من سورة إلى أخرى؛ وله في ذلك المسعى تعلّات نذكرها فيما يأتي:

1 -قصّة موسى عليه السلام أكثر قصّص الأنبياء تكريرا في القرآن الكريم، مع اختلاف في الطّول والإيجاز.

2 -تمتاز قصّة موسى عليه السلام والقصص القرآني بشكل عامّ بسمتين تختلفان عن الفنّ القصصيّ للشّعوب والآداب والفنّون للمجتمعات كلها، وإليك بيان ذلك:[2]

فالقصّة القرآنيّة تساق لغرض دينيّ بهدف الموعظة والذّكرى، وليس سرد الأحداث وترتيبها، فهي ليست قصّة أو روايّة، فالأسلوب القرآنيّ يأتي بها مجزأة حسب السّياقات، وتبعا للمقامات، ويذكر الشّاهد لغاية مقصودة، ويسوق الحدث

بالشّكل الذي يخدم الموقف أو يعـزّزه أو يفنـده أو يضـرب بـه المثـل، مـع مراعـاة الصِّدقين الفنيّ والواقعيّ.

فالقرآن العظيم يوزّع مشاهد القصّة بحكّمة ربانيّة تقتضي الرّبط الموضوعيّ بـين الحدث والقصّة، وقد يكون كلّ ذلك متصاديا مع أسرار ترتيب القـرآن مـن حيـث سوره وآياته ونزوله منجما، (إنّ في تلك القصص لعِبرا جمّة وفوائـد للأمّـة؛ ولـذلك نرى القرآن يأخذ من كلّ قصّة أشرف مواضعها، ويعرض عمّا عداه ليكون تعرضـه للقصص تنزُّها عن قصد التّفكُّه فيها. من أجل ذلك كلّه لم تأت القصص في القـرآن متتاليّة متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة موزّعة عـلى مقامات تناسبها، لأنّ معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التّوزيع، هو ذِكـر وموعظة لأهل الدِّين فهو بالخَطَابة أشبه).[3]

فالقصص القرآنيّ –إذًا– لم يأت لغرض التّسلية، وإنّما جاء شريعة كونيّة ذات أهداف ساميّة مذ خاطب الله ﷻ الأمّة على لسان الرّسول الكريم محمّد بن عبد الله ﷺ قائلا: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ المزمل 05، تثبيتا لقلبه ﷺ؛ والقرآن المجيد دعوة ووعظ وترّشيد، وهدايّة، ومنهاج حياة من ربّ الأكوان، وقصصه عبرة لأولي الألباب مثقالا لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف، الأية: 111، وتدبَّر قول عزّ من قائل: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هود، الأية: 120.

فمنهج القصّ في القرآن يأخذ من القصّة ما يحقق الغرض الدّينيّ (دون اعتبار إلى تاريخ الحدث أو ذِكر مكانه، فهو لا يؤرّخ للأفراد والجماعات، ولا يسجل للأمّم والشّعوب (...) فقصّة نوح عليه السلام جاءت في عدّة سور، في كلّ سورة منها ما ليس في سائرها)،[4] وكذلك الشّأن في قصّة موسى عليه السلام، فعلى الرّغم من تنوّع الأحداث والموضوعات إلاّ أنّه بقي وسيبقى محافظا على إيقاع واحد – إنّ جازت هذه المفردة – في كلّ سورة، فمن أجل مظاهر الإعجاز في القرآن، وهي أنّ التّعبير القرآني يظلّ جاريا.

فما يذهب إليه الدّكتور صافي المستغانمي في تشريحه لمنهج القصّة في القرآن القائم على التّكرار وحكمه، والغرض ومقاصده، والعِظات ومغزاها، يتصادى مع ما يلمع إليه الشّيخ سعيد رمضان البوطي، في تشكل القصّة القرآنيّة من المظاهر الآتية:[5]

1 –**التّكرار**: فقد تكرّرت القصّة نفسها أو الجانب الواحد منها لعبرة غير العبرة في مكان آخر، فيتغير أسلوبها وإخراجها التّصويري بحسب هذا التّغيير. فالقصص الواردة في سورة هود جاءت في سورة القمر، ولكن اختلف الأسلوب والعَرض وجِرس الألفاظ، ووردت معان وعِظات لم يتنبَّه إليها القارئ في المرّة الأولى.

ويقف الأستاذ صافي عند مصطلح الفاصلة الذي يدرسه علماء البديع (والنّظر إليها على أساس كونّها وطيدة الصّلة بمضمون الآية التي وردت فيها، وبيان روعة تناسبها مع المشهد الذي جاءت فيه، والبحث عن الغرض المعنويّ الذي تؤديه)[6] ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ

فَٱرْهَبُونِ ﴾البقرة، الآية: 40، هنا حذفت ياء المتكلّم بعد نون الوقاية في قوله ﴿فَارْهَبُونِ﴾ ووجه ذلك أنّها وقعت فاصلة فاعتُبرت كالموقوف عليها، وهذا الحذف من الضّرورات التي تبيحها مواضع الفواصل والقوافيّ.

قال تعالى: ﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴾طه، الآية: 67، قيل: إنَّ تأخير الفاعل في هذه الآية الكريمة بأنّه من باب مراعاة الفاصلة، غير أنَّ هذا النّوع من التّوجيه يُغلِّب الجانب اللفظيّ على الجانب المعنويّ، ويجعل المعنى تابعا للفظ وهو ما عابه النّقاد على أصحاب السّجع المتكلَّف، وعلى الشّعراء الذين تضطرهم القوافيّ المتماثلة إلى التّلفظ بما لا يريدون والإتيان بمعان ودلالات لم يكونوا إليها يقصدون... والقرآن الكريم منزّه عن هذا المذهب من القول[7] فهو كتابٌ ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾هود، الآية: 1.

2–الاقتصار من حوادث القصّة: على ما يتعلّق به الغرض، وضرب مثلا على ذلك قصّة أهل الكهف في سورة الكهف، فإنّه لم يذكر بلدهم وأسماءهم وعددهم... ، وقصّة هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض؛ فإنّه لم يذكر مكان نزوله وكيف كانت معيشته وسكناه.[8]

وقد يورد القصّة كاملة مع الجزئيّات دون أن تنطوي في الظّاهر على عبرة أو فائدة توجيهيّة، وذلك عندما يكون الغرض إثبات الوحيّ الإلهيّ وتأكيد نبوّة محمّد ﷺ أو تصحيح قصّة أو حادثة تاريخيّة: فمن قبيل الأوّل قصّة يوسف عليه السلام ومن قبيل الثّاني مريم ابنة عمران في سورة آل عمران وولادة عيسى عليه السلام في سورة مريم.

3 - **إيراد النّصائح والعِظات في ثنايا القصّة**، وهو مظهر عامّ على جميع الموضوعات القرآنيّة، ومثال ذلك قصّة موسى عليه السلام في سورة طه في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ طه، الأية: 49 والأية: 54.

4 - **المشهد القَصَصِي**: ومن سرِّ القَصَص القرآني ذكر وحذف المشاهد ببراعة فنِّية لم يعهدها البيان العربيّ، تُحرُّك أحداثها الذَّات الإلهيّة حسبما يتطلَّبه المقام كقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ الكهف، الأية 97.

ولعلَّ ما جاء في قوله: ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي: يصعدوا عليه، فحذف التّاء والأصل (استطاعوا)، ثمّ قال: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ بإبقاء التّاء. وذلك أنَّه لمّا كان صعود السّد الذي هو سبيكة من قِطع الحديد والنّحاس أيسرَ من نقبه وأخفَّ عملاً، خفّف الفعل للعمل الخفيف، فحذف التّاء... وطوَّل الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثّقيل الطّويل فقال: (وما استطاعوا له نقبا) فحذف التّاء في الصّعود وجاء بها في النَّقب.[9]

وكذلك أشار القرآن العظيم إلى تفنيد بعض القصص الشّعبية المزعومة التي تداولتها الألسنة في شبه الجزيرة العربيّة، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هود الأية: 49

فالقصص الذي أتى به القرآن لا قِبل للرّسول الكريم، ولا للعرب به لأنّهم لو علموا بذلك لما توانوا لحظة في إضرام نار الحرب على النّبي، خصوصا وأنَّ الحيلة انقطعت للأمّم جرَّاء ما أصابهم من صدمة التّنزيل العظيم، ولم يجدوا للمأزق العويص مخرجا.[10]

وقد يظُنّ بعضهم أنّ في القرآن استثناء في الحُكم على شخصيّات ذُكرت فيه فأصبح مخصوصًا بها دون غيرها؛ فسورة اللّهب – مثلاً– فإنّه لا يُراد به أبو لهب وامرأته وحدهما بل كلّ إنسان اتّصف بالصّفة نفسها وقام بالعمل نفسه... لأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب،[11] وهذا من بين ما يتميّز به القصص القرآنيّ على القصص البشريّة. وسنرى تعدّد الأغراض في تنويع القصص القرآنيّ مع أنّها تصبُّ في هدف أسمى هو: تمكين الشّريعة بوساطة المنهاج الحياتي القويم ألا وهو القرآن الكريم، ومن مقاصد القصّة القرآنيّة ما يأتي:

أ–تمكين الرّسالة وتعظيم التّنزيل: ويظهر ذلك جليًّا في فاتحة سورة يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ يوسف، الأية:02 والأية:03 وكذلك في سورة القصص:﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ القصص، الأية:03.

ابتدأت السّورة (القصص) بالحديث عن طغيان فرعون، وعلوّه، وفساده في الأرض، ومنطق الطّغيان في كلّ زمان ومكان، ثمّ انتقلت إلى الحديث عن ولادة

موسى عليه السلام وخوف أمّه عليه من بطش فرعون، ثمّ تحدثت عن بلوغ موسى سنّ الرّشد، وعن قتله القبطيّ وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوّجه بابنة شعيب. ثمّ انتقلت إلى الحديث عن قصّة قارون وبيّنت، الفارق العظيم بين منطق الإيمان ومنطق الطّغيان. ثمّ ختمت بالإرشاد إلى طريق السّعادة وهو طريق الإيمان الذي دعا إليه الرّسل الكرام.

ب-وسائل الدّعوة عند الأنبياء مع أقوامهم: يُظهر القصص مدى معاناة الأنبياء والرّسل في سبيل تبليغ رسالات ربهم، وصراعهم مع أقوامهم إذ كذبوهم وسخروا ممّا يأّتون به مستهزئين ومستهترين بالدِّين الجديد.

فتوحَّد مصدر الرّسالة –الله عزّ وجلّ– ووضوح الغرض الواحد وهو التّوحيد والعبودية، وإنّ كانت الرّسالة المحمديّة للنّاس قاطبة، ويبدو ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ هود، الآيات: 25-26-27. بل قالوا لنوح: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ هود، الأية: 32.

فبقدر ما يحيلنا القرآن إلى صراع الأنبياء المستميت مع أقوامهم وتصوير حربهم ضد الشّرك والطّغيان، فنحن مطالبون بأنّ نتّخذ من قصصهم عبرة، ونجعلهم تذكرة من غفلتنا وتنبيها من غفوتنا؛ وكأنّ المشهد نفسه يتكرّر في حياتنا عبر الثّبات

على الحقّ، ومجاهدة النّفس، والاحتراز من الوقوع في الضّلال، ومهاوي الزّيغ وأتون العصيان، وإلاّ يكون المآل مثل الذي حدث للأمّم الغابرة.

يبدو للقارئ أنَّ القَصَص يتكرّر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، إنّه تكّرار يتطلّبه السّياق القرآن حسب المناسبات والأحداث، ولكن الأحرى أن يقول: كأنّه يتكرّر؛ فالتّكرار قائم لكن السّياق يختلف حسب موضع الاستشهاد.

وهذه قصّة موسى عليه السلام تُنبئ عن عِبرٍ جمَّة، منها:[12]

1- بيان أن قدر الله ماض لا محالة، وأنّه لا يستطيع أحدٌ تغييره أو تأخيره، ولك في (فرعون) حيث لجأ إلى قتل أبناء بني إسرائيل لإزالة الملك عنهم، ولكن شاء الله أن يتربى موسى –ذلك الوريث– في عزّ قصْره ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ القصص الأية: 09.

2- بيان أنّ الحقّ له السّلطان الأعظم على النّفوس إذا ما عرفَتهُ وآمنَت به حق الإيمان، اتِّقاء الوعد والوعيد كما يبدو في ذلك إيمان السَّحَرة بموسى عليه السلام، جاء ذلك في سورة طه، ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾. الآية: 70، وإيمان امرأة فرعون. جاء ذلك في سورة التّحريم، ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الآية: 12.

الحوار في القصّة القرآنيّة/ قصّة موسى عليه السلام: هنا ينهض القصُّ على عنصر المفاجأة، فلا تستطيع الشّخصيّة أو القارئ إدراك المغزى أو الكشف عن خيوط الأحداث إلاّ بعد صبر وتأنٍّ، فكلّ عنصر يحيلك إلى آخر في قمّة الشّوق، وكلّ

مشهد يسلمك إلى مثيل أكثر منه عجبًا، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ الكهف الأيتان: 60 و70.

فهو حوار دار بين (موسى) عليه السلام، والعبد الصّالح (الخضر) عليهما السّلام وشاء الله أن يكون لقاؤهما عند مجمع البحرين، وكيف وجده، وتحاورهما حول علم البشر الذي لا ينقص من علم الله شيئا؛ وكيف ركبا السّفينة ثمّ خرقها من قِبل الخضر وقتل الغُلام، وبناء الجدار الذي أراد أن ينقض وكان ليتيمين لم يبلغا أشدَّهما. وانظر كيف كان موسى عليه السلام شديد الإلحاح في السّؤال لمعرفة أسباب الأفعال السّابقة التي بدت له غريبة تتطلّب إجابات فوريّة، لكن (الخضر) الذي أتاه الله علمًا، رأى في الإصرار والاستنكار عدم الاصطبار ونقص علم حالت دون إدراك المقاصد الإلهيّة التي تُؤتى بالتّروِّي والثّبات.

وتتابع المشاهد القصصيّة غايةً في الدّقة، وتمضي معها الأسرار الرّبانية في قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾

قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾الكهف، الأيّة: 71 والأية: 78.

وانظر ماذا قال (موسى) للرّجل الصّالح لما خرق السّفينة، أين أنهى الفاصلة (إمرًا) وعندما قتل الغلام قال:(نكرًا) (فوصف خرق السّفينة بأنّه شيءٌ إمر ووصف قتل الغلام بأنّه شيء نكر. وذلك أنّ خرق السّفينة دون قتل الغلام شناعة فإنّه إنّما خرق السّفينة لتبقى لمالكيه. وهذا لا يبلغ مبلغ قتل الغلام بغير سبب ظاهر. والإمر دون النّكر، فوضع التّعبير في كلّ موضع بما يناسب كلّ فعل).[13]

التأدُّب في الحوار: ومعناه إضافة الخير لله، ونسب الشّر إلى النّفس والشّيطان ولنعُد إلى حادثة خرق (الخضر) للسّفينة في قوله تعالى على لسانه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾الكهف، الأية: الآية 79. وهنا (نسب الخضر العيب إلى نفسه ولم ينسبه إلى الله لأنّه تسبَّب في حدوثه وإنّ كان قد علَّل لذلك الفعل في نفس السّياق)،[14] بقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾ الكهف الأية: 79.

وتأمَّل قول المولى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴾ الكهف، الأية: 80. فإنَّ فعل (أردنا) يقصد به الخضر النّية والصّدق التي تحصل بالإرادة الإلهيّة السّامية، نتيجة دعائه وتضرُّعِه لله سبحانه وتعالى؛ وهو ما حدث في

السّؤال الثّالث أي سبب بناء الجدار ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾الكهف، الأية: 82.

وقد قال:(فأراد ربُّك) حيث أضاف الخير إلى الله تعالى فعبَّر بذلك عن محض فضله وجزيل نعمته للغلامين اليتيمين، ولم يقل (فأردتُ) حتَّى لا يظن أنَّ الإرادة منسوبة إلى الخضر.[15]

يرى الزّركشي إنَّه (لما أراد ذكر العيب للسّفينة نسبه لنفسه أدبًا مع الرّبوبية، فقال: (فأردتُ)، ولما كان قتل الغلام مشترك الحُكم بين المحمود والمذموم، استتبع نفسه مع الحقّ فقال في الإخبار بدون الاستتباع، ليكون المحمود من الفعل– وهي راحة أبوَيّه المؤمنَين من كفره– عائدًا على الحقّ سبحانه، والمذموم ظاهرًا –وهو قتل الغُلام بغير حقّ–عائدًا عليه).[16]

وفي بناء الجدار كان الأسلوب (فأراد ربُّك) أي الإقرار بالمشيئة الإلهيّة في العمل الخيريّ الجليل، وقد أضاف –كما أشرنا سابقًا– (وما فعلتُه عن أمري).

في خضمِّ هذه المشاهد، نحن أمام مفارقات عجيبة، وحكم جليلة، يُستخلص منها أنّه فوق كلّ ذي علم عليم، وأنَّ أسرار القَصَص لا يعلم تأويلها إلاّ الله، حتى وإن اجتهد الرّاسخون في العلم؛ وأنَّ القصص القرآنيّ ليس القصد منه روايّة الإخبار وتحقيق المتعة بل للعبرة والموعظة. وبعد سرد الأحداث السّابقة، يتكشّف السرُّ الإلهيّ لَمَّا يُخبر بذلك العبد الصّالح (الخضر)–بإذن ربه– موسى عليه السلام عن الأمور التي شغلته فلم يُطق دون تأويلها صبرا، وسيعلِّمه صاحبه أنّ ما حدث كان

بأمر إلهي ومشيئة سماويّة تفوق منطق البشر ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ الكهف الأية: 82 .فالله تعالى يحرِّك الشُّخوص والأحداث لتنجز ما كان مطلوبا من أغراض ساميّة على وجه الحقيقة لا شخوص خيال وأحداث مخيال.

وقد يُكشف السّر للقارئ ويُعمى عن الشّخوص المذكورة في الأحداث التي تصنعها دون علم بعاقبة الفعل (وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسّر، وأغلب ما يكون ذلك في معرض السّخرية ليشترك النّظارة فيهما، منذ أوّل لحظة).[17]

فآي القرآن تحتفي بالمتلقي تفعيلاً للأثر النّفسي وذلك (تجديد لنشاط السّامع وإثارة لانتباهه لمعنى يوليه المتكلّم اهتمامًا خاصًا، ويريد من المخاطب أن يتلقاه مصغيا إليه، متفتح الوجدان لاستقباله، فيلجأ لهذا الأسلوب ليحقق له ما يريد من تأكيد للمعنى وتثبيته)[18] بمعنى يتيح المجال للقارئ كي يشارك في النّشاط اللغويّ فلا يبقى سلبيا بل إيجابيا من خلال التّفكير في الإحالات، والعُدول، فيدَّخر جهدًا في فهم الرّسالة حتى ولو لم تكن صريحة مباشرة للمتلقي.

فالقرآن الكريم أثَّر على النّفس البشريّة كلّها، العربيّ وغير العربيّ، الفاهم وغير الفاهم؛ وشاءت الحكّمة الإلهيّة أن يتنزل بلسان عربيّ مبين فزاد العربيّة شرفًا وأضّحت وجهًا من أوجه إعجازه (فتألَّفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أُبدل بغيره أو اقتحم معه من حرف آخر لكان ذلك خللاً بيِّنًا، أو ضعفًا ظاهرًا في نسق الوزن وجرس النَّغمة).[19] ولطالته الرّكاكة واستهجن على السّامع ولأضحى دون كلام العوام إنّ شئت سمعت وإنّ شئت تركت.

ظاهـرة العُـدول: فظاهرة العُدول هي الثّنائية الضّـديّة التـي يجسِّـدها الحضـور والغياب، خطاب المتكلم ثمّ الغائب. هو –إذن– خلخلة البنيّة السّـطحية للخطـاب وإرباك لنمطيّة الجملة وتركيبها بشكل يتحققّ معه الغرض.

وتبقى ثنائيّة التّوقع والمفاجأة تغذِّي بنية الخطاب القصصـــيّ –بشـكل خـاصّ– ضمّن التّوقع والمفاجأة معًا، كقوله تعـالى:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ مريم، الأية: 88–91، فيُلاحظ (تغيُّر بنية النّص، إذ لم يقل سبحانه (لقد جاؤوا) بل قال:﴿لقد جئتم﴾ ونتج عن ذلك تغـير في الدّلالـة النّصـيَّة مـن خـلال استحضـار هؤلاء الذين ادَّعوا ما ادَّعوا فكأنّه يخاطب قومًا حاضرين، بل وكأنّه ينـزل في وقـت الرّسول ﷺ (إنّها عملية تنسيق وتميّز يرتد فيها المـاضي مـن خـلال الحـاضر وربطـه بالمستقبل، حيث عمليات الاختيار ثمّ البناء كشكل نهـائي للخطـاب، وإنّ الوظيفـة الأساسيّة للغة هي الإبلاغ ولا يحصل إبلاغ إلاّ عن طريق ربط النّحـو بالبلاغـة)[20] إضافة إلى قوّة التّلويم فخاطبهم مبـاشرة لأنّ تـوبيخ الحـاضر أبلـغ في الإهانـة مـن توبيخ الغائب، ومن النّكت البلاغيّـة الأخـرى للصّـورة الالتفاتيـة في هـذا الـنّص المباغتة والمباكتة ووضع أسلوب الخطاب في حالة الصّدمة الضّـاربة لـما قالـه هـؤلاء بأنّ لله بنات والله منزّه عن هذا الادِّعاء العريض.[21]

فصيّغ الأفعال تتنوّع في أزمنتها تبعًا للسّياق في القصّة القرآنيّة ففـي قولـه تعـالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ

ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾ البقـرة الأية: 87، فنلاحظ بنيّة الأفعال في تغيُّر الأنساق الفعليّة إذ نجـد الفعـل (كـذبتم) الذي يمثّل نسق الفعل الماضي و(تقتلـون) والـذي يمثـل نسـق الفعـل المضـارع... فالسّين والتّاء في (استكبرتم) للمبالغة.[22]

ويقول الزّمخشري: (فإن قلتَ:هلا قيل: وفريقًا قتلتم؟ قلتُ: هـو عـلى وجهـين: أن يراد الحال الماضيّة لأنّ الأمر فظيع فأريـد استحضـاره في النّفـوس وتصـويره في القلوب، وأن يراد: وفريقًا تقتلونهم بعد لأنّكم تحومون حول قتل محمّد ﷺ لـولا أنيّ أعصمه منكم.[23]

الخاتمة: من خلال قراءتنا لهذا السِّفر (تصريف القول) توصلنا إلى جملة من القضايا البلاغيّة وأسرار بلاغة القرآن المجيد، وتنوّع الأساليب وتعدّد المقاصد وتتكشف فيه معالم جديدة، شكّلت هاجس البحث في مسائل مدروسة، ولكن الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي أضاء جوانب مهمّة تجملها كالآتي:

1 -مصطلح تصريف القول، هو اللفظ الدّقيق المستعمل في القرآن الكريم للدّلالة على الآيات المتشابهة.

2 -لا تكرار في القرآن الكريم بالمعنى المبتذل الذي نلفيه في كتب الشّعراء والخطباء.

3 -القصّة القرآنيّة متنوّعة في أساليبها، ومتعدّدة في أغراضها، ومناسبة لمقاصدها وحكمها.

4 -القرآن بحث لا تنتهي عجائبه، ولا تنفد لطائفه، ولمساته البيانيّة، وسوف يظل المفسّرون والمؤوّلون والدّارسون يبحثون مواطن الجلال والجمال فيه.

5 -ليس الغرض من القصص القرآني التّسلية، وإنّما هو وعظ وعبرة وترشيد وتوجيه.

6 -الوقوف على أخبار الأمّم والأنبياء والرّسل. للاعتبار من مدى صدق رسالاتهم الحقّة من جهة، وإظهار صبرهم في سبيل تبليغها كمالاً وتمامًا.

7 -تحديّ القرآن للبشر بالصّدق الفنيّ والواقعيّ.

8 -القرآن العظيم كلُّه نظم معجز، في حروفه ومفرداته، وتراكيبه، ومقاصده فهو ليس بالنّثر ولا بالشّعر، إنّه القرآن.

الهوامش:

[1]- أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني – دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصة موسى عليه السلام دار ابن كثير، بيروت، ط 1، عامّ 2018م، ص: 06 (المقدّمة).

[2]- ينظر: تصريف القول، ص: 09،10 (المقدمة).

[3]- محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، ص: 70-71.

[4]- محمود السّيد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآني، ص: 68.

[5]- محمّد سعيد رمضان البوطيّ، مـن روائع القـرآن، ط 4، مكتبة الفارابي، دمشق، عـامّ 1977م، ص: 87.

[6]-أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني، ص: 257.

[7]- أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص: 258.

[8]- سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص: 45.

[9]- ينظر: فاضل صالح السّامرائيّ، التّعبير القرآنيّ، ص:75

[10]- المصدر السّابق، ص: 46.

[11]- ينظر: لمصدر السابق، ص: 46.

[12]- ينظر: إبراهيم فاضل صالح السّامرائيّ، التّعبير القرآنيّ، ص:283 وما بعدها.

[13]- ينظر: إبراهيم فاضل صالح السّامرائيّ، التّعبير القرآنيّ، ص:229.

[14]- ينظر: محمود السّيد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآنيّ، ص:361.

[15]- ينظر: محمود السّيد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآني، ص:362

[16]- الزّركشي، البرهان في علوم القـرآن، ج4، مطبعـة عيسـى البـابي الحلبـيّ، عـامّ 1958م ص:60.

[17]- محمود السّيد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآنيّ، ص: 83.

[18]– عبد الغني محمّد سعيد بركة، أسلوب الدّعوة القرآنيّة، ص: 331.

[19]– مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن، ص: 185.

[20]– مازن موفق صديق الخيرو، الإعجاز البلاغيّ في الخطاب القرآني، الالتفات أنموذجا ص:15.

[21]– ينظر: أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11 تحقيق: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، ص: 103.

[22]– مازن موفق صديق الخيرو، الإعجاز البلاغيّ في الخطاب القرآنيّ، ص:186.

[23]– الزّمخشري، الكشّاف، ص:85.

قراءة في كتاب
(تصريف القول في القصص القرآنيّ)

دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام
لـ أمحمّد صافي المستغانمي.

أ.د أحمد بن عجميّة، ود. محمّد تنقب
ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم

يعد كتاب (تصريف القول في القصص القرآنيّ: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام) من أهمّ الكتب، كوّنه يتعرض لقضيّة تصريف القول وتنوّعه في عرض مضامين قصّة موسى عليه السلام بأثواب وطرائق تعبيريّة متنوّعة في سور قرآنيّة كثيرة، حيث نجد أنّ المؤلّف قد دقّق النّظر في مشاهد القصّة معالجا بعض الفروق من زاويّة علم المعانيّ، إذ ذكر جماليّات الوصل والفصل، والتّوكيد وضرب أمثلة للجمل الاسميّة والفعليّة والفروق بينهما ليعرج بعدها إلى المساواة والإطناب والإيجاز وكذا الأساليب الإنشائيّة والخبريّة، وقد ركّز أيضا على تبيين الاختلافات الدّلاليّة لجلّ الألفاظ المتقاربة والمترادفة، مبيّناً روعة اختيار المفردة القرآنيّة، ذاكرا انسجام المفردات والجمل مع الموضوع الذي عالجته السّورة بشكل عامّ.

أمّا عن سبب اختيارنا لهذا الكتاب فهو ما خلص إليه صاحبه من أنّه لا وجود لتكّرار في المشاهد المرتبطة بالقصص القرآني، وإنّما هو الإعجاز اللغويّ في القرآن

الكريم الذي يرسم لنا القصّة الواحدة والمشهد الواحد في ألوان تعبيريّة متنوّعة وجميلة، هي تتناسب مع السّياق الذي جاءت فيه، وإنّ هذا الأمر هو دلالة على إعجاز القرآن من النّاحية البيانيّة.

-**بين يدي كتاب:(تصريف القول في القصص القرآنيّ).**

ـــ دراسة بلاغية تحليلية لقصة موسى عليه السلام لــ أمحمّد صافي المستغانمي.

أ/ الشّكل الخارجيّ للكتاب: قبل أن نغوص في طيّات هذا الكتاب ونتفحّص ما يحمله مضمونه وما يبسطه من موضوعات وأفكار، نحاول وضع صورة فوتوغرافيّة للكتاب نوضح من خلالها ملامحه؛ باعتبار أنّ الواجهة هي أوّل ما تقع عليها عين القارئ بصفة خاصّة والمتلقي بصفة عامّة، ونحن كباحثين لهذا الكتاب محاولين وصفه انطلاقا من الواجهة الأماميّة وفق رؤّيتنا الخاصّة، فكان أوّل ما لفت انتباهنا هو عنوان الكتاب الذي يتصدّر بشكل كبير الواجهة باللون البنيّ الغامق فوق خلفيّة باللون الأخضر الفاتح، يعلوه اسم المؤلّف أمحمّد صافي المستغانمي باللون الأسود، وأسفل الواجهة على الجهة اليمنى وضع المؤلّف نسخة من المصحف الشّريف داخل إطار باللون البني، أمّا الجهة اليسرى فكتب عليها نوع الدّراسة أو المنهج المتّبع باللون الأصفر وأسفل منه اسم موسى عليه السلام بشكل دائري كذلك باللون الأصفر، لينهي الواجهة بدار النّشر (دار ابن كثير).

وههنا يدفعنا الآن للحديث عن معلومات الكتاب، فالطّبعة التي بين أيدينا هي الطّبعة الأولى سنة 2018م، بدار ابن كثير بيروت -لبنان- تحت رقم تسلسليّ

(ISBN 978-614-415-242-3) وجاءت صفحات الكتاب حوالي 335 صفحة، أمّا عن الواجهة الخلفيّة فنجد صورة للمؤلّف على الجهة اليمنى والسّيرة العلميّة له على الجهة اليسرى، وفي الأسفل وضع طرحا وجيزا عن الموضوع الذي عالجه الكتاب.

ب/ مضمون الكتاب: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف، الآية: 54]. في ضوء هذه الآية سطر أمحمّد الصّافي كتابه (تصريف القول في القصص القرآني: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصة موسى عليه السلام) مركزا فيه على مصطلح تصريف القول في التّركيب القرآني بشكل عامّ وفي القصص القرآني بشكل خاصّ حيث ذكر ذلك في مقدّمته قائلا: «فهذا بحث يعالج قضية تصريف القول في النّظم القرآني بشكل عامّ وفي القصص القرآنيّ بشكل خاصّ».[1]

وعند الولوج في طيّات كتاب أمحمّد صافي نجد أنّه قد تصدر كتابه بمدخل سلط فيه الضّوء على أهمّ المصطلحات التي لها علاقة بموضوع الكتاب؛ كالتّفنّن والتكّرار والتّنويع والتّشابه وتصريف القول، و مقدّمة ذكر فيها دواعي اختيار الموضوع والمنهج المتبع كما ذكر فيها ثلاثة مصادر، كانت لها صلّة وثيقة بموضوعه: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم للدّكتور عبد الله محمّد النّقراط، والتّعبير القرآني للدّكتور فاضل مهدي السّامرائي، وخصائص التّعبير القرآنيّ وسماته

البلاغيّة، لعبد العظيم إبراهيم المطعني، ثمّ ذكر بعدها سبب اختيار قصّة موسى عليه السلام وهي برواية حفص عن عاصم.

ويشرع في تناول لبّ الموضوع وقد قسمه إلى سبعة فصول هي:

الفصل الأوّل: عنونه بـ: (تصريف القول في الكمّ الإيجاز والإطناب والمساواة).

جعل المبحث الأوّل للإيجاز وأنواعه والغرض البلاغيّ لكلّ نوع، أمّا المبحث الثّاني فتناول فيه الإطناب وبلاغته ممثلا لذلك من قصّة موسى عليه السلام، ليختم الفصل بالحديث عن المساواة.

والفصل الثّاني: خصّه بتموّقع تصريف القول؛ أي التّقديم والتّأخير ودواعيهما البلاغيّة مع التّمثيل لكلّ نوع.

والفصل الثّالث: عنوانه (تصريف القول في قوّة التّركيب).

حاول الكاتب من خلاله الكشف عن طرائق التّوكيد؛ فبدأ بالتّوكيد في الأدوات، ثمّ التّوكيد بتكّرار الكلمات، فالتّوكيد عن طريق أسلوب القصر وما أكثره؛ والذي هو (تخصيص أمر بإحدى طرقه المعروفة).[2]

والفصل الرّابع: ورد بعنوان (تصريف القول في نوع الجملة).

تعرض فيه إلى التّعبير بالجملة الاسميّة والفعليّة، وكذا الجملة الخبريّة والإنشائيّة.

والفصل الخامس: **استعرض** فيه مواطن الفصل والوصل، ساعيا إلى استنباط الغرض البلاغيّ للجمل الاستئنافية، من خلال الأمثلة التي اقتبسها.

والفصل السّادس: جاء بعنوان: (تصريف القول بالتّناسب).

أراد أمحمّد الصّافي من خلاله التّلميح إلى ظاهرة التّناسب في النّسيج اللغويّ لآيات قصّة موسى ﷺ؛ ويقصد بالتّناسب: (الجمال الذي يكون مصدره التّآخي بين الألفاظ، والتّزاوج بين العبارات، والتّناسق بين المشاهد المعروضة)[3] كما ذكر أمثلة للتّناسب على مستوى الكلمات والجمل، ومتبعا المشاهد الواردة في السّورة.

والفصل السّابع: عنونه بـ: (تصرف القول بالتّكامل).

حيث صور فيه تنوّع حلقات قصّة موسى ﷺ من خلال الصّور القرآنيّة المتعدّدة مع ذكر جوانب من الحكّمة من هذا التّنوّع، وكذلك التّرابط والتّكامل بين كلّ المشاهد.

وختم أمحمّد صافي كتابه بذكر أهمّ النتائج التي توصل إليها مجيبا بذلك عن جلّ الإشكالات المطروحة في هذا الموضوع، ومن النّتائج:

-توصّل إلى أنّ مصطلح تصريف القول هو اللفظ الدّقيق الذي يستعمل في الدّلالة على المتشابهات من الآيات؛

-وضح أسرار تصريف القول في القصص القرآنيّة من حيث ورودها في أشكال مختلفة وطرق تعبيريّة متنوّعة؛

-وصرف التّشابه أو التّكرار بالمعنى المذموم عند النّقاد، إلى تصريف القول وتحويله من جهة إلى جهة وتنوّيع الصّياغة.

و ختم قوله متواضعا «أصبو أن تكون هذه الدّراسة مشاركة علميّة في استجلاء ظاهرة تصريف القول في القصّة القرآنيّة بشكل عامّ».[4]

- **منهج أمحمّد صافي في كتابه:** يتطلّب اختيار المنهج استعدادا خاصّا نفسيا ومعرفيّا من أجل الإلمام بالحقل المعرفيّ الذي يتضمّن مجال البحث وبالتالي يتطلب مسحا معرفيا شاملا للمرجعيّات العلميّة والثّقافية التي تنتمي إلى حقل البحث وعند النّظر إلى عنوان الكتاب الذي بين أيدينا (تصريف القول في القصص القرآني ـــ دراسة بلاغيّة تحليليّة ــ لقصّة موسى عليه السلام يتبين لنا أنّ المؤلّف قد استعان بالمنهج التّكاملي؛ الذي استخدم فيه أدوات التّحليل البلاغيّ، حيث بدأ بدراسة تركيب الجملة وتحليل مكوّناتها، وأشار إلى تفرد كلّ مشهد من مشاهد قصّة موسى عليه السلام واختصاصها بما ذكر فيها. ونجده قد استخدم المنهج الإحصائي نوعا ما وذلك في إحصاء الآيات التي وردت فيها قصة موسى عليه السلام في فهرس، وكذلك في جعله فهرسا خاصّا بالمصطلحات البلاغيّة.

من خلال هذا الكلام نجد أنّ الكاتب قد وفق -في رأينا- في اخيار المنهج المناسب للموضوع إذ أنّ التّحليل البلاغيّ لمصطلح تصريف القول، يجعل القارئ يقف عند دقائق ومعاني ودلالات هذا المصطلح الذي يؤكّد إعجاز القرآن الكريم.

ـ **مصطلح تصريف القول**: وعند قراءة مدخل أحمّد صافي نجده قد ضبط المصطلحات ذات العلاقة بمصطلح التّصريف وأكّد على ضرورة استعمال مصطلح تصريف القول لأنّه الأنسب في التّعبير عن المعنى المراد بطرائق عديدة، فنجده قد عرف مصطلح التصريف من كتب شتى، حيث استهل بالجانب المعجميّ عند ابن منظور في لسانه، بقوله «صرف الشّيء عن وجهه أي رده، وصرف الله قلوبهم أيّ أضلهم، وصرفنا الآيات بيّنّاها، وتصاريف الأمور تخاليفها، وتصريف الرّياح صَرفها من جهة إلى جهة».[5] ثمّ علّق أحمّد صافي على هذا التّعريف قائلا:« في الواقع اللغويّ، لم ينل مصطلح (التّصريف) نصيبه الأوفى ولا نصيبه الأدنى من الاستعمال، كما هو الشّأن بالنسبة للمصطلحات الأخرى، اللّهم إلّا إشارات عابرة وردت في كتاب: النُّكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي الرّماني، ووقفات المفسرين عند الآيات التي ورد فيها الفعل (صرفنا) و(نصرّف) وغيرها من الألفاظ المشتقة من مادة (صرف)».[6]

وكما استفادة أحمّد صافي من كتاب العلامة الرّماني (386ه) في توضيح معنى مصطلح التّصريف الذي مثل لمعناه من قصة موسى عليه السلام قائلا: «أمّا تصريف المعنى في الدّلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصّة، منها قصّة موسى عليه السلام: ذكرت في سورة الأعراف، وفي طه والشّعراء وغيرها لوجوه من الحكمة منها: التّصرفُ في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة ومنها حلُّ الشّبهة في المعجزة».[7]

وبعد التّعاريف والمفاهيم التي صاغها أمحمّد صافي ترجّح لديه (أنّ مصطلح تصريف القول هو أدقّ المصطلحات وأدلّها على ما نحن بصدده من تنوّع طرق العرض اللغويّ، والتّفنن البياني في توصيل المضمون للقارئ. وهذا ليس محض ادّعاء، إنّما هو رأيّ صواب تعضده الأدلة).[8] بعدها قام بإحصاء مصطلح (تصريف القول) في القرآن فوجده أكثر من اثنتي عشرة مرّة، ثمّ جمع معانيها من التّفاسير فذكر من إرشاد العقل السّليم : (انظُر كيفَ نصرّفُ الآيات: تعجيب لرسول الله ﷺ من عدم تأثّرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة أي انظر كيف نكرّرها ونقرّرها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب، تارة بترتيب المقدّمات العقليّة، وتارة بطريق التّرغيب والتّرهيب، وتارة بالتّنبيه والتّذكير».[9]

وجاء في روح المعاني: «ولقد صرفنا: من التّصريف، وهو كثّرة صرف الشّيء من حال إلى حال ومفعوله هنا محذوف للعلم به، أي صرفناه أي هذا المعنى، والمراد عبّرنا عنه بعبارات وقررناه بوجوه من التّقارير في هذا القرآن العظيم أي في مواضع منه».[10]

وزاد في توضيح المعنى من خلال نقله لقول الرّازي في بيان المقصود من التّصريف إذ يقول: «أعلم أنّ التّصريف في اللغة عبارة عن صرف الشّيء من جهة إلى جهة، نحو تصريف الرّياح وتصريف الأمور. هذا هو الأصل في اللغة ثمّ جُعل لفظ التّصريف كناية عن التّبيين؛ لأنّ من حاول بيان شيء فإنّه يصرف

كلامه من نوع إلى نوع آخر، ومن مثال إلى مثال آخر ليكمل الإيضاح، ويقوى البيان». [11]

وبعد أن جال أمحمّد صافي بين كتب التّفسير وكتب أهل العلم في البحث عن معاني مصطلح (تصريف القول) خلص في النّهاية إلى أنّ: « تصريف القول - فضلا عن كوّنه مصطلحا قرآنيًّا- هو أدقّ المصطلحات للتّعبير عن المعنى الواحد بطرق شتى وأساليب متنوّعة، وصياغات لغويّة فائقة خارقة تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء على حدّ تعبير صاحب مناهل العرفان، وهو لا ينطبق على التّصريف في القصص القرآني فحسب، بل على التّصريف في المواعظ والأمثال وسوق أدلة العقيدة، وعرض مشاهد القيامة، وبيان الأحكام الشّرعيّة وغيرها من المضامين القرآنيّة». [12]

وهكذا يكون أمحمّد صافي قد وضع القاعدة الأساسيّة لمصطلح التّصريف مستشهدا لذلك من العديد من أمّهات الكتب والتّفاسير، لينطلق في التّفصيل لهذا المصطلح في القرآن الكريم مركزا على قصّة موسى عليه السلام.

خاتمة: وفي ختام هذا البحث نتوصل أنّ كتاب أمحمّد صافي من أهمّ الكتب في ميدان المصطلح والدّراسات القرآنيّة؛ لأنّه وضع القاعدة الأساسيّة لمصطلح تصريف القول مدعما آراءه بالأدلة القرآنية وكتب العلماء في التّفسير، وهذه بعض النّتائج التي توصلنا إليها من خلال قراءة هذا الكتاب القيّم.

-يمكن إدراج كتاب أمحمّد صافي ضمن كتب علم المصطلح؛ لأنّه عالج مصطلحا مهما في ميدان الدّراسات القرآنيّة ألاّ وهو مصطلح التّصريف؛

-وجاء بمقارنة قيمة بين مصطلح التّصريف والمصطلحات المشابهة له في المعنى ليستقر في النّهاية على أنّه هو الأنسب في الدّلالة على المتشابهات في القرآن الكريم

- بين من خلال كتابه الإعجاز البيانيّ والبلاغيّ في نظم القصص القرآنيّة؛

-أثبت عدم وجود التكّرار المذموم في القرآن الكريم؛ بل هو تحويل القول من جهة إلى جهة حتى يتقرّر في الأذهان.

وفي الأخير نتوجه بدعوة إلى جميع الطّلبة الباحثين للاطلاع على هذا الكتاب والنّهل من المعارف الموجودة فيه، قصد الاستفادة منها في الرّسائل والمقالات وزيادة التّوسع في هذا الموضوع.

أمحمّد صافي المستغانمي؛



إنّه أمحمّد صافي ابن مدينة عين النّويـصي، مستغانم وأضاف كلمة المسـتغانمي إلى اسمه كي يعتزّ بمسقط رأسه أينما حلّ وارتحل.

دكتور وأمين عامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة ومفسّر للقرآن الكريم تفسيرا كاملا تخصّص الإعجاز البياني.

تقلّد عدّة مناصب منها وظائف في التّربية والتّعليم بالجزائر، وهو عضو بالمجلس العلميّ للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة.

معدّ ومقدّم برامج تلفزيونيّة كالبيان القرآني في قناة المجد العلميّة وغيرها.

له العديد من المؤلّفات كـــ: تصـريف القول في القصص القرآني، والخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ومفاتيح النّجاح وسنن السّعادة وبلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، وغيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1990م.

2. أبو سعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تح: عبد اللطيف عبد الرّحمن، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1999م، ج4.

3. الآلوسي، روح المعاني، تح: محمّد أحمد الأمد، دار إحياء التّراث العربيّ، ج15 1999م.

4. أمحمّد الصّافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 2018م.

5. بهاء الدّين السّبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريّة، بيروت، ج1، 2003م.

6. الرّماني، النُّكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، القاهرة ط4 1991م.

7. فخر الدّين الرّازي، التّفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، دار الكتب العلميّة بيروت، ج20، 1990م.

الهوامش:

[1] – أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآنيّ دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 2018م، المقدّمة: ص1.

[2] – بهاء الدّين السّبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريّة بيروت، ج1 2003م، ص393.

[3] – سابق، ص205.

[4] – نفسه، ص286.

[5] – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1990م، مادة: صرف.

[6] – أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام ص34.

[7] – الرّماني، النُّكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1991م.

[8] – أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام ص35.

[9] - أبو سعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تح:عبد اللطيف عبد الرّحمن، دار الكتب العلميّة بيروت، 1999م، ج4، ص132.

[10] – الآلوسي، روح المعانيّ، تح: محمد أحمد الأمد، دار إحياء التّراث العربيّ، ج15، 1999م، ص105.

[11] – فخر الدّين الرّازي، التّفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج20، 1990م ص173.

[12] –أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام ص39.

منهج الدّكتور أحمّد صافي المستغانمي في تحليل النّظم القرآنيّ

(حضور الشَّخصيّة، وشموليّة الأدوات، ومثاليّة المعالجة)

د.أحمد رجب حجازي عبد المجيد

ج. القاهرة، كلّيّة دار العلوم

الحمد لله الذي امتنّ علينا بنعمة القرآن، فهو الصِّراط المستقيم واضح المعالم وهو دستور الخالق لتنظيم حياة الخَلق، وأُصلّي وأُسلِّم على أكرم مَن جاء برسالة سماويّة لأهل الأرض، سيّدنا محمّد ﷺ الذي ما ترك باب خير إلاّ فتحه لنا ودلّنا عليه، وما علِم باب شرٍّ إلَّا أغلقه دوننا وحذّرنا منه، وأترضَّى على خير أصحاب لخير رسول، فرضي الله عنهم، ورزقنا حُسن السَّير على خطاهم؛ حتَّى نلقاه غير خزايا ولا مفتونين.

وبعد، فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أرشدنا إلى الطَّريقة المُثلى للانتفاع بالقرآن الكريم، تلكم الطِّريقة التي تكمن في تدبّره والعيّش في رِحابه؛ بُغية إدراك مراميه والانفعال بما فيه، والوقوف على مواطن إعجازه القارّة في نظمه العجيب الذي يُباين نظم سائر الكتب؛ السَّماويّة منها، والبشريّة مهما سمت في فضاء الإبداع والتَّأليف، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.[1]

فالتَّدبّر هو الخيار الوحيد لكـلّ مـن رام تحقيـق الاهتـداء بـالقرآن الكـريم، وإلَّا فليس أمامه غير أنّ يُقفل على قلبه بأقفالٍ عديـدةٍ تحـول بينـه وبـين آخـر رسـالات السَّماء إلى أهل الأرض، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾.[2]

وقد قيّض الله للقرآن متدبّرين له، متأمّلين للّغته، باحثين في أسرار تفرّده واقفـين على مناط إعجازه، في كلِّ عصر ومصر، لا يخلو منهم عصـر، ولا يُحـرم مصـــر مـن تأمّلهم وتبصُّرهم وتفهُّمهم للقرآن الكريم، لا فرق في ذلك بـين زمـنٍ قـديمٍ دارسٍ وزمنٍ حديثٍ مُعاصرٍ، وإنَّ المرء ليعجب أشدّ العجب من هذا الكتاب الخالد الذي كلّما تكلَّم العلماء فيه وأكثـروا وبحثـوا وألفـوا وصـلوا إلى حقيقـةٍ مفادهـا: أنَّهـم لم يدركوا بعدُ إلَّا قليلًا من أسرار إعجازه، وتلك إحدى سمات القرآن الكريم التـي لم ولن تتحقّق لكتابٍ سواه.

إنَّ العلماء المشتغلين ببلاغة القرآن ـ التي هـي سرُّ إعجـازه ـ هـم أكثـر النَّـاس إدراكًا لتفرُّد هذا الكتاب الحاكم المهيمن؛ إذ يثمّنون قيمة كلِّ حـرفٍ فيـه، ويؤّمنـون ويزداد إيمانهم كلّما تدبَّروا بأنَّ كلَّ شيءٍ في القرآن مهما دقَّ موضوعٌ في مكانـه الأليـق به، بطريقةٍ يعجز عن مثلها الإنس والجنُّ، وإنّ اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ.

ومن هؤلاء العلماء الذين ضـــربوا بسـهم وافـر في سـاحة تـدبُّر القـرآن الكـريم فضيلة الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، وهو علمٌ من أعلام دولة الجزائـر الشَّـقيقة خطَّ رسالتيّه للماجستير والدّكتوراه في حقل تحليل النَّظم القـرآنيّ، ثـمَّ أتـبعهما بعـدّة كتابات في الحقل ذاته وفي حقول معرفيّة أخرى.

وتحاول هذه الورقة البحثيّة مقاربة ثلاثةٍ من كتاباته المُخلَصة لبلاغة النَّصِّ القرآنيّ؛ راجيةً الوصول إلى ملامح منهجه في طريق تدبُّره للقرآن الكريم؛ هذه المؤلَّفات الثَّلاثة هي:

1. **تصريف القول في القَصص القرآنيّ - دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السلام**

بلاغة النّظم في لغة الجِسم في القرآن الكريم.

2. **جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور- رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة.**

وستقوم هذه الورقة البحثيّة باستقراء هذه المؤلَّفات استقراءً واعيًا، مستنبطةً منها - دون تعسُّفٍ أو لَيٍّ لأعناق الكلام - ما يمكن أن يعبِّر عن منهج صاحبها في تأمُّلاته للنَّظم القرآنيّ، وستنتظم في ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: حضور الشَّخصيّة.

المبحث الثَّاني: شموليّة الأدوات.

المبحث الثَّالث: مثاليّة المعالجة.

ومن الله العونُ، وإليه الملاذُ، وعليه قصدُ السّبيل.

المبحث الأوّل: حضور الشّخصيّة: معلوم أنّه ينبغي أن يتوافر للباحث ـ أيّ باحث ـ مجموعة من السّمات التي تؤهلّه للبحث،[3] وإذا كان ميدان البحث هو القرآن الكريم وبلاغته فإنَّ تحقّق هذه الصِّفات أمر لا محيد عنه ولا مناص؛ ذلك أنَّ علوم القرآن أشرف العلوم وأعلاها مكانة، وأكثرها حساسيّة وخطورة، ولا ينبغي أن يتصدّر لها من لا يُحسن التَّصدّي لها؛ فالعواقب ستكون وخيمة، وربّما تُخرج الإنسان من حظيرة الإيمان.

والهدف من هذا المبحث التقاط السّمات البحثيّة التي تجمّعت في شخصيّة الدّكتور المستغانمي، والتي تظهر خلال معالجته للنّصّ القرآنيّ، فهو لا يفصح عن سماته بنفسه فيما يكتب، وليس لكاتب أن يفعل هذا، وإنّما دورنا التّفتيش في النّصوص، واستقراؤها؛ لاستنباط تلك السّمات البحثيّة؛ ومن هذه السّمات:

أولًا: الموسوعيّة: ينبغي للمتصدّي لتحليل النّصّ القرآنيّ أن يضرب بسهم في شتّى العلوم، فلا يتصوّر باحث في بلاغة القرآن لا يفهم النّحو العربيّ وفلسفته، ولا يحيط علما بعلوم البلاغة، ولا يجيد البحث في المعاجم، ولا يعرف إلى التّفاسير سبيلًا، ولا يمكنه أن يفرّق بين صيغة صرفيّة وأختها، وغير ذلك من العلوم التي لا غنى عنها لمتأمّل القرآن الكريم.

والنّاظر في أيٍّ من مؤلَّفات الدّكتور المستغانمي الخاصّة بتحليل النّصّ القرآنيّ يلحظ بوضوح موسوعيّته، وإلمامه بشتّى العلوم، ينهل منها متى أراد، ويعرف متى يحين دور كلّ منها، فتراه يفتح المعجم لتفتيق أكمام جذر لغويّ، ثمّ يطوف في

التّفاسير تطواف النّاقد الخبير، ثمّ يرمي ببصره في ذخيرة البلاغة ومحصول النّحو فيبني من هذا كلّه صرحًا من التَّحليل الشَّامخ والرّائق، ثمّ هو لا يكتفي بهذا، بل تراه يقطف من بستان العلوم الطّبيعيّة، ويزور الفلاسفة، وعلماء القراءات، ليهضم كلّ هذا في بوتقة سلسة تليق بكلام الله تعالى.

ثانيًا: الذّوق أو الطَّبع: تحتاج عمليّة الإبداع قدرًا من الطَّبع أو الذّوق أو الموهبة يستوي في ذلك إبداع النَّصّ الشِّعريّ والنّثريّ، والذي تستريح إليه النّفس ويؤمن به القلب أنّ عمليّة تحليل النّصّ هي أيضًا إبداع لا يقلّ عن إبداع النّصوص فالتّحليل مَلَكَةٌ تذكّيها الدّربة والمعرفة، وكلّما ارتقى النّصّ المحلَّل في سُلّم الفنّيّة اتّسم التّحليل بالإبداعيّة والفنّيّة، والقرآن أبلغ نصّ عرفته البشريّة؛ لذا نرى أنّ تحليله أجلّ إبداع.

ونحن نقرأ معايشات للقرآن لا نستسيغها أحيانًا، أو نشعر بأنّها تلوي عنق الآيات، وتخضعها إخضاعًا، وتلتمس أدنى وجه للمناسبة، وإن كان غامضا ملتويًا ونحسب أنّ سببًا وراء ذلك يعود إلى نقص أو انعدام في الذّوق، وتلك هبة يهبها الله لمن يشاء من عباده.

إنَّ القارئ المنصف لكتابات الدّكتور المستغانمي ليلمس طبعًا وموهبةً تتبدّى آثارهما في تحليلات الآيات القرآنيّة، فلا يستشعر قسرًا للآية، ولا بُعدًا في التّأويل ولا شططًا في الرّأي، وإنّما هو التّحليل الهادئ المتنامي السّلس، الذي ينم عن إلمام بأطراف المسألة، وتقليب لها على كلّ الأوجه المتاحة.

ثالثًا: الصّـبر وطول النّفس: قد يشعر المؤلّف أحيانًا بملل أو ضجر أثناء التّـأليف لاستعصاء فكرة عليه، أو انغلاق العقل أمام التّفكير؛ فينعكس ذلك عـلى تأّليفـه في عدم التّناسق، أو سرعة الإنجاز المخلّة، أو تنـاسي بعـض الأفكـار المكمّلـة للنّقطـة المعالجة، وهذا خلُق علميّ مذموم في أي علم يُدرس، وهـو في مجـال تحليـل القـرآن مذمومٌ أكثر، وإنّما العِلم يتطلّب التّأنيّ ومعاودة النّظر، وأن تستريح حتّى يُفـتح لـك خيرٌ من أن تُنجز ما لا يُرضي الله، ولا يرضي النّاس، ولا أظنّه سيرضيك.

إنّ البحث في بلاغة القرآن مهمّة النّفس الطّويل، والقراءة العَجلى لن تقدّم شـيئا ذا بال، ذلك أنّه (أحيانا لا تُظهر القراءة الأولى للسّورتين ما بينهما من علاقة، ويسـود نوع من التّردّد في ذهن الباحث)[4] ولا يمكن أن تحدّد وقتًا صارمًا للانتهاء من بحـث آية ما، فالأمر مع القرآن مختلف عن سائر الأبحاث في شتّى العلوم، إنّ الأمـر أشـبه بافتراض يحتاج إلى عدّة تجارب لـترجّح فرضًـا عـلى فـرضٍ، واختبـار الفـروض لا يخضع لوقت محدّد تحديدًا صارمًا.

إنَّ سمة الصّبر وطول التّأمّل لتتبـدّى في معالجـات الـدّكتور المسـتغانمي للـنّظم القرآنيّ، فأنـت تـراه يطيـل الوقفـة، ويفتّـت النّقطـة إلى جزيئـات صـغيرة، ويقـوم بالإحصاءات المتعدّدة، ويحـرّر المصـطلح، ويستقصـــي أقـوال السّـابقين ويناقشـها ويرجّح من بينها ما يرتضيه، تستشعر رغبـة عارمـة في الإتيـان عـلى كـلّ مـا يخـصّ الموضوع الذي يدرسه؛ في قصّة موسى عليه السلام، وفي لغـة الجسـم، وفي علـم مقارنـات السُّوَر.

رابعًا: التّواضع والثّقة: ثمّة شعرة فاصلة بين هاتين السّمتين، وقلّ من يراعيها من المؤلّفين، فإمّا أن تجد كاتبًا يغرق في الآخرين، يُجلُّهم وينقل عنهم، ثمّ يتركهم وينصرف عنهم بلا تعليق ولا ترجيح، كأنّ مهمّته تقتصر على النّقل والإعجاب، وإمّا أن تجد مجترئًا طويل اللسان، ينهش في لحوم العلماء، ويعتدّ بنفسه غاية الاعتداد، ويثقّ فيما عنده أشدّ الوثوق، والتّوسط في كلّ الأمور محمود، فلا انبطاح نريد ولا اجتراء، لا إفراط ولا تفريط.

إنّ المأمول أن نحترم السّابقين، ونهضم ما قالوا، وأن نناقشه بهدوء، لنضيف إليه، أو نعدّله، وإن ثبت بطلانه، فلننقضه بأدب جمّ، ولنعترض برقيّ يليق بقيمتهم وقيمنا العلميّة، ولن تجد في تعاملات الدّكتور المستغانمي مع السّابقين والمعاصرين إلاّ المأمول والمرغوب فيه، يَعرِض الآراء، ويثمّن، ويحترم، ويناقش، ويوافق الرّأي أو يرجّح، أو يعترض بعلم وإقناع، وتلك سمة العلماء المخلصين، ونحسبه منهم.

خامسًا: الأمانة: يحدُث أن يصل الباحث -بعد طول نظر وسهر- إلى نتيجة ترضيه، فيفرح وليس أشهى من ثمّرة بحثيّة بعد طول عناء، ثمّ يكتشف أنَّ غيره قد سبقه إليها وهنا تظهر الأمانة أو ضدّها؛ فقد يصعب عليه التّصريح بسبق غيره إليها؛ فيكتم خبر السّابق، وقد يثبتها لنفسه ويشير إشارة خفيّة إلى سبق غيره إليها وقد يصدّر كلامه بأنّ فلانًا وصل قبله إلى تلك النّتيجة، مع الإشارة إلى أنّه قد وصل إليها دون أن يعرف بخبر السّبق، والصّنف الأخير عملة نادرة، قدرها رفيع.

إنَّ الدّكتور المستغانمي يصرّح في أكثر من مرّة باستفادته من السّابقين، وليس في هذه حرج أو انتقاص من القدر، وأيّ باحث لا يُفيد من الآخرين لا شكّ سيدخله الخطأ والخطل، يقول عن أحد الأبحاث: (**وقد أفدت من هذا البحث في حصر كثير من التّعابير والتّراكيب المتعلّقة بأعضاء جسم الإنسان**)[5] ويقول: (**وقد استفدت من هذه الدّراسة في الوقوف على بعض التّعابير التي فاتني جمعها**)[6] وانظر إلى تصريحه بالاستفادة الكثيرة أولًا، وبأنّ بعض التّعابير قد فاتته ثانيًا، تدركْ ما أعنيه بالأمانة، ومن قبلها التّواضع.

سادسًا: الاحتراس والحيطة: تخضع العلوم النّظريّة والتّجريبيّة للتجّديد باستمرار؛ ولذا تتّسم نتائجها بالتّغيّر بين الحين والحين، ويخطئ من يظنّ نفسه قد وصل إلى نهاية المطاف، وأنّه قد قال القول الفصل الذي ليس بعده قول؛ إذ عمّا قليل سيظهر على السّاحة ما يضيف إليه أو يلغيه، هذا في العلوم والنّظريات البشريّة وأمّا في كتاب الله فليس لك إلّا أن تعمل تحت مظلّة الجملة المتواضعة بين يدي القرآن وهي جملة (والله أعلم)، تلك الجملة التي تمنحك التّحوّط، وتكسبك التّواضع، ولا تضيرك في شيء.

كثيرًا ما يختتم الدّكتور المستغانمي -كغيره من خيرة العلماء وجِلَّتِهم- تأمّلاته بقوله: (والله أعلم)، يقول ـ محتاطا لنفسه ـ بعد أن اجتهد في التّفريق بين كلمتَي (الإكنان/ الإخفاء): (**هذا، ولم أقف في التّفاسير والمعاجم ـ التي استطعت الوقوف عليها ـ على من أشار إلى فرق دقيق بين المادّتين، والله أعلم بأسرار قرآنه**)[7] فانظر إلى

هذه الجملة كيف حوت ـ على وجازتها ـ إشارات عدّة إلى أمور غاية في الأهمّية لكلّ من رام معايشة النّظم القرآنيّ؛ ومن تلك الإشارات المهمّة:

1. ذكر أداتين من أهمّ **أدوات تحليل النّظم القرآنيّ**: (التّفاسير والمعاجم).

2. **الإشارة إلى صفة من أهمّ صفات الباحث، وهي الاحتراس والحيطة**: (التي استطعت الوقوف عليها).

3. **الإلماح إلى جوهر بلاغة القرآن وهو التّفريق بين الألفاظ ومدى مناسبتها للسّياق**: (فرق دقيق بين المادّتين).

4. **الإشارة إلى سمة من أهمّ سمات الباحث في القرآن، وهي التّواضع بين يدي كلام الله**: (والله أعلم بأسرار قرآنه).

إنّ سمات الشّخصيّة التّدّبريّة جديرةٌ بالتّحصيل قبل الخوض في غمار التّجربة وفيما مضى حاولنا استنطاق الحروف والكلمات والجمل ببعض سمات الشّخصيّة المستغانميّة؛ فوشت لنا ببعضها، والشّيء المؤكّد أنّ ثمّة سمات أخرى تنضح بها كتابات سيادته، لكنّنا أردنا فقط الإلماح، والكمال لله وحده.

المبحث الثاني: شمولية الأدوات: لكلّ صنعة أدواتها المناسبة لها، التي تخصُّها ولا تخصُّ غيرها، تلك الأدوات التي تُبرز ملامح الصَّنعة، وتُنتج فيها أجوّد إنتاج وتُظهر تفرّد الصَّانعين وتميّزهم من بعضهم، وبيّنٌ أنَّ العِلم أشرف الصّناعات؛ لذا كانت أدواته أسمى الأدوات وتحتلُّ علوم القرآن أرفع مكانة، وأعلى ذروة، وتتربَّع أدوات البحث فيه على عرش الأدوات البحثيّة.[8]

ويرنو هذا المبحث إلى التّنقيب في تـأمّلات الـدّكتور أمحمّـد المسـتغانمي للقـرآن الكريم؛ بهدف الوقوف عـلى طريقـة تعامله مـع الأدوات الخاصّـة بتحليـل الـنَّظم القرآنيّ، ومن أهمّ هذه الأدوات:

أولًا: المعجم (الألفاظ مختلفة الجـذر متقاربـة المعـاني): تتبـوّأ هـذه الأداة مكانـة سامقة في عقول متدبّري القرآن الكريم؛ إذ بها تظهر عظمة الاختيار، وفضيلة التّنوّع فلكلّ سياق ما يناسبه من الكلمات، ولكي تقف على الفوارق بين لفظة ولفظة لا بـدّ لك من النَّظر في المعجم نظراتٍ ونظراتٍ.

وللدّكتور المستغانمي وقفاتٌ مـع المعجـم تـنمُّ عـن إلمـام واسـعٍ للغايـة بكيفيّـة الحصول على مبتغاه؛ فليس الغرض عنده تجميـع مـا قيـل هنـا وهنـاك دون تحديـد الملمح الفاصل بين الكلمات ـــ وهذا ما يفعله كثيرون، وإنّـما البحـث عـن الـدّقائق الفارقة بين كلمة وأختها هو غايته المثلى وضالّته المنشودة.

والأمثلة على دقّته في البحث عن الفوارق الدّقيقة بـين الألفـاظ كثـيرةٌ في تحليلـه لآيّ القرآن الكريم، نذكر منها:

1. التّفريق بين كلمتي (**جبل/ طور**).[9]
2. التّفريق بين كلمات (**عُنُق/ رقبة/ جِيد**).[10]
3. التّفريق بين كلمتي (**فَكّ/ تحرير**).[11]
4. التّفريق بين كلمات (**البصر/ العين/ النّظر/ الطّرف**).[12]
5. التّفريق بين كلمات (**الرّدّ/ النّكص/ الانقلاب على الأعقاب**).[13]

ثانيًا: التَّصريف (الألفاظ متحدّة الجذر مختلفة الصِّيغة):

مهمّة جدًّا هذه الأداة؛ فقد تجد في سياق واحد أو عدّة سياقات كلمات جذرها اللغويّ واحد، لكنّها تتناوب في الظّهور، مثل: (غافر/ غفّار/ غفور)، (أنزل/ ينزل)، (يُخرج/ مخرج)، والتّفريق بين هذه الصّيغ ضروريٌّ للوقوف على سرّ مجيء إحداها دون غيرها في سياق ما، ويلزم لهذا التّفريق العَود إلى الكتب التي تبحث في معاني الأبنية والصّيَغ.

والمطالِع لتحليلات الدّكتور المستغانمي يجد وقفات ماتعة مع بعض الصِّيغ الصّرفيّة، ومدى ملاءمتها للآية التي وردت فيها، ومن ذلك على سبيل المثال:

1. يقول في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾[14] (وتفيد صيغة المضارع (يُصَبُّ) عدم انقطاع العذاب عنهم؛ فهم يذوقون أصناف العذاب باستمرار).[15]

2. ويقول في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾[16] (ويدلّ على شدّة الغضب في السّياق أيضا أشياء؛ منها (غضبان) على وزن (فعلان)، وهي تدلُّ بأصل بنيّتها الصّرفيّة على الامتلاء؛ فهو ممتلئٌ غضبا، و(أَسِفًا) وهي **صيغة مبالغة على وزن (فَعِل)، تصف شدّة الأسف والحزن الذي اعتراه).**[17]

3. ويقول: (**وإسناد صفة اللهو إلى القلوب (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ)**[18] **جاء بصيغة اسم الفاعل** أيضا فيه **دلالة على ثبات وديمومة** اتّصافهم بهذه الصّفة الذّميمة).[19]

فانظر كيف يلتفت سيادته إلى هذه الدّقائق اللّطيفة في معاني الصّيغ (المضارع المبالغة، اسم الفاعل...)، وكيف يوظف ذلك في توضيح خصوصيّة السّياق.

ثالثًا: التّفاسير: لا غنى لباحث في بلاغة القرآن عن التّفاسير، لاسيّما التّفاسير التي تهتمّ بالجوانب البلاغية في القرآن الكريم، مثل: تفسير الزّمخشريّ، وتفسير البِقاعيّ وتفسير الطّاهر بن عاشور، وغيرها؛ فالتّفاسير هي التي تبيّن المقصود من الآيات وعلى أساسٍ من هذا التّبيين تنطلق عمليّة التّدبّر والتّحليل.

ويُخطئ البعض فيحسب أنّ الغرض هو تسويد الصّفحات بالنّقل من التّفاسير دون التّركيز على النّقطة البحثيّة التي هي تحت المِجهر، وليس الأمر هكذا، فلسنا نأخذ من التّفاسير إلّا بقدر الحاجة.

إنّ النّاظر إلى طريقة تعامل الدّكتور المستغانمي مع التّفاسير يدرك تمام الإدراك أنّه أمام عارف بخبايا التّفاسير، فتراه يأخذ منها ما يفي بالغرض دون إخلال أو إملال، ولا يقتصر على التّفاسير القديمة فقط، بل يتعدّاها إلى أحدث التّفاسير المعتبرة، ونظرة سريعة إلى قائمة مصادره ومراجعه تُثبت ما نذهب إليه، ثمّ هو لا يكتفي بمجرّد سرد كلام المفسّرين، بل تراه يعلّق، ويرجّح، ويرفض أحيانًا في أدب جمٍّ وعلم راسخ.

رابعًا: أسباب النّزول: تمثّل أسباب النّزول السّياق المقامي أو الحالي للآية أو الآيات، وغير خافٍ أنّه لا يوجد سبب نزول لكلّ آية في القرآن، بل إنّ هناك سُوَرا

كاملة لم يرد في أي آيةٍ سبب نزول، ومعرفة هذه الأسباب من مظانّها الصّحيحة يفيد في تحليل النّظم القرآنيّ.

وقد التفت الدّكتور المستغانمي في غير موضع إلى أسباب النّزول، واسترشد بها في تأمّله للسّياق القرآنيّ العظيم؛ ومن ذلك:

1. الإشارة إلى آية (الأحزاب: 19) التي نزلت في **غزوة الخندق.**[20]

2. الإشارة إلى آية (الفتح:11) التـي **نزلـت في المتخلّفـين عـن رسـول الله** ﷺ في **غزوة الحديّبية.**[21]

3. الإشارة إلى آيتي (النّور:14، 15) اللّتين نزلتا في **حادثة الإفكّ.**[22]

خامسًا: البلاغة: البلاغة وعلومها مَعين أساسٌ ينهل منه الواقف في محراب كلام **الله**، إذ أصل الإعجاز بلاغة التّعبير، وكلّ وقفة مع ومضة من ومضات الإعجاز إنّما مردّها إلى أداة البلاغة، ولا يتصوّر سابح في بحر القرآن بلا مجدافين وسترة نجاة من علوم البلاغة الثّلاثة (المعاني، والبيان، والبديع).

ومن نافلة القول أنّ نصرّح بأنّ الـدّكتور المسـتغانمي سـابحٌ مـاهر مـتمكّن مـن الغوص في بحار البلاغة وعلومها، لكنّا نشـير إلى سـمة نحسـبه مـن القلائـل فيهـا وهي وقفته مع الآية أو الآيات لإيضاح ما فيها من ملامـح بلاغيّـة ترتـدّ إلى علـوم البلاغة الثّلاثة كلّها أو بعضها، فتجده يقول: (**أمّا من ناحيّة علم المعانيّ**)[23] ثمّ يقـول: (**أمّا من ناحيّة علم البيان**)،[24] ومثل هذا المسلك يوفّر الجهد، ويُظهـر عظمـة القـرآن

ويبتعد عن تجزئة السّياق إلى أجزاء صغيرة في مواطن متفرّقة تَذهب برونقه وتطفئ بريقه.

سادسًا: الشِّعر: نزل القرآن والشِّعر متربّعٌ على عرش البيان؛ فاكتسب الشِّعر بذلك حجّة قويّة على قوّته وأثره العميق في النّفس؛ إذ لا تظهر المعجزة إلّا في وقت يكون فيه موطن النّبوع (الشِّعر) قد وصل إلى الأمد الذي ليس بعده أمدٌ في النَّبوغ والظّهور، وإنّ ذيوع مقولة (الشِّعر ديوان العرب) لأدلُّ دليل على ما يمثله الشِّعر في ذاكرة التّأليف العربيّ، وفي مجال تدبّر القرآن كثيرًا ما نحتاج إلى أداة الشِّعر، وقلّ من يولي اهتماما لها.

ومن هذه القِلّة الدّكتور المستغانمي، فقد عقد في نهاية كتابه (**بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم**) فهرسا خاصًّا بأبيات الشِّعر الواردة فيه، فهو يركن إليه في مواطن عديدة، يوضِّح به معنى، أو يؤكد به آخر، أو يرجّح به وجهًا على وجه؛ ومن ذلك:

1. يقول: (**فاستعمال (الخُرطوم) استعارة؛ لأنّه لفظ خاصّ بالفِيَلة والخنازير على شاكلة استعارة (المِشفر) ـ وهو شفة البعير ـ الإنسان غليظ الشّفة:**

فلو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قرابتي ... ولكنَّ زنجيًّا غليظ المشافر.[25]

2. ويقول: (**ومثل زلل القدم: التّعبير بزلل النّعل، قال الشّاعر زُهير بن أبي سلمى:**

تداركتما الأحلافَ قد ثُلَّ عرشُها ... وذُبيانَ قد زلَّتْ بأقدامها النَّعلُ[26]

3 . ويقول: (**وسُمّي قلبُ الإنسان من تقلّبه، قال الشَّاعر:**

وما سُمّي الإنسان إلّا لأُنسه ولا القلبُ إلَّا أنَّه يتقلّبُ[27]

سابعًا: علومٌ مساعدةٌ: ثمّة علوم أخرى، لا نقول إنّها غير مهمّة، ولكنَّ الحاجة إليها ليست كالحاجة إلى العلوم التي سبقت، وهي مع ذلك أدوات مفيدة، وتشارك أحيانا في التّحليل والوصول إلى سرّ المناسبة ومكمن الاتّساق، ومن هذه العلوم: علم القراءات وعلم الطَّبيعة، وعلم الفلسفة، وغيرها، وقد عرّج الدّكتور المستغانمي على هذه العلوم، وأفاد منها في تحليله للنَّصِّ القرآنيّ، ولا شكّ أنّ في العود إلى مثل هذه العلوم دليلًا على سعة الاطّلاع، وإدراك طبيعة البحث في بلاغة القرآن، تلك الطّبيعة التي تتكئُ على كلّ ما من شأنه إيضاح وجه الملاءمة؛ ومن أمثلة ذلك:

1 . يقول: **وجمهور القرّاء قرأوا بإسناد الفعل إلى المتكلّم المعظّم نفسه:** (**أَغْفَلْنَا**).[28]

2 . ويقول: ثمّة علاقة وطيدة بين (فارغا) وبين (هواء)، حتّى إنَّ علماء الطّبيعة يطلقون على الفراغ: الهواء، ويُطلقون على الهواء الفراغ الكَوني.[29]

3 . ويقول: وقد اختلف العلماء والفلاسفة في تحديد موطن العِلم الحادث ولكنَّ الأدلّة السّمعيّة تدلّ على أنَّ محلَّ العلم هو القلب.[30]

تلك كانت أهمّ الأدوات التي وقعت تحت أيدينا في طريق تفحّصنا لبعض مؤلّفات الدّكتور المستغانمي، ونحسب أنَّ غيرها الكثير والكثير ممَّا ندَّ عنَّا

ونحسب كذلك أنَّ الدَّكتور المستغانمي يمتلك شمولِيّة في الأدوات، وقد أحسن استثارة طاقاتها الكامنة، وحقّق بها غايات حميدة في مجال تدبُّر القرآن، ونحن إذ نُشير إلى تلك الأدوات نرمي إلى شيئين؛ **الأوّل**: إبراز ما للدّكتور المستغانمي من دور مرموق في ساحة التَّحليل القرآنيّ، **والثَّاني**: لفت أنظار الباحثين إلى أهمَّ أدوات البحث في بلاغة القرآن، وإرشادهم إلى الطّريقة المثلى من الاستفادة منها، وتنبيههم إلى المزالق التي قد يقعون فيها، وكيف يتخلّصون منها، وفوق كلّ ذي علم عليم.

المبحث الثالث: مثاليّة المعالجة: تمرّ طريقة معالجة النّصّ القرآنيّ بمجموعة من الخُطُوات التي تجعلها معالجة جادّة ترنو ببصرها صوب المثاليّة، تقودها شخصيّة مُعَدَّةٌ مستعدَّةٌ، وتسعفها أدواتٌ كاملةٌ، وفي الكتب الثّلاثة التي قامت عليها هذه الورقة البحثيّة ثلاث معالجات لثلاث نقاط بحثيّة جديرة بالدّرس والتّحليل، وفيما يلي نحاول رصد تلك الخُطُوات التي اختطّها الدّكتور المستغانمي لكتاباته في تحليل النّصّ القرآنيّ، وسبيلنا الوحيد إليها الاستقراء والاستنباط، وهي:

أولًا: التّقاط البؤرة البحثيّة: لا يُتخيّل بحثٌ بلا فكرة محدّدة، واضحة في ذهن الباحث، والفكرة المشوّشة لا محالة تنتج بحثًا مشوهًا، وفي مداخل الكتب الثّلاثة للدّكتور المستغانمي تجد البؤرة الأصليّة والثَّغرة البحثيّة التي سيعالجها الكتاب فيصلك إحساس بأنّك أمام عقلٍ منظّمٍ يعرف أين تكمن البصمة واللّمحة: قصّة موسى عليه السلام[31] وتصريف القول فيها، والتّواصل غير اللّفظي بلغة الجسم[32] ومجموعات الأُسَر القرآنيّة.[33]

ثانيًا: تحديد إطار البحث: ثمّة من يُعمّم أبحاثه، ويتركها هكذا لتشمل كلّ شيء ثمّ لا يفي بشيء، وليس أسهل وأنجع من تحديد إطار البحث، إنّه يريحك ويريح قارئك، ويعبّر عن قوّة عقلك.

وفي مقدّمات كتب الدّكتور المستغانمي تجد ذلك جليًّا؛ فقصّة موسى عليه السلام سيتمّ تناولها في كلّ السُّور التي وردت فيها، وليس في سورة دون أخرى[34] وفي لغة الجسم سيقتصر على ما يخصُّ الإنسان وحده من أعضاء وجوارح، بعيدا عن الذّات الإلهيّة، وعن أعضاء الحيوان،[35] وفي مجموعات الأُسَر القرآنيّة سيضمّ السُّوَر متشابهة المطالع.[36]

ثالثًا: وضوح المنهج: لا بدّ لكلّ بحث من منهج يتّبعه أو عدّة مناهج، وليس هذا من قبيل التّرف والتّرفيه، وإنّما هو بمثابة عقد واتّفاق مع القارئ، وبحث بلا منهج واضح المعالم كسير في صحراء بلا خارطة طريق.

وستجد المنهج واضحًا جدًّا في كتابات الدّكتور المستغانمي، يذكر في بدايتها مجموعة الإجراءات المنهجيّة المتّبعة في بحثه؛ من جمع، وتصنيف، وتحليل واستقراء واستنباط، ووصف، ويمكن القول إنّه يعتمد ما يطلق عليه المنهج التّكامليّ، الذي يتشعّب ليشمل مناهج كثيرة.[37]

رابعًا: تحرير المصطلح: إشكاليّة المصطلح قديمة حديثة، شغلت الأقدمين، ولا تزال تشغلنا كلّما هممنا بالشّروع في الكتابة، ويؤثّر الكثيرون السّلامة على المغامرة

والتّجديد؛ فيستعمل ما هو شائع وقارّ في الأذهان، وإنّ كان هناك ما هو أولى منه وأجدر بالاختيار.

شاعت بين النّاس مصطلحات مثل (التّفنّن، والتّنويع، والتّكرار، والتّشابه) في مجال الحديث عن التّلوينات الواقعة في أسلوب القرآن الكريم، لكنّ الدّكتور المستغانميّ يختار لنفسه طريقًا أليق من وجهة نظره، وينافح عنه، ويؤصّل لها، إنّه يختار مصطلح (تصريف القول)[38] وبالمثل شاع مصطلح (لغة الجسد)، لكنّه اختار (لغة الجسم)، وكذلك شاع مصطلح (المصاحبات اللّغوية)، لكنّه اختار (التّجاذب اللّفظيّ).[39]

خامسًا: الإحصاء الدّقيق: الدّقّة في الإحصاء تؤدّي إلى نتائج ثابتة أو حقيقيّة وهي خُطوة ليست باليسيرة لكنّها ممكنة، وقد قيّض الله من كفانا مؤونة العدّ اليدويّ؛ فوجدت المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن الكريم، التي تيسّر أمر الإحصاء غاية التّيسر، لكنّ هناك أمورًا لم تُتحصى حتى الآن؛ فكم مرّة وردت أدوات العطف، أو الشّرط، أو النَّفي، أو الجزم؟ لا نعرف، وكم مرّة ورد حذف المسنَد أو المسنَد إليه؟ لا نعرف، وكم مرّة ورد التّقديم والتّأخير؟ لا نعرف، وقد اعتمد الدّكتور المستغانمي في مواضع جمّة من تحليلاته الماتعة على الإحصاء المُعدّ سلفًا والإحصاء الشّخصيّ؛ ومن ذلك:

1. الحصر الشّامل لمواطن الحذف والإطناب في قصّة موسى.[40]
2. قوله: (لم يستعمل لفظ (الجِيد) إلّا في هذا الموضع).[41]

3. قوله: (ولم يرد لفظ (اللِّحية) في غير هذا المقام من القرآن الكريم).[42]

4. قوله: (ولم يرد ذكر لهذه الحركة الجسميّة (ثَنْي العِطف) في غير هذا المقام من القرآن الكريم).[43]

5. الحصر الدّقيق لفواصل سورتّي (**الإسراء والفرقان**).[44]

سادسًا: الاهتمام بالسّياق: إنَّ السّياق هو العمدة في مجال البحث في بلاغة القرآن الكريم، فكل الأسئلة والإجابات تدور حول مدى ملاءمة الكلمة أو التّركيب أو الصّورة للسّياق الذي وردت فيه الآية أو الآيات، ولا يُتصوّر تحليل للنّصّ القرآنيّ دون مراعاة السّياق ومعلومٌ أنَّ السّياق أنواع متعدّدة.[45]

لقد كان الدّكتور المستغانمي على وعي تامٍّ بالسّياق وأثره في توجيه المعنى وقد تعدّدت إشاراته إلى السِّياق بنوعيه: المقاليّ والمقاميّ، وتنوّعت، ومن ذلك:

1. يقول وهو يحدّد الإجراءات المنهجيّة المتّبعة: (**ربط الآيات محلّ الدّراسة بسياقها ومقامها**).[46]

2. ويقول: (وليس لفهم هذا النّوع من التّقديم ضابط محدّد، إنّما مرجع فهم الآيات التي حوت تقديما أو تأخيرا غير اصطلاحيّ، والعاصمُ عن الوقوع في الخلل والإيهامات في فهم المقصود منها هو التّأمّلُ في السّياق؛ فالنّظرةُ السّياقيّةُ الواعيّةُ والقراءةُ المتدبّرةُ، ومقارنةُ الآيات بعضها ببعض مع الموازنة والاستنتاج ودراسة قرائن الأحوال، واختلاف المقامات، هي الطّريق السّليمة لفهم المراد من كلّ تقديم أو تأخير).[47]

3. ويقول مرجّحًا رأيا استنادا إلى اعتماده على السّياق: (والرّأي الذي أميل إليه هو ما ذهب إليه الدّكتور فاضل السّامرّائيّ معتمدًا على النّظرة السّياقيّة في التّوجيه والتّأويل).[48]

سابعًا: عدم الإغراق في النّقول: يحتاج الباحث في كثير من الأحايين إلى اقتباس آراء السّابقين، والذي ينبغي أن يراعى في ذلك قِلّة النّقل، واختصاره دون إخلال والاكتفاء بما يوضح الفكرة وليس العبرة بالكثرة، وإنّما بمدى خدمة النّصّ المنقول للفكرة المعالجة، والذي يوقع البعض في هذا المزلق الرّغبة في إظهار سعة الاطّلاع وتعويض النّقص في فهم الموضوع؛ فيوغل في النّقول دون تعلّيق أو ترجيح، ويظنّ أنّه أجاد صنيعًا. وقد لمحنا في مؤلّفات الدّكتور المستغانمي براعة في التّعامل مع النّقول، تتبدّى في الآتي:

1. عدم الإكثار منها، إلّا إذا دعت ضرورة مُلحَّة إلى ذلك.

2. مناقشة ما ينقل ـ في أكثر المواضع ـ مناقشة علميّة جادّة.

3. التّرجيح ـ غالبًا ـ بين الآراء، واختيار ما يميل إليه بالدّليل.

4. إظهار الاحترام البالغ لمن نقل عنهم، وتثمين كلامهم بالغالي والنّفيس يقول: (وقد أبدع ابن عاشور).[49]

5. ترك الخوض في الأمور التي تقع خارج التّحليل، مثل: الأمور الاعتقاديّة والخلاف بين الفِرق الإسلاميّة، وتأويلات الأسماء والصّفات).

6. الجمع بين النّقول القديمة والمعاصرة، والتّأليف بينها تأليفا يخدم الفكرة ويبتعد عن التّكرار.

ثامنًا: رُقي اللّغة: اللّغة هي المعبّر عن مكنونات الفكر، وقد تضيع أفكار جيّدة بسبب إلباسها ثوبًا لُغويًّا خَلِقًا، ويحتاج المؤلّف الحقّ إلى تكوين لغته الخاصّة التي تحمل بصمته التّعبيريّة التي تميّزه عن غيره، ومعنى هذا أنّه ينبغي تعهّد اللّغة وتنميّتها بكثرة الاطّلاع والممارسة.

ويبدو جليًّا لمن يطالع كتابات الدّكتور المستغانميّ تأثّره بلغة التّراث؛ حيث تتناثر هنا وهناك كلمات وتراكيب تراثيّة، ويبدو كذلك تمكّنه من العربيّة المعاصرة مع إلمامه بمصطلحات العصر الحديث التي تنتمي إلى الحقول العلميّة المتنوّعة الإنسانيّة منها والتّطبيقيّة، ثمّ لا تجد مع جمعه بين هذين النّمطين اللّغويين نُبُوًّا في التّعبير، ولا غموضًا، بل تجد بُعدًا عن الابتذال، وسلاسةً تأخذ بيدك إلى أعلى مراتب الفهم والاقتناع، ومن دلائل ذلك:

1. بعض الكلمات والتّراكيب التّراثية: (ليس قَمِنًا)[50] (أصاب المحزّ وطبّق المفصل وأتى بالرّأي)[51] (المهيع)[52] (دونه خرط القتاد)[53] (قيد أنملة)[54] (أثارة من شكٍّ)، (تتفتّق أكمامه).[55]

2. مصطلحات عصريّة: (شيفرات، الهندسة، البصمة).

تاسعًا: تلخيص النُّقطة المعالجة: يلتزم الدّكتور المستغانمي في كثير من النّقاط بتلخيص الفكرة المعالجة، وذلك بعد أن يقلّبها من جهاتها المحتملة كلّها، فهو لا

يترك القارئ في تخبّط وحيرة، بل يعرض الأمر عرضًا علميًّا يليق بالمتخصّص، ثمّ لا يغفل عن المتلقّي العادي فيُجمل له الخلاصة في جمل يسيرة معدودة، فكثيرًا ما يقول: (خلاصة القول)[56] (وجملة القول)[57] (وحاصل القول)[58] وهذا مسلك طيّب يهوّن مصاعب القراءة وعناء الفهم، وقلّ من يراعي ذلك.

عاشرًا: مراعاة المتلقّي: لا يكتب العالم حين يكتب إلّا وهو يضع القارئ بين ناظريه، إنّه لا يكتب لنفسه، بل لجمهور واسع متنوّع، والذي يغفل عن المتلقّي وهو يكتب حتمًا سينقطع الحبل بين فكرته والمتلقّي، وكثيرًا ما نسمع عبارات تتّهم كاتبًا ما بالصّعوبة والوعورة التي لا تناسب إلّا فئة ضئيلة للغاية على مضض؛ فيعزف النّاس عنه وتموت فكرته، وإن شهد له المتخصّصون بالرِّفعة.

وقد رأينا في النّقطة السّابقة (**تاسعًا: تلخيص النّقطة المعالجة**) كيف راعى الدّكتور المستغانمي القارئَ، ولخّص له الفكرة، وسنذكر هنا كيف خاطب فضيلته المتلقّيَ، وكيف عبّر عنه، ومن ذلك:

1. **أخذ مكان القارئ والتّفكير بعقله**: (وفي أوّل الأمر يتبادر **لذهن القارئ** بعض الأسئلة)[59] (وقد **يعجب القارئ**...) (كما **يجد القارئ**...)[60] (**قد يسأل سائل**).[61]

2. **الدّعاء للمتلقّي**: (وانظر **هداني الله وإيّاك**)[62] (فانظر يا **رعاك الله**).[63]

3. **مخاطبة القارئ**: (أبسط بين يديك أخي القارئ)[64] (فأنت ترى أخي القارئ).[65]

4. **تصنيف القرّاء: (القارئ العادي)**[66] **(القارئ الذّكيّ)**[67] **(القارئ المتدبّر)**.[68]

حادي عشر: الفهارس المفيدة: الفهرسة صنعة شاقّة ودقيقة، ولها رجالها القائمون بها على وجهها، وثمّ من يخبط فيها خبط عشواء؛ فتخرج عليلة شوهاء بهدف التّجارة والتّربّح، أو نقص الخبرة أو انعدامها، وهذه الفهارس التّيسير على القارئ بكلّ أصنافه.

وقد وجدنا في الكتب الثّلاثة التي اعتمدنا عليها في هذه الورقة البحثيّة فهارس قيّمة في نهاياتها، لم يخل كتابٌ منها، وتلك ميزة منهجيّة التزمها الدّكتور المستغانمي في هذه المؤلّفات؛ إيمانا بقيمتها، ونظرة سريعة إلى خواتيم الكتب تُظهر ذلك بما لا يحتاج إلى مزيد برهنة.

تلك كانت أهمّ النّقاط التي وقفنا عليها أثناء معايشتنا لتأمّلات فضيلة الدّكتور المستغانمي للقرآن الكريم، ولا شكّ أنّ موضوع المعالجة أعمق من هذا بكثير ويحتاج إلى خطُوات واضحة تساعد المبتدئ في مجال التّدبّر، وهذا ما أردناه من هذا المبحث؛ فقد أردنا إظهار طريقة الدّكتور المستغانميّ في التّدبّر، واستنباط إجراءات قد تمهّد الطّريق أمام الباحثين[69] والله يقدّر الخير ويهدي السّبيل.

خاتمة: تلبّثت هذه الورقـة البحثيّـة مليًّـا أمـام ثلاثـة مـن مؤلّفـات الـدّكتور المستغانمي، تُعنى بتحليل النّظم القرآنيّ، وقدّمت تصـوّرات عـن السّـمات البحثيّـة للمؤّلف، والأدوات التي اتّكأ عليها، والخُطـوط العريضـة لمعالجتـه الـنّصّ القـرآنيّ وخرجت بعدّة نتائج لعلّ أهمّها ما يلي:

1. جدارة ما أنتجه الدّكتور المستغانمي بالبحث والدّراسة، إذ يمثّل لبِنةً مهمّةً في صرح تحليل البلاغة القرآنيّة، فهو إنتـاج يجـوب أرجـاء القـرآن وجنباتـه، ويعتمـد المنهج العلميَّ الواضح، ويسير وفق آليّات العِلـم الرّاسـخة، ويقـدّم رؤى تسـتحقّ الاهتمام والنّظر والتّقدير.

2. حضور شخصيّة المؤلّف في كتاباته، عـبر التّحليـل والمناقشـة، والبحـث عـن مسالك مغايرة لما ارتضاه السّابقون، وقد بدا ذلك في اختيار المصطلحات، والإيـمان بالفكرة، وإثباتها بالدّليل، والمنافحة عنها، والاعتداد بها.

3. تمتّع فضيلته بحسّ تذوقيّ مرهـف، وطبـع تـدبّريّ مُـواتٍ، يجعـل التّحليـل سائغًا، بعيدًا عن ليِّ أعناق الآيات، ويُشعر القـارئ بمنطقيّـة النّتـائج، ويحملـه عـلى الاقتناع المصحوب بالإقرار اليقينيّ برفعة شأن القرآن.

4. شموليّة الأدوات البحثيّة مـن أهـمّ الأمـور التـي ينبغـي توافرهـا في سـاحة معايشة النّصّ القرآنيّ، وقد ضرب المؤّلف بسهام وافية في الإلمام بالأدوات، وطـرق استعمالها؛ فجاءت تأمّلات سيادته باهرة تُظهر عظمة القرآن، ودقّة اختياراته.

5. طريق معالجة النّظم القرآني مغاير لغيره مـن طـرق معالجـة نصـوص البشـر فالأخيرة تقبل النّقد والنّقض، ولا يسري هذا على القرآن الكريم؛ لـذا تحتـاج تلـك المعالجة إلى قدرٍ عالٍ من الحرفيّة والمثاليّة، وقد حقّق المؤلّف منهما الكثير والكثير.

6. ظهور دور الدّكتور المستغانمي في الاهتمام بالسّـياق، والمتلقّـي، وهمـا ركنـان أساسيّان في تحليل أيّ نصٍّ، وبخاصة النّصّ القرآنيّ.

7. بلاغة القرآن تشمل كلّ أجزائه، فكلّ ما فيه معجز ببلاغتـه، وقـد أوضـحت الموضوعات التي عالجتها الكتب الثّلاثة مدى ترابط أجزاء القرآن المتراميّة.

8. الحاجة إلى المزيد من الدّراسات حـول نظـم القـرآن وتحليلـه، فـالقرآن بحـر عميق واسع يلزمه بـاحثون جـادّون معَـدُّون بعنايـة، يغوصـون في تلـك الأعـماق ويجوبون الشُّطآن المتراميّة، ليكشفوا للنّاس أسرار إعجاز الكتاب الخالد.

9. لكلٍّ قارئ نصيبٌ من القرآن الكريم، فهذا يفهم المعنى، وهـذا يفهـم بعضـه وأعلى القرّاء درجة هذا الذي يفهم أو يحاول فهم كيف أُدِّيَ المعنى؛ إذ يدرك ساعتها سرّ الإعجاز، وسبب الخلود، وإلهيّة المصـدر، ولا يتـأتّى هـذا إلّا بعـد طـول تأمّـل ومزيد تبحّر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر:

1. بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، د. أمحمّد صافي المستغانمي، جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم، الإمارات، ط/ 1، 1442ه، 2020م.

2. تصريف القول في القَصص القرآنيّ ـ دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السلام د.أمحمّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، بيروت، ط/ 1، 1439ه، 2018.

3. جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور ـ رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة، د.أمحمّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، بيروت، ط/ 1 1439ه 2018.

ثانيًا: المراجع:

4. بلاغة القرآن: مداخل تأسيسيّة في تحليل النّظم القرآنيّ، د. أحمد رجب حجازي، عالم الأدب بيروت، ط/ 1، 2021م.

5. دلالة السّياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظيّ في قصّة موسى عليه السلام: فهد بن شتوي بن عبد المعين الشّتوي، رسالة ماجستير مقدمّة إلى قسم الكتاب والسنّة. كليّة الدّعوة وأصول الدّين، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعوديّة، إشراف: أ.د محمّد بن عمر با زمول 2005م، رقم: (42380297).

6. علم الدّلالة: أ.د أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط/ 5، 1998م.

7. قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق ط/ 4، 2009م.

8. اللغة العربيّة معناها ومبناها: أ.د/ تمام حسّان، دار الثّقافة، المغرب، د/ ط، 1994م.

9. مقدّمة في نظريّة البلاغة النّبويّة (السّياق وتوجيه دلالة النّص): د/ عيد بلبع، المدينة المنوّرة ط/ 1، 2008م.

الهوامش:

1- ص/ 29.

2- محمّد/ 24.

3- انظر: في صفات الباحث في كتاب الله: بلاغة القرآن: مداخل تأسيسيّة في تحليل النّظم القرآنيّ، د/ أحمد رجب حجازي، عالم الأدب، بيروت، ط/ 1، 2021م: ص/ 61 ـــ 70.

4- جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور ـ رؤيّةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة، د/ أحمّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، بيروت، ط/ 1، 1439ه، 2018: ص/ 261.

5- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، د/ أحمّد صافي المستغانمي، جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم الإمارات، ط/ 1، 1442ه، 2020م: ص/ 17.

6- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 18.

7- السّابق: ص/ 483.

8- انظر: في أدوات الباحث في كتاب الله: بلاغة القرآن: مداخل تأسيسيّة في تحليل النّظم القرآنيّ: ص/ 71 ـ 92.

9- انظر: تصريف القول في القَصص القرآنيّ ــ دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السلام، د/ أحمّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، بيروت، ط/ 1، 1439ه، 2018: ص/ 226.

10- انظر: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 69.

11- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 70.

12- السّابق: ص/ 155 ــ 158.

13- السّابق: ص/ 376.

14- الحجّ/ 19.

15- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 40.

16- الأعراف/ 150.

17- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 47.

18- الأنبياء/ 3.

19- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 415، 416.

20- انظر: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 179.

21- انظر: السّابق: ص/ 272.

22- انظر: السّابق: ص/ 273.

23- انظر: السّابق: ص/ 238، 336.

24- السّابق: ص/ 238، 282، 304، 336، 369.

25- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 255.

26- السّابق: ص/ 366.

27- السّابق: ص/ 385، 386.

28- السّابق: ص/ 411.

29- السّابق: ص/ 466.

30- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 477.

31- انظر: تصريف القول في القَصص القرآنيّ ـ دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السَّلام: ص/ 5 وما بعدها.

32- انظر: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 9، 10.

33- انظر: جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور ـ رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة: ص/ 16، 17.

34- انظر: تصريف القول في القَصص القرآنيّ ـ دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السلام: ص/ 13.

35- انظر: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 14.

36- انظر: جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور ـ رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة: ص/ 23، 24.

37- انظر: تصريف القول في القَصص القرآنيّ ــ دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السلام: ص/ 13 وبلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 14، 15.

38- انظر: السّابق: ص/ 17 ــ 39.

[39]– انظر: جواهر الدّرر في علم مقارنات السُّور ـ رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة: ص/ 34 ـ 36.

[40]– انظر: تصريف القول في القَصص القرآنيّ ـ دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السلام: ص/ 45 ـ 77.

[41]– بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 73.

[42]– السّابق: ص/ 83.

[43]– السّابق: ص/ 94.

[44]– انظر: جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور ـ رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة: ص/ 303 ـ 305.

[45]– يُقصد بالسِّياق هنا: تلك المجموعة من الآيات التي تتحدّث في موضوع بعينه، أو تنشد هدفًا واحدًا وهو نوعٌ من أنواع السّياقات، يسمّى أحيانًا: (السّياق اللغويّ الدّاخليّ) وأحيانًا: (سياق النَّص) وهناك أنواع أخرى تتّسع لتشمل السّورة القرآنيّة، وربّما تنظر إلى الأطراف المتراميّة للقرآن كلّه. ومن ناحية أخرى: هناك السّياق المقاليّ أو اللّفظيّ، والسّياق المقامي أو الحالي. انظر في تعريف السّياق وأنواعه: علم الدّلالة: أ.د أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط/ 5، 1998م: ص/ 68 وما بعدها، واللغة العربيّة معناها ومبناها: أ.د تمام حسّان، دار الثّقافة، المغرب، د/ ط، 1994م: ص/ 40 وما بعدها، وقواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرّحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط/ 4، 2009م: ص/ 499،151 وما بعدهما، ومقدمة في نظريّة البلاغة النّبويّة (السّياق وتوجيه دلالة النّص): د عيد بلبع، المدينة المنوّرة، ط/ 1، 2008م: ص/ 130 وما بعدها، ودلالة السّياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصّة موسى عليه السلام: فهد بن شتوي بن عبد المعين الشّتوي، رسالة ماجستير مقدمّة إلى قسم الكتاب والسنّة. كليّة الدّعوة وأصول الدّين، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعوديّة، إشراف: أ.د محمّد بن عمر با زمول، 2005م، رقم: (42380297): ص/ 12 وما بعدها.

[46]– بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 15.

[47]– تصريف القول في القَصص القرآنيّ ـ دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السلام: ص/ 93، 94.

[48]– انظر: السّابق: ص/ 236.

[49]– بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 110.

[50]– تصريف القول في القَصص القرآنيّ ــــ دراسةٌ بلاغيّةٌ تحليليّةٌ لقصّة موسى عليه السلام: ص/ 86.

[51]– السّابق: ص/ 107.

[52]– بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 167.

[53]– السّابق: ص/ 202.

[54]– السّابق: ص/ 205.

[55]– جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور ــــ رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة: ص/ 379.

[56]– بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم: ص/ 76، 92.

[57]– السّابق: ص/ 80، 122، 138، 184.

[58]– السّابق: ص/ 124.

[59]– جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور ــــ رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة: ص/ 275.

[60]– السّابق: ص/ 277.

[61]– السّابق: ص/ 315.

[62]– جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور ــــ رؤيةٌ تأصيليَّةٌ للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القرآنيّة: ص/ 290.

[63]– السّابق: ص/ 317.

[64]– السّابق: ص/ 357.

[65]– السّابق: ص/ 378.

[66]– السّابق: ص/ 309.

[67]– السّابق: ص/ 312.

[68]– السّابق: ص/ 359.

[69]– انظر في الخطُوات المنهجيّة لتحليل القرآن الكريم: بلاغة القرآن: مداخل تأسيسيّة في تحليل النّظم القرآنيّ ص: 119 ـ 135.

دراسـة تحليليّة لبرنامج البيان القرآني

أمحمّد صافي المستغانمي

الاسم والفعل في التّعبير القرآني أنموذجا.

ط .د ماموني إكرام
ج. بلحاج شعيب، عين تموشنت

اللغـة العربيّـة كانـت ولازالـتّ محطّـة فخـر واعتـزاز، ولازال الدّارسـون يواجهون صعوبات جمّة في دراستها من قوّتها، ولعل قوّتها نابعة مـن كونّهـا لغـة القرآن الكريم أشرف ما نزل على خير خلق الله سـيدنا محمّـد ﷺ كـلام الله تعـالى محكم البيان وسرّ فصاحة ، فمنه وضع الإعراب وذلك خوفا من اللحن .

وقد عكف العلماء على دراسـة القـرآن الكـريم، بحثـا عـن أسراره ومعانيـه ودلائل إعجازه، وظهر العديد من العلـماء الـذين وجهـوا اهـتمامهم إلى القـرآن الكريم دراسة وتفسيرا وإعرابا من بينهم الدّكتور (أمحمّـد صـافي المسـتغانمي) من علماء العربيّة المحدثين في الجزائر خاصّة والعالم عامّة له أنظار لغويّة في غايّـة الإتّقان، ألّف في مختلـف المعـارف ولاسـيما في مـا يتعلـق بالدّراسـات القرآنيّـة والبلاغيّة، ومن مؤلّفاته النّفيسة ما يلي:

- **كتاب جواهر الدُّرر في علم مقارنـات السّـور:** يمثّـل هـذا الكتـاب رؤيـة تأصيليّة لعلم مقارنات السّور الذي يعنى بإيضاح العلاقات والرّوابط المضمونة

واللفظيّة بين مجموعات السّور القرآنيّة التي أطلق عليها الدّكتور(أمحمّد صافي المستغانمي) مصطلح (الأسر القرآنيّة) وهو بحث في الرّوابط الدّقيقة ، وبيان الهندسة اللفظيّة الموزّعة في طيّات السّور المتشابهة المطالع ، والسّور المتشابهة الفواصل، والسّور التي تبدأ بأنساق وأنماط تعبيريّة متشابهة من غير أن تتّحد مطالعها في الموارد المعجميّة المستعملة.[1]

- **كتاب الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع:** فالخطابة من منظوره فنّ التّحدّث إلى الجماهير بإقناع وامتناع، ولها منزلة عاليّة عند العرب قديما وحديثا فمن خلال هذا الكتاب حاول الدّكتور (أمحمّد صافي المستغانمي) الإجابة على الأسئلة التّاليّة :

-ما الخطابة؟

-وما مقوّمات الخطيب النّاجح؟

-وما المهارات التي ينبغي له أن يمهر فيها؟

-وما الزّاد الذي عليه أن يتشبّع به ويرتوي منه؟

- وما العوامل المساعدة على نجاح الخطبة في العصر الحديث؟ ... وغيرها من الأسئلة التي يجيب عليها من خلال هذا الكتاب الذي يعتبر مرشد للخطيب المبتدئ.[2]

-**كتاب مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة:** يتناول فيه الكاتب أهمّ مفاتيح النّجاح وخطوّاته العمليّة التي تقود من اتّبعها إلى شاطئ النّجاح ويجعله يجني

ثمار تفوّقه وتميّزه بين كبار العلماء والباحثين من ذوي الملكات والمراتب العلميّة السّاميّة، وكبار الزّعماء والقادة من ذوي الرّؤى البعيدة، وجهابذة رجال الأعمال في دُنيا التّجارة والمال، يكادون يتّفقون على أنّ الإنسانيّة تعيش عصرها الذّهبي عصر الإنجاز والتّفوّق والإبداع، وفيه يوجّه القارئ بأنّ الله أنعم عليه بقدرات هائلة يستطيع بتوفيق من الله وعزم أن يحقّق كلّ ما يريد وذلك من خلال تعلّم الكيفيّة الصّحيحة لتفجير طاقتك الإبداعيّة وفي هذا الكتاب تجد المبادئ والقوانين التي عمل بها النّاجحون، والأساليب التي اتّبعوها والمهارات التي اكتسبوها، والاستراتيجيّات التي رسموها ونفّذوها والإجراءات العمليّة التي طبّقوها وارتقت بهم إلى مدارك الجوزاء في التّألّق.[3]

- **تصريف القول في القصص القرآني دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام.** يعالج فيه الدّكتور (**أمحمّد صافي المستغانمي**) قضيّة تصريف القول وتنوّعه في عرض مضامين قصّة موسى عليه السلام بأثواب وطرائق تعبيريّة متنوّعة في سور قرآنيّة شتّى، ركّز فيه على تحليل مشاهد من القصّة ذاكرا جملة من الفروق من عدّة زوايا وهي:

-علم المعاني من جماليّات التّوكيد؛

-وجماليّات الفصل والوصل؛

-وعرض نماذج من الجملة الاسميّة والفعليّة والفروق بينهما؛

-وجوانب من الإيجاز والمساواة والإطناب؛

- نماذج من الجمل الإنشائيّة والخبريّة الواردة في بعض مشاهد القصّة؛

-وضّح بعض جماليّات الاستئناف مع إشارة إلى جملة من أغراضه البلاغيّة؛

-ركّز على إيضاح الفروق الدّلاليّة لكثير من الألفاظ المتقاربة والمترادفة؛

- بيّن جماليّات انتقاء المفردة القرآنيّة؛

-وضّح تناسب المفردات والتّعابير بشكل عامّ مع جو السّورة والمشهد الذي جاءت فيه.[4]

- **كتاب بلاغة النّظم في لغة الجسم في القران الكريم**: الذي قدّم فيه الدّكتور (أمحمّد صافي المستغانمي) دراسة تحليليّة لما ورد في القرآن الكريم من التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بأعضاء جسم الإنسان، في محاولة لفهم الدّلالات البلاغيّة الخاصّة بأعضاء الجسم، والتي جاءت في مواضع كثيرة من الذّكر الحكيم ويتوزّع الكتاب على أربعة أبواب وهي:[5]

الباب الأوّل: توضيح الرّأس والعنق.

الباب الثّاني: توضيح الجسم وما حوى.

الباب الثّالثّ: الأيدي والأرجل.

الباب الرّابع: القلب والصّدر.

-**كتاب كيف تصبح فصيح اللسان؛**

-**كتاب هندسة السّورة القرآنيّة: رؤية تأصيليّة؛**

-**كتاب ديباج القرآن وعرائس الفرقان؛**

-**جهوده القيّمة في المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة .**

-**برنامجه (في رِحاب سورة):** برنامج يعرض السّور القرآنيّة سورة ويبيّن فيها الملامح العامّة لكلّ سورة ترتيبها في المصحف الشّريف ملمح الاتّساق والانسجام في تعابير إيقاعها الصّوتي العامّ، ومعالم شخصيّتها، وما تتميّز به عن أخواتها المكّيات والمدنيّات وسبب نزول آياتها ، وبيان تناسق مطاع كلّ سورة مع خاتمتها ، والمواضيع التي تتناولها بشكل عامّ والإشارات العلميّة والقيّم الخلقيّة والتّربويّة التي تتضمّنها السّور بالإيقاع اللفظيّ والبيانيّ والثّوب اللغويّ وغير ذلك من الملامح والخصائص التي تميّزها عن غيرها.

- **دراسة تحليليّة لبرنامج البيان القرآني**: إذ تمثّل منجزاته اللغويّة مرجعيّة واضحة المعالم، تستدعي الوقوف على تفاصيلها وتحليلها، ولعلّ من أهمّ منجزاتها برنامجه البيان القرآني برنامج حواري يبرز لنا الأوجه البلاغيّة والبيانيّة والجماليّات اللغويّة في القرآن الكريم والذي تطرّق فيه إلى مواضيع مختلفة والتي منها سوف نحلّل إحدى مواضعه:[6]

- مقارنة لقصّة آدم عليه السلام في سورتي البقرة والأعراف؛

-بشارة الملائكة لزكريا بولده يحي عليه السلام في سورتي آل عمران ومريم؛

- تكّرار القصص القرآني وأسراره قصّة موسى عليه السلام؛

- قصّة موسى عليه السلام في مواجهة السّحرة؛

- الاحتراز للمعنى في التّعبير القرآني؛

- أسلوب النّداء في القرآن الكريم؛

-الخطاب في القرآن الكريم؛

- من بلاغة المتشابه اللفظي؛

- الفاصلة القرآنيّة؛

- تكّرار القصص القرآني 1؛

-تكّرار القصص القرآني 2؛

-تكّرار القصص القرآني 3؛

-التّضمين في التّعبير القرآني؛

- بلاغة حروف الجر؛

-بلاغة الإظهار والإضمار؛

-الالتّفات في التّعبير القرآني1؛

- الالتّفات في التّعبير القرآني2؛

- العدول في التّعبير القرآني؛

- بلاغة أبنيّة الصّفات؛

- بلاغة أبنيّة المصادر؛

- التّرادف والتّقارب في الألفاظ 1؛

- التّرادف والتّقارب في الألفاظ2؛

- التّرادف والتّقارب في الألفاظ3؛

- التّوكيد في القرآن الكريم؛
- التّوكيد وبهاء التّوكيد في القرآن الكريم؛
- إسناد الفعل إلى غير فاعله في القرآن الكريم؛
- الاسم والفعل في القرآن الكريم؛
- الذّكر والحذف في القرآن الكريم 1؛
- الذّكر والحذف في القرآن الكريم2؛
- التّقديم والتّأخير في ألفاظ القرآن الكريم1؛
- التّقديم والتّأخير في ألفاظ القرآن الكريم 2؛
- تنوّع الجموع للمفرد الواحد في القرآن الكريم1؛
- تنوّع الجموع للمفرد الواحد في القرآن الكريم 2؛
- مفهوم البيان القرآني.



برنامج البيان القرآني(الاسم والفعل في التّعبير القرآني أنموذجا): قد شكلت ظاهرة توظيف الاسم والفعل من منظور أمحمّد صافي المستغانمي في القرآن الكريم الذي يعتبر المصدر الأوّل من مصادر علم النّحو سمة بارزةً، إذ نرى في القرآن الكريم في بعض سياقاته توظيف الاسم وفي البعض الأخر توظيف الفعل، وقد يكون في الآيّة الواحدة يستعمل ذات الكلمة بصيغة الفعل أو صيغة الاسم ممّا يجعل من يتلو آياته يقف متدبرًا حائرًا عن سر العدول إليها.

نماذج تطبيقيّة من القرآن الكريم: قد مثّل أمحمّد صافي المستغانمي لظاهرة العدول إلى الاسم والفعل بسور وآيات من القرآن الكريم نذكر منها :

المثال الأوّل: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[7]

موطن الشّاهد : قل ، أعبد ، عابدون ، عابد ، عابدون.

وجه الاستشهاد: في هذه السّورة تنوّع استعمال الفعل والاسم، فكلمة قلْ جاءت بصيغة الفعليّة (فعل أمر مبني على سكون وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت).

وكلمة أعبد كذلك جاءت بالصّيغة الفعليّة (فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضّمة الظّاهرة على آخره وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا).

وكلمة عابدون كذلك جاءت بالصّيغة الاسميّة (اسم فاعل صيغ من الفعل الثّلاثي (عَبَدَ) واسم الفاعل منه على وزن فاعل، أي: عابد، وقد جاء بصيغة الجمع). وكذلك كلمة عابد جاءت بالصّيغة الاسميّة (اسم فاعل صيغ من الفعل الثّلاثي (عبد) واسم الفاعل منه على وزن فاعل ، أي: عابد ، وقد جاء بصيغة المفرد). وكذلك كلمة عابدون جاءت بالصّيغة الاسميّة (اسم فاعل صيغ من الفعل الثّلاثي (عَبَدَ) واسم الفاعل منه على وزن فاعل ، أي: عابد وقد بصيغة الجمع).

وإنّ استعمال الفعل في اللغة العربيّة هو استعمالٌ دقيق؛ لأنّ الفعل يفيد التّجدد والحدوث، بينما الاسم يفيد في اللغة العربيّة الثّبات والدّيمومة والاستمراريّة.

وفي سورة الكافرون الله عندما أمر محمّد ﷺ أن يقول للمشركين وأن يجاهرهم وذلك في قوله تعالى﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[8] استخدم الصّيغة الفعليّة أي: لا أحدث عبادة ما تعبدون لا الآن ولا في المستقبل .

وفي قوله تعالى﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾[9] استخدم الصّيغة الاسميّة، فنفى عنهم أن يعبدوا إلاههم.

وفي قوله تعالى﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾[10] استخدم الصّيغة الفعليّة، فنفى عن (الرّسول الله ﷺ) أن يعبد آلهتهم.

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ [11] نفى عنهم أن يعبدوا الله فاستخدم الصّيغة الاسميّة، فنفي عن (الرّسول الله ﷺ) أن يعبد ألهتهم اللات والعزى ومنات الثّالثّة ... وكلّ ألهتهم المزعومة المزيفة فالنّفي جاء بالصّيغتين الفعليّة والاسميّة.

بصيغة الاسميّة، أي: لا أعبد آلهتهم إطلاقا فهو ثابت عن هذا المبدأ وبالصّيغة الفعليّة لا يعبد آلهتهم في المستقبل إطلاقا.

فالنّفي عن (الرّسول ﷺ) فكان بالصّيغتين الاسميّة والفعليّة وهو أكمل الوجوه.

أمّا النّهي عن الكفار نهي بالصّيغة الاسميّة لأنّهم متّصفون بالكفر وهو مرافق لهم ، لكن لا تنفي عنهم أن يحدثوا إيمانا يوما ما فهناك من آمن ودخل الإسلام .

أمّا نفي عن الرّسول ﷺ أن يعبد آلهتهم كان بالصّيغة الفعليّة في الحال والماضي والمستقبل.[12]

المثـال الثّـاني: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.[13]

موطن الشّاهد: ليعذبهم، معذبهم.

وجه الاستشهاد: في هـذه الآيـة الكريمـة الله يكـرّر فيهـا بـأنّهم لـن يعـذب المسـلمين المـؤمنين والرّسـول ﷺ بـين ظهـرانيتهم ، وجـود محمّـد ﷺ في الأمّـة الإسلاميّة هو وجود مؤقّت فقد دام فقط ثلاثة وعشـرين عامًّـا وعليـه لمـا كـان وجود رسول الله ﷺ وجود مؤقّت استخدم الصّـيغة الفعليّـة- ليعـذّبهم - التـي تفيد التّدقيق في الزّمن.

معذّبهم اسم فاعل يفيد الثّبات والدّيمومة فاستخدم الصّـيغة الاسـميّة التـي تفيـد الدّيمومـة، كـون أنّ الاسـتغفار دائـم مـن عهـد آدم عليه السلام إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها، فمادام المسلمون يستغفرون الله تعالى، فالله لـن يعـذبهم فـما أدق البيان القرآني.[14]

المثال الثّالثّ: قال الله تعـالى﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.[15]

موطن الشّاهد: يخرج الحيّ ، مخرج الميت .

وجه الاستشهاد: الحيّ من صفته الحيويّة والتّجدد ، فالحيّ يناسبه الفعل لأنّـه مؤقّت في هذه الحياة ويتجدّد باستمرار ، بينما الميت جثّة هامدة لا تتحرك ثابتة .

فلما جاء الخطاب مع الحيّ استعمل الصّيغة الفعليّة (يخرج) التي تفيد التّجدّد والاستمرار وهو يناسب الحي لأنّه مؤقّت في هذه الحياة .

ولما جاء الخطاب مع الميّت استعمل الصّيغة الاسميّة (مخرج) التي تفيد الدّيمومة والثّبات وهو يناسب الميت لأنّه جثّة هامدة.[16]

المثال الرّابع: قال الله تعالى﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[17]

موطن الشّاهد: تؤتي، تنزع، تعز، تذل.

وجه الاستشهاد: في الآيّة الكريمة نلاحظ توالي الأفعال المضارعة (تؤتي تنزع ، تعز ، تذل)، وسياقها يتحدّث عن التّغير وقدرة الله تعالى في إعطاء والمنع والتّمليك ونزع الملك وإيلاج الليل في النّهار ... وعليه نلاحظ الحيويّة والحركة من أوّل الآيّة إلى آخرها وتناسقاً عجيباً ، فالسّياق كله أفعال يفرض علينا استعمال الصّيغة الفعليّة.[18]

المثال الخامس:﴿ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴾[19]

موطن الشّاهد: تدعوهم، أدعوتموهم.

وجه الاستشهاد: الأصل في الإنسان الصّمت لا يتحدث إلّا لعارض في الكلام، فالله سبحانه وتعالى استخدم الصّيغة الفعليّة في الحالة الطّارئة -تدعوهم إلى الهدى لا يتّبعوكم-.

واستخدم الصّيغة الاسميّة في الحالة الأصليّة وهي الصّمت –أدعوتموهم أم أنتم صامتون–.[20]

المثال السّادس: قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[21]

موطن الشّاهد: امنوا، مستهزؤن.

وجه الاستشهاد: المنافقون عندما يأتون إلى المؤمنين كانوا ا يخاطبونهم بالصّيغة الفعليّة للدّلالة على إيمانهم المؤقّت وعودتهم السّريعة إلى الكفر.

و لما عادوا إلى شياطينهم قالوا لا إنّا معكم جملة اسميّة مؤكدة ما ، أكدوها بجميع المؤكدات ليبرؤوا أنفسهم من أنهم لم يتبعوا محمّداً ﷺ.[22]

المثال السّابع: قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾[23]

موطن الشّاهد: قالوا سلامًا قال سلامٌ.

وجه الاستشهاد: في هذه الآيّة يوجد حذف للفعل والاسم والحركات الإعرابيّة هي التي تؤكّد ذلك وتبيّن نوع المحذوف، وفيما يلي التّوضيح:

الضمّتان دليل على أنّ محذوف اسم (سلامٌ)، والفتحتان دليل على أنّ محذوف فعل (سلامًا).

سلامًا: نائب مفعول مطلق منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظّاهرة على آخره أي: نسلم سلاما.

سلامٌ: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضّمة الظّاهرة على آخره وخبر محذوف تقدير: السّلام عليكم.

الملائكة عندما جاؤا (لـ إبراهيم عليه السلام) قالوا سلاما، جملة فعليّة مؤقّتة بذلك الزّمن .

و(إبراهيم عليه السلام) رد عليهم بجملة اسميّة –ردي سلاما وهي أجمل وأقوى في الرّد، إذ طبق قول الرّسول ﷺ(إذا حييتم بتحيّة فحيوا بأحسن منها أو ردوها) وعليه الجملة الاسميّة أقوى في الرّد من الجملة الفعليّة وهي من النّكت التي أدركها الطّاهر بن عاشور والأوسي من خلال تفسيرهما.[24]

المثال الثّامن: قال الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.[25]

موطن الشّاهد: صافات، يقبضن.

وجه الاستشهاد: العدول في هذه الآيّة لصيغة الاسميّة (صافات) لسبب فالطّير عندما تطير في السّماء أصل في طيرانها أن يكون حافا جناحيه مادام الأصل هو صف جاء بالصّيغة الاسميّة التي تدلّ على الثّبات .

يقبض الطّائر في حالة النّزول أو الصّعود خصوصا في الحالات المؤقّتة العارضة وعليه يقبض يناسبها الفعل لأنّها حالة عارضة مؤقّتة.[26]

4. **خاتمة**: وأخيرا من خلال هذه الرّحلة الماتعة بين صفحات القرآن الكريم ومختلف الدّراسة النّحويّة والتّفسيريّة التي قدّمها الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي من خلال برنامجه البيان القرآني وقد اخترنا موضوع الاسم والفعل في القرآن الكريم وتوصّلنا من خلالها إلى النّتائج التّاليّة:

1 - الله جلّ علاه منّ على كلّ بيئة عربيّة برجال صدقوا ما عاهدوا الله للحفاظ على لغة القرآن الكريم الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي رجل من هؤلاء الرّجال الجزائر خاصّة والعالم العربيّ عامّة حملوا لواء الحفاظ على اللغة العربيّة لغة القرآن الكريم.

2 - للدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي منظومة معارف واسعة المدى، وله مؤلّفات جديرة أن تأخذ حيّز التّطبيق.

3-القرآن الكريم مادّة خصبة لدراسة الاسم والفعل وقد شغل الاسم والفعل في القران الكريم حيّزا كبيرا في النّص القرآني.

4-الصّيغة الفعليّة في القرآن الكريم وغيّره تدلّ على التّجدد والاستمراريّة.

5-الصّيغة الاسميّة في القرآن الكريم وغيّره تدلّ على الثّبات والدّيمومة.

6-الصّيغة الفعليّة في القرآن الكريم وغيره تدلّ على ثلاثة أزمنة الماضي والحال والمستقبل.

7-النّفي بالصّيغة الاسميّة والفعليّة في القرآن الكريم هو أكمل الوجوه.

8-النّهي عن الكفار نهي بالصّيغة الاسميّة لأنّهم متصفون بالكفر.

9-النّفي عن الرّسول ﷺ في عبادة الآلهة كان بالصّيغة الفعليّة التي تـدلّ عـلى الماضي الحال والاستقبال.

التوصيات:

-أرجو أن تتبع هذه الدّراســة بدراســات أخرى من برنامج البيان القـرآني لـ أمحمّد صافي المستغانمي بالتّحليل وتفسير وذلك لخدمة الدّين وابتغاء الأجر؛

- أرجو أن تكون مؤلّفاته حيز التّطبيق لدراسات عليا.

وختامًا؛ هذه ثمّرة جهديّ، فليعلم القارئ أني طالبة علم والكـمال لله وحـده سبحانه وتعالى، فإنّ أصـبت فـذاك مـن فضـل ربيّ وإن أخطـأت فمـن نفســي والشّيطان، والحمد لله ربّ العالمين.

قائمة المصادر والمراجع.

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb310252-299923&search=books -1

https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb282440-267695&search=books-2

https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb284292-269860&search=books -3

https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb321347-312009&search=books -4

https://omannews.gov.om/Arabic_NewsDescription/ArtMID/437/ArticleID/2332 -5

https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas-6.

5ـ الهوامش:

[1]- ينظر: https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb310252-299923&search=books

[2]– ينظر: https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb282440-267695&search=books:

[3]-ينظر: https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb284292-269860&search=books

[4]–ينظر: https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb321347-312009&search=books

[5]-ينظر: https://omannews.gov.om/Arabic_NewsDescription/ArtMID/437/ArticleID/2332

[6]- ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas -

[7]– سورة الكافرون.

[8]- سورة الكافرون: الآيّة 1و2.

[9]- سورة الكافرون: الآيّة 03.

[10]- سورة الكافرون: الآيّة 04.

[11]- سورة الكافرون: الآيّة 05.

[12]-ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

[13]– سورة الأنفال: الآيّة 33.

[14]–ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

[15]- سورة الأنعام: الآيّة 95.

[16]- ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

[17]- سورة آل عمران، الايّة 26.

[18]- ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

[19]- سورة الأعراف: الآيّة 193.

[20]- ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

[21]– سورة البقرة: الآيّة: 14.

[22]- ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

[23]- ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

[24]- ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

[25]-سورة الملك: الآيّة :19.

[26]- ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=VSq7UORWfas

دور إيتوس الخطيب في الإقناع

قراءة في كتاب
(الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)

The role of Aetos the orator in persuasion-
A reading in the book "The Successful Orator, between Factors of Persuasion and Means of Pleasure" By Muhammad Safi Mosteghanemi

د. الأخضر يلول
ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم

ملخص: يهدف بحثي إلى تتبع دور إيتوس الخطيب في الإقناع في كتاب (الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) للمستغانمي، ومعلوم أنّ الخطيب يهدف جاهدا إلى إقناع الجمهور، فيحشد ما لديّه من وسائل وآليّات لتحقيق هدفه.

وقد اعتمدت المنهج للوصفيّ التّحليليّ، مستعينا بـما قدّمه الحجاجيّون، عربا وغربا، ومحاولا الإجابة عن: هل، حقا، لمواصفات الخطيب دور في الإقناع؟ وقد توصل البحث إلى أنّ لإيتوس الخطيب دور بالغ الأهميّة في العمليّة الإقناعيّة.

الكلمات المفاتيح: إيتوس، خطيب، الخطبة، حجاج، إقناع، أمحمّد صافي المستغانمي.

Abstract: The present research paper aims to trace the role of Aetos the orator in persuasion in the book "The Successful orator, between Factors of Persuasion and Means of Pleasure" by Al-Mustaghanemi. The researcher

adopted the analytical descriptive method, using what was presented by the pilgrims, both Arabs and Westerners, in an attempt to answer the question: Do the orator's attributes really have a role in persuasion? The research concluded that Aetos the orator has a very important role in the persuasive process.

Keywords: Aetos, orator, sermon, pilgrims, persuasion, Muhammad Safi Mosteghanemi

مقدّمة: معلوم أنّ الخطيب (المتلفّظ بالخطبة) يسعى جاهدا لإقناع الجمّهور فيستعمل، لتحقيق ذلك، إستراتيجيّات خطابيّة وغير خطابيّة كثيرة؛ كالحجّة البليغة ... وقد ميّز المتخصّصون بين حجج جاهزة وأخرى صناعيّة، فالحجج أنواع: منها (ما يتعلّق بأخلاق الخطيب (الإيتوس) ومنها ما يتعلّق بميول المتلقي ونوازعه (الباتوس) ومنها ما يتعلّق بالخطاب (اللّوغوس).[1]

وفي كتاب (**الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**) لـ **أمحمّد صافي المستغانمي** يبيّن المؤلّف أهميّة المواصفات الّتي تتعلّق بذات الخطيب في خضمّ حديثه عن عوامل إقناع الخطبة، والتي تعرف عند (أرسطو) بـ (الإيتوس) ويجدر التّنبيه إلى أنَّ (المستغانمي) لم يذكر هذا المصطلح (الإيتوس) ولم يتناول الموضوع من ناحية حجاجيّة علميّة، مع أنّه تحدث عن أهميّة هذه المواصفات في الإقناع. من هنا يأتي بحثي ليبيّن دور هذه المواصفات في العمليّة الحجاجيّة الإقناعيّة، فارتأيت أنْ أقاربها من ناحية حجاجيّة إقناعيّة، فجاء عنوانه: (دور إيتوس الخطيب في الإقناع

قراءة في كتاب -الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع- لـ أمحمّد صافي المستغانمي.

وتتمثّل إشكاليّة البحث في: هل، حقا، لمواصفات الخطيب دور في الإقناع؟ ما أهميّة هذه المواصفات في قبول الجمهور للخطيب قبل التّلفّظ بالخطاب؟ وهل تساعدُ الحججَ اللوغوسيّة في تحقيق الهدف من الخطبة؟ هل استطاع المستغانمي أنْ يستفيد مما توصّلت إليه الدّراسات الحجاجيّة اليوم؟

وقد اعتمدت على مقولات أعلام الحجاج، غربا وعربا، مستنيرا بها لبلوغ غاية البحث، وتأتي أهمّية هذه الدّراسة، في نظري، في توضيح أهميّة ودور إيتوس الخطيب في العمليّة الإقناعيّة، وفي مقاربة موضوع كثيرا ما يهمل في الدّراسات الحجاجيّة العربيّة، -حسب اطّلاعنا- عند العرب؛ إذا ما قورنت ببقيّة إستراتيجيات الإقناع، رغم بعض الجّهود المبذولة، خاصّة عند (المغاربة)، فضلا عن تبيان أهميّة ما جاء به المستغانمي في هذا الكتاب المفيد في بابه.

وقد جاء بحثيّ في قسمين؛ الأوّل عرَّفت بالمؤلِّف والمؤلَّف ومفهوم الخطابة عند المستغانمي وإستراتيجيّة الإيتوس. أمّا الثّاني فقد تتبّعت فيه دور إيتوس الخطيب في العمليّة الإقناعيّة في كتاب المستغانمي.

أولا: تعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف ومصطلحات الدّراسة:

أ-تعريف بالمؤلِّف: أمحمّد صافي المستغانمي، وُلد بـ (مستغانم / الجزائر) في (07 أكتوبر 1965)، تحصّل على شهادة الليسانس في اللّغة والأدب العربيّ من (جامعة

وهران) سنة 1988م، وماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها بتقدير امتياز، الأوّل على دفعة 2009م، بـــ جامعة الشّارقة، كلّيّة العلوم والآداب، قسم اللغة العربيّة وآدابها عنوان الرّسالة: (تصريف القول في القصص القرآني، دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام)، دكتوراه في اللغة العربيّة تخصّص بلاغة عنوان الرّسالة (بلاغة النّظم في لغة الجّسم في القرآن الكريم) من (الجّامعة العالميّة الإسلاميّة- ماليزيا) وحاصل على دكتوراه في التّفسير من (جامعة ملايا، كوالالمبور) عنوان البحث (مظاهر التّجديد البياني في تفسير معارج التّفكر ودقائق التّدبر لحسن حبنكة الميدانيّ) شغل العديد من المناصب التّربويّة والإداريّة في الجزائر والإمارات، كتب العديد من الكتب، وهو باحث وخطيب وإعلاميّ وشاعر... [2]

ب-تعريف بالمؤلَّف:

اسم الكتاب: الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع.

اسم الكاتب: أمحمّد صافي المستغانمي.

عدد الصّفحات والقياس: (368 ص)، (17/ 24 سم).

دار ومكان والنّشر: دار ابن كثير، دمشق/ سوريا، بيروت/ لبنان.

الطّبعة والسّنة: الطّبعة الأولى، 2017م.

الوصف الخارجيّ للكتاب: الواجهة الأماميّة للكتاب بسيطة، خلفيّتها بنفسجيّة باهتة، وفي الأعلى وُضِع اسم الكتاب باللون الأسود، وبحجم متوسط، وتحته وضع عنوان الكتاب، وبخلفيّة زرقاء ناصعة، وكُتب العنوان باللّون الأبيض

(الخطيب النّاجح) بحجم كبير وتحته (بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) بجحم صغير، تحت العنوان توجد صورة مكبّر صوت مرسومة، إطارها حشود من النّاس، وحَوله حشد آخر متناثر، وفي الأسفل كُتبت دار النّشر بخطّ صغير. أمّا الواجهة الخلفيّة، فهي بلون الخلفيّة الأماميّة نفسه، ومكتوب عليها تعريف فنّ الخطابة والأسئلة المطروحة مع وصف لما في الكتاب بخطّ أسود بحجم صغير، وفي الأسفل علامة دار النّشر مع معلومات الاتّصال الخاصّة بها.

محتوى الكتاب: يتكوّن الكتاب من فصلين، فضلا عن مدخل بسيط. الفصل الأوّل معنون بـ: مقوّمات الفنّ الخطابيّ، ويقع في (166 ص)، يتكوّن من أحد عشر مبحثا، عرّف في المبحث الأوّل فنّ الخطابة، والثّاني أنواع الخُطب، والثّالث كيفيّة إعداد الخطبة، والرّابع الأسلوب الخطابيّ، والخامس مواصفات الخطيب النّاجح، والسّادس عوامل نجاح الخطبة، والسّابع مصادر ثقافة الخطيب النّاجح والثّامن هديّه -ﷺ- في خطبه، والتّاسع عيوب الخطبة وطرق معالجة بعض أدوائها والعاشر أنواع الخطباء، والحادي عشر وصايا ونصائح عامّة للخطباء.

والفصل الثّاني عنونه بـ: من روائع الخطب في عصور العربيّة الزّاهرة، يقع في 156 ص، ويتكوّن من ستّة مباحث، ينتخب في الأوّل جملة من الخطب الجاهليّة الرّائعة، وهكذا بترتيب العصور الأدبيّة، إلى المبحث السّادس الذي جمع فيه جملة من خطب العصر الحديث.

ج-تعريف الخطابة: يقدّم (المستغانمي) تعريفا لها، فيقول: «إنَّ الخطابة نـوع مـن النَّثر بخصائصه ومميّزاته عن الأنواع الأدبيّة الأخرى، ولا يمكن اعتبار الخطابة نثـرا فنّيّا أدبيّا وإنْ كانت تحتوي على الكثير من خصائصه البيانيّة ... ترّتكـز عـلى ركنـي الإقنـاع والاسـتمالة، ... خصائصـها الصّـدق والواقعيّـة وجديّـة المواضـيع التـي تطرحها وتناقشها، وتقوم على عنصـريّ الإقنـاع والاسـتمالة للتّـأثير في السّـامعين وإخراجهم من قناعاتهم وآرائهم ووجهـات نظـرهم إلى التّصـديق برؤيـة الخطيـب الذي أمامهم، والاقتناع بها والتّحـوّل مـن مـواقفهم إلى العمـل بـما جـاء في كلامـه ونصائحه».[3]

د- مفهوم الإيتوس: قُدِّمَ أكثر من مفهوم لهذا المصطلح؛ وذلك أنّ التّرجمة كانـت عائقا في وضوح المفهـوم.[4] ولعـلّ مـن أكمـل المفـاهيم التـي تعكـس حقيقـة هـذا المصطلح، ما قدّمه (محمّد مشبال)؛ فالإيتوس عنده؛ قـد (يـدلّ عـلى السّـمعة التـي يحظى بها المتكلّم خارج النّص الذي يواجهه السّامع... وقد يدلّ على الصّـورة التـي يرسمها المتكلّم لذاته فيما يشبه البورتريـه الـذّاتي، إذ يعمـد الخطيـب إلى ذكـر سـماته وفضائله. وقد يدلّ... على الصّورة الذّاتيـة التـي يسـتنتجها المتلقّـي مـن علامـات الخطاب المختلفة)،[5] إذا، فالإيتوس يكمن في: صورة الخطيب خـارج (قبـل إنتـاج) النّص وصورته داخل خطابه، وصورته التي يستنتجها متلقي نصّه عنه.

أمّا (أمينة الدّهري) فتقول: (الإيتوس: Ethos صورة الخطيب المتمثّلـة في قدرتـه الإقناعيّة، والتي يفترض أن يُفصح عنها خطابه، إضـافة إلى الصّـورة التـي يحوكهـا

المتخيّل الجماعيّ؛ كلّتاهما تمنحه مشروعيّة القول، فالأولى، خطابيّة موروثة عن التّصور الأرسطي، والثّانية قبْلية سابقة للخطاب، عملت على تطوّيرها كلّ من البلاغتين اللاتينيّة والعربيّة فيما بعد)[6] إذا، فالإيتوس عندها يتمثّل في صورة الخطيب في المتخيّل الجماعيّ، إضافة إلى الصّورة التي يُفصح عنها خطابه؛ والتي تكون من صنعه، طبعا، أمّا الصّورة التي يستنتجها المتلقّيّ فلم تعدّها إيتوسا!

أمّا (معجم تحليل الخطاب)؛ فقد ركّز على الصّورة التي يصنعها الخطيب داخل خطابه فقط؛ فالإيتوس: (مصطلح مأخوذ من الخطابة القديمة، يشير الإيتوس (شخصيّة) إلى صورة الذّات التي يبنيها المتكلّم في خطابه ليمارس تأثيرا في المخاطب»،[7] أيّ؛ «تقديم الذّات في التّفاعل اللغويّ).[8] ولكنّ هذا المفهوم لا يعكس حقيقة هذا المصطلح، ونراه قاصرا، بل إنّ ممّا يدعو للتّعجب، أنّ المؤلّفين عندما تتبّعا تاريخيّة المصطلح، بدء بالخطابة الأرسطيّة، ذكرا اهتمام أرسطو بصورة الخطيب السّابقة عند الجّمهور (الفضائل الأخلاقيّة التي تعطي للخطيب مصداقيّة)،[9] ولكنّ لم يهتما بهذا الجّانب عند تقديم مفهومها للمصطلح.

ثانيا: إيتوس الخطيب، ودوره في الإقناع، قراءة في كتاب (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) لـ أحمّد صافي المستغانمي: لقد اهتمّ المستغانمي بالخطبة الدّينيّة دون غيرها، ولكن موصفات الخطيب التي ذكرها تشترك فيها كلّ أنواع الخطب (خاصّة السّياسيّة؛ والوعظيّة) وهذا ما جعلني أتحدث عن إيتوس الخطيب عموما، ولم أقتصر على الخطيب الدّينيّ.

للإيتوس أنواع، ويمكن أن نصنِّف المواصفات التي تحدّث عنها المستغانمي في:

أ- إيتوس ما قبل خطابيّ: ويسمى أيضا (إيتوس سابق)، وهو عند (روث أموسي) (الإيتوس المتقدّم)، وهو الصّورة المسْبقة التي تكون لدى السّامعين عن الخطيب. وقد حصر بعض الباحثين الإيتوس في هذا النّوع، وقد ذكر هذا (حاتم عبيد) فالإيتوس: (أخلاق الخطيب/ Les caractères).[10] ويعد (إيزوقراط) هذا النّوع الأهمّ في الإقناع، تقول جورجيا بوربيا: (فإنّ الذي له وزن، لدى إيزوقراط (Isocrate)، هو السّمعة القبليّة (اسم) المتكلّم هو الأهمّ ... يتعلّق الأمر بسمعته والصّورة القبليّة الّتي لدى المجتمع عنه، مكانته الاجتماعيّة وظيفته، وأخلاقه وشخصيّته).[11] ويمكن القول: إنّ الإيتوس ما قبل الخطابيّ هو متخيّل صورة المخاطِب عند المخاطَب قبل التّلفظ بالخطاب.

تحدَّث المستغانمي عن الصّفات الّتي تكون خارج الخطاب، أو قبل الخطاب ومن بينها:

صلاح الخطيب: لا يمكن تصوّر قبول الجمهور لنُصح خطيب عُرف بسوء فعلى الخطيب أنْ يكون صالحا ليُقْبل منه، ويكون مصدر ثقة، بل قد يكون قدّوة أو نموذجا يُقتدى به، فيكون مقنعا دون حاجة كبيرة لحجج لوغوسيّة قويّة، فـ (كلّما تسربل الخطيب بلباس التّقوى وتدثّر بكساء الاستقامة والورع نظرت إليه العيون بوقار، وتطلّعت إليه النّفوس بتقدير، ووجدت مواعظُه آذانا صاغيّة وقلوبا

واعيّة)[12].أمّا إذا عُرف الخطيب بنقيض ما يدعو إليه نفر منه الجّمهور، ومجّت أقوالَه الآذان، وشُكّكَ في نصحه، وفشلت العمليّة الإقناعيّة.

حسن الخلق: يجب على الخطيب الذي يريد تحقيق الإقناع أنْ يكون حسن الخلق، محمودا بين النّاس، وأُسوة حسنة للجّمهور، فيعظ النّاس بأخلاقه، قبل أنْ يعظهم بأقواله، فالنّاس (إذا رأوا خطيبا يخالف قوله فعله تلاشت ثقتهم به)[13] وقديما قال أبو الأسود الدّؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ويقول (أرسطو) متحدّثا عن هذا: (وقد يكون المتكلّمون مصدَّقين لعلل ثلاث: لإنا قد نُصَدَّقُ من قبل هذه الأوجه كلّها دون التّثبت، وهي: اللبّ، والفضيلة والألفة).[14]

مهابة الخطيب ونفوذه الاجتماعيّ: من الصّفات الّتي يجب أن تكون في الخطيب أن يكون مهابا وصاحب نفوذ اجتماعيّ، حتّى يُقْبل منه؛ فبعض الجّمهور يحتقر الخطيب، إذا لم يكن صاحب مكانة في المجتمع ومهمش اجتماعيّا (نسبا أو حسبا). فالنّاس تخاف وتذعن لكلّ صاحب سلطة، والتّاريخ يحدّث بهذا، (فالخطيب لا يخطب بلسانه فقط، وإنّما يتحدّث بلسان حاله. فإذا كانت شخصيّته قويّة مؤثّرة ... فإنّ النّفوس تنْجذب إليه، والآذان تتوق إلى سماع حديثه، وتكون له سلطة على النّفوس).[15]

والمهابة عند المستغانمي نوعان: فطريّة؛ ومكتسبة. فالفطريّة: هبّة وسمت ووقار وأريحيّة نفسيّة، أمّا المكتسبة: فهي السّمعة الحسنة، والماضي النّظيف، والسّيرة العطرة، والأخلاق الفاضلة.

وينصح المستغانمي الخطيب بأنْ لا يفرّط في المهابة المكتسبة إذا لم يكن له نصيب من المهابة الفطريّة.[16]

الاستعداد الفطريّ: يؤكّد المستغانمي على أهميّة الاستعداد الفطريّ، ويجعله من مواصفات الخطيب النّاجح، (فالخطيب الحقّ هو الّذي يتمتّع باستعداد فطريّ ويجيئه الكلام عفو الخاطر، وتزيده الدّربة والمراس ارتقاءً وتفنّنا في ميدان الخطابة الفسيح).[17]

يُساعد الاستعداد الفطريّ في جعل الخطيب جديرا بأنْ يُؤخذ عنه ويُسمع له فتطير سمعته بين النّاس، ويُصبح محلّ قُبول واحترام، على عكس هذا يحتاج من لا يملك استعدادا فطريّا لفن الخطابة لتعلّم الكثير حتّى تصبح الخطابة ملكة له وسجيّة فيه. ولا يمكن تصّور خطيب ناجح وهو فاقد لطلاقة اللّسان، فهو (أداة الخطيب الأولى) ولكي يكون طليق اللّسان؛ عليه أنْ يكون متقنا لعلوم البلاغة ومتمكنا من ناصيّة الفصاحة، ويجب أن يكون لسانه سليما من كلّ أمراض الفأفأة والتّمتمة واللّجلجة.

ب-إيتوس خطابيّ: وهو الصّورة التي يقدّمها الخطاب عن المخاطِب، وهذه الصّورة يصنعها المخاطِب؛ ذلك أنّ (كلّ خطاب يقدّم صورة عن صاحبه أو صورة

عن المتلفّظ به بطريقة مباشرة أحيانا، وبطريقة غير مباشرة في أغلب الأحيان)[18] وقد عبّر عن هذا (باتريك شاردو) قائلا: (بمجرد أن نتكلّم يتجلى جزء من وجودنا عبر ما نقوله).[19]

وبما أنّ الخطاب من صنع المخاطِب، فيمكن القول: إنّ الإيتوس الخطابيّ هو الصّورة التي يقدمها المخاطِب عن نفسه بغية الإقناع، فعليه أنْ يقدّم الصّورة التي يريدها أن تستقر عند المخاطَب، وهذا ما عّبر عنه (بارت) قائلا: (عليّ أن أدلّ على ما أريد أنْ أكونه بالنسبة للآخر).[20]

يدخل تحت هذا اهتمام الخطيب النّاجح بمظهره وشكله؛ وتظهر أهميّة اللّباس في أنّه يدخل في بناء صورة الخطيب عند لقاء الجّمهور، فهي تمثّل أهليّته للقول وللاستماع له، وقد أكّد (الجّاحظ ت 255 ه) على أهميّة اللّباس بين النّاس، يقول: (وبالنّاس حفظك الله أعظم الحاجة إلى أنْ يكون لكلّ جنس منهم سيما، ولكلّ صنف حليّة وسمة يتعارفون بها)[21] (ولكلّ قوم زيّ).[22] فهو يعطيه مهابة وتقديرا واحتراما، فمن المستحسن أنْ يلبس الخطيب ما يدل على علوّ مكانته ويشير إلى منزلته، فلا يرتدي من الثّياب ما يزري به.[23]

صورة المتودّد: لكي يكون كلام الخطيب إلى القبول أقرب، عليه أنْ يُظْهر صورة المتودّد، فلا يقسو على الجّمهور عند النّصح، أو الدّعوة إلى شيء خالفوه فعلا فيستعمل عند صيّغ الأمر والنّهي إستراتيجيّة (تلطيف الخطاب)*؛ بُغيّة إقناعهم وقبول ما يتلفّظ به، فيَظهر لطيفا ناصحا مرشدا، محبّا للخير، فلا ينفر منه، فلا

ينبغي – إذا أراد تحقيق الإقناع– له أنْ يمارس أسلوب التّهجم والعنف في خطابه ولا يستنقصهم، فـ (ما دخل الرّفق في شيء إلا زانه، وما اتّصف أحد بعنف إلاّ شانه)[24] ومن صور التودّد والتّلطف للجّمهور، الدّعاء لهم، كـ: حفظكم الله رحمكم الله... بين الفينة والأخرى.[25]

صورة العالم والمثقّف: من صور الإقناع بالإيتوس المهمّة جدا في كلّ أنواع الخطب، أن يَظهر الخطيب بصورة العالم والمثقّف، وهي من أسهل الطّرق للوصول للإقناع فالنّاس عموما تحترم المثقّف والمتعلّم، فالجّمهور الذي يستقر عنده أنَّ الخطيب مثقّف وعالم، يأخذ بما أمر ويترك ما نهى عنه.

وقد ذكر المستغانمي مصادر ثقافة الخطيب،[26] ومنها: الاستشهاد بالقرآن والسّنة النّبويّة والأقوال المأثورة، والحكم والأمثال وروائع الشّعر المناسبة للموضوع، فضلا عن تمكنه في اللغة العربيّة وعلومها، وعلى الأقل أنْ يكون الخطيب مُلِمًّا بموضوع الخطبة ليَظْهَر بصورة العالم فيه، ويجتنب ما يجعل الجّمهور يشكّ في أنَّه يتكلَّف العلم بالموضوع، فيتحدَّث بكلّ أريحيّة، وبرباطة جأش.

وعموما ويمكن القول: على الخطيب أن يتمكّن من الإحاطة بكلّ ما يتعبره الجّمهور سلطة، فتكون الحجج أقوى، وصورة العالم أظهر.

فضلا عن هذا؛ على الخطيب أنْ يُظْهر صورة المُهْتم، فـ (يعيش الخطيب ظروف الجّمهور الّذي يخاطبه)[27] ويشاركهم وجدانيًّا آلامهم وآمالهم وأحلامهم، ولا يثير غيظهم.

خاتمة: خلُص بحثنا إلى نتائج، نجملها في:

- ✓ تُعد إستراتيجيّة الإيتوس من إستراتيجيّات الإقناع، ولها أهميّة كبيرة في استمالة المخاطَب وإقناعه؛
- ✓ تعزّز وتدعم إستراتيجيّة الإيتوس الحجج اللوغوسيّة، وتزيد من قوّة الإقناع؛
- ✓ يحتاج كلّ خطيب إلى إستراتيجيّة الإيتوس؛ فبقدر ما تكون صورته حسنة ومقبولة عند الجّمهور، يُقبل خطابه ويُستساغ، وتبعا لهذا يكون الإقناع أكثر؛
- ✓ تحدّث المستغانمي عن إيتوس الخطيب (ما قبل الخطابيّ)؛ وحصره في: صلاح الخطيب، وحسن خلقه، ومكانته الاجتماعيّة؛
- ✓ جعل المستغانمي إيتوس الخطيب (الخطابيّ)؛ في إظهاره عبر الخطاب صورة العالم والمثقّف والمتودّد، وعليه أن يتلطّف في الخطاب، ليبلغ الهدف.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

✓ أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع دار بن كثير، دمشق/ سوريا، بيروت/ لبنان، ط1، 2017م.

ب- المراجع العربيّة:

✓ أمينة الدّهري، الحجاج وبناء الخطاب، دراسة في ضوء البلاغة الجديدة؛ شركة النّشر والتّوزيع المدارس، ط1، الدّار البيضاء، المغرب، 2011مح؛

✓ الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتّبيين، تح وشر: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998م، ج3، ص90؛

✓ حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنّشر والتّوزيع، ط1، الأردن 2013م؛

✓ عبد العاليّ قادا، بلاغة الإقناع دراسة نظريّة وتطبيقيّة، دار كنوز المعرفة العلميّة ط1، عمان، الأردن، 2016م؛

✓ محمّد العبد، النّص والخطاب والاتّصال، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعيّ، د ط، القاهرة، مصر، 2014م؛

✓ أمحمّد صافي المستغانمي، بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدّراسات، سلسلة الدّراسات القرآنيّة دبيّ الإمارات العربيّة المتّحدة، ط1، 2020م؛

✓ محمّد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات دار كنوز المعرفة للنّشر والتّوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2017م.

المراجع المترجمة:

✓ أرسطو طاليس، الخطابة، التّرجمة العربيّة القديمة، حقّقه وعلق عليه: عبد الرّحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت/ دار القلم، د.ط، بيروت، لبنان 1979م؛

✓ باتريك شارودو، دومينيك منغو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري حمادي صمود، مر: صلاح الدّين الشّريف، منشورات دار سيناترا، المركز الوطنيّ للتّرجمة تونس، 2008م؛

✓ رولان بارث، قراءة في البلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، افريقيا الشّرق د.ط المغرب.

الدّوريّات:

جورجيا بوربيا، الإيتوس أو بناء الهويّة في الخطاب، تر: أحمد الوظيفي ترجمات، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانيّة، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدّراسات والأبحاث، الرّباط المغرب، 17 يوليو 2019م.

الهوامش:

[1] – عبد العاليّ قادا، بلاغة الإقناع دراسة نظريّة وتطبيقيّة، دار كنوز المعرفة العلميّة، ط1، عمان الأردن، 2016م، ص84.

[2] – ينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، جائزة دبيّ الدّولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدّراسات، سلسلة الدّراسات القرآنيّة، دبيّ، الإمارات ط1 2020م، ص595.

[3] – أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار بن كثير دمشق/ سوريا، بيروت/ لبنان، ط1، 2017م، ص 20-21.

[4] – ينظر: حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنّشر والتّوزيع، ط1، الأردن، 2013م ص117.

[5] – محمّد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنّشر والتّوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2017م، ص188.

[6] – أمينة الدّهري، الحجاج وبناء الخطاب، دراسة في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النّشر والتّوزيع المدارس، ط1، الدّار البيضاء، المغرب، 2011م، ص168.

[7] – باتريك شارودو، دومينيك منغو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود مر: صلاح الدّين الشّريف، منشورات دار سيناترا، المركز الوطنيّ للتّرجمة، تونس، 2008م ص230.

[8] – المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[9] – المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[10] – حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، ص117.

[11] – جورجيا بوربيا، الإيتوس أو بناء الهويّة في الخطاب، تر: أحمد الوظيفيّ، ترجمات، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانيّة، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدّراسات والأبحاث، الرّباط، المغرب، 17 يوليو 2019م، ص3.

[12] – أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص 74.

[13] – المصدر نفسه، ص 76.

[14] – أرسطو طاليس، الخطابة، التّرجمة العربيّة القديمة، حقّقه وعلّق عليه: عبد الرّحمن بدويّ وكالة المطبوعات، الكويت/ دار القلم، د.ط، بيروت، لبنان، 1979م، ص81.

[15] – أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص 99.

[16] – ينظر: المصدر نفسه، ص 99.

[17] – المصدر نفسه، ص 69– 70.

[18]– محمّد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 224.

[19] – المرجع نفسه، ص 174.

[20]–رولان بارث، قراءة في البلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، افريقيا الشّرق، د.ط، المغرب ص68.

[21]–أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، تح وشر: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجيّ، ط7، القاهرة، 1998م، ج3، ص90.

[22] – المرجع نفسه، ص 144.

[23] – ينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص 89– 90.

* – وهي إستراتيجيّة يعتمدها المتكلّم عندما يكون المستمع غير مرحب بالفعل الكلامي. ينظر: محمّد العبد، النّص والخطاب والاتّصال، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعيّ، د ط، القاهرة، مصر 2014م، ص232– 235.

[24] – أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح، بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص 86.

[25] – ينظر: المصدر نفسه، ص 86.

[26] – ينظر: المصدر نفسه: للمبحث السّابع من الفصل الأوّل (105 – 135).

[27] – المصدر نفسه، ص 97.

المنهج التّعليمي عند أمحمّد صافي المستغانمي في كتابه: كيف تصبح فصيح اللسان؟

-معالم على طريق الفصاحة والبيان-

د. أسامة عميرات
المدرسة العليا للأساتذة، سطيف

فاتحة الدّراسة: إذا كان المرء يحمل مشروعا حضاريًّا وفكرا إصلاحيًّا، نجدّه يستهدف ملكات الإنسان الأساسيّة؛ (العقل - الوجدان – اللّغة) من جهة النّظر والاستلال ومن جهة الإيمان واليقين ومن جهة البيان والبديع؛ فإنّه يتخذ من خطاب الوحيّين (القرآن الكريم والسّنة النّبويّة) سبيلا قويما في ذلك؛ إذ هما السّراج المنير لطالب العلم والخيّر الوفير، ومتى وَجَدَتِ البذرة أو الفسيلة صالح التّربة وحسن الرّعايّة، تزهّر وتثّمر وتصبح بإذن ربّها شجرة باسقة، ظلاّلها وافرة وثمارها يانعة تسرّ النّاظرين وتروي ظمأ المريدين لنور الحكّمة ورائع القول وتكون ملاذا للمريدين في الارتقاء في سلم الجمال الرّوحي والسّمو اللفظيّ والمعنويّ.

تأتي آثار الأستاذ القدير والأديب النّحرير أمحمّد صافي المستغانمي لتعكس هذه الرّؤية المنهجيّة في طريقها ومعالمها، النّبيلةِ في مقصدها؛ الرّامية أساسا ومآلا إلى اتّخاذ سبيل التّدبر والتّأمّل العميق في آيّ الذّكر الحكيم وأحاديث النّبي الكريم ﷺ، والتّحكم الجيّد في بليغ الكلام العربي ونحوه والتّزيّن بمُلَح القول

وبديعه تليينًا للعقول وتطييبًا للقلوب وتزكيّة للالسنة وتجويدًا للأقلام. لقد(خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان على أحسن مثال وأبدع حال، ورزقه نعمة العقل وعلّمه البيان، وأنزل القرآن الكريم هاديًا إلى الصـّراط الموصل إليه ومعلّمًا ومرشدًا ومبيّنًا)[1] ليكون له إماما ومرشدا إلى سبل السّعادة في الدّنيا والآخرة، ويدرأ عنه طرق الشّقاوة والغواية.

إنّ اهتمام المؤلّف أمحمّد صافي المستغانمي بالإنسان وبملكاته اللغويّة والبيانيّة تنميّة وتطويرا، حتى يكون قادرا على الاستجابة النّوعيّة للمواقف الكلاميّة والمقامات الخطابيّة التي تتطلّب البلاغة في الكلام والفصاحة في الأداء من أجل المهام وأقدس الغايات التي انبري على تأكيدها على أرض الواقع، عن طريق الكتابة والخطابة والتّدريس والدّراسة، مُنتهجًا أسلوب العرض وضرب المثال أي الجمع بين الجانبين النّظري والتّطبيقي؛ وهذا في الحقيقة هو سبيل وديدن العلماء العاملين. والغرض الأسمى من هذا المنحى؛ هو(تربيّة الذّوق والملكة البيانيّة، مع تلقائيّة الأداء التّعبيريّ لدى إنشاء الكلام كتابة أو ارتجالا عند من يملك الاستعداد لأن يكون أديبا بليغا، هي الكفيلة بتفجير الإبداع المطلوب في الأدب، بشرط عدم الخروج عن ضوابط قواعد اللّغة وأصول البيان)[2] فجاءت أبحاثه وكتاباته ومجالسه لتخدم هذه الغاية النّبيلة والدّرجة العاليّة من التّأمل والتّدبّر وإصلاح المنطق والكتابة وتنميّة الذّوق الجمالي لدى المتعلّم، وجعله

يعيش في رِحاب الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة وعيون الكلام العربي بكلّ درايّة وكفايّة.

تأتي هذه الدّراسة لتستجلي معالم المنهج التّعليمي في إحدى كتابات أمحمّد صافي المستغانمي؛ المسمّى (**كيف تصبح فصيح اللسان؟ معالم على طريق الفصاحة والبيان**)، وتُظهِر الطّريقة المثلى لاكتساب وتعليم بعض مسائل البلاغة والتّكلّم بكلّ فصاحة وفقا لمقام المتكلّم وظروف السّياق؛ فهي طريقة جديدة مبتكرة فريدة، تجمع بين التّأصيل النّظري والتّدريب العمليّ، وتؤلّف بين غرز وغرر العلم ودُّرر القول وعيونه، تأخذ بيدِّ الطّالب والمريد إلى حدائق البلاغة الغناء وإلى خطبِ الفصحاء النّبهاء، تُبيِّن له الطّريق القويم لتلقّي البلاغة والفصاحة من معينها الخصب (القرآن الكريم والسّنة النّبويّة والحكمة العربيّة) وموردّها النّضب (مطابقة الكلام لمقتضى المقام)، فهي تجمع إذن بين الإجادة والإصابة والرّشاقة والطّرافة.

عيّنة الدّراسة: (منهج الكاتب وخِطة الكتاب): حازت مكتبة الصّحابة بمحافظة الشّارقة بدولة الإمارات العربيّة المتّحدة شرف طبع وإخراج هذا السّفر النّفيس والعقد الثّمين، الذي يحمل في طيّاته مقصدًا شريفًا وهدفًا نبيلًا يتمثّل في تخليص اللغة العربيّة من شوائب العجمة والهجنة واللحن في القول والعطل في الإفصاح والإبانة عمّا في النّفس من مقاصد وأغراض، تحت طائل ووابل الهجمات الشّرسة على اللغة العربيّة والنّاطقين بها لأنّنا (نعيش في

هذه العقود المتأخّرة هجمة شرسة شعواء على اللغة العربيّة حيث تعالت أصوات دعاة العاميّات، وحماة الرّطانات تنادي بتوظيف العاميّات في المؤسّسات الرّسميّة والاكتفاء بها والاستغناء عن اللغة العربيّة الأمّ بدعوى أنّها لغة التّأخّر والرّجعيّة والتّقوقع)[3] وهي في الحقيقة دعاوى مغرضة وأباطيل مزعومة ظاهرها التّقريب والتّسهيل للنّاطق بها، وباطنها النّيل من اللغة العربيّة ومن بلاغتها وفصاحتها، (فلم تزل كلّ يوم تنهدم أركانها، وتموت فرسانها حتى استبيح حريمها، وهُجِّن صميمها، وعَفَت آثارها، وطُفِئَت أنوارها).[4]

كما لمح وأَثَرَ المؤلّف –حفظه الله– حالة من العطل وسوء العمل بفصيح كلام العرب وجميل أغراضه وفنّونه وذلك (ما نراه اليوم في مجتمعاتنا العربيّة الإسلاميّة من نفور من مادّة التّعبير وعُزوف عن درب الفصاحة والبيان لدى طلّاب العلم صغارهم وكبارهم ازداد ذهول الحليم، وتأذّت نفس الكريم وأحسّ أبناء الضّاد بالغربة الموحشة).[5]في بلادهم العربيّة قبل الغربيّة، هذا في ظلّ تنامي ظاهرة الازدواجيّة اللغويّة، بله الثّلاثيّة والرّباعيّة، فأضحى اللسان هجينا والقلم قاصرا على توظّيف الأساليب البلاغيّة، الخبريّة منها والإنشائيّة واستثمار معمولها ومدلولها في التّعبير الكتابي والأداء الشّفهي؛ ومن جملة الصّعوبات التي تعترض المتعلّم أثناء التّعبير الشّفهي:

- الصّعوبة في اكتشاف الكلمات؛
- الصّعوبة في تتبّع ومعالجة اللغة؛ حيث يتلفظ الفرد بجزء من الجملة فقط؛

- تبديل كلمة مكان الأخرى؛
- عدم القدرة على التّعبير بطلاقة في المواقف المختلفة. [6]

وقد أرشد المؤلّف – حفظه الله – المتعلّم إلى اتّخاذ جملة من المصادر والمعارف كموارد علميّة ضروريّة لتقويم لسانه وتنميّة ذوقه وتزكيّة إحساسه ووجدانه زيّنها المؤلّف حفظه الله بحكم بليغة ودُرر نفيسة وعيون مختارة من خطب وأشعار وأمثال العرب الأوائل والأواخر، احتواها هذا المصنّف الجميل، الفريد في تخريج بابيّه الأوّل بفصليه، والثّاني بفصوله السّتة؛ والدّافع إلى ذلك، شغفه (بلسان العرب الموسوم بالرّقة والسّلالة والثّراء والمرونة والعذوبة والجمال رأيتُ كتابة هذه الأسطر وتوجيهها إلى أبنائنا ليأخذوا حذرهم ممّا يُديّرُ في الخفاء للُغتهم ودينهم، وليزدادوا تمسُّكًا بلغة القرآن الكريم فهي عزّنا وذكرُنا وحاملة مجدنا) [7] وتمثّلُ هذه الغاية النّبيلة جوهر المشروع الذي عكف الأستاذ المستغانمي على تطبيقه منذ أكثر من ثلاثة عقود تقريبا، وإرشاد وحثّ طلاب العلم إلى مزاولة الأخذ والطّلب والتّذوق لبلوغ درجة الإتقان في التّعبير الشّفهي والجودة في الكتابة.

يتناول الباب الأوّل من الكتاب خصائص البيان العربيّ وأهمّ مصادره وموارده، فهو يُسقى من معيّنٍ لا ينضب ومن جوهرٍ لا تنفد أسراره وعجائبه فتضوَّع مسكا وازداد بهاءً وجمالا، وهما القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة فتبوّأت اللغة العربيّة (مكانة سامقة ومنزلة شامخة في جوزاء المجد. كيف لا وهي تتعالى على أخواتها السّاميات بزينة القرآن الكريم، وسنّة خير الأنام عليه أفضل

الصّلاة والسّلام).[8] وقد ذكر المؤلّف في الفصل الأوّل من هذا الباب بعض خصائص اللغة العربيّة من حيث الثّراء والسّعة في الألفاظ والمفردات؛ إذ لا تَسَعُها المعاجم المفردة بل السّلاسل والموسوعات المجتمعة، ومع هذا الثّراء اللفظيّ والتّعدّد المعجميّ، امتازت اللغة العربيّة بالدّقة في المصطلح الدّال على المعنى المراد، وما تزيّنت به العربيّة أيضا سعة المعنى ورحابته، وتراوحه بين الحقيقة والمجاز، (وعلى هدى من قطع الشّيء ووسطه تدور المعاني على اختلافها فنجد الإنفاذ والإجازة وما قيل للطّريق مجاز إلّا لأنّه مكان يجوزه النّاس عند الانتقال من أحد جانبيه إلى الآخر وإجازة الماء إعطاؤه لما به من سبب أخذ طريق، وعليه صكّ المسافر، والجائزة، وذو المجاز لأنّ إجازة الحاجّ كانت فيه).[9] كما تتباهى اللغة العربيّة بخاصيّة الإيجاز والاختصار في القول وإصابة المقصود في أقصر عبارة وإشارة، وقويت اللّغة العربيّة بالإعراب الذي يهتمّ بحركات أواخر الكلم، ورُتَبِ الكلمات داخل التّراكيب اللغويّة، كما تُطْرِبُّ هذه اللّغة المستمع بجميل الإيقاع وعذب الأصوات، فكان علم العروض وموسيقى الشّعر، وكان أيضا تصريف الكلام على أوزان مخصوصة، قياسيّة أو سماعيّة.

يعدّد المؤلّف –حفظه الله– أسباب الضّعف اللغوي المعاصر في النّقاط الآتيّة:

- كدر المنهل؛
- ضحالة المحفوظ؛
- البعد عن القرآن الكريم؛

- الفقر النّحوي.[10]

ومتى أراد المنظّرون والمختصّون بشأن اللغة العربيّة أن يُعيدوا لها مجدها الأوّل وبريقها وبيانها الأمثل، عليهم أن يشتغلوا على إثراء الذّائقة الجماليّة أو الملكة اللغويّة لدى المتعلّمين بفصيح الكلم وبليغ الحكم، وأن يكون لديهم حظّ وافر ونصيب كاف من محفوظ القرآن الكريم والسّنة النّبويّة وكلام العرب شعره ونثره، وتسهيل أخذ النّحو والتّدرج بهم في سلّمه.

يتناول المؤلّف في الفصل الثّاني من الباب الأوّل للكتاب، أدوات صناعة الإنشاء، من العلوم والفنّون لإجادة التّعبير والكتابة والتّوصيل، ومنها: علم اللغة العربيّة، وعلم النّحو، وعلم الصّرف، وعلوم المعاني والبيان والبديع والاستكثار أيضا من حفظ الأحاديث النّبويّة، وبليغ الخطب والأشعار والتّحكم في علم الإملاء. وعلوم اللغة العربيّة عبارة عن اثني عشر علما مجموعة في قوله:

نحوٌ بيانٌ عروضٌ ثمّ قافيّة   وبعدها لغةٌ قرضٌ وإنشاءُ
خطٌّ بيانٌ معانٍ مع محاضرةٍ   والاشتقاق لها الآداب أسماءُ[11]

ثمّ يبيّن المؤلّف سُبُلَ الإجادة في التّعبير؛ قولا وكتابة وأهمّ أركان الكتابة الفنيّة، والطّريق المؤدّي إلى الإبداع فيها ثمّ تعرض إلى طريقة نثر الشّعر، وأهمّ المراتب التي يكون عليها المتعلّم أثناء أدائه الكتابي وتواصله الشّفاهي.

أمّا عن الباب الثّاني من الكتاب فقد خصّه المؤلّف لعرض بعض الفِقَر والفصول من بليغ الكلم وعيون الحكم وجميل الشّواهد والاقتباسات، بدءً من خطبة الرّسول عليه ﷺ وخطب الخلفاء الرّاشدين والتّابعين لهم ومن أتى بعدهم من خطباء العرب المفوّهين والفصحاء المتمكنّين والأعراب المهاجرين هذا في الفصل الأوّل من هذا الباب؛ أمّا في الفصل الثّاني فانكبّ المؤلّف على عرض بعض الرّسائل البديعة من فصحاء العرب، وعلى رأسهم سيد الخلق أجمعين محمّد ﷺ، ومن استنّ ببلاغته في الكتابة من المتقدّمين والمتأخّرين من العرب الخلص الأقحاح، كرسائل الطّلب أو التّهنئة أو الاعتذار أو رسائل النّصح والإرشاد أو الشّكوى والعتاب، وتناول الفصل الثّالث من هذا الباب بعض الوصايا النّافعة لفصحاء العرب كأبي بكر الصّديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ووصيّة أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس من النّساء واختص الفصل الرّابع ببديع الوصف من كلام العرب للقرآن الكريم والنّبي عليه أفضل الصّلاة والتّسليم وللّسان وأخلاق الرّجال والدّنيا وأحوالها وغيرها من الأوصاف التي تستهوي طالب العلم وتغريه على تذوقها وحفظها والعمل بما فيها من حكم وأمثال تزيد في عقل المتعلّم وتقوّي بصيرته ولسانه وقلمه.

خاتمة الكتاب، احتوت عيونًا من الحكم ودُررًا من الأقوال والعبر، أوردها المؤلّف للمبتدئ وسيلة وللمتقدّم زينة، افتتحها بجوامع الكلم للنّبي ﷺ وبعض الخلفاء والخطباء الذين كتبوا أنفسهم بأحرف من ذهب في تاريخ البلاغة والبيان

العربيّ، ثمّ أورد جملة من الأمثال التي سارت عليها الرّكبان، تعيد للمرء حيويّته وللمستمع سعادته.

معالم المنهج التّعليمي عند أمحمّد صافي المستغانمي في كتابه:(كيف تصبح فصيح اللسان؟): حصل تطوّر كبير في مناهج التّعليم وطرق التّدريس الحديثة فبعد أن كانت هذه المناهج تهتمّ بالحفظ والتّلقين وإعادة المحفوظ في حصص التّقييم؛ إذ (استمرّ الوضع هكذا فترة طويلة حتّى نادت التّربية الحديثة بوجوب الاهتمام بالمتعلّم وجعله محور العمليّة التّربويّة، ومن هنا ظهرت مناهج النّشاط التي اهتمّت بميول المتعلّمين وحاجاتهم وكان للميول في إطار هذه المناهج نصيب الأسد، أمّا الحاجات فقد حظيت باهتمام أقلّ، ثمّ حصلت على قسط أكبر من الاهتمام في ظلّ المنهج المحوري الذي أتاح الفرصة للمتعلّمين لدراسة مجموعة من الوحدات مبنيّة على الحاجات والمشكلات المشتركة بين المتعلّمين والمجتمع).[12] وعلى هذا الأساس جاءت رؤية المنظرين والمختصّين والمدقّقين والعارفين بمواطن الخلل ونقاط الضّعف لدى المتعلّمين والمهتمّين بشأن اللغة العربيّة كتابة ومشافهة، ومنها المشروع الذي بنى عليه الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي قواعده وأركانه وشيّد عليه دوره وقصوره، فهو يخصُّ (الغيورين الذين يسعون للمحافظة على لغة القرآن الكريم، وتذليل الصّعاب أمام المتحدّثين بها، وتيسير سبل الإنشاء والكتابة بها).[13]

تَظْهَرُ لدارسٍّ هذا السّفر الثّمين جملة من المعالم أو المنـارات التـي يهتـدي بهـا المتعلّم في تكوين ملكته البلاغيّة وإحراز درجـة الفصـاحة والظّـرف في اللسـان والأخذ من حديقة البيان وتحصيل الدُّر والجمان.

1 – اختيار العنوان المناسب على شكل السّـؤال، إغـواءً للقـارئ أو المـتعلّم:

يحمل السّؤال طاقة عجيبة في اسـتدراج القـارئ أو المـتعلّم نحـو المـادّة العلميّـة الموجودة داخل الكتاب أو المصنّف، خاصّة إذا كان يحمـل بعـدا إجرائيّـا عمليّـا يخلّص المتكلّم من عيّ الكلام ولحـن القـول؛ (فالسّـؤال يمثّـل فسـحة القـراءة لارتكاب لذّة الكشف ومتعته، ذلك أنّ السّؤال: هو الصّيغة شـبه العقليّـة التـي تُجسّد بين المتعيّن واللامتعيّن. إذاً، لابدّ من إيقاظ سؤال عن (البدايات) بدايات العنونة، من حيث إنّ البداية قرينة الطّزاجة، والاكتشـاف والدّهشـة).[14] لـذلك فعنوان الكتاب (كيف تصبح فصيح اللسـان؟) جـاء عـلى صـيغة الاسـتفهام المتضمّن لفعل الإنجاز والمباشرة لعمليّة الأخذ والطّلب لتكوين ملكة الفصاحة والبيان، وعلى هذا النّمط من العناوين الجذابة والمغرية، نجد عنوان كتاب محمّـد حسَّان الطّيَّان على هـذه الشّـاكلة : كَيْـفَ تَغْـدُو فَصِـيحًا، عَـفَّ اللِّسَـانِ (أدواء اللِّسان وعلاجها فصاحة وحفظًا)، فهذا (المبحث مشاركة متواضـعة ترمـي إلى جلاء أمر الفصاحة بغيّة التّحلِّي بها واكتسابها، وتتبُّع الآفات التي تعتـور اللسـان بغيّة تحاميها واجتنابها، فهو إذا يُعنى باللسان شكلا ومضمونا).[15]، فهو أسـلوب

جديد وطريقة مبتكرة في كتابة العناوين الرّئيسة والفرعيّة، تستهوي القرّاء والمتعلّمين والمهتمّين بشؤون الكتابة وفنّون الأداء.

2- تهيّئة المتعلّم لاستقبال المحتوى التّعليمي: يُشعِّرُ المؤلّف المتعلّم أو النّاطق بالعربيّة بحجم المسؤوليّة الملقاة على عاتقه جراء ما يحاك حول لغة القرآن الكريم من مؤامرات ومشاريع شعواء هدامة تعمل على إضعافها بين أهلها وعند النّاطقين بها، يحصل ذلك بتشجيع استعمال العاميّات واللهجات، في المعاملات الرّسميّة والعلاقات الاجتماعيّة، واتّهامها أيضا بالقصور وعدم القدرة على مواكبة التّطوّر العلميّ والتّقني، في حين أنّ اللغة العربيّة من هذا براء، بل فيها من الثّراء المعنويّ والقدرة على التّوليد اللفظيّ والمصطلحيّ، ما يؤهّلها لاحتواء هذا المحتوى العلمي بكلّ جدارة واستحقاق؛ (فالبِدار البِدارَ إلى لغة القرآن الكريم، ولْنَسِر في جموع وعزم وثبات معا على درب الفصاحة والبيان، متظافرة جهودنا، متعاضدة قوانا، متراصّة صفوفنا، متفائلة نفوسنا لتعود راية العربيّة خفّاقة خضراء في سماء أمّة العروبة والإسلام) [16] فالمستغانمي يدعو أبناء الأمّة العربيّة والإسلاميّة إلى الالتفاف حول اللغة العربيّة تعلّمًا وتعليمًا، دراسةً وتدريسًا، تعريفًا وترويجًا بأنّها لغة علم وحضارة، والعمل بجدٍّ وانتظام على استثمار طاقاتها في التّعبير والكتابة والحوسبة والبرمجة، وهذا هو « التّصميم المنظّم المقصود للخبرة أو للخبرات التي تساعد المعلّم على انجاز التّغيير المرغوب في الأداء، وهو أيضا العمليّة التي يمدّ فيها المعلّم الطّالب

بالتّوجيهات وتحمّله مسؤوليّة إنجاز الطّالب لتحقيق الأهداف التّعليميّة، وهو كذلك الجهد الذي يخطّطه المعلّم، وينفّذه شكل تفاعل مباشر بينه وبين التّلاميذ وهنا تكون العلاقة بين المعلّم كطرف والمتعلّمين كطرف أخر، من أجل تعليم مثّمر وفعّال.» [17] فالأمر يحتاج إلى شحذ الهمّم واستحضار النّيات وتهيّئة الطّاقات والقدرات على تعلّم اللغة العربيّة نحوا وصرفا وبيانا وبديعا.

3- **حسن التّقسيم وجمال العرض:** إنّ تحكمّ المعلّم أو الأستاذ في مادّته العلميّة تحضيرا وإعدادا وإخراجا، يعدّ من أصعب المهام التّربويّة، نظرا لما يستدعيه من حضور ذهنيّ قويّ، وإعداد منهجيّ ثريّ، وهذا ما يلاحظه القارئ أو الدّارس لهذا المصنّف العلمي النّافع؛ إذ يجد أنّ المؤلّف قد اعتمد نظام الأبواب والفصول في تقديم هذه المادّة العلميّة الثّريّة في محتواها، المتناسقة في أجزائها، ضمانا للتّفصيل والاستفاضة في الشّرح والتّعليق وضرب المثال واستخلاص المنوال، فيجد المتعلّم فيها حسن التّقسيم والتّبويب وحسن التّرتيب من العامّ إلى الخاصّ ومن المجمل إلى المفصّل ومن التّنظير إلى التّمثيل وهي عوامل مساعدة في جعل المتعلّم أو المتلقّي يُقدِّم على تقبّل وتمثّل المادّة العلميّة المعروضة، (لأنّ العامل المساعد على تحقيق الغايّة من العمليّة التّعليميّة هو قابليّة المتعلّم نفسه لاكتساب الخبرات والمعارف والمهارات الضّروريّة للوصول إلى أهدافه من حيث هو كائن متعلّم ميال بطبعه إلى التّحسن والتّطور) [18] فكان له (**وقفة مع البيان العربي وأدوات صناعة الإنشاء**) في الباب

الأوّل، كما كان لهاذين المحورين واسع التّفصيل والبيان في فصلين كاملين متكاملين من هذا الباب، والهدف من ورائهما أن يكوّن ويشكّل المتعلّم قاعدة صلبة من المعارف والموارد الضّروريّة في درس البلاغة والفصاحة، فنجده يُمهّد للبيان العربيّ بفضل العربيّة وخصائصها ويبيّن أيضا سبب الضّعف اللغويّ عند المتعلّمين في الزّمن المعاصر، ويبسِّط الكلام في تعريف البلاغة والبيان عند بعض الأعلام وأرباب الكلام في هذا الميدان، مع شرح مقنّع لشروط الفصاحة في الكلمة المفردة أو في الجملة المركّبة.

يرشد المؤلّف المتعلّم – في الفصل الثّاني من هذا الباب– إلى أدوات صناعة الإنشاء وتكوين ملكة البيان، في قوله: (للوصول إلى فكّ عقدة اللّسان والارتقاء في مدارج الإبانة والإفصاح، والتّربُع على عرش البلاغة والبيان، لابُدَّ للمتكلّم المُرْتجل والشّاعر النّاظم والكاتب المُترسّل والخطيب المصقع من استيفاء أدوات إنشاء الكلام وإتقان علوم بعينها).[19] فالمؤلّف هنا يرشّد ويدلّ المتعلّم على سلم الوصول، المتمثّل في اتّباع جملة من الأصول أو الأدوات المساعدة على تحسين ملكة اللسان عند الإنسان، والارتقاء في سلم البيان بعلمٍ وبرهان؛ منها التّحكّم في علوم اللّغة العربيّة، بدءًا بمقيم الالسّن (النّحو) إلى ميزان الكلم (الصّرف) ومزيّن القول (البديع والبيان)؛ (وجماع القول: إنّ هذه العلوم الثّلاثة يحتاج إليها طالب العلم لكونها وسائل لاختيار فصيح الألفاظ وإنشاء بديع التّراكيب وبليغ الأساليب).[20] كما تتّقد هذه الملكة وتنفجر بحفظ كلام العزيز العليم

وأحاديث النّبي ﷺ، الذي هو أفصح من نطق بالضّاد، والاستكثار من حفظ بليغ الخطب وأشعار العرب، دون أن ينسى طالب العلم التّمرن وإجادة الرّسم بالقلم (الإملاء). وهذا ما يسمّيه علماء التّربيّة بالمنهج التّربوي؛ لذلك فـ (المنهج الجيّد هو ذلك المنهج الذي يراعي مبدأ التّنظيم الذي يعتمد على مرتكزات مهمّة تكمن في إدراك التّتابع والاستمرار و التّكامل و الشّمول والتّوازن).[21] وهذا ما نلمسه فعلا في هذه المادّة العلميّة المنهجيّة في محتواها المتناسقة في موادها وعناصرها، الرّاميّة إلى تأهيل المتعلّمين من جميع النّواحي الممكنة والمكوّنة لشخصيّته؛ العقليّة والوجدانيّة واللغويّة البيانيّة.

البابُ الثّاني، من الكتاب (**فِقَرٌ وفُصُولٌ من بليغ الكلم**) يعدّ خزانة بلاغيّة ثريّة بصنوف القول وجميل الكلم والحكم، فهي تشكّل ذخيرة لغويّة وبلاغيّة للمتعلّم وطالب العلم؛ بتأمّلها تنفتح العقول، وبحفظها وترتادها تزهر الالسنة وبتدبّرها تخشع الأفئدة، لكلام ﷺ وصحبه الكلام والخطباء، ومن سار على نهجهم في النّصح والتّوجيه والإرشاد. وقد اعتمد المؤلّف **الطّريقة الانتقائيّة** في اختيار وتقديم هذه الموادّ العلميّة، أو ما يسمّى **بمنهج الموادّ الدّراسيّة المنفصلة** حيث يرى أنصار هذا المنهج أنّه يتميّز بجملة من المميّزات، منها:

1- يقدّم المعرفة في صورة موادّ دراسيّة منظّمة ومرتّبة بشكل منطقيّ يساعد المتعلّم على بناء حصيلة معرفيّة متنوّعة.

2- يناسب المتعلّم محدود القدرات لأنّه يركّز على حفظ المعلومات وتذكرها.

3- يعدّ من أسهل التّنظيمات المنهجيّة من حيث التّخطيط والتّنفيذ والتّقويم والتّطوّير.

4- يسهم في الحفاظ على التّراث الثّقافيّ عن طريق نقله من جيل إلى آخر.

5- من السّهل إعداد الكتب الدّراسيّة اللازمة لكلّ مقرّر من مقرّرات المنهج.[22]

فهذا الباب بفصوله السّتة يشكل موردًا عذبًا زُلَالًا سائغًا للمتعلّمين والمتذوّقين للبلاغة والفصاحة والرّاغبين في الأداء الكلاميّ المتميّز، يستلهم منه اللّغة والأدب والكلام الجميل، فتقوّى قريحته ويتفتّق لسانه ويرقى قلمه، ويبلّغُ درجة الخطيب المفوّه والفصيح المقدّم والكاتّب المجيد. (وإذا ما كانت للبلاغة من وظيفة فهي في الإمتاع والإقناع وترقيق الوجدان وتهذيب السّلوك، ولكي يتذوّق الطّالب الجمال في العمل الأدبي تذوّقًا كاملًا ويحسّ بكلّ ما أراد الأديب أن ينقله إليه من عواطف وأفكار ودلالات يجب أن يعرف الوسائل التي هيأت للأديب ذلك. والبلاغة هي العلم الذي يزوده بمعرفة هذه الوسائل التي يستعين بها الأديب في تعبيره وتساعده على أن يتذوّق العمل الأدبي أو نحوه، إذا توافرت له القدرة الفنيّة التي تهيّأت للأديب).[23] وعليه فملكة البلاغة والفصاحة تتحقّق وتتطوّر عند المتعلّم، بوسيلتين اثنتين هما: الحفظ المتقن

والأداء الجيّد، وما يتفرّع عنهما من شروط ومتطلّبات، منها الفهم الصّحيح والنّطق السّليم ؛ وهذا المخطّط يبيّن المصادر التي اعتمدها المؤلّف كموارد ثريّة يستقي منها المتعلّم أو طالب العلم فنّون البلاغة وطرق الفصاحة.



4- **التّدريب العمليّ واستثمار المكتسبات القبليّة:** يعوّل المنظرون والمختصون كثيرا على التّطبيقات العمليّة للمعارف والمعلومات والموارد المعروضة والمقدّمَة للمتعلّمين واستثمار المكتسبات القبليّة في حلّ بعض الوضعيّات الإشكاليّة والإدماجيّة، وهذا تعزيزًا لها وتثبيتًا وتقييمًا وتقويمًا، وتطبيق مهارة التّغذيّة الرّاجعة في عمليّة الأخذ والطّلب، والتّعليم والتّعلم، بل(إليها يرجع الفضل في تثبيت المادّة المتعلّمة في ذهن المتعلّم بالشّكل الصّحيح، بل تعدّ التّغذيّة الرّاجعة العنصر الأساسيّ في العمليّة التّعليميّة التّعلميّة، ولا تكتمل عمليتا التّعلم

والتّعليم إلّا بها، ويجب أن ترافق عمليّات الممارسة والتّدريب في أثناء التّعلّم وأن تأتي بعد إجراء الاختيارات اليوميّة والشّهريّة أو حتّى بعد الامتحانات النّهائيّة وإلاّ فما فائدة عمليات التّقويم هذه إن لم يتبعها تصحيح للإجابة الخطأ وتعزيز للإجابة الصّحيحة). [24] نجد المؤلّف يستهدف هذه المهارة –التّغذيّة الرّاجعة– في أثناء حديثه عن الطّريق إلى الإبداع في الكتابة الأدبيّة، حينّما قال:« لقد طرق كثيرٌ من الأدباء والبلاغيين والنّقّاد باب الإبداع في الكتابة الأدبيّة وأسدوا النّصائح الغاليّة لمحبِّي هذا النّوع من الأدب وعند التّأمُّل في آرائهم ونصائحهم نجدها تجتمع على كلمة واحدة مفادها: اغترف من كنوز التّراث الأدبيّ العربيّ وأكْثِرْ من المطالعة تَسْتَقِمْ ملكةُ الخطابة والكتابة لديْك. » [25] إذ بعد عمليّة الأخذ والطّلب لعلوم البلاغة والفصاحة، ثمّ التّطبيق والتّدريب على خطواتها في تحليل النّصوص الأدبيّة وتذوّقها، تأتي مرحلة التّقييم والتّقويم أو التّغذيّة الرّاجعة عن طريق استثمار هذه الموارد والمعارف في الإجابة عن الاختبارات أو الوضعيّات الإدماجيّة والتّواصليّة. وقد أورد حديثا لابن الأثير (637ه) [26] في (**المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر**) يتحدث فيه عن الطّريق المؤدّي إلى تعلّم الكتابة الأدبيّة النّثريّة أو الشّعريّة والمنقسم بدوره إلى ثلاث شعب:

الأولى: تَصفُّحُ كتابة المتقدمين، والاطلاع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني، والسّير على منوالهم وطريقتهم. وهي أدنى طبقات الكتابة.

الثّانيّة: المَزْجُ في الأخذ عن المتقدّمين، إمّا في تحسين الألفاظ أو في تحسين معانٍ، وهي الطّبقة الوسطى.

الثّالثّة: الانقطاع عن النّظر في كتابة المتقدمين، والاكتفاء بحفظ القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة وأشعار فحول الشّعراء، ثمّ الأخذ من كلّ ذلك بطرف وجعلها تدور في فلك الذّاكرة وعلى لسان المتكلّم، ومن ثمّ اتخاذ وجهةٍ خاصّةٍ في الكتابة.[27] فالمؤلّف يستشهد بقولّ ابن الأثير(637هـ) في إرشاد المتعلّم إلى طريق الكتابة الأدبيّة الصّحيحة، المبنيّة على أسّس متينةٍ ودعائم قويّة.

الكتابة الأدبيّة عند المتعلّمين: يبلغ المتعلّم درجة الإجادة والإتّقان في الكتابة الأدبيّة الصّحيحة بعد التّدرج في هذه المراحل:

أ- **مرحلة الاقتداء والاهتداء**: يتعرّف المتعلّم في هذه المرحلة أو الفترة على أساليب العرب في الكتابة الأدبيّة، وطريقة استعمالهم للألفاظ والمعاني في المقامات الخطابيّة المختلفة؛ إذ (يسير الكاتب على نسق محدّد من الأطر الفنيّة أخذها نتيجة الاطلاع على النّتاج الأدبي لأدباء متعدّدين وفي عصور متعدّدة. فلا يعقل أن يبدأ الكاتب بالكتابة دون أن يكون له إطار فنيّ استقاه من خبرته المستمدّة من النّصوص الأدبيّة والاتّجاهات الكتابيّة).[28]

ب- **مرحلة الانتقاء والارتقاء**: ينتقل المتعلّم إلى هذه المرحلة المتوسّطة، بعد التّمرس والتّعوّد على هذه الأساليب العربيّة، إلى انتقاء الألفاظ والمعاني والمزجّ بينها قصد تكوين معجم لغوي وتشكيل أفق خيالي ؛ (وتقع علوم البلاغة

العربيّة في خدمة النّص الأدبي مضمونا وشكلا. وبها نتحرّى عن أساليب الأُدباء في تأديّة أَغراضهم :

1- بأجمل تصويرٍ (خيال) وهذا هو اختصاص علم البيان.

2- بأبدع تعبير (تحسين لفظي ومعنويّ) وهذا هو اختصاص علم البديع.

3- بأوقع تأثيرٍ (إصابة المعنى) وهذا هو اختصاص علم المعاني).[29]

ت- **مرحلة التّأهيل والاقتدار:** يصبح المتعلّم قادرا على كتابة وضعيّات إدماجيّة أو نصوص أدبيّة نثريّة أو شعريّة أو يجمع بينهما، ويتفرّد في طريقة الكتابة وأسلوب العرض والتّمثيل. وعليه (فلا غنى للكاتب عن علم البلاغة فهو علم جليل ينهض بأسلوب الكاتب، ويرتقي بفصاحته وبلاغته درجات فيتمكن من الإتيان بالكلام الخالي من التّعقيد، الخالصّ من تنافر الكلمات وضعف التّأليف، المطابق لمقتضى الحال الذي يتمكن في النّفوس، ويُعرض في صورة مقبولة حسنة).[30] فهذه المراحل في الكتابة الأدبيّة لا منأى ولا مغنى للمتعلم من الاستغناء عنها، فهي تشكّل قاعدة صلبة للبناء الفني الذي يطمح إلى تشييده وبنائه، قصد التّأثير في القارئ أو المستمع، والوصول إلى تحقيق الكفاءة اللسانيّة والكفايّة التّواصليّة، والمخطّط الآتي يوضح باختصار أهمّ المراحل الضّروريّة للكتابة الأدبيّة عند المتعلّمين:



إجمالا لما سبق، يمكننا القول أنّه على المتعلّم أو طالب العلم أن يلتمس الأصول المؤديّة إلى الكتابة الأدبيّة الفنيّة، ليستطيع تبليغ ما في نفسه من آمال وآلام، وليبلُّغ بها قلوب الآخرين وعقولهم؛ وهذا لن يتأت إلاّ بمزاولة الأخذ والطّلب وإمعان النّظر في مؤلّفات المتقدمين من الخطباء والشّعراء والعلماء واللغويّين والبلاغيّين والسّير على هداهم واقتفاء أثرهم في الكتابة والخطابة والإلقاء، والاجتهاد في ترك أثر دال على قدرته في تكوين أسلوب خاصّ به يضمن له التّميّز والتّفرّد في الكتابة النّثريّة أو الشّعريّة أو هما معا.

خاتمة الدّراسة: يمكن لهذه الدّراسة المتواضعة أن تستخلص جملة من النّتائج والاستنتاجات أهمها:

- يحمل الأستاذ المربي والأديب الأريب والخطيب البليغ أمحمّد صافي المستغانمي مشروعا تربويّا وتعليميّا رائدا، يهدف من ورائه إصلاح المنطق عند المتعلّم وطالب العلم، وتزكيته بآي الذّكر الحكيم ونصوص السّنة النّبويّة المطهّرة والحكمة العربيّة البليغة؛

- يعملُ المؤلّف على تربيّة الذّوق وتنميّة الملكة البيانيّة عند المتعلّم، مع حسن التّعبير والإفصاح عما في العقل والنّفس من آمال وآلام، كتابة أو مشافهة؛

- يُولي المؤلّف اهتماما بالغا بأصول وقواعد الكتابة الأدبيّة الصّحيحة المورّوثة على السّلف من الخطباء والجهابذة المفوّهين؛

- استشعر المؤلّف وعبَّر عن الخطر الذي يلاحق العربيّة والنّاطقين بها من دعاة العاميّات وحماة الرّطانات، وخطّطهم في إقصاء اللغة العربيّة البليغة الفصيحة من الاتّصال الرّسمي والتّواصل اليوميّ؛

- لمحّ المؤلّف وأَثَرْ حالةً من الضّعف والعجز في التّعبير الشّفهيّ والكتابيّ عند المتعلّمين والطّلبة في مختلف الأطوار التّعليميّة، نتيجة لتوفر أسبابٍ ذاتيّة وأخرى خارجيّة تستوجب تقديم دليل منهجي يخلّصهم من هذه المشكلة أو المعضلة؛

- تمثّل آيّ الذّكر الحكيم وأحاديث السّنة النّبويّة المطهّرة أطهر وأنقى المصادر والمناهل لناطق الضّاد، والفصيح والبليغ، إضافة إلى خطب الخطباء وأشعار الشّعراء وحِكمِ الحكماء، وأوصاف الواصفين ووصايا المُوصِين؛

- تظهر معالم المنهج التّعليمي عند أمحمّد صافي المستغانمي في كتابه (كيف تصبح فصيح اللسان؟) في النّقاط الآتيّة: -اختيار العنوان المناسب على شكل سؤالٍ إغواءً للقارئ أو المتعلّم؛

- تهيّئة المتعلّم لاستقبال المحتوى التّعليميّ؛

- حسن التّقسيم وجمال العرض؛

- التّدريب العملي واستثمار المكتسبات القبليّة.

- مراحل الكتابة الأدبيّة عند المتعلّمين: -مرحلة الاقتداء والاهتداء؛

- مرحلة الانتقاء والارتقاء؛ -مرحلة التّأهيل والاقتدار.

قائمة المصادر والمراجع.

أ- المصادر:

1- أمحمّد صافي المستغانمي: مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة، رؤيّة تأصيليّة، دار ابن كثير، سوريا/ لبنان، ط01، 2017.

2- أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار ابن كثير، دمشق/ بيروت، ط01، 2017.

3- أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟ معالم على طريق الفصاحة والبيان، مكتبة الصّحابة، الشّارقة، الإمارات العربيّة المتّحدة، ط 01 .2007.

4- أبو الفتح ضياء الدّين نصر الله بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم: المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر، 1939.

ب- المراجع:

5- أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي: المُفْرد العَلَم في رسم القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، 2005.

6- أحمد حساني: دراسات في اللسانيّات التّطبيقيّة، حقل تعليميّة اللغات، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر، ط02، 2009.

7- أمل عبد المحسن زكى: صعوبات التّعبير الشّفهي، التّشخيص والعلاج المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريّة، مصر، دط، 2010.

8- ابن مكي الصّقلي: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ط01، 1990.

9- خالد حسين حسين: في نظريّة العنوان، مغامرة تأويليّة في شؤّون العتبة النّصيّة، دار التّكوين، دمشق، سوريا، دط، 2007.

10-سعاد عبد الكريم الوائلي: طرائق تدريس الأدب والبلاغة والتّعبير، بين التّنظير والتّطبيق، دار الشّروق، عمان، الأردن، ط01، 2004.

11-عبد الرّحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربيّة، أسّسها، وعلومها، وفنّونها ج01، دار القلم/ الدّار الشّاميّة، دمشق/ بيروت، ط01، 1996.

12-فخري خليل النّجار: الأسّس الفنيّة للكتابة والتّعبير، دار صفاء للنّشر والتّوزيع عمان، الأردن، ط01، 2011.

13-فوزي عبد السّلام الشّربيني، عفت مصطفى الطّناوي: المناهج مفهومها- أسّس بنائها- عناصرها- تنظّيماتها، مركز الكتاب للنّشر، القاهرة، مصر ط01، 2015.

14-قدري مايو: المعين في البلاغة (البيان – البيع – المعاني)، عالم الكتب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2000.

15-كفاح يحيى صالح العسكري، محمّد سعود الشّمري، علي محمّد العبيدي: نظريّات التّعلّم وتطبيقاتها التّربويّة، تموزة، دمشق، سوريا، ط01، 2012.

16-كمال فرحاوي: تصميم المناهج التّعليميّة، دار الخلدونيّة، القبة، الجزائر ط01، 2017.

17-ماجدة مصطفى السّيد، صلاح الدّين خطر وآخرون: المناهج ومهارات التّدريس، الدّار العربيّة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2010/ 2011.

18-محمّد بدري عبد الجليل: المجاز وأثره في الدّرس اللغوي، دار النّهضة العربيّة بيروت، لبنان، دط، 1986.

19-محمّد بن إبراهيم الحمد: الارتقاء بالكتابة، دار ابن خزيمة للنّشر والتّوزيع الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط02، 2011.

20-محمّد بن عبد العزيز الرّبعي: مدخل لفهم جودة عمليّـــة التّدريس، المنهـج – أدوار المعلم– مدخل التّدريس– الجودة التّعليميّة، دار الفكر ناشرون وموزعون عمّان، الأردن، ط01، 2013.

21-محمّد حسّان الطّيّان: كَيْفَ تَغْدُو فَصِيحًا، عَفَّ اللِّسَانِ (أدواء اللِّسان وعلاجها فصاحة وحفظًا)، مجلة الوعيّ الإسلاميّ، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، قطاع الشّؤون الثّقافيّة، الكويت، ع39، 2012.

تدرج بعد المصادر:

1 – أمحمّد صافي المستغانمي: مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة، رؤية تأصيليّة، دار ابن كثير، سوريا/ لبنان، ط01، 2017، ص 121.

[2] – عبد الرّحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربيّة، أسّسها، وعلومها، وفنّونها، ج01، دار القلم/ الدّار الشّاميّة، دمشق/ بيروت، ط01، 1996، ص 12.

[3] – أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟معالم على طريق الفصاحة والبيان مكتبة الصّحابة، الشّارقة، الإمارات العربيّة المتحدة، ط 01، 2007، ص 06.

[4] – ابن مكي الصّقلي: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط01 1990، ص 15.

[5] – أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟، ص 07.

[6] – أمل عبد المحسن زكى: صعوبات التّعبير الشّفهي، التّشخيص والعلاج، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريّة، مصر، دط، 2010، ص 08.

[7] – أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟ ص 07.

[8] – أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟ ص 11.

[9] – محمّد بدري عبد الجليل: المجاز وأثره في الدّرس اللغوي، دار النّهضة العربيّة، بيروت، لبنان دط، 1986، ص 38-39.

[10] – ينظر: أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟، ص 15- 18.

[11] – أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي: المُفْرد العَلَم في رسم القلم، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، دط، 2005، ص 11.

[12] – ماجدة مصطفى السّيد، صلاح الدّين خطر وآخرون: المناهج ومهارات التّدريس، الدّار العربيّة للنشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2010/ 2011، ص 51.

[13] – أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار ابن كثير دمشق/ بيروت، ط01، 2017، ص05.

[14] – خالدّ حسين حسين: في نظريّة العنوان، مغامرة تأويليّة في شؤون العتبة النّصيّة، دار التّكوين دمشق، سوريا، دط، 2007، ص 18.

[15] – محمّد حسّان الطّيّان: كَيْفَ تَغْدُو فَصِيحًا، عَفَّ اللِّسَانِ (أدواء اللِّسان وعلاجها فصاحة وحفظًا)، مجلة الوعيّ الإسلاميّ، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، قطاع الشّؤون الثّقافيّة الكويت ع39، 2012، ص 08.

[16] – أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟ ص 07.

[17] – كفاح يحيى صالح العسكري، محمّد سعود الشّمري، علي محمّد العبيدي: نظريّات التّعلّم وتطبيقاتها التّربويّة، تموزة، دمشق، سوريا، ط01، 2012، ص 11.

[18]– أحمد حساني: دراسات في اللسانيّات التّطبيقيّة، حقل تعليميّة اللغات، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر، ط02، 2009، ص 50.

[19] – أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟ ص 35.

[20] – أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟ ص 43.

[21] – كمال فرحاوي: تصميم المناهج التّعليميّة، دار الخلدونيّة، القبة، الجزائر، ط01، 2017، ص 46.

[22] – فوزي عبد السّلام الشّربيني، عفت مصطفى الطّناوي: المناهج، مفهومها- أسّس بنائها- عناصرها- تنظيماتها، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصـر، ط01، 2015، ص 263.

[23] – سعاد عبد الكريم الوائلي: طرائق تدريس الأدب والبلاغة والتّعبير، بين التّنظير والتّطبيق، دار الشّروق، عمان، الأردن، ط01، 2004، ص 70.

[24] – محمّد بن عبد العزيز الرّبعي: مدخل لفهم جودة عمليّة التّدريس، المنهج – أدوار المعلم – مدخل التّدريس – الجوّدة التّعليميّة، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمّان، الأردن، ط01، 2013 ص233.

[25] – أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟ ص 59.

[26] – ذكر أبو الفتح ضياء الدّين نصر الله بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي هذا الحديث في الفصل العاشر من الجزء الأوّل للكتاب (المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر) بعنوان: في الطّريق إلى تعلم الكتاب، قوله: " هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها، وما رأيت أحدا تكلّم فيه بشي، ولما حُبِّبتْ إلي هذه الفضيلة، وبلّغني الله منها ما بلّغني؛ وجدت الطّريق ينقسم فيها إلى ثلاث شعب ... " مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر، 1939، ص 76.

[27] – ينظر: أمحمّد صافي المستغانمي: كيف تصبح فصيح اللسان؟ ص 60.

[28] – فخري خليل النّجار: الأسّس الفنيّة للكتابة والتّعبير، دار صفاء للنّشر والتّوزيع، عمان، الأردن ط01، 2011، ص 44.

[29] – قدري مايو: المعين في البلاغة (البيان – البيع – المعاني)، عالم الكتب للطباعة والنّشر والتّوزيع بيروت، لبنان، ط01، 2000، ص 07.

[30] – محمّد بن إبراهيم الحمد: الارتقاء بالكتابة، دار ابن خزيمة للنّشر والتّوزيع، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط02، 2011، ص 38-39.

المسائل النّحويّة في تفسير آيّ القرآن الكريم في كتاب تصريف القول لـ أمحمّد صافي المستغانمي

- جمعا ودراسة -

د.بن سكران حفيظة
ج.عبد الحميد بن باديس، مستغانم

مقدمة: مازال تاريخ الجزائر يحفل بمجموعة من العلماء الذين حفروا أسماءهم في ذاكرة الشّعب، وخلدوا أسماءهم بأحرف من ذهب، فدخلوا العلم من أبوابه الواسعة.

ومستغانم واحدة من ولايّات الجزائر التي لم يتخلف أبناؤها عن ركب العلم فقدّموا عبر عصور مضت وسنوات تعاقبت، جملة من الأعمال العلميّة التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يجحد حقها التّاريخ، ولا العلم، ولا العلماء، ولا طلاب العلم، لما لها من قيمة معرفيّة، ورفعة علميّة.

والدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، واحد ممّن اقترن اسمهم بالمنطقة، فعرف باسم المستغانمي في محافل علميّة عربيّة، ودوليّة، وواحد ممّن أضافوا لصرح المنطقة مجموعة من المؤلّفات، ضمنت لاسمه أنّ يصنف ضمن من خدموا العلم عامّة وعلوم القرآن خاصّة.

وقد وقف اختياري في هـذه الأوراق البحثيّـة عـلى مؤلّفـه تصـريف القـول في القصص القرآني –دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّـة موسـى عليه السلام– محاولـة في مـداخلتي الموسومة: **المسائل النّحوية في تفسير آيّ القرآن الكريم في كتـاب تصـريف القـول لـ أمحمّد صافي المستغانمي –جمعا ودراسة**– الوقوف على جملة القضايا النّحوية التـي وقف عليها الدّكتور، والتي حلّل وفسّر من خلالهـا آيّ القـرآن التـي قصّـت قصّـة سيدنا موسى عليه السلام، بغيّة الإجابة على التّساؤلات: إلى أي مدى وقف الـدّكتور عـلى التّركيـب النّحـوي للآيـات القرآنيّـة المتعلّقـة بقصّـة موسـى في تفسـيره؟ ومـاهي الموضوعات النّحويّة التي تناولها؟ وما مدى تـأثير التّركيـب النّحـوي عـلى البلاغـة القرآنيّة؟

1- السّيرة الذّاتية للمؤلف:[1]

1– 1 **المولد والنّشأة:** ولد الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، في السّابع من شـهر أكتوبر من سنة 1965 بمدينة مستغانم الجزائريّة.

1–2 **الشّهادات العلميّة:** نال الرّجل مجموعة من الشّـهادات، وتـدرج في جملـة من المقامات العلميّة، فنال شهادة الليسـانس مـن جامعـة أحمـد بـن بلـة وهـران 1 تخصّص لغة وأدب عرب سنة 1988.

ليسافر في وقت لاحق إلى الشّارقة ويلتحق بجامعتهـا لاسـتكمال متطلّبـات نيّـل درجة الماجستير في اللغة والأدب العربيّ، والتي نال درجتها في سنة 2009 من ذات الجامعة بدرجة امتيـاز، الأوّل عـلى الدّفعـة، برسـالة عنوانهـا: تصـريف القـول في

القصص القرآني، دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى ﵇، والتي ستطبع لاحقا في مؤلّف، هو الذي تناولناه بالدّراسة في هذا البحث.

ثمّ التّحق بالجامعة العالميّة الاسلاميّة بماليزيا، أين حصل على دكتوراه في اللغة العربيّة، تخصّص بلاغة، تحت عنوان، بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم والذي طبع في كتاب، نال به صاحبه جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم في نشر الثّقافة القرآنيّة وتعميمها.

ونال دكتوراه ثانيّة من جامعة ملايا كوالالمبور، في التّفسير، الموسومة بـ مظاهر التّجديد البياني في تفسير معارج التّفكر ودقائق التّدبر، تأّليف حسن حبنكة الميداني.

1 - 3 **المناصب العلميّة:** شغل الدّكتور أمحمّد منصب أستاذ للغة العربيّة منذ 1988، وتقلّد مناصب إداريّة وتربويّة شتى في حقل التّعليم والتّربيّة في الجزائر وفي الإمارات العربيّة المتّحدة، فكان معلّما منسقا، ومديرا، ومحاضرا متعاونا مع بعض الجامعات المحليّة.

ويشغل حاليا منصب الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة للشّارقة، وعضوا في اتّحاد المجامع اللغويّة والعلميّة، وعضوا بالمجلس العلميّ للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة.

1-4 **الأعمال العلميّة:** كاتب ومؤلّف لعدد من الأبحاث في مجالات اللغة العربيّة، والتّفسير والإعجاز البياني في القرآن الكريم، ومن مؤلّفاته: هل أنا مسلم؟ وكيف تصبح فصيح اللسان؟ والخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل

الامتاع، وتصريف القول في القصص القرآني، ومفاتيح النّجاح وسنن السّعادة وبلاغة النّظم في بغى الجسم في القرآن، والأساور المرصّعة في فواتح السّور والأحرف المقطعة، وجملة من البحوث العلميّة المحكّمة.

وكاتب لعدد من الأوبرات الشّعرية، فقد فازت قصيدته (يا صاحب الحوض العميم تحيّة) بجائزة البردة في مدح الرّسول ﷺ في عامها الأوّل في أبو ظبيّ سنة 2004م.كما خاطب وشارك في عدد من الأعمال الإعلاميّة المرئيّة، فقدّم برنامج (كذلك يضرب الله الأمثال) على قناة المجد وكان البرنامج في ثلاثين حلقة وبرنامج (البيان القرآني) في مائة وعشر حلقات، كما أعد وقدم برنامج (في رِحاب سورة) على قناة الشّارقة الفضائيّة.

2- **وصف الكتاب:** يعالج كتاب (تصريف القول في القصص القرآني: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى) قضيّة تصريف القول وتنوّعه في عرض مضامين قصّة موسى عليه السلام بأثواب وطرائق تعبيريّة متنوّعة في سور قرآنيّة شتّى. ركّز المؤلّف على تحليل مشاهد من القصّة ذاكرا جملة من الفروق من زاويّة علم المعاني؛ حيث تعرّض في مباحث الكتاب إلى جماليّات التّوكيد وعدمه، وجماليّات الوصل والفصل وعرض نماذج من الجمل الاسميّة والفعليّة والفروق بينها، وجوانب من الإيجاز والمساواة والإطناب، معرّجا على نماذج من الأساليب الإنشائيّة والخبريّة الواردة في بعض المشاهد من القصّة، موضحا بعض جماليّات الاستئناف مع الإشارة إلى جملة من أغراضه البلاغيّة، مركّزا على إيضاح الفروق الدّلاليّة لكثير من الألفاظ المتقاربة

والمترادفة، مبيّنا جماليّات انتقاء المفردة القرآنيّة، موضحا تناسب المفـردات والتّعـابير بشكل عامّ مع جو السّورة والمشهد الذي جاءت فيه. وقد خلص المؤلّـف إلى أنّـه لا تَكرار في رسم المشاهد المتعلّقة بالقصص القـرآني، وإنّـما هـو البيـان القـرآني المتفـرّد الذي يعرض القصّة الواحدة والمشهد الواحـد في أثـواب تعبيريّـة متنوّعـة وجذّابـة وبديعة، تتناغم وتتناسب مع السّياق الذي وردت فيه، وأنّ هذا الصّـنيع هـو ضرب من ضروب الإعجاز البياني في نصوص التّنزيل.

والكتاب رسالة ماجستير، كان قد نالها الدّكتور أمحمّد صافي من جامعة الشّـارقة بدرجة امتياز مع المرتبة الأولى، وذلك في سنة 2009م.

3- مسائل تتعلّق بالجملة الفعليّة:

3-1 الفعل:

3-1-1 -حالات الحذف:

3-1-1-1 حذف فعل الأمر: كثيرا ما يحذف الفعل لدلالة السّياق عليـه وبلاغـة النّظم القرآني، وممّا ورد في نظّم القصص القرآني في قصّة موسى، حذف فعل الأمـر في قولــه تعــالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾، (النّمل12) والتّقدير قولنا اذهـب في تسـع آيـات[2] فحـذف الفعـل اذهـب لدلالة سياق الآية عليـه ولأنّ الخطـاب الرّبـاني كـان لموسـى بـأن يتجـه إلى فرعـون بالمعجزات وقومه، لأنّ كفرهم وطغيانهم قد زاد.

3-1-1-2 حذف فعل القول أو أحد مشتقاته: من تقنيّات الحذف السّائدة في اللغة العربيّة، اضمار لفظ القول أو أحد مشتقاته، لوجود ما يدل عليه في السّياق وهذا النّوع كثير في القرآن الكريم، مثّل له الدّكتور بقوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾(البقرة83).

ويمكن أن يقدر الحذف: إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل ، قائلين لهم لا تعبدون إلّا الله.[3] فحذف فعل القول المقدر قائلين، لدلالة السّياق عليه، وهذا النّوع من الحذف للإيجاز.

3-2 المفعول به:

3-2-1 حالات التّقديم:

3-2-1-1 تقديم الجار والمجرور والمفعول على الفاعل: عرض أمحمّد صافي المستغانمي في هذا الموضع تفسيرا للآية الواردة في سورة طه حيث يقول الله تعالى في محكمه تنزيله: ﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴾(طه 67) أقامه على دلائل نحويّة حيث إنّ المطلع على الآية الكريمة يجد أنّ الفاعل جاء في مرتبة متأخرة عن الجار والمجرور، والمفعول به فجاءت شبه الجملة (في نفسه) والمفعول (خيفة) قبل الفاعل موسى. وردّ أمحمّد صافي المستغانمي هذا التّقديم للمفعول مع الجار والمجرور إلى اعتبارات:

- فائدة صوتيّة مراعاة للفاصلة، على أنّ هذا الاعتبار لا يحتمل منفردا؛
- المقام لذكر خوارق سيدنا موسى عليه السلام، فقد يظن الظان أن الخوف تملك قلب موسى ونفسه، فكان لزاما تقديم ما المقام له والاهتمام به؛[4]
- تقديم الفاعل بغيّة تشويق السّامع لمعرفة الفاعل، بعد أن عرفت الفعل.

3-2-1-2 تقديم المفعول به للاختصاص: مثّل أحمّد صافي المستغنامي لهذا العنصر بقوله تعالى: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة 41)، وقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾(البقرة 40).

حيث تقدّم ضمير النّصب المنفصل (إياي) بداعي الاختصاص، فالله سبحانه وتعالى يطالب عباده ويخاطبهم بأنّ الرّهبة لله وحده لا أحد سواه، وبيّن أنّ الاختصاص هنا قائم على أربعة عناصر:

- تقديم المفعول به؛
- الإتيان بالفاء المؤذنة بتلازم ما بعدها بما قبلها؛
- التّكرار؛
- الإضمار ثمّ التّفسير.

وعلّل لذلك بما ذكره النّيسابوري في وقوفه على تفسير الآية فقال: تقديم المفعول للاختصاص، فتقديره: وإياي فارهبوا فارهبون، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ (الفاتحة 05) لمكان الفاء المؤذنة بتلازم ما قبلها، وما

بعدها، أي: إن كنتم راهبين شيئا فارهبون، ومن قبل التّكرير، ولأجل الإضمار والتّفسير.[5] فتضمّنت الآية بذلك جملة من المؤكدات صحبت القصر بالتّقديم واجتمعت لتأكيد ضرورة الرّهبة من الله جل في علاه، دون سواه، وهي:[6]

- تقديم الضّمير المنفصل (إيايّ) والذي يعرب مفعولا به؛
- تأخير الضّمير المتّصل؛
- الفاء الموجبة معطوفا عليه ومعطوفا، والتّقدير: إيايّ ارهبوا فارهبون، تكّرار الرّهبة؛
- معنى الشّرط الذي دلت عليه الفاء الجزائيّة، كأنّك تقول: أنّ كنتم راهبين شيئا فارهبون.

كما أورد الدّكتور أمحمّد مثالا ثانيا للتّخصيص لكن مع مراعاة الفاصلة القرآنيّة: ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾(البقرة 87). نلاحظ أنّ في الآية الكريمة أنّ المفعول به، فريقا تقدّم على الفعلين كذبتم وتقتلون، وأرجع الدّكتور أمحمّد هذا لأمرين:

- مراعاة للفاصلة القرآنيّة؛
- بيان غاية عناد الفريقين، وفظاعة إجرامهم، إذ قسموا الرّسل فريقين، أوّلهما كذب الرّسل، والثّاني قتلهم، وفائدة تقديم المفعولين، بعد مراعاة الفاصلة القرآنيّة في تقتلون، هو بيان غاية عنادهم، وفرط عتوهم.[7]

3-2-1-3 تقديم المفعول للقصر: مثّل الدّكتور أحمّد لهذا الموضوع بقوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (البقرة 57)، فقد تقدّم المفعول به (أنفسهم) على الفعل والفاعل (يظلمون)، والجملة مكوّنة من نفي يوحي إلى قصر معروف في اللغة العربيّة، غايته التّهكم، فالكافرون لا يستطيعون ظلم أحد فما بالهم بظلّم الله.

3-2-1-4 تقديم المفعول الثّاني على الأوّل: قال الله تعالى في سورة طه مبينا طلب سيدنا موسى من الله ﷻ أن يشد أزره بأخيه هارون، فيجعل هذا الأخير وزيرا له ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴾ (طه 29-30). والفعل جعل من الأفعال المتعديّة إلى مفعولين، الآية الكريمة تقدّم المفعول الثّاني (وزيرا)، على المفعول الأوّل (هارون) لبيان العناية بشأن الوزارة، وفي ذلك قال أبو حيان: «وقدم الثّاني اعتناء بأمر الوزارة».[8] ويضرب الدّكتور مثالا ثانيا لتقدّم المفعول الثّاني على المفعول الأوّل بقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾المائدة 82.

تقدّم المفعول الثّاني للفعل وجد المتعديّ إلى مفعولين والذي هو اليهود والغرض هو بيان شدّة عداوة اليهود، وتنبيه المسلمين لهذه العداوة حتى يأخذوا حذرهم.

واللام في قوله (لتجدن) لام توكيد قسمي، أكـدت الجملـة اعتنـاء ببيـان تحقّـق مضمونها.[9]

3-2-1-5 تقديم المفعول على الفعل والفاعل: مثل لذلك بقوله تعالى:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (البقرة 57).

والشّاهد هنا قوله تعالى ﴿أنفسهم يظلمون﴾ فلقد تقدّم المفعول بـه أنفسـهم عـلى الفعل والفاعل يظلمون، وهذا من قبيل القصـر، فظلهـم في حقيقـة الأمـر يقتصـر عليهم ولا يتعداهم، وهذا من قبيل التّهكم.[10]

ولم يقتصر المعنى في الآية الكريمة على القصر، بل التّقـديم أيضـا خـدم الفاصـلة القرآنيّة التي تميّز هذا المقطع من سورة البقرة، إذ أن جمعـا مـن الآيـات تنتهـي باليـاء والنّون، أو الواو والنّون.

3-2-2 حالات التّأخير:

3-2-2-1 تأخير المفعول وتقديم الجار والمجرور: رصد الدّكتور مثالا واحدا لتأخر المفعول به عن الجار والمجرور من خلال دراسته لقصّة سيدنا موسى عليه السلام في القرآن الكريم، وكان الشّاهد قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف 148).

وقد تقدّمت شبه الجملة من الجار والمجرور (من حليهم) على المفعول عجلا وأرجع الدّكتور ذلك إلى ما ذهب إليه صاحب إرشاد العقل السّليم عجلا مفعول اتخذ أخر عن المجرور لما مر من اعتناء بالمقدّم والتّشويق إلى المؤخّر، مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النّظم الكريم.[11]

3-2-3 حالات الحذف:

3-2-3-1 حذف المفعول به: مثل لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾القصص 23-24.

إذ حذف المفعول به في الآيتين السّابقتين في أربعة مواضع، يسقون، تذودان نسقي، فسقى، وعلّة حذف المفاعيل في المواضع الأربعة السّابقة، هي توفر العناية على إثبات الفعل لفاعله، والتّقدير: وجد عليه أمّة يسقون أغناهم، وامرأتان تذودان غنمهما، وقالتا لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما.

وقال عبد القاهر الجرجاني في هذا الشّأن «أنّه لا يخفى على ذي بصر أنّه ليس في ذلك كلّه إلّا أنّ يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقا»، وما ذاك إلّا أنّ الغرض في أنّ يعلم أنّه كان من النّاس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منّا سقي حتى يصدر الرّعاء، وأنّه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقي

فأمّا ما كان المسقي؟ أغنما، أم إبلا، أم غـير ذلـك؟ فخـارج عـن الغـرض ومـوهم خلافه.[12]

3-2-3-2 **حذف المفعول الثـاني:** مثـل لـذلك بقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾ الأعراف 152 إذ حذف المفعول الثّاني للفعل المتعدي لمفعولين اتخـذ لاختصـار الكـلام، والتّقـدير قولنا: ﴿إن الذين اتخذوا العجل إلها﴾.

4- مسائل نحويّة تتعلّق بالجملة الاسميّة:

4-1 المبتدأ:

4-1-1 حالات التّقديم:

4-1-1-1 تقديم المسند عليه على المسند: مثل لـذلك **أمحمّـد صـافي المسـتغانمي** بقولــه تعــالى: ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الاعــراف 140).

فتقدّم المسند إليه وهو ضمير الرّفـع المنفصـل (هـو)، عـلى المسـند وهـو الفعـل (فضلكم)، وهذا نوع من التّخصيص لا نجده لو أن تركيب الآية اختلـف، فكـان: أغير الله أبغيكم إلها وفضلكم هو على العالمين؟[13] وذلك التّقديم وإخراج الجملة من الفعليّة إلى الاسميّة لغرض بيان الخبر الفعـلي، أنّ الله هـو مـن فضـلهم لا مـا كـانوا يعبدون من الأصنام من دون الله، فكان ذلك الإنكـار علـيهم تحميقـا لهـم في أنّهـم مغمورون في نعمة الله، ويطلبون عبادة ما لا ينعم.[14]

4-1-2 حالات الحذف: يقول الله في محكّم تنزيله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشّعراء 23-28)، المتأمل للآية الكريمة يلحظ جليا أنّ المبتدأ حذف في إجابات سيدنا موسى عليه السلام الثّلاث، بغيّة تعظيم لفظ الجلالة وتفخيما لقدره، وقال السّيوطي في ذلك «حذف فيها المبتدأ في ثلاثة مواضع قبل ذكر الرّب أي هو ربّ، والله ربّكم، والله ربّ المشرق، لأنّ موسى عليه السلام استعظم حال فرعون واقدامه على السّؤال، فأضمر اسم الله تعظيما وتفخيما».[15]

4-2 الخبر:

4-2-1 حالات التّقديم: يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف 139). في الآية الكريمة تقديم خبرين على مبتدأين على خلاف ترتيب الجملة الاسميّة في الجملتين الواقعتين خبرا لإنّ قدمتا على المبتدأ بغية القصر وذلك لبيان أنّ ما هم فيه إلا تبار وهلاك، وأنّ ما يعملون به هو الباطل بعينه.

والغرض من تقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبرا لإنّ التّنبيه على أنّ الدّمار لاحق لما هم فيه لا محالة، وأنّ الإحباط الكليّ لازب لما مضى عنهم تنفيرا وتحذيرا لما طلبوا.[16]

5- مسائل نحويّة تتعلّق بالحروف:

5-1 حلات الحذف: أورد الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في كتابه تصريف القول، أمثلة لمسائل تتعلّق بحذف حروف المعاني، وبيّن علّة ذلك.

5-1-1 حذف واو العطف: مثل لذلك بقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة 49)، وقوله جلّ شأنّه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(إبراهيم 06). المتأمل للآيتين الكريمتين يقف حتما على أنّ حرف العطف الواو قد حذف من الآية الواردة في سورة البقرة، على غرار الآية الواردة في سورة إبراهيم.

وبدراسة سياق الآيتين تتضح فروق مردها إلى خصائص كلّ سورة؛ حيث يبدو من خلال مضامين سورة إبراهيم وجوها العامّ، أنّها بنيت على الإيجاز، والإجمال فيما تضمّنته من قصص الأنبياء والرّسل، ولم يقصد فيها بسط قصّة كما ورد في غيرها، كما بنيت على تغليظ الوعيد، فأشر قوله تعالى ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ إلى جملة ما امتحنوا به، وهو تذبيح أبنائهم، فاقتضى أسلوب التّهويل أن يعطف (ويذبحون أبناءكم) على ما سبق، وكأنّه عقوبة مباشرة لسومهم سوء العذاب.

على أنّ الأمر مختلف في سياق سورة البقرة، فخلت الجملة من حرف العطف على البدلية.[17]

5-1-2 حذف واو القسم: الشّاهد من قصّة موسى عليه السلام، والذي اوضحه الدّكتور في كتابه، قوله جلّ شأنّه في محكم تنزيله: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟

﴿ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الأعراف 134).

واللام في قولنا: (لئن كشفت) تسمى اللام الموطئة للقسم، فهي أمارة على واو القسم المحذوفة، والمقسم به محذوف، يمكن تقديره بقولنا، (والله لئن كشفت عنا الرّجز لنؤمن لك)، فتكون بذلك الجملة في موضع الحال، أي قالوا ذلك مقسمين لئن كشفت.[18]

5-1-3 **حذف ياء المتكلّم:** أورد الدّكتور مثالين، أوّلهما ورد في الآية 12 من سورة الشّعراء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ، والثّاني في ذات السّورة في الآية 14 حيث قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾، والملاحظ أنّ ياء المتكلّم قد حذفت في خواتم الآيات وعوض عنها بكسرة لتتناسق فواصل الآيات وعلّل لذلك ابن عاشور بقوله: «وحذفت ياء المتكلّم من يقتلون للرّعاية على الفاصلة».[19]

6- مسائل نحويّة تتعلّق بمتمات الجملة:

6-1 الجار والمجرور:

6-1-1 حالات التّقديم:

6-1-1-1 تقديم الجار والمجرور على عامله: قال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة 136)، وقوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة 138) . كثيرا ما تقدّم الجار والمجرور على الخبر، وفي مواضع شتى من قصّة موسى عليه السلام والشّاهد في

الآيتين السّابقتين قوله تعالى: (ونحن له مسلمون) وقوله (ونحن له عابدون) فتقدّمت شبه الجملة من حرف الجر اللام موصولة بضمير الغائب الهاء في محل جر اسم مجرور على الخبرين، عابدون، ومسلمون.

ولا مريّة في أنّ التّوجيه الصّحيح لهذا التّقديم، هو الجانب العقدي المتمثّل في ضرورة تخصيص الله تعالى بالعبادة الصّحيحة الخالصة، والإنابة إليه وحده وإسلام الوجه له وحده، كما أنّ التّقديم، كان لغاية مراعاة الفواصل المتآخيّة المتناغمة، المنتهيّة بياء ونون، أو واو نون.

6-1-1-2 تقديم المجرورات على متعلقاتها: قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (سورة طه 55). المتأمّل للآية الكريمة سيجد أنّ الجار والمجرور تقدّم في الآية الكريمة في المواضع الثّلاثة على متعلّقة فتقدّمت (منها) في الموضع الأوّل والثّاني لبيان الاهتمام، في حين تقدّم الجار والمجرور (فيها) في الموضع الثّاني مراعاة للمزاوجة مع نظيريه.[20]

6-1-2 حالات الحذف:

6-1-2-1 حذف الجار والمجرور: الشّاهد في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الأعراف 134) علّل أبو حيان «هذا الحذف بقوله: ومتعلّق الدّعاء محذوف تقديره: ادع لنا ربّك بما عهد عندك في كشف هذا الرّجز».[21]

6-2 الظّرف:

6-2-1 **حالات التّقديم**: قد يتقدّم الظّرف الزّماني أو المكانيّ في الجملة، كما هو الشّأن في عرض قصّة سيدنا موسى عليه السلام، إذ قال عزّ شأنّه: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾(الأعراف 136). المتمعّن في الآية الكريمة يلحظ أنّ التّركيب جاء في صدر الآية كالآتي: فعل (تأتيهم) + فاعل (حيتانهم) + الظّرف (يوم سبتهم) + الحال (شرعا).

ثمّ خولف الترتيب في الشّطر الثّاني من الآية: الظرف (ويوم لا يستبيتون) + الفعل والفاعل والمفعول (لا تأتيهم).

وأرجع الدّكتور أحمّد نكتّة تقدّيم الظّرف في المقطع الثّاني من الآية الكريمة، إلى أنّه تغيّر السّبك في القصص القرآني، حيث لم يقل: ولا تأتيهم يوم لا يستبيتون، لما أنّ الإخبار بإتيانها يوم سبتهم مظنة أن يقال: فماذا حالها يوم لا يستبيتون؟ فقيل يوم لا يستبيتون لا تأتيهم.[22]

6-3 **المضاف**: ورد في قصّة موسى عليه السلام في القرآن الكريم حالة حذف فيها المضاف ودل عليه سياق الكلام الرّباني، ومثّل لذلك الدّكتور أحمّد بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾(الأعراف 148).

يقدر المفسّرون في مثل هذا الموضع، اسما مضافا محذوفا بعد ظرف الزّمان بعد أي: اتخذ قوم موسى من بعد مغيبه عجلا. وحذف المضاف مع (بعد) المضافة إلى اسم المتحدث عنه شائع في كلام العرب.[23]

6-4 المخصوص بالذّم: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(سورة الأعراف 150).

تضمّنت الآية الكريمة أسلوب الذّم على لسان سيدنا موسى، إذ ذمّ قومه على ما اقترفوه من ذنب، جراء عبادتهم العجل بعد أنّ ذهب يناجي ربه، فذمهم على من وله الخلافة من بعده، وحذف في الآية الاسم المخصوص بالذّم، والتّقدير بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم.[24]

6-5 التّمييز: التّمييز أحد متمات الجملة، وقد درس عند الدّكتور أمحمّد من وجهة نحويّة فتناول حذفه في آي القرآن الكريم التي جسدت قصّة سيدنا موسى -عليه السلام- ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (الأعراف 142). والتّقدير وأتممناها بعشر ليال، وحذف التّمييز هنا لدلالة الكلام عليه.[25]

7- مسائل تتعلّق بحذف الجملة:

7-1 الحذف المقدر قبل فاء العطف وبعد همزة الاستفهام: قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 75).

يقول الدّكتور أنّ المقصود بالحذف المقدر قبل فاء العطف، أنّ الكلام لا يستقيم إلّا بتقدير كلام بعد همزة الاستفهام، وقبل فاء العطف، فالفاء هنا للعطف على مقدر يقتضيه المقام، يستدعيه نظام الكلام، والمرد إنكار ترتب المعطوف على المعطوف عليه، فيكون التّقدير: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فتطمعون؟ أو أبعد أنّ علمتم تفاصيل شؤونهم المؤيسة عنهم تطمعون أن يؤمنوا لكم؟[26]

7-2 حذف جملة قبل الفاء الفصيحة: درج علماء النّحو على تسميّة الفاء التي لا يستقيم الكلام إلّا إذا تم تقدير كلام محذوف قبلها بالفاء الفصيحة، ذلك أنّها تفصح عن جملة حذفت ثقّة في ظهورها ودالة على سرعة مضمونها، وضرب لها الدّكتور مثالا في قصّة موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف 160).

علّل الدّكتور هذا الحذف بقول أبي السّعود محلّلا الحذف المقدر قبل الفاء الفصيحة: «فانحبست عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام، قد حذف تعويلا

على كمال الظّهور، وإيذانا بغاية مسارعته عليه السلام إلى الامتثال، واشعارا بعدم تأثير الضّرب حقيقة، وتنبيها على كمال سرعة الانحباس، وهو الانفجار، وكأنّه حصل إثر الأمر قبل تحقق الضّرب». [27]

7-3 حذف الجملة المستفهم عنها: قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (الشّعراء30).

يقدّر المفسّرون بعد همزة الاستفهام جملة محذوفة مفادها: أتجعلني من المسجونين، والحال لو جئتك بشيء مبين، إذ القصد الاستفهام عن الحال التي تضمنها الشّرط (لو) بأنّها أولى الحالات بأنّ لا يثبت معها الغرض المستفهم عنه على فرض وقوعها، وهو غرض الاستمرار على التّكذيب، وهو استفهام حقيقي. [28]

8- نتائج البحث وخاتمته: بعد الخوض في موضوع المسائل النّحوية في تفسير آي القرآن الكريم في كتاب تصريف القول لـــ أمحمّد صافي المستغانمي -جمعا ودراسة- خلصنا للنّتائج الآتية:

-كتاب تصريف القول، كتاب يندرج ضمن كتب علوم القرآن؛

- من خلال دراستنا للكتاب، وجمعنا للموضوعات النّحويّة استشفنا أنّ الدّكتور أميل إلى التّفسير اللغويّ في تفسيره للقرآن الكريم؛

- وقف الدّكتور في تفسيره للآيات على جملة من موضوعات النّحويّة، التي كان فيها للتّركيب النّحويّ أثر في دلالة الآية، ووجه المعنى توجيها معجزا؛

- رصد المؤلّف صورا لعناصر الجملة الاسميّة وكذا الفعليّة، واختلفت السّور بين التّقديم والتّأخير والحذف، فوقف على الماهيّة البلاغيّة، والصّفة الإعجازيّة لكلّ تركيب نحويّ من هذه التّراكيب؛

- لم يقتصر المؤلّف على عنصر من العناصر النّحويّة؛ بل تنوّعت السّور فدرس الاسم والفعل، وحرف، وبين أثر ذلك على التّفسير، وعلى بلاغة نظم القرآن لقصّة سيدنا موسى عليه السلام، فتجلى كيف خدمت هذه السّور الأغراض القرآنيّة.

الهوامش:

[1]- ينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم، دبيّ، ط1، 2020، ص: 591-592.

[2]- ينظر: الزّمخشري، جار الله بن محمّد الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التّآويل، دار الكتاب العربيّ بيروت، 3/ 340، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني –دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام-، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1 2018، ص: 51.

[3]- ينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص: 52.

[4]- ينظر: المسيري، منير محمود، دلالات التّقديم والتّأخير في القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة 2005 ص: 485، وينظر: د. أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول ، ص: 86.

[5]- ينظر: النّيسابوري، نظام الدّين الحسن بن محمّد، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تح حمزة النّشرتي وآخرون، المكتبة القيمة، القاهرة، 1/ 493، وينظر، أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص: 87.

[6]- ينظر الزّمخشري، الكشاف، 1/ 124، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 1/ 127، وابن عاشور للإمام الشّيخ الطّاهر، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار الوطنيّة للنّشر والتّوزيع تونس 1396 هـ - 1976 م، 1/ 457، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص: 150.

[7]- ينظر: نفسه، 1/ 607، وتصريف القول، ص: 88.

[8]- ينظر: أبو حيان، تفسير البحر المحيط، مطابع النّصر الحديثة، المملكة العربيّة السّعودية، 6/ 225 وينظر: دلالات التقديم في القرآن الكريم، ص: 483، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول 92.

[9]- ينظر: أبو السّعود، ارشاد العقل السّليم، 2/ 310، أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول ص: 152.

[10]– ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 1/ 137، والألوسي روح المعاني، 1/ 359.

[11]– ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 3/ 31، وينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول ص: 90.

[12]– ينظر: الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرّحمن، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمّد شاكر، مكتبة خانجي، القاهرة، ص: 161، وينظر أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص: 48.

[13]. ينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص: 89.

[14]– ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، 9/ 84.

[15]– السّيوطي، جلال الدّين عبد الرّحمن، الاتّقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان 2/ 75 وينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص: 50.

[16]– ينظر زادة، حاشيّة زادة على تفسير البيضاويّ، 4/ 285، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص:90.

[17]– ينظر: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التّأويل، 1/ 200–201، وأمحمّد صافي المستغانمي تصريف القول، ص: 46.

[18]– ينظر: الجمل، سليمان بن عمر العجيلي، الفتوحات الإلهيّة بتوضيح تفسير الجلالين للدّقائق الخفيّة المعروف بحاشية الجمل، دار الفكر، بيروت لبنان، 2003، 3/ 104، وأمحمّد صافي المستغانمي تصريف القول، ص: 47.

[19]– ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، 19/ 108، وينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول ص: 47.

[20]– ينظر ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، 16/ 240، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول ص: 92.

[21]– أبو حيان، البحر المحيط، 4/ 374، وينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، ص: 51.

[22]- ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 3/ 44.

[23]- ينظر، السّيوطي، جلال الدّين عبد الرّحمن، جمع الجوامع في شرح جمع الجوامع، تح أحمد شمس الديّن، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، 1998، 2/ 141، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، ص: 50.

[24]- ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 3/ 33، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول ص: 50.

[25]- ينظر: الجمل، حاشيّة الجمل، 3/ 109، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول، 51.

[26]- ينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 1/ 150، وأمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول ص: 53.

[27]- ينظر نفسه، 3/ 41، ونفسه، ص: 53.

[28]- ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، 19/ 122، وينظر: أمحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول ص: 54.

مِنْ عِلْمِ المُنَاسَبَاتِ إلى عِلْمِ المُقَارَنَاتِ بيْنَ السّوَرِ
-ما بين ابن عاشور والمُستغانمي-

أ.د حسنيّة عزاز
ج. جيلالي اليابس، سيدي بلعباس

الملخص: من بين العقول العلميّة المهاجرة عقلٌ عربيٌّ صقلٌ صافيُ النّبع ويدعى صافي إنّه محمّد صافي المستغانمي المفكر الباحث، رجلٌ عالي الهمّة، وفذّ المعرفة، أراد أن يبلغ صفاء اللغة، لغة الضّاد النّقيّة الصّافيّة من خلال القرآن الكريم الذي قرأه ودرس سوره، وبحث في آيه، وتمعّن في إعجازه اللغويّ، فجاء منهجه متميّزا متضمّنا علوما كثيرة، وأفكارا جليلة، وفوائد عظيمة...

وجدت في منهج أستاذنا المستغانمي تأثرا بارزا بالشّيخ الطّاهر بن عاشور رحمه الله في مواقف عديدة من منهجه في التّفسير؛ نحو: الاهتمام ببيان تناسب اتّصال الآي بعضها ببعض حتى لو نزلت الأولى بمكّة والأخرى بالمدينة؛ وكذا الاهتمام ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربيّة وأساليب الاستعمال...

ومع قراءتي لكتاب (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّوّر) اتضّح لي أنّ تأثّر المستغانمي قد يكون حتّى في ميزة التّجديد التي عُرِف بها الطّاهر بن عاشور في تفسيره (التّحرير والتّنوير)، ولربّما هذا طبع المغاربة؛ التّجديد والتّميّز بمنهج يختلف عن منهج المشارقة.

لذلك غيّرت عنوان هذه الورقة من «أثر محمّد الطّاهر بن عاشور في منهج تفسير أمحمّد صافي المستغانمي للعنوان الحالي: (من علم المناسبات إلى علم مقارنات السّور – ما بين الطّاهر ابن عاشور وأمحمّد صافي المستغانمي–) لأُبيِّن مظاهر التّجديد في تفسير القرآن الكريم، خاصّة في علم المقارنات بين السّور، أمّا على وجه التّفصيل فيما يخصّ ذلك، فيحتاج إلى مزيد بسط وبيان في هذه الورقة البحثيّة:

أردت أن أبيّن أثر منهج تفسير القرآن الكريم لدى الشّيخ الطّاهر بن عاشور في تفسير أمحمّد صافي المستغانمي، وأنا أبحث وأدرس وأتصفّح ما كتبه أستاذنا الفاضل المستغانمي، وما قدّمه من برامج دينيّة في قناتي المجد العلميّة والشّارقة الفضائيّة والشّابكة في مجال تفسير القرآن الكريم من خلال (في رِحاب سورة) و(البيان القرآني)، و(كذلك يضرب الله للنّاس أمثالهم)، حقّا كان العلاّمة الجزائري المستغانمي مجدّدا في تفسيره بأسلوب متميّز راق ومشوّق، رفع به مستوى الجمهور المعرفي في التّعرّف إلى أعاجيب وكنوز وأسرار سور وآيّ الكتاب العزيز، وما يتميّز به من جوانب لغويّة ودقائق بيانيّة، وما تضمّنه من مقاربات تفسيريّة، وسير الأنبياء والصّحابة والعلماء، والأمثال والقَصص والعبر.

وهذا ليس بغريب أو بعيد عن قدرات شيخنا المتخصّص في اللغة العربيّة وعلومها والعارف بعلوم القرآن، بل وليس في هذا من عجب، فقد عُرِفَ الدّكتور المستغانمي ببراعته في هذا الشّأن، وضلاعته في هذا الميدان، فكان –لا جرمَ– واجبا على أُولي البحث وسالكي سبيله أن يقفوا على ما قدّمه هذا

الرّجل الصّافي النّبع استكشافاً لعلمه، وتعرّفاً إلى ما عسى أن يكون أضافه أو تفـرّد به، ولعلّ هذا الاستكتاب، وهذا الملتقى الدّولي يعرّف بهذه الشّخصيّة، ويفتح بابـا للبحث في مسار ومنجزات عالمنا اللغوي المفسّر المستغانمي.

كان المستغانمي مجدّدا في تفسيره للقرآن الكريم خاصّة في ما تعلّـق بالعلاقـات بين السّور القرآنيّة وارتباط بعضها ببعض، ومميّزات كل سورة عن سواها، والعلم بأسباب النّزول، والمكّي والمدني، وتسميّات السّور القرآنيّة، وأسباب عنونتها بهذه التّسميّات.

إضافة إلى كتاب متميّز جدا هو (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّوّر) الـذي يُمثّلُ رؤية تأصيليّة لعلم مقارنات السّور الذي يُعنى بإيضاح العلاقات والـرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة بين مجموعات السّور القرآنيّة التي أطلق عليها أستاذنا عنـوان (الأُسر القرآنيّة).

وموضوع هذا الكتاب[1] مستطرف حديث من مواضيع التّفسير الموضـوعي في القرآن الكريم، خاصّة بعدما عايش الدّكتور المستغانمي القـرآن الكـريم، وأَلِـف قراءة سوره وتفسير آياته في برنامج (في رِحـاب سـورة)، هـذه المعايشـة والمقاربـة والتّحليل لسور القرآن جعلـه يكتشـف تلـك العلاقـات بـين السّـور، وقـد أفـاد الدّكتور من مصادر عديدة للتّفسير، غير أنّ بعض المفسّـرين كـان تركيـزهم عـلى الدّراسة اللغويّة للآي نحوا وصرفا وبلاغة، وتاليا استنباط منها الأدلّـة والحجـج

والبراهين والأحكام الفقهيّة، وكذلك استظهار الصّور البلاغيّة والعلاقات بين بدايّة السّورة ونهايّتها.

هذه الأشياء تعرّض لها العلماء السّابقون رحمهم الله تعالى، لكن ثمّة جديد في كتاب (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور)، هو المقارنة بين السّور المتشابهة المطالع، والسّور المتشابهة الفواصل، وكذا المقارنة بين السّور المفتتحة بأنساق تعبيريّة متشابهة؛ ولأنّ شيخنا العالِم المستغانمي كان ممّن يقرأ القرآن ويتدبّره لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾[2]، تفطّن لوجود أسرار بين السّور المتشابهة المطالع بعد بحث وجهد وعمل دقيق، تمثّلت في العلاقات الجميلة الرّائعة التي استنطقها في كتابه إمّا أنّها تتكامل أو أنّ هذه توجِز، والأخرى تُفصِّل، وإمّا هذه يأتي فيها الكلام مُطْلقا، وهذه يأتي فيها مُفَصّلا مبيَّنا، إلى غير ذلك[3]. فليس اعتباطا أن تكون هناك سور مطالعها متوافقة دون سرّ، وهذا كلام الله وقوله الحقّ.

في كتاب (جواهرُ الدُّرَر) أمثلة عن ذلك، نحو السّوّر المُسَّبِحات (الإسراء والحديد، والحشر، والصّف، والجمعة، والتّغابن والأعلى)، هذه السّور تتشابه مطالعها، في قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾[4] فما العلاقات التي تجمعها؟ هناك ربط وهندسة لفظيّة، وعلاقات وطيدة ووشائج رائعة بين هذه السّور، فمن خلال المقارنة والمطالعة توصّل الدّكتور المستغانمي إلى كثير من الحقائق المنطقيّة[5]، على نحو الحضور المكثّف لمادة "التّسبيح في السّور المسبّحات

وذكر أسماء الله الحسنى بأعداد كثيرة، ووجود روابط مضمونيّة توّحد بين المسبّحات، حديثُها عن بني إسرائيل والأنبياء الذين أرسلوا إليهم.

ومظاهر التّجديد في تفسير سّور القرآن في هذا الكتاب جلِّيّة من خلال ما سمّاه أستاذنا **علم المقارنات** وهو ليس علم المناسبات، الّذي يُعرِّفه (البقاعي) (ت 885ه) في نَظْم الدُّرر: " فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال وتتوقّف الإجازة فيه على معرفة مقصود السّورة المطلوب ذلك فيها. ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غايّة النّفاسة، وكانت نسبته من علم التّفسير نسبة علم البيان من النّحو"[6]، وقد عبَّر عنه الإمام (عبد الحميد الفراهي) بـ(نظام القرآن)، وبعضهم يبحثه تحت ما يسمّى بـ(الوحدة الموضوعيّة).[(7)]

وعلم المناسبات علم قديم منذ عهد أبي بكر النّيسابوري، وفخر الدّين الرّازي، وأبي الحسن الحرّالي المغربي(637هـ)، وأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزّبير الغرناطي، وله في ذلك كتاب (البرهان في ترتيب سور القرآن) والبقاعي في كتابه (نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور)، وكتابه مؤلّف مستقلّ لتلّمُس المناسبات بين الآيات والسّور، وهو كتاب نفيس في بابه. وابن النّقيب الحنفي حيث تصدى في تفسيره لذكر المناسبات. والسّيوطي، فقد ألّف كتابه (تناسق الدّرر في تناسب السّور)، والشّيخ محمّد عبده، والأستاذ سيد قطب في كتابه (في

ظلال القرآن)، والشّيخ مصطفى المراغي في تفسيره. والشّيخ عبدالله بن الصّـدّيق الغـماري في كتابـه (جـواهر البيـان في تناسـب سّـور القـرآن)، والشّـيخ الطّـاهر الجزائ حيث تكلم عنه وعن أهميته وفوائده في كتابـه (التّبيـان لـبعض المباحـث المتعلقة بالقرآن). والفراهي في تفسيره (نظام الفرقان).والطّاهر ابن عاشور.[8]

وعدد من العلماء عارض البحث عن المناسبات، وقالوا بأنّه علم متكلّـف، ولا يطلب للآيّة الكريمة مناسبة لكونها نزلت متفرّقة على حسب الوقائع والأحـداث ومنهم الإمام الشّوكاني حيث قال في تفسيره (فتح القدير): " أعلـم أنّ كثـيراً مـن المفسّرين جاءوا بعلم متكلّف، وخاضوا في بحـر لم يكلفـوا سـباحته، واسـتغرقوا أوقاتهم في فنّ لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التّكلم بمحض الـرّأي المنهي عنه في الأمور المتعلّقة بكتاب الله سـبحانه، وذلـك أنّهـم أرادوا أن يـذكروا المناسبة بين الآيات القرآنيّة المسرـودة عـلى هـذا التّرتيـب الموجـود في المصـاحف فجاءوا بتكلّفات وتعسّفات يتبرّأ منها الإنصاف، ويتنزّه عنها كلام البلغـاء فضـلاً عن كلام الرّبّ سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتّصنيف، وجعلوه المقصد الأهمّ مـن التّأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره".[9]

إذن علم المناسبات يتحدّث عن مناسبة هذه الآيّة مع هذه الآيّة، والتّناسب بين هذه السّورة والسّورة التي قبلها أو التي بعدها، ومـا موقعهـا؟ مـثلا لمـاذا جـاءت سورة الكهف بعد سورة الإسراء؟

تبدأ سورة الإسراء بـ ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ ﴾[10] وفي نهايّتها ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾[11]، وسورة الكهف بعدها تبدأ بـ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾[12]. وفي تتبّعّ لهذه الآيات نجد سبحان الله، الله أكبر، لا إله إلّا الله. وهي الباقيّات الصّالحات، ما يتضّح في سورة الكهف ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾[13]، إذن موقع سورة الكهف بعد الإسراء هو موقع عظيم جدا يسمّى التّناسب فقط.

بينما علم المقارنة هو العلم الذي نقارن فيه بين مضمون سورة الإسراء التي تبدأ ب ﴿سبحان الذي أسرى﴾ وبين مضمون ﴿سبح لله﴾ في المسبّحات السّبع مثلا، فعلم مقارنة السّور فرع من علوم القرآن.

و(جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور) يطرح رؤية جديدة لمن أراد أن يتدبّر القرآن، وهكذا يرى الدّكتور المستغانمي الذي يحثّ على قراءة السّورة والعيّش في ظلالها وفي رحابها، لتجد السّورة التي تليها تتحاور معها، والأمثلة عديدة في الكتاب[14].

سورتا الفرقان والملك من السّور المتشابهة المطالع، وهذا ليس اعتباطا، بل في ذلك حكمة وعبرة ومعنى، يجعلنا نعيد قراءة السّورتين بتدبّر، فتظهر لك كلمة (نذير) التي وردت في سورة الفرقان أربع مرّات، ووردت في سورة الملك أربع مرّات والأمثلة عديدة: المشركون في سورة الفرقان يقول الله عنهم مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ ﴾[(15)]، هل تحسب أنّهم عندهم سماع وعندهم عقل

هذا في سورة الفرقان، ففي سورة الملك عندما يدخلهم الله جهّـنم،﴿ وَقَالُوا۟ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[16]، هذا التّكامـل بيـنهما، فهـذه إضـافة اكتشـفها الـدّكتور المستغانمي في العديد من الآيات.

وفي مثال آخر، دائما مع سورة الفرقان في قوله تعـالى:﴿ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴾[17]، فالزّفير هـو إخـراج الهـواء ويعاكسـه الشّـهيق، إذن في سـورة الفرقان(سمعوا لها تغيظا وزفيرا)،ومع سورة الملك، قوله تعالى:﴿ إِذَآ أُلۡقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴾[18]، فالشّهيق يُكمّل الزّفير إذن سورة الملك تكمل سورة الفرقان.

ولنعرّج إلى مثال آخر، ففي بدايّة سورة الحاقة، وهذه الثّلاثون نـزولا، وسـورة القارعة، وهذه السّبعون نزولا، بينهما سنوات، ومع ذلك حتى يـربط الله لنـا بـين السّورتين أعطانا مؤشرات، قال تعالى:﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴾[19]. كلمـة بالقارعـة ترشـدنا إلى قـراءة سـورة القارعـة، فثمّـة مؤشرات تجعلنـا نتـذوق هـذا الكـلام العجيـب الـذي لا تنتهـي عجائبـه، هـذه الإضافات الرّائعة نجـدها في كتـاب (جـواهرُ الـدّرر في علـم مقارنـات السّـور) وإضافات أخرى برؤية جديـدة؛ لأنّ بحـث الـدّكتور المسـتغانمي(يؤسّـس علـما جديدا هو علم مقارنات السّور)[20].

والمستغانمي محدّثٌ فصيحٌ، فلم يبخل علينا ببيان صـناعة الفصـاحة وتقنيّـات البلاغة، وفنيات الخطابة في كتاب سـمّاه (الخطيـب النّـاجح بـين عوامـل الاقنـاع ووسائل الامتاع).

أمّا شيخنا **الطّاهر ابن عاشور** الّذي يمكن القول فيه أنّه مجدّد تفسير القرآن الكريم في المغرب العربي، من خلال مؤلَّفِه(تفسير التّحرير والتّنوير) الذي يعدّ من أهمّ إنجازات الشّيخ وأعظمها، فقد فسّر فيه القرآن تفسيرا تاما من سورة الفاتحة إلى سورة النّاس، وعنونه باختصار "التّحرير والتّنوير" مختصر من عنوان طويل، هو(تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد سمّاه المؤلّف نفسه بهذه التّسميّة)[21]، يقع تفسير التّحرير والتّنوير في ثلاثين جزء. وطبعت طبعات مختلفة وكثيرة، من أبرزها: طبعة الدّار التّونسيّة للنّشر، وهي في خمس مجلّدات، وطبعة قديمة سنة 1384 ه، بمطبعة عيسى البابي الحلبي.

لقد رسم الشّيخ ابن عاشور معالم المنهجيّة للباحثين لتكون عوناً لهم عند تفسير القرآن الكريم، ثم الأغراض التي حدّدها لتفسيره التّحرير والتّنوير، وكذلك المصادر التي اعتمدها في تفسيره.

ويذكر ابن عاشور في مقدّمة تفسيره أنّه سيَقْدِمُ على أمر صعب، فيقول: "أقدمت على هذا المهمّ إقدام الشّجاع على وادي السّباع" [22]، والتزم على نفسه أن يأتي بنكت لم يسبقه أحد إليها، وهو منهج التزمه منذ بداية تفسيره، حيث يقول: "فجعلت حقاً عليَّ أن أبدي في تفسير القرآن نكتاً لم أر من سبقني إليها"[23]، ثمّ يذكر بعض اهتماماته في تفسيره، فيقول: "وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربيّة وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتّصال الآي بعضها ببعض"[24]، وقد ذكر في المقدّمات العشر معالم المنهجيّة التي سار عليها في تفسيره.

ينطلق ابن عاشور من أسّس ثلاثة تقوم على: ما تتميّز به السّورة، والأطر العامّـة لها، وشيء من التّفاسير المتعدّد للسّـورة، وذلـك لتكـوين فكـرة كاملـة عـن السّـور بشكل يعزّز حضور القرآن الكريم في حيـاة الجمهـور، ويضـيف المزيـد مـن الفهـم للسّورة القرآنيّة بأسلوب معاصر يمكنه محاكاة المستويات المعرفيّة للجمهور كافّة.

وابن عاشور موسوعة علميّة شاملة، حيث أضاف إضـافات علميّـة جميلـة إلى التّفسير من ضمنها المناسبات، فهو من أبرز المفسّـرين المعـروفين بـالاهتمام بعلـم المناسبة والرّبط بين الآيات ومحاور السّور. ولقد تميّز تفسـيره بالمنهجيّـة الواضـحة وتطبيق الشّروط التي وضعها العلماء للتّفسير بالرّأي، والتزم بذلك طوال تفسـيره فاهتمّ كثيراً بالنّظر والتّدبر وإعمال العقل والبعد عن الجمود والاقتصار على المأثور فقط دون اعتبار التّفسير بالرّأي المحمود المنبثق من القواعد الشّرعيّة. كما أنّـه تميّـز بتوسيع المدلولات اللغويّة، وبالاتّجاه المقاصدي في التّفسير، وبالرّؤيـة التّجديديّـة الإصلاحيّة، واهتمّ كثيراً بمقاصد الشّريعة والرّبط بينها والاستدلال بها.

وأوجه الرّبط بين المفسِّريْن (الطّاهر بن عاشور) و(أمحمّد صافي المسـتغانمي)[25] هي تلك الإضافات التي أضيفت لتفسيرهما للقـرآن الكـريم، وكلاهمـا ذَكَـرَ ذلـك خاصّة في علم المناسبات وعلم المقارنات.

خاتمة: إنّ علم المناسبات علم يقـوّي الـتّرابط بـين أجـزاء القـرآن، ويظهـر وجها من وجوه إعجازه، ويبين أسرار ترتيب سوره وآياته، وأسرار التّعبير القرآني في التّقديم والتّـأخير، والإيجـاز والاطنـاب، ويـبرز الحكمـة مـن ضرب الأمثـال والعبرة من عرض القصص، حسب مقتضيات الأحوال، وأثـره واضـح في إبـراز غرض الآيّة ومقصدها، والمراد منها، فالوحدة الموضوعيّة في القرآن الكريم حقيقة ثابتة في كل سورة منه، لكن ثمّة علم آخر ذكره المستغانمي هو علم المقارنات، هذا المنهج الجديد الذي سيفتح أبوابا للباحثين للكشف عـن أسرار أخـرى في القـرآن الكريم.

ملحق:

من هو الطّاهر بن عاشور؟

هو محمّد الطّاهر الثاني بن الشّيخ محمّد بن محمّد الطّاهر الأوّل بن محمّد بن الشّـاذلي بن عبد القادر محمّد بن عاشور الشّـريف الأندلسـي ثمّ التّونـسي، وأسرة آل عاشـور تنتمي إلى أصل أندلسي، وقد تميّز أفرادها في الأنشـطة العلميّـة والدّينيّـة في التّـدريس والإشراف على المساجد، واشتهرت بالفضل والعلم[26].

وُلِد محمّد الطّاهر بن عاشور(بضاحيّة المُرسـى)[27] في تـونس في جمـاد الأولى سـنة 1296 هـ الموافق لـ سبتمبر 1879 م بقصر جدّه لأمّه محمّد العزيـز بوعتـور وسـكن مع جدّه الوزير وكان يتنقل معه في السّكن بين المرسى ومنوبـة وتـونس وكانـت هـذه الثّقة تزداد مع مرور الأيام.

نشأ الطّاهر ابن عاشور رحمه الله في عائلة عِلْمٍ تحت رعايّة أبيه، وكان جدّه يحـرص كلَّ الحرص على أن يكون الطّاهر خليفـتهم في العلـم والمكانـة، وقـد حفـظ الطّـاهر القرآنَ الكريم في بدايات عمره وتعلّم اللغة الفرنسيّة، والتّحـق بجـامع الزّيتونـة سـنة 1310ه، وهو في الرّابعة عشرة من عمره، فدرس فيها وتميّز على أقرانه، وكان ذا عقلٍ وذكاءٍ قويّ ، ممّا ساعده على تحصيل كثير من العلوم، وممّا ساعده أيضـاً عـلى تحصـيله العلمي هو المحيط الذي كان يعيش فيه، فقد طلب العلم على شيوخٍ أجلاّء كانت لهم مكانتهم العلميّة والفكريّة في تونس[28].

لقد كان هناك العديد من العوامل التي أثرّت في سيرة ابن عاشور العلميّة والمعرفـة ومنها: جدّه للأب في اقتدائه به وبسيرته وجدّه للأمّ وشيوخه وعلماء عصــره، إضـافة إلى استعداده الفطريّ لتلقّي العلوم المختلفة.

لقد تميّز ابن عاشور بثرائه وتنوّعه فلم يحصر نفسه في إطار تخصّص ضيّق بل كانت له جولات في أكثر من مجال[29]، وقد تنوّع عطاؤه ما بين التّأليف والتّحقيق فألّف في التّفسير، وفي الحديث، وفي الأدب والنّقد والتّراجم والسّير والنّحو والبلاغة، وفي علم الاجتماع والتّاريخ، ولعلّ من أهمّ مؤلّفاته وأبرزها: **التّحرير والتّنوير**.

من هو أحمّد صّافي المستغانمي؟

الدّكتور أحمّد صافي المستغانمي، يحمل شهادة دكتوراه في اللغة العربيّة في تخصّص البلاغة العربيّة، تقلّب في عدد من الوظائف في ميدان التّربيّة والتّعلّيم في الجزائر، وفي دولة الإمارات العربيّة المتحدّة. يشغل الآن منصب الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، وهو عضو اتّحاد المجامع اللغويّة والعلميّة، وعضوٌ بالمجلس العلمي للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة. مُعِدّ ومقدّم برامج تلفزيونيّة مثل (البيان القرآني) في قناة المجد العلميّة، وبرنامج (في رِحاب سورة) في قناة الشّارقة الفضائيّة.

له عدّة من المؤلّفات منها: تصريف القول في القصص القرآني: دراسة مقارنة لقصّة موسى ﵇، والخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع وكيف تصبح فصيح اللسان، ومفاتيح النّجاح وسُنن السّعادة: رُؤية تأصيليّة وبلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، والأساور المرصّعة في أسرار الأحرف المقطّعة وجواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور، وأخرى تحت الطّبع[30].

الإحالات:

1- ينظر: مقدّمة كتاب جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّـور-رؤيـة تأصـيليّة للـرّوابط المضـمونيّة واللّفظيّـة لمجموعـات الأسر القرآنيّـة-، أمحمّـد صـافي المسـتغانمي، دار ابـن كثـير، الطّبعـة الأولى 1439ه/ 2018 م؛ والشّـابكة فيـديو لحصّـة (سـاعة كتـاب) لتلفزيـون الشّـارقة بتـاريخ 02 نوفمبر2017 م، حوار مع الدّكتور المستغانمي للحديث عن كتابه (جواهر الدُّرر في علم مقارنـات السّور) على هامش مهرجان الشّارقة الدّوليّ للكتاب في طبعته السّادسة والثلاثين.

2- الآيّة 24، سورة محمّد.

3- ينظر: حوار مع الدّكتور المستغانمي للحديث عن كتابه (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّـور) على هامش مهرجان الشّارقة الدّولي للكتاب في طبعته السّادسـة والثلاثـين، الشّـابكة فيـديو لحصّـة (ساعة كتاب) لتلفزيون الشّارقة بتاريخ 02 نوفمبر2017 م.

4- الآيّة01، سورة الإسراء.

5- ينظر: جواهر الـدُّرر في علـم مقارنـات السّـور-رؤيـة تأصـيليّة للـرّوابط المضـمونيّة واللّفظيّـة لمجموعات الأسر القرآنيّة-، أمحمّد صافي المستغانمي، ص 164، 165، 168.

6 -نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسّور، برهان الدّين أبي الحسـن إبـراهيم بـن عمـر البقـاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 1/ 6.

-7 ينظـر: عبـدالرّحمن بـن معاضـة الشّـهري (أسـتاذ الدّراسـات القرآنيّـة بجامعـة الملـك سـعود- amshehri@gmail.com)، علم المناسبات في القرآن الكريم، https://vb.tafsir.net/forum الجمعة 23 رجب 1424 ه، 19/09/2003, 03:54 am.

8- ينظر: المرجع نفسه.

9- فتح القدير، محمّد بن علي بن محمّد بن عبد الله الشّوكاني، (تح يوسف الغـوش)، دار المعرفـة ط4 سنة 1428ه/ 2007، ص72.

10- الآيّة 01، سورة الإسراء.

[11]- الآيّة 111، سورة الإسراء.

[12]- الآيّة 01، سورة الكهف.

[13]- الآيّة 46، سورة الكهف.

[14]- ينظر: جواهر الدُّرر في علم مقارنـات السّـور- رؤيـة تأصـيليّة للـرّوابط المضـمونيّة واللّفظيّـة لمجموعات الأسر القرآنيّة-، أمحمّد صافي المستغانمي، ص 207.

[15]- الآيّة44، سورة الفرقان.

[16]- الآيّة10، سورة الملك.

[17]- الآيّة12، سورة الفرقان.

[18]- الآيّة07، سورة الملك.

[19]-الآيات1.2.3.4، سورة الحاقّة.

[20]- ينظر: مقدمة جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور- رؤية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأسر القرآنيّة-، أمحمّد صافي المستغانمي، ص 24.

[21]- المستغانمي ليس له كتاب جامع شامل في تفسـير القـرآن الكـريم، بـل وجـدنا تفسـيره في كتبـه المختلفة وبرامجه التّلفزيونيّة، نتمنى أن يعمّم قواعد علـم المقارنـات في كـلّ سـور القـرآن في كتـاب خاص لينضمّ هذا العالم الفذّ لكوكبة المفسّرين (أصحاب التّفاسير).

[22]- محمّد الطّاهر ابن عاشور،مقدمات التّحرير والتّنوير، ص19.

[23] -المرجع السّابق، ص20.

[24]- المرجع السّابق، ص22.

[25]- ينظر: جواهر الدُّرر في علم مقارنـات السّـور- رؤيـة تأصـيليّة للـرّوابط المضـمونيّة واللّفظيّـة لمجموعات الأسر القرآنيّة-، أمحمّد صافي المستغانمي، ص 207.

[26] -ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيين، محمّد محفـوظ، دار الغـرب الاسـلاميّ بـيروت، سـنة 2008 3/ 304؛ والأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشـــرقين خير الدّين الزّركلي، ط 6، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 6/ 174.

[27] - المُرسى: ضاحيّة من ضواحيّ العاصمة تونس، لها تاريخ قـديم، ينظـر معجـم البلـدان ليـاقوت الحموي، 5/ 107.

[28] -مجلة الهدايّة، ابن الخوجة محمّد الحبيب، العدد 3-4أ ص11.

[29] - الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور ومنهجه في التّفسير، مهنا ثامر العلي، مرجع سابق ص75.

[30] - سيرة الدّكتـــور المسـتغانمي منقـــولة مـن غـلاف كتـــاب جواهـــر الـدُّرر في علـم مقارنـات السّــور- رؤية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأسر القرآنيّة-، المرجع السّابق.

التَّفكِيرُ اللُّغوي عِنْدَ الدُّكتور أمحمّد صّافي المُستَغانْمي

Linguistic thinking of Dr. Mohamed Safi Mosteghanemi

د.عبد النّاصر بوعلي
ج. أبو بكر بلقايد، تلمسان

الملخّص: يُعدُّ الدُّكتور أمحَمّد صافي المُستغانمي من أعْلامِ الدّرسِ اللُّغوي المُعاصِرين، وهو من الذين يَخدمون اللغة العربيَّة، ويُسهمون في تطويرها والحِفاظ عليها، خُصوصًا وأنَّهُ يتولَّى الإشرافَ على إعدادِ مُعجمها التّاريخي الذي اِنتظرتْهُ الأُمَّة طويلًا، وتُعلَّقُ عليه الآمال كثيرًا من أجلِ إعطاء دفعٍ للدَّرس اللُّغويِّ العَربي المُعاصر. تبنّى في كِتاباتِه المنهجَ التّراثي الذي لا يُضيع جُهودَ الأوَّلين، والحَداثَة الَّتي ينبغي سلكُها من أجْلِ اللّحاقِ بمُفْرزاتِ التّطور التّكنولوجي التي أَحْدثَتها العُلومُ العَصريَّة. جَمعَ أمحمّد صافي المُستغانمي في كتاباتِه، وحِواراته ومُداخلاته بين طَرافَة الحَديثِ وبلاغَةِ العالمِ المُتمكّنِ من سِرِّ العربيَّةِ، كما أنّهُ يَعْمدُ لذكرِ بعضِ الشّروحِ الفقهيَّة المُخرجة على القاعدةِ، والاستشهادِ بكثيرٍ منْ أشْعارِ العربِ وحِكَمِها وأمْثالِها، بَعيداً عَنِ الجَدلِ، وتشعُّب الخِلافِ.

سنُحاولُ منْ خلالِ هذه المُداخلة الوُقوفَ على طبيعةِ التَّفكير اللُّغويِّ لهذِه الشَّخْصيَّةِ، والاطّلاع على منْهجِها اللُّغوي ومَقاربَة ذلكَ مَعَ الدَّرس اللِّساني الحَديثِ.

الكَلِماتُ المِفْتاحِيَّةُ: التَّفكيرُ اللُّغويُّ – أمحمَّد صافي المُسْتغانْمي – البَحْثُ اللُّغَويُّ – المُعَجَمُ – التّربيَّةُ والتَّعليمُ.

Abstract

Dr. Muhammad Safi Al Mosteghanemi is considered one of the prominent scholars in contemporary linguistic studies, and one of those who serve the Arabic language and contribute to its development and preservation. Especially, he is supervising the preparation of its historical dictionary, which will provide great support for Arabic linguistic studies. In his writings, he adopted the traditional approach that does not waste the efforts of the ancients, but rather combines them with modern trends. He also collected in his writings, dialogues and conferences the good discourse with the eloquence of a scholar who knows the secrets of the Arabic language. He also mentioned some jurisprudential explanations, and cited many Arabic poems, wisdom and examples in a way that is far from controversy.

Through this research paper, we will try to identify the nature of the linguistic thinking of this scholar and his linguistic approach in the light of modern linguistics.

Keywords

Linguistic thinking, Mohamed Safi Mosteghanemi, linguistic research, dictionary, education and teaching.

1ـ مُقدّمة: تساءلتُ كثيرًا وأنا أفكِّر في الكِتابةِ عن الأستاذ الدّكتور أمحمّد صافي المُستغانمي وتزاحمتْ في رأسي مجموعةٌ من المواضيع التي سجّلتها عنه منذ أنْ عرفتُه في صائفة عامّ 2018م، بالجزائر العاصمة، بمناسبَة تأسيسِ لجنة الجزائر للبحثِ في المُعجم التّاريخيّ للُّغةِ العربيَّة.

وبعد بحثٍ وتنقيب في كتاباته ومُحاضراته ومداخلاته، اهتديتُ إلى أنَّ الرَّجل يملكُ فصاحة الكَلامِ، وبلاغة القَوْلِ، وله درايّةٌ واسعةٌ بأسرارِ **اللُّغة العربيّة** ووجدتُ له آراءً ذات قيمة علميَّة عاليّة في شأن تعليميَّة **اللُّغة العربيّة**، وسبل تطويرها، وقد لا أكونُ مغاليًا إذا قلتُ إنَّ الرَّجلَ موسوعة علميّة كاملة، فقد امتزجتْ في شخصهِ العديدُ من المعارفِ والثّقافات، وكوّن لنفسِه من هذا المزيج فكرًا خاصًّا أخرجَه في كتبِه، وفي حواراته، ومقالاته ومُداخلاته.

راقني في الرّجل وعيُّهُ لمشكلات التّعليم في الوطنِ العربيّ التي نعيشُها والتي انعكست بالسَّلب على مستوى أبنائنا في تعلّم **اللغة العربية**، ولمستُ عطفَه الكبير على مستقبل الأمّة، و غَيْرَتَهُ على مستقبل العُروبَة والإسلام، فكلَّما تحدّثَ في أمر من واقع هذه الأمورِ إلّا ونلمسُ شغفَه الكبير بمحاولة طرح حُلولٍ للعديدِ من القَضايا التَّربويَّة والثَّقافية التي تُعدّ الرَّكيزة الأساس في انبعاث دواليب التّنمية.

تُدين الأمّة العربيّة لـ أمحمّد صافي المُستغانمي بدور تأسيسي في تشجيع الاهتمام باللغة العربيّة بشكلٍ عامّ، فقد شارك في النِّقاش العموميّ اللغويّ، وتبنى لهجةً شديدة ضدَّ دعاوى الاستعاضة عن الفُصحى والتَّمكين للعاميّة في الوطَن العربيّ كما قام بتفنيد مزاعم بعض دعاة التّغريب الذين قصّروا من أهميّة اللغة العربيّة ودورها الرّيادي في اِنبعاث نهضة علميّة، كما تعترف له الأمّة بدوره الرّيادي في إحياء مشروع المعجم التّاريخي.

حظـي بـاعتراف واسـع مـن قبـل الأوسـاط العلميّـة اللسـانيّة، مثـل معهـد (ماساشوستس للتّكنولوجيا) بالولايات المتّحـدة، وقـد أشـاد بقيمـة أبحاثـه العـالم اللغويّ المعروف نعوم تشومسكي.

اِرتبطتِ العربيةُ في تفكيرِ أمحّد صافي المُستغانمي بأركانِ الشَّرع الإسلاميّ فمن خلالها يدخُل النَّاس إلى الإسلام، فبها يذْكرون الله، وبهـا يُنـادى إلى الصّـلاة، وبهـا يُقْرأُ القرآنُ الكريمُ، وقد أعطت معتنقيها هُويَّة خاصَّة يَتعارفون بها بين الأمَّمِ.

اتّصلت العربيّة بشكل وثيق بعلوم الشَّـريعة الإسـلاميّة، فـإذا رجَعنـا إلى كتـب علوم التَّفسير وبحثنا عن أهمَّ شروط المُفسّر وجدنا منها صـحّة الاعتقـاد والتجـرّد من الهَوى، بالإضافة إلى دقّة الفهم، والإلمام بالعلوم المُتصلة بـالقرآن الكـريم كعلـم القراءات، والعلم باللغة العربية وما يقترن بها لفهم القرآن وتفسيره، وهو يردِّد دائـمًا قوله: إنّ القُرآن الكريمُ نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، ويتوقَّف فهمُـه عـلى شرح مفـردات الألفاظ ومَدلولاتها بحسب مقتضى الحال.

يتجلَّى منهجُ التَّفكير اللُّغوي عند الباحث أمحمَّد صافي المُسْتَغانْمي في طروحاتـه الفكريّة التي يُدلي بها أمام الحُضور ضمن مداخلاته العلميَّة، وهو مـا جعلنـي اتتبـعُ ذلك فيما تَمّ تسجيلُه واجتهدتُ في تخريجِها ومناقشتِها في ضوءِ منهجٍ وصفي يعتمـدُ على التَّحليل والاستقْراء، آملًا أن أكونَ بذلك قد اقتربتُ من فهمِ المَرامي المقصـودة من هذا المُستوى الفكريّ الذي أتَمَنَّى أن يكونَ في المستقبلِ أرضيّةً للبحث والنِّقـاش عند طلابِنا في بحوثهم في مستوى الماسْتر والدّكتوراه.

وفي الأخير لا يسعني إلّا أنْ أتوجّه بالشّكر الجَزيل لكلٍّ من جامعةِ مُستغانم مُمثلةً في رئيسِها، وفي عميدِ كليّة الآداب والفنّون الأستاذ الدُّكتور الجيلالي بن يشّو الذي سَعى لعقدِ هذا الملتقى ووفّر له من جهْدِه الكثير، و كذا المجلس الأعلى للُّغة العربيَّة مُمثّلا في رئيسِه الأستاذ القدير صالح بلعيد على ما بذلوه من جهودٍ لتنظيم هذا المُلتقى البهيج، فلهم منّا جميعًا تحيّة إكرامٍ وتقديرٍ.

والله المُوفَّق.

2 – **حياتُه وسيرتُه: أحمّد صافي المُستغانمي** الأمين العامّ للمجمع اللغويّ بالشّارقة، من أصولٍ جزائريّة، ولد بمستغانم، وتلقّى تَعليمَهَ الأوّلي بهذِه المَدينة العلميّة التّاريخيّة فتنقّل بين مَدارسها وثانويّاتها، ثمّ قصَدَ وهران، وتخرَّج من جامعتها بدرجةٍ ممتازَةٍ في اللِّيسانس، وبعد نجاحه في الماجيستير تخطَّى مرحلة ما بعد التَدرج لينال شهادة الدُّكتوراه بدرجة مشرِّف جدًّا، تنقلَ إلى العديد من جامعات المشرقِ العربي ليستقر به المَقام في الشّارقة.

يشغل حاليًا أمينًا عامّا للمجمع اللُّغوي بالشّارقةِ، يضعُ نصبَ عينيه رفعَة اللُّغة العربيّة وإعادةِ مَجدها التَّليد.

من مُؤلّفاتِه: مفاتيح النَّجاح وسنن السَّعادة، رُؤيَةٌ تأصيليّة – تصريفُ القولِ في القَصَصِ القرآني – جواهِرُ الدُّررِ في علم مقاربات السّورِ – الخطيبُ النّاجِحُ بين عواملِ الإقناعِ ووسائلِ الإمتاعِ.

3 – قطب الرّحى في التّفكير اللُّغوي لــ أمحمّد صافي المُستغانمِي: يتمثَّـلُ التّفكـيرُ اللّغوي عند الدّكتور أمحمّـد صـافي المُسـتغانمي في جملـةٍ مـن المَعـالم الفكريّـة الّتـي يطرحُها باستمرارٍ في حَلّهِ وترحالِه، وفي مُداخلاتـه ومُحاضراتـه، وفي مُؤلّفاتـه الَّتـي أغنى بها المكتبةَ العربيَّة.

وفيما يأتي سوفَ أحْصُر هذه المَعالم في العناوين الآتية:

ا/ مَكانة اللّغة العربيّـة بـين اللّغـات: يتَّضـح التّفكـير اللّغـوي للشّـيخ صـافي المُستغانمي من خـلال مؤلّفاتـه العديـدة في مختلـف التّخصّصـات، ومـن محاضراتـه المسجّلة في الفيديوهات ضمن اليوتيب والتي تتبّعتها بإمعانٍ، ومن مراسلاته المُتعـدّدة للّجان المكلّفة بإنجازِ الأعمال اللُّغويّة لإعداد المُعجم التّـاريخي للّغـة العربيّـة، ثـمّ مـن خلال مُداخلاته التي شَارَكنَا فيها عن بُعْدٍ.

عرَّفَ أمحمّد الصّافي المسـتغانمي اللُّغـةَ بقولـه: «اللّغـةُ هـي سـبيل الإنسـان إلى الإعرابِ عن نفسِه، والتّواصل مع غيرِهِ بقصد الفهـم والإفهـام، والتّبليـغ والتّلقـي بواسطة الأصواتِ المنطوقَة، والألفاظ المكتوبَة، والإشارات المُعبّرة، وغير ذلك مـن الرّموز والعلامات التي يصطنعُها الإنسان للّغات المذكورة».[1] ومـن الميـزاتِ الّتـي أوردَها في خصائص العربيّة، قـالَ: «إنَّ العربيّـةَ مـن اللُّغـاتِ السّـامية التي يـزدادُ المتحدّثون بها يومًـا بعـد آخـر عـلى خـلاف اللغـاتِ السّـامية الأخْـرى التـي يقـلُّ المُتحدِّثون بها، وأنّ شعوباً كثيرةً دخلت الإسلامَ وتعلَّمت العربيّةَ وأتّقنتهـا، إضـافةً

إلى أنَّ نزولَ القرآن الكريم باللُّغةِ العربية زادَها تقديسًا واهتمامًا، وضَمِنَ لها البقاء على مَرِّ العُصورِ».[2]

وبذلك، فهو لم يخرجْ عمّا تداولته الكتبُ اللغويَّة فيما يَخصُّ تعريف اللُّغة ومكانة اللغة العربيّة بين اللُّغات العالميّة، إذ نجدُه يؤكّد ما أورَدَه الأوَّلون، وما ذهبَ إليه علماء الُّلغة والاجتماع في قضايا اللُّغة، ثمَّ يُضيف فيقول:

«مُنذ أَنْ تَرعرعتُ في كليّة اللُّغة العربيّة والآداب بجامعةِ وهْران، وتدرّجتُ بين أعوامها الدّراسيّة في مَرحَلةِ اللّيسانس، تعلّمت –كما تعلّم أتْرابي– في درسِ اللِّسانيات **أنّ اللُّغةَ ظاهِرةٌ اجتماعيّةٌ يُعبّر بها كُلُّ قَومٍ عنْ أغْراضِهِم**، على حَدّ تعبير ابْنِ جنّي (ت392هـ)، تعلّمتُ أنَّ اللغةَ **تُكتَبُ وتُنطَقُ**، وعلى قدر عُمق ثقافة المُتحدّث بها وعلمه بأساليبها وأسرارها، يزدادُ بيانُهُ جمالا وإشراقًا، وعلى **مِقْدارِ كثْرة مُطالَعاته وتَنوّع قِراءاتِه**، يترقّى في مدارج الإبانَة والتّبيين، والفَصاحة والإفْصاح ».[3]

ما يُستفادُ من هذا القول أنّ الباحث أمحمّد صافي المُستغانمي يرى:

– **اللُّغة ظاهرة اجتماعيّة:** لا يمكن أنْ توجدَ اللُّغَةُ منعزلة عن مجتمعٍ بشريّ فهي نتيجة للاتّصال الاجتماعيّ ولذا فإنَّ فكرة الكلام، وفكرة المجتمع، لا يمكن الفصل بينهما. من هنا يرى اللغويّون أنَّ الوظيفة الأساسيَّة للغة هي تحقيق الاتِّصال والتّرابط بين أفرادِ المجتمع الواحدِ، وخلق المجتمع المُتماسك، فاللُّغة هي إسمنتُ المجتمع. كما تربط اللغة الفردَ بالمجتمع وتجعله كائنًا اجتماعيًا وتعطيه شعورًا بالأمانِ

والانتماء الاجتماعيّ، وليس ثمَّة نظامٌ يَمنحُ أعضاء المجتمع إحساسًا قويًا بوجودِ المجتمع كما تفعل اللُّغة، وكلما ازدادَ الفردُ توغلاً في عضويتِه للمجتمع اللغويّ لعبت اللغةُ دوراً مُتزايداً لا في حياته الاجتماعيّة فحسب، بل في سلوكِه، وإحساسِه وتفكيرِه الشَّخْصي. وترتبطُ اللُّغة بكلّ قطاعات حَياتنا الاجتماعيّة والسِّياسيّة والتَّربويّة والاقتصاديّة، ولذلك لا يوجدُ مجتمعٌ بدونِ لغة. فاللغة ليست مُجرَّد ظاهرة اجتماعيّة بل هي أساسُ المجتمع، وهي أكثر طرق الاتِّصال الإنساني استعمالاً فهي رِسالة مُتبادلة بين مُرسلٍ ومستقبلٍ، كلاهما من البشر، ولا يُبرز خصائص المجتمع مثل اللغة التي تّعبّر بالرَّمز عن الإنسان، ودائرته الاجتماعيّة والفكريّة والوجدانيّة. ولذا فإنَّهُ من المستحيلِ أن نشخِّص مجتمعاً من المجتمعات إلَّا عن طريق اللغَة، فهي السّبيلُ الوحيدُ إلى استكشاف ضمير الأمَّة التي تتكلَّمها. وهي التي توحِّدُ مشاعر الأمّة النّاطقة بها، وتجعل من المجتمع بنيّة واحدة تخضع لقوانين مشتركة. وهي الرَّابطة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان، وهي لذلك ظاهرة إنسانيّة اجتماعيّة كالعادات والتّقاليد والأزياء. بل هي بين الظّواهر الاجتماعيّة كلّها دليل نشاطها ووعاء تجاربها.

اللُّغة في المنطوق والمكتوب: يُصنّف كثير من النّاس اللُّغةَ على أنّها المنطوقُ أو المكتوبُ، أو كلاهما، وغالبًا ما تُصنّف اللغةُ على أنَّها المنطوقُ والمكتوبُ جميعًا.

ويقول ابن جنِّي (ت392هـ) في الخصائص، وكذلك ابنُ سيده (ت458هـ) في المُخصَّص: (اللغة) حَدّها: أنّها أصْواتٌ يُعبِّرُ بها كلُّ قومٍ عنْ أغْراضِهم.[4]

نلاحظ في القرآن الكريمِ الإشارة إلى ذلك بمُصاحبة كلمتي لسانٍ، وقرآن لكلمة عَربي عند الإشارة إلى لغته، وهُنا إشارة لطيفة إلى أنّ اللُّغة هي المنطوقُ لا المكتوبُ فاللسان يعبر عن آلة النّطقِ، والقرآن يعبر عن فعل آلة النّطق.

يعتقدُ دي سُوسِير أنَّ الصَّوتَ هو آصرة اللُّغة الحقيقية الوحيدة، وأنّ الكتابة لا تدخلُ في النِّظام الدّاخلي للُّغة بل هي أداة للتَّعبير عن اللُّغة خُصوصًا في اللغاتِ التي بَادَ متحدثوها فلا سبيلَ إلى الاطلاع على لغتهم سوى بِالكتابةِ.

كما يشيرُ إلى تأثير الكتابة على اللغة، ففي العَربيَّة ميزة لم تتوفَّر لأيِّ لغةٍ، وهي الحفظ الإلهي لها، على صورةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر، ولكن يُمكننا دراسة حالة العربيّة في غير القرآن الكريم، وأن نعدّ العاميّات العربيّة اِمتدادًا طبيعيًّا لها لنَعرف تأثير الكتابة على اللغة المنطوقة.[5]

يشبِّه دي سوسير الكتابةَ بالصُّورة المأخوذة للشَّخص، والاعتقاد أنَّنا يُمكن أنْ نعرفَ من الصُّورة أكثر من النّظر لصاحب الصُّورة مُباشرة، ويعد هذا وهْمًا قديمًا ألقى بظلاله على الآراء اللغويّة حتّى الحديث منها، ومن ذلك الرَّأي القائل بأنَّ اللُّغة التي ليس لها صورة مكتوبَة أسرع تغير من نظيرتها ذات الصُّورة المكتوبَة.

يدعّم قوله هذا في العربيّة، حيث يقدّم حفظةَ كتاب الله صورة مطابقة للأصل عن العربيّة التي لا تعتمدُ على الكتابة بل على التَّلقين على يَدِ مُقرئ مجاز، بخلاف متحدِّثي العربية في الإعلام، والمحافل، الذين يقرؤون نُصوصًا مكتوبةً، فتجدهم

يُخطئون في الشَّكل، وتاء التّأنيث المربوطة، وتنوين النّصب، وغير ذلك من الأخطاء التي لا يشعر بها حتَّى من يزعم أنه يُتقن الحديثَ بالعربيّة.

- ويوضح أثر الكتابة في عدَّة نقاطٍ موجَزة هي:

1 - تبدو الصُّورةُ الكتابيَّة كأنَّها وحدة ثابتة مستقرِّة، لذا هي أنسب من الصَّوت لنقل تفسير الوحدة الصَّوتيّة عبر العُصور وأسهل إدراكًا منهُ.

2 - أغلبُ الناس يحتفظون بالصُّورة المَرئية، ويتذكرونها بسهولةٍ وهي أكثر ثباتًا من الصُّورة السَّمعيَّة مما يعطي أفضلية (أعدّها وهميّة) للكتابة.

3 - للكتابِ قيمةٌ كبيرة، ففيه تُدوّن المَعاجم، وبه يكون التّعليم في المَدارس وهو أداة الثقافة، لذا تَحوز الكتابة أفضليّة على الصَّوت في نقل اللغة، لكن النّاس ينسون أنّهم يتعلّمون الكلام أوّلا ثمّ الكتابة.

لم تكنْ للكتابة أهميّة في عصور الفصاحة، حتى جاء الإسلام وبرزت أهميّة تدوين القرآن الكريم، فكان أوّل كتاب عربيّ يكتب ويعتنى بكتابته، ولعلنا حين نرى الرّسم العثمانيّ ندرك مدى الانسجام بين المكتوب والمنطوق في ذلك العصر فخلو الرّسم العثماني من الشّكل والنّقط سهَّل الوقوع في الأخطاء، ممّا حَدا بالعلماء إلى اختراع النقط والشَّكل لاحقًا لضبط القراءة، ومع ذلك لم يكن هذا كافيًّا فاضطرّوا إلى وضع رموز المدِّ والوقف والصّلة، لأنّ الكتابة لم تنقل لنا اللغة التي نزل بها القرآن تمامًا، لذا لا يمكن أنْ يمنح الحافظ إجازة الإقراء إلاّ بعد السَّماع منه حفظًا أو نظرًا للتّأكد من نقله الألفاظ كما نزلت لا كما يقرؤها.[6]

إنَّ أكثر ما نلاحظه من تأثير الكتابَة على المنطوقِ، هو ما نسمعُه في نطق مَائة وعمْرو، فنجدُ بعضَ النّاس ينطقُ الألف والواو ظانًّا أنّها من بنيَّة الكلمة الصّوتية والأمر على خلاف ذلك كذلك يمكننا ملاحظة الأخطاء الإملائية مثل (لاكن) و(هذا) و(هذه) و(ألائك) وفاطمه، وفاطمة بنت محمّد ﷺ، وغيرها ممّا لا تصفه الكتابة من المنطوقات، ممّا يوقع المتعلم في أخطاء غريبة عليه لا يمكنه فهمها في البداية، وقد توقعه في مشاكل قياسية فيكتب بدلا من: (ذهبتُ، ذهبةُ) أو يكتب بدلا من محمّدًا محمدَنْ.

- **تُؤخذُ اللُّغة مُمارَسةً:** وهو ما عبَّر عنه الباحث بقوله: «وعلى مقدار كثرة مطالعاته وتنوّع قراءاته يترقّى في مدارج الإبانة والتّبيين، والفصاحة والإفصاح» المتّفق عليه لدى علماء الديداكتيك، أنّ أفضل طريقة لتعلم اللغة يأتي من خلال المُمارسة، فكلما ازدادت ممارسة المتعلّمين للّغة، ساعدهم ذلك في معرفة النّطق الأفضل، وزيادة الفصاحة والطّلاقة من خلال التعرّض بشكلٍ مباشر لكلمات وموضوعات محدَّدة مرتبطة بالحياة اليوميّة التي يعيشونها، وإنَّ المُمارسة تأتي ضمنَ سياق التّعلُّم النّشط على الأخصِّ من خلال مجموعات يُصبح فيها المُعلم مجرَّدَ ميسّرِ لعملية التّعلم بين الطلاب عن طريق حلقات النِّقاش، والأسئلة التّفاعلية وعرض الموضوعات. أيضًا التّعلم الذّاتي وسيلة مهمّة لاكتساب اللُّغة من خلال العديدِ من الوسائل مثل: مُطالعة الكتب، والاستماع إلى الفيديوهات، وقديمًا قال ابن خلدون:«والسَّمْعُ أَبُو المَلَكاتِ ».[7]

ب/ منهجُه في المُحافظة علـى اللُّغـةِ: بـيّن أحمّـد صـافي المُسـتغانمي منهجَـه في المُحافظة على اللُّغة، من خلال مُداخلته في نواكشط، بموريطانيا فقالَ:«لقد تعلّمـتُ من هذه الرّحلة العلميّة دروسًا وعبرًا ولكنّ الدّرس الكبير الذي حفرتـه في ذاكـرتي وتشرّبته مُخيّلتي، **وتجذّرت آثاره في بؤرة تفكيريّ** هو أنّ الحفاظ على اللُّغة **يَحتـاجُ إلى جُهْدٍ، وَرُؤْيَةٍ، وقَناعَةٍ، وبيئَةٍ**».[8]

ثمَّ راح يشرحُ هذه الرُّؤية في قوله: «يحتاجُ تعلّم اللغة العربيّة –كما هو الشّـأنُ في تعلّم أيّ علمٍ وأيّ لغة –إلى جهدٍ جَهيدٍ، وعَمَل جادّ رَشيدٍ، وسُلوك مهيـع علمـيّ صحيح، لغرسِ اللغة السّليمة في نفوسِ أبنائِنا و في عُقولهم؛ فلـيس تعلّـمُ اللغـات ضَربًا من اللَّعبِ أو لونًا من ألوانِ التّرويح عن النّفسِ، بل لا بـدَّ عـلى علـماء الجيـل ولزامٌ على الآباء والأمّهات، وحتمٌ على المعلّمين والمعلّـمات، وفـرضٌ عـلى حـرّاس التَّربية والتّعليم في بلادنا العربيّة، أنْ يجهدوا، وينصبوا، ويستفرغوا الوسعَ في رسـمِ خُطط علميّة تعليميّة صَحيحة وقويّة، تنهَضُ بتعليم اللُّغة العربيّة لأبناء هـذا الجيـلِ الذي تتخطّفُه أحابيلُ التّكنولوجيا من كلِّ حَدْبٍ وصَـوْبٍ، وتعصـف بـهِ أعاصـيرُ التَّغريبِ والتّمييع من شرقٍ وغربٍ».

ويقـول: «لـيس تعلّـمُ اللغـة نافلـةً أو ضربًـا مـن التّرفيـهِ، حتّـى يُعنـى الآبـاء والأمّهات، والمنظّرون في التّربيَّة الحديثة بالموادِّ العلميّة ذات الطّابع التّقني والعمـلي مُستسهلين أمر اللغة ادّعاء منهم أنّها سهلة ميسورةٌ، وبحكـم نشـأةِ الطّالـب في بيئـةٍ عربيّة، فإنّه سيسهل عليه تعلّمها بل إنّ تعلّمها تحصيل حاصل وضربةُ لازب».[9]

ومِمّا قاله في نقد الطَّرائقِ المُتبعـة: «هـذا اللَّـونُ مـن التّفكـير السَّـاذج سـبّبَ لنـا مَتاعِبَ، وأَرْدَانَا في مَهالكَ».[10]

إنَّ تعليم اللُّغة العربيّة في نظرِهِ تحتاج إلى:

1 – بذل جهدٍ ليس بالهيّن لتعلّم حُروفها، والكيفيّة السَّليمة للنُّطق بها.

2 – يحتاجُ نحوُها وصرفُها عقلًا مَنطقيّا، وفكرًا ثاقبًا ألمعيّا.

3 – تحتاج بلاغتُها إلى ذاكرة قويّة، وحافظة واسعَةٍ، يُخزّنُ فيها المتعلّم أنماطًا مـن الأساليبِ الجميلةِ، وضُروبًا من الأنساقِ التَّعبيريَّة الرَّائعةِ.

4 – يحتاجُ متعلّموها إلى التّفريقِ بين مُترادفاتها وأضدادِها، بين مشـتقّات الجـذرِ الواحِدِ ومصادره، والتَّمييز بين دلالات أبنيّتها الكثيرة.

وإذا كان المشهورُ المعروف المتـداول مـن أبنيَّـة العربيّـة يَربـو عـلى خمسـمائة وزنٍ وصيغة، تُرى ما السبيلُ إلى تعلّمها، بَله حفظها وإجادة التَّعبير بهـا؟ ومَتـى يتعلّمهـا أبناءُ مَدارسنا؟

وفي قوله عن البيئةِ اللُّغوية فهو يطرحُ قضيَّة **الانغِماس اللُّغوي** الذي تحـدَّثَ عنـه التَّربويون كثيرًا، وبما أنَّ الانغماس الطَّبيعي باتَ من المُسـتحيلات توفّرهـا، لعوامـلَ عدَّة يطولُ البحثُ فيها، فقد اقترحَ الحاج صالح عبد الرَّحمان إيجـاد انْغـماس لغـويّ يدخل فيه متعلّم اللغة، سمّاه الانغماس الاصطلاحي،[11] وهـو الأمـرُ الـذي طرحَـه المُستغانمي بمصطلح البيئة اللُّغوية، ودور الأسرةِ، ممثَّلـة في الأمّ والأب، مـن أجـل إكساب الطِّفل لغة سليمة. وقد نجدُه يوسع ذلك فيقول:

«من ناحيةٍ أخرى، أسلفتُ أنّ المُحافظة على اللُّغة العربيّة، تقتضي رُؤيةً واضحة لدى كلِّ الأسر، والمدارس، وأبناء المجتمع وسَاسته وقادته؛ إذ لا يستقيم الفرعُ ولا يربو ولا ينمو على حبِّ العربيّة وتشرّبها والشّغف بها، ولا يَستوي على سوقِه إذا كانَ القائمون على المجتمع وحرّاس التّربيّة فيه والآباء والأمّهات خِلوًا من الرّؤية الواضحَة والقنَاعَةِ القويّة الرّاسخة لأجل تعليم اللغة السّليمة والمحافظة عليها».[12]

ويتساءلُ فيقولُ:

1 – كيف يستقيم لسانُ الابن، وأبوه وأمّه يُخاطبانه بالعامّيّة البَعيدة عن كلّ فصيحٍ؟

2 – أمْ كيف يُفصحُ لسانُ النّاشئ فينا، وأبواه يُخاطبانه بلغةٍ أجنبيّة لا علاقة لها بدينه وقومه ووطنِه؟

3 – أمْ كيف تستقيم ألسنَةُ أبناء الجيل، وكلّ ما في المجتمع يدعو إلى التّغريب والعيّش في فلك المَمنوعات؟

4 – إنّ القائمين على قطاع التّربية والتّعليم، وإنّ الآباء والأمّهات في المجتمعات العربيّة المُعاصرة بحاجةٍ إلى وقفة مراجعة شاملةٍ. وقفة مع أنفسهم ليُدركوا ماذا يريدون، وقفة مع الله ليعرفوا إلى أي وجهة يتوجّهون، ويُوجّهون أبناءَهم وبناتهم وقفة تَحاوريّة وتشاوريّة مع الخُلّص من أبناء المجتمعِ، ويكون المحور الأساس الذي يدور في هذه الجلسات الحواريّة.

5- لا بدّ أن نُيَسّر لأبنائنا العيشَ في بيئة سليمة صافيّة تُحافظُ على العربيّة وتَحرص على سلامة التّواصل فيها بلسان عربيّ مبين. تُحبّ العربيّة وتمجّد ذِكراها وترفع رايتها خفّاقة عاليّة. تُحفّزُ على تعلّمها ودراسة علومها وفنّونها. تكافئ المبدعين بها. تعمل على تفتيق أكمامِ الإبداع في نفوسِ أبناء المجتمع. تَحثّ على القراءةِ والمُطالعة بالعربيّة. تُشجّع على التّواصلِ والتّحاور في المحافلِ والمَجامع باللغة السَّليمة الفصيحةِ.

6- نريد أن يتشرّبَ الأبناءُ الاستماع إلى العربيّة، وأنْ تغذّي عقولَهم بألفاظها الجزلة والعذبة، وأنْ نروي غليلهم بأنساقها التعبيريّة الجَميلة، وأشعارها المَوزونة العذبة النديّة الشّجيّة، حتّى يشبّ ناشئ الفتيان فينا وهو يُفصح ويبين، ويُعبّر عن حاجاته ومشاعره بلسان عربيّ فصيح. ألا متى يتحقّقُ هذا الرّجاء؟

اللُّغة العربيَّة والعالم الافتراضي: أكَّد الدُّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، أنَّه لا يوجدُ خوفٌ أو قلقٌ على اللغة العربيَّة من العالم الافتراضيّ ووسائل التَّواصل الاجتماعيّ، وعلى عكس ما يُشاع فإنَّ الواقعَ الافتراضيّ يزيد من انتشار اللغة العربيّة، وقال: «إنّ العربية مَحميَّة بتُراثِها، وكلما انتشرت وذاعت، أحبتها النُّفوس وهوَت إليها القلوبُ، وعشقتها الآذانُ وردَّدتها الشّفاه وتغنَّت بها الحناجر».

جاء ذلك في كلمة ألقاها عن بعد خلال مشاركته في الدّورة السَّادسة للمؤّتمر الدّولي المشترك 2021م، الذي نظّمتْه الجمعيةُ الكُورية للّغة العربيّة وآدابها، التّابعة

لجامعة هانكوك للدّراسات اللغويّة والأجنبيّة الواقعة في العاصمة سيول، تحت شعار (اللغة العربيّة والعالم الافتراضيّ).[13]

وتوقف في كلمته عند خصائص العربيّة وجماليّاتها، مشيراً إلى أنَّ لها ميزات كثيرة، أهمّها أنّها وصلت مكتملة البنيان مُهدة القواعد مُحكّمة التّقنيات، حيث إنّ بإمكان الطّالب العربيّ اليوم أن يقرأ بيتًا من قصائد شاعر من عصر ما قبل الإسلام مثل امرئ القيس، ويفهم مقاصده ويطرب به.

ووجَّه نصيحة إلى أبناء اللغة العربيّة بالحذر من طمْسِ بعض معالم اللغة كالقول: (إنّ الإعراب غير مهم)، مذكرًا أنّ الإعراب وسيلة للإبانة والتَّبيين ولابدَّ منه حتَّى يتبين للمستمع أو القارئ من هو الفاعل، وما الصِّفة؟ وما الحال؟ وأوضح أنّ العربيّة جميلة في ثوبها وفي عباراتها الرنّانة وأبنيّتها الجميلة وقواعدها المحكمة وثراء أنساقها وأنماطها، وأنَّ من يفرطون في جماليّاتها بداعي تيسيرها وتسهيل قواعدها لا يريدون لها أنْ تبقى في بَهائها وجمالها.

وهنا نطرح التّستُّر وراء صعوبةِ نحو العربيّة التي لجأ إليها دعاة العاميّة وأطلقوا على اللغة الفصيحة مصطلح اللغة الكلاسيكيّة، بما يوحيه هذا المصطلح من جمودٍ ورتابة، وأنَّ الأمرَ أصبح يتطلب الإقلاع عن هذه الرَّتابة إلى ما هو أسهل وأيسر، وهي كلمة حقّ أريد بها باطل.

النُّهوضُ باللُّغة العربيَّة: تمثلت جهود الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في النّهوض باللغة العربيّة في جملة من القضايا الفكريّة التي طرحها في الميدان أهمّها:

1 – إعدادُ معجم تاريخيّ للُّغة العربيَّة: وهو الحلم الذي راودَ الكثير من علماء اللغة في الوطنِ العربيّ، وقد تمّت العديد من المُحاولات توقف بعضها في نصف الطّريق، وبقيت بعض المحاولات تُراوح مكانَها، وذلك لأسبابٍ عديدة أهمّها الدّعم المادي الذي يتطلّبه هذا المشروع، حتَّى قيَّض الله لهذا الأمر سموّ الشَّيخ الدُّكتور سلطان بن محمّد القاسِمي حاكم الشَّارقة باقتراحٍ من السّيد أمحمّد صافي المستغانمي الذي يترأَّس المجمع اللغويّ العربيّ بالشّارقة.

وقد أكَّد المستغانمي أنّ المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة يعرضُ تاريخ نشأة العلوم والفنّون؛ إذ يبحث في علوم اللسان العربيّ عن جميع العلوم التي نشأت تحت ظلّ البحوث اللغويّة قديمًا وحديثًا، من نحو وصرف، وفقه، لغة، ولسانيات وصوتيات، وعلوم البلاغة والعروض وغيرها، ويتوقف عند المصطلحات التي ولدت ونشأت في رِحابِ هذه العلوم.

ويرى أنَّ المعجم التَّاريخيّ للّغة العربيّة الذي تعمل عليه إمارة الشَّارقة بـ (المشروع العظيم الذي سيكون فاتحةَ عصرٍ حديث للّغة العربيّة، والمعجم العملاق الذي يمثل ذاكرَة الأمَّة العربيّة وديوان ألفاظها، وسجلّ أشعارها وأخبارها وحامل مُخرجات ومنتجات أبنائها وبناتها).

وأكّد أنَّ صاحب السُّمو الشّيخ الدُّكتور سلطان بن محمّد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشّارقة، أعاد إحياء العمل على المُعجم من جديد، بعد أنْ حاولتْ العمل عليه الكثير من الجهات، وتوقفت نتيجة ضخامة المشروع، كاشفاً عن

أنَّ الشّارقة قطعت أشواطاً كبيرة في إنجازه، وسيرى النّور قريبًا. وأشار المُستغانمي خلال جلسة ضمن فعاليّات الدّورة الرّابعة من مهرجان الثّقافة واللغة العربيّة، الذي نظمتْه جامعة القلب المُقدس الكاثوليكيّة في ميلانو بإيطاليا، بشراكة إستراتيجيّة مع هيأة الشَّارقة للكتاب، إلى أنّ المعجم يؤِّرخ للغةِ والحضارة العربيّة على امتداد 17 قرناً، بمشاركة أكثر من 300 باحث ومختص من كبار علماء اللغة العربيّة.

واستعرض مسيرة العمل على إصدار المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة الذي أطلقه صاحب السّمو حاكم الشّارقة، بهدف بحث تاريخ المفردة في العربيّة، وتطوّرها منذ الجاهليّة إلى اليوم، إلى جانب البحث في نشأةِ العلوم اللغويّة والنّحويّة.[14]

وتابعَ المُستغانمي خلال الجلسة التي حاورته فيها رئيسة قسمِ اللِّسانيات والآداب بالجامعة الكاثوليكية، البروفيسورة مارْيَا زنولا: «على الرّغم من كثّرةِ ما تمتلك الأمَّة العربيّة من مَعاجم إلاّ أنّها لا تُغني عن المعجم التَّاريخيّ الذي يؤِّرخ لجميع ألفاظ اللغة العربيّة منذ نشأتها الأولى إلى عصرنا الرّاهن، فهو مشروع كبير وشامل وقفت العديد من العوامل دون إنجازه سابقًا، كان أهمها: ضخامةُ العمل إذ لا ينبغي للذي يؤرّخ للّغة العربيّة أن يستند إلى مصادر محدّدة من الشّعر، ويترك مصادر أخرى، ولا يصحّ أن يضع في المدوّنة اللغويّة الحاسوبية كتبًا تتعلّق بالأدب وأجناسه التّعبيرية، ويهمل كتب الفلسفة والمنطق والتّاريخ والمواد العلميّة الأخرى». وأضاف: «يُعنى المعجم بتتبّع اللفظ العربيّ في أوّل استعمال له، ويجيب عن أسئلة: من هو المستعمِل الأوّل للفظ؟ وفي أي سياق ورد؟ وما الدّلالة التي كان

يحملها؟ وهل تغير من ناحية الشّكل والصّوت والتّهجية؟ وهل طرأ عليه تغيير في البنية الصّرفية، وهل تحولت دلالته من معنى إلى معنى؟ ومتى تمّ ذلك؟ هذه الأسئلة ومثيلاتها لا تجيب عنها القواميس والمعاجم اللغويّة العاديّة، وإنّما يجيب عنها المعجم التّاريخي». واستطرد: «نحن الآن في العصر الذّهبي».[15]

تكوين المعلّم: يُعزِي الدّكتور أمحمّد صافي المُستغانمي تَدهورَ مستوى التّلاميذ اللُّغوي في مدارس الوطن العربيّ إلى جُملَةٍ من العوامل، منها البرامج المسطّرة الَّتي لم تعدْ تَـرْق الطّلابَ في هذه الظُّروف التي تعيشها البشريَّة، والتي فرضت تحوّلات نفسيّة وشعوريّة، وغيّرت من رغباتِ النّاس، فدعا إلى ضرورة قيام المسؤولين على قطاع التّربية والتّعليم إلى إعادة النَّظر في هذه الحسابات، ثمَّ تحدَّث عن تنصُّل الأسْرة من واجباتها التَّربوية التي تفرض نقل التّجربة اللغويّة للأبناء، وقد اعتبرها أمانةً في رقابِ الأمَّهات والأباء.

إلَّا أنَّنا نجده يركِّز كثيرًا على مسؤوليَّة المعلّم ودوره الكبير في تعليم النّاشئة، فعلى عاتقِ المعلّم يقع الثّقل الأولى، أوّلًا في تحبيب اللغة العربيّة لطلّابه، وفي انتهاج أنجع الطّرق والوسائل في التَّبليغ، ثمَّ يركِّز كثيرًا على تكوينه، فالمعلّم النّاجح هو المعلّم الكفْء، والمعلم القادر على إيصال المعلومة، هو المُعلّم الذي يملك العِلمَ، ويملك الوسيلةَ، ويملك الإرَادة.

يرى الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي أَنَّ المعلم بدون ثقافة عميقة، يَعتبِرُ التّدريس مهنة المُعذبين في الأرض، وفي هذا بعض الصّحة اذا كانت مهام المعلّم

هيَ أنْ يُعيد اليوم ما قاله بالأمس، وأن يعيد هـذه السّـنة مـا قالـه في السّـنة الماضـيّة وقبلها بسنواتٍ، وبطريقة آليّة لا روح فيها، بـل وبـأداءٍ بغـيضٍ، وقـدْ يشـتركُ مـع أضْعفِ طلبته في الفَرحِ بجرسِ نهايةِ الحصَّة.

يطرح الباحث بقوَّة مشكلة الازدواجيَّة في الخِطاب التّربـوي، ويعـدها مشـكلة عويصة حلّت بالمجتمعـاتِ العربيّـة، (إذ يجتمـعُ فيهـا مسـتويان مـن اللغـة، الأوّل فصيح، والآخر عاميّ، فنجد العاميّة تسير جنبًا إلى جنبِ العربيّة الفُصحى، تُزاحمهـا وتتمشى معها في مختلف القطاعات)،[16] فما بالك إن سادت قطـاع التّربيـة والتّعلـيم فإنّها تحافظ على بقائها وتُؤثِّرُ سلبًا في تعليم اللغة العربيّة الفصيحة، لغة العلوم، ولغـة القرآن الكريم، ولغة الإبداع، واللغة الجامعة للشُّعوب العربيّة بل والإسلاميّة.

إنَّ مخاطبة المعلم تلاميذه بالعاميَّة خطأ تربوي جسيم، فهو الأسْوة التي يتأسّى بها الطّالب، فمنه يأخذ أساليب العربيّة، لذلك فتكوين المعلمين علميًا يفرض نفسـه إن كنّا فعلا نريد ترسيخ هذه اللغة في المجتمع.

الخُلاصَةُ: تلك هي المَحطّات الكُبرى التي بنى عليها أمحمّد صافي المستغانمي تفكيره اللُّغوي، وهي في شقين، فكرٌ يتّجه نحو تطوّير اللغة العربيّة من الدّاخل عن طريق ترقيّة مُعجمها، وصرفها ونحوها، وبلاغتها بواسطة البحثِ والدِّراسة وترشيد ما يلزم ترشيده، وإثراء ما ينبغي إثراؤه، وأمّا الشّق الثّاني فهو ترقيّة اللغة العربيّة من الخارج عن طريق الاهتمام بها اجتماعيًا وسياسيًّا، فهو يدعو ساسةَ الأمَّة إلى الاهتمام باللّغة العربيّة، فهي الهُويَّة، وهي التّاريخ، وهي الحاضر، والمستقبل، كما يُوجِّه دعوة عريضة للمجتمع وللقوى الفاعلة فيه، وللأُسَر وللمؤسَّسات التَّروبية من أجل العمل على التّمكين لهذه اللّغة التي طالما اِحتمت بها شعوبُنا في أحلك الوقفات التّاريخيّة من أجل الحفاظ على الشَّخصية الوطنيّة من الذّوبان والاندثارِ.

إنَّ أمحمّد صافي المستغاني واحد من بين الآخذين بناصية اللُّغة، والغيورين على رشاقتها وصَوابِها، مستحكمُ العبارة، حصيفُ المُفردة، مَعْنيٌّ بتصويبِ ما قد يفلت من أخطاءٍ في غفلة من المُحرّرين، والخُبراء في لجان إعْدادِ المعجم التّاريخيّ للُّغة العَربيّة، يتمتّع بخبرة طويلة قضاها في أروقة التّعليم والبحثِ العلميّ، عاصَرَ فيها عشراتِ العُلماء، والكتّاب البارزين في الصُّحف المُختلفة، وواكبَ الكثيرَ من الأحداثِ الكُبرى التي عادةً ما تتطلَّب تركيزًا عاليًا لا مَجال فيه للخطأ.

وقد تَجاوز أمحمّد صافي المُستغانمي دائرةَ البحث اللِّساني التّقني، ليتناول مسألةَ اللغة العربيّة في سياقها الحَضاري والسِّياسي العامّ، فقد ربط بقوَّة بين وضعِ اللغة العربيَّة والدّور الحضاريّ للعرب في زمنِ العولَمَة.

واللُّغةُ عنده ليست هُويَّة وسيادة فحسب، بل هي أيضًا أداة للتَّنافس المرجعيّ الفكريّ والثّقافيّ والتّموقع الاقتصاديّ والإعلاميّ والرَّقميّ، علاوةً على التَّموقع السِّياسيّ.

ويرى – بناءً على ما تقدَّم – أنَّ النُّهوضَ باللغة العربيَّة ليس مهمّة البحث العلمي ّولا شأنَ نُخبة جامعيّة فقط، بل يتطلَّب قَرارًا سِياسيًا حازِمًا، يُعيد للُّغة العربيَّة وظائفَها في الحَياةِ العامّة والإداريّة والاقتصاديّة.

يحتفظ أمحمّد صافي المُسْتَغانمي بعلاقة قويَّة مع جميع من يتعاملون معه، فهم يروّنه نموذجًا مثاليًا للمدقّق الحصيف والموظّف المثالي.

هوامشُ البحث:

[1]– مُحاضرة أمحمّد صافي المُستغانمي بنواكشوط، https://www.alashj.ae/tea

[2]– نفسُـــه.

[3]– نفسُـــه.

[4]– نفسُـــه.

[5]– ابنُ جنّي (ت392هـ)، الخَصائص، تحقيق مُحمّد علي النّجار، دار الكتاب العـربي، بـيروت 1988 دط 4/ 256، وابن سيده (ت 458هـ)، المُخصّص في اللّغة، المكتب التّجاري، بيروت2000 دط،8/ 451

[6]– ابن خلدون، المُقدّمة، الدار التّونسية للنّشر والتّوزيع، تونس، 1980، ط 8، ص49

[7]– محاضرة محمّد صافي المُستغانمي بنواكشوط.

[9]– نفسه.

[10]– دي سوسير، محاضرات في اللّسانيّات العامّة، ترجمة صالح قرمدين، 1986 .

[11]– الحاج صالح عبد الرّحمن، السّماع اللّغوي، بيروت، لبنان، 2000، ط2ن 1/ 154.

[12]– محاضرة أمحمّد صافي المستغانمي بنواكشوط https://www.alashj.ae/team

[13]– نفسُه.

[14] - https://www.youtube.com/watch?v=V_4NEcp8pp8–

[15] https://www.youtube.com/watch?v=V_4NEcp8pp8

[16]– علي القاسمي، العربيّة الفُصحى وعاميتها في السيّاسة اللغويّة، أعمال النّـدوة الدّوليـة للفصـحى وعاميّتها، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر، 2008م، ص37.

الأفقيَّة والعموديَّة في مقاربة الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي التَّفسيريَّة

عرض وتحليل

The explanation of professor Al –safi AL Mostaghanemi's Horizontal and vertical approach: presentation and Analysis

أ.عبد الحفيظ شريف
ج. العقيد آكلي محند أولحاج،البويرة

ملخص: تستهدفُ الورقة متابعة المقاربة التَّفسيرية الجديدة للأستاذ: أمحمّد صافي المستغانمي، والتي تضمَّنها كتابُه: (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور) فتتناول جوانبَها بالعرض والتَّحليل، وتحاول تعيين موقِعها بين الجهود التَّفسيريَّة القديمة والحديثة، فتبرز خطوات التَّأسيس، وتُجْلي معايير التَّصنيف وخصائصه وتشير إلى بعض ما تفتحه من آفاق بحثيَّةٍ جديدة حول القرآن الكريم وعلومه لتنتهي إلى بعض الاستدراكات التي ليست قدحا في المقاربة بقدر ما يمكن أنْ تكون مجالا لبحوث أخرى تثريّ المقاربة وتمكِّن لها.

الكلمات المفتاحيّة: مقارنات السُّور – الأفقيَّة– العموديَّة.

Abstract: The intervention follows up samples from the translation movement which aimed the blog Algerian Heritage in Science And humanoids supervision orientalism, in order to look at their platforms,

approaches, dimensions, and scientific capacity of his managers. Trying to answer, in the light of that to the problem restored through it the reading justification the activity of this movement and his objectives out of admiration scientific and humanitarian Algerian production, and then seek to transfer him from local to global? Or he is an opening scene of overall project prepared by orientalism laboratory to acquis on human rights by acquisition of heritage?

Key Word: Heritage-translation- orientalism -valuation-acquisition

مقدِّمة: لا يزال القرآن الكريم بما خصَّه الله به من بديع النَّظم وعجيب التَّأليف مَعينًا للدَّارسين لا ينضب يفتح الله على من يشاء منهم بفتوح تردُّ قول القائل: ما ترك الأوَّل للآخر شيئا، وتستعيض عنه بالقول: كم ترك الأوَّل للآخِر! ولعلَّ هذا هو الإطار العامُّ الذي يُؤطِّر المقاربة التَّفسيرية التي أطلَّ علينا بها الأستاذ: **أمحمَّد صافي المستغانمي** في كتابه: (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور) وهو كتابٌ عَرَض -فيما يزيد على أربعمئة صفحة- رؤيةً تأصيليَّة للرَّوابط المضمونية واللَّفظية لمجموعات الأسر القرآنية.

وتأتي هذه الورقة محاولةً لقراءةٍ تحليليَّة تستهدفُ عرض عناصر هذه المقاربة وخلفيَّتها الفكريَّة والمنهجيَّة من خلال رصد موقِعها ضمن جهود التَّأصيل التَّفسيريِّ للقرآن الكريم، والوقوف على ما أضافته لها، وما فتحته من آفاق وبشَّرت به من مجالات للبحث والدِّراسة، واستنباط الضَّوابط والمعايير التي أطَّرت هذه المقاربةَ، من خلال تعيين العناصر التي تراءى للبحث أنْ يتناولها عبر

محورَيْن: أوَّلُهما أفقيٌّ، ويتوجَّه إلى المقولات التي أطَّرت من طريقها المقاربةُ شبكة العلاقات اللَّفظيَّة والمضمونيَّة على مستوى سطح السُّورة الواحدة، أو على مستوى السُّور التي انتظمّتها المقاربةُ نفسُها أُسَرًا وضمائمَ تجمعها روابطُ لغويةٌ ومضمونيةٌ أيضا. وثانيهما عموديٌّ، ويتوجَّه إلى الوقوف على طبيعة الإجراءات التي تابعت من خلالها المقاربةُ مواضع الارتكاز اللُّغوي الموجِّه لاختيار السُّور، وتصنيفها، ومعرفة أدوات التَّحليل المعجميّة والنَّحويّة والبلاغيّة المعتمدة في ذلك.

والواقع أنَّ الفصل بين المحورين ليس إلاَّ إجراءً عمليًّا تستند إليه هذه المداخلةُ لتحليل عناصر المقاربة الجديدة، ومحاولة الحفر في آلياتها وأدواتها، وإلاَّ فإنَّ الحديث عن هذين المحورين هو حديثٌ عن شيء واحد يُتناول أفقيًّا فتُدرَكَ بذلك التَّحليل العلاقاتُ الممتدَّة أفقيًّا على مستوى السَّطح نفسه، ويُتناوَل عموديًّا فتُعرَفَ أدواتُ الانتقاء والتَّوجيه والتَّعيين لخدمة المحور الأفقيِّ، فهُما أشبه بثنائية التَّركيب والتَّرتيب المعروفة في الدَّرس اللِّسانيِّ العامِّ، غير أنَّ المشهور هو اشتغالُ المحور الأوَّل (الأفقيُّ) على ما يَخدُم المعاني والدَّلالات امتدادًا فيما يشتغل المحورُ الثَّاني (العموديُّ) على مباحثَ موضِعِيَّةً تعتمد أساسا على مقولاتِ فقه اللُّغة والمعجم والنَّحو والبلاغة.

أوَّلا: المحور الأفقيُّ: ويُتابع أشكالَ الدَّرس التي اعتمَدَتْه هذه المقاربةُ على مستوى السَّطح القرآنيِّ وضوابط المقارنة أثناء الانتقال بين المعالم المرتبطة -بشكلٍ مَا- بين الآيات في السُّورة الواحدة أو السُّور ذات النَّسق الواحد.

1 - مضمون المقاربة التَّفسيريَّة الجديدة وموقعها من علوم التَّفسير: دأب المفسِّرون على استغلال علوم القرآن ذات الانتشار الأُفقيِّ، وهي تلك التي استهدفت السَّطح القرآنيَّ كُلِّيا أو جزئيًّا، فما كان منهم إلاَّ الاستنجاد بإجراءات علم الأشباه والنَّظائر، وعلم التَّناسب بين السُّور، والمكيِّ والمدنيِّ، لما تحقَّق لهذه العلوم من قدرة على الحضور الشَّامل الذي يستغرق أفقيًّا كامل النَّصِّ القرآنيِّ، ثمَّ استثمار أهداف هذين العلمين في تحقيق المعاني وتوجيه الدَّلالات، والحرص على الوقوف على مراد آيِ الذِّكر الحكيم، فـ(بين سُوَر القرآن من التَّناسُب ما جعله كتابا سويَّ الخَلق، حسن السَّمت ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الزُّمر: 28] فكأنَّما هو سبيكةٌ واحدة تأخذُ بالأبصار، وتلعب بالعقول والأفكار، على حين أنَّها مؤلَّفة من حلقاتٍ، لكلِّ حلقة منها وِحدة مستقلَّةٌ في نفسها، ذات أجزاء ولكلِّ جزءٍ موضعٌ خاصٌّ من الحلقة، ولكلِّ حلقة وضعٌ خاصٌّ من السَّبيكة)[1] وهو الأمر الذي طبع الجهد التَّفسيريَّ القرآنيَّ منذ استواء حركة التَّفسير، فاشتهر لدى المفسِّرين الاستئناسُ بالتَّناسب، ومقابلة الأشباه والنَّظائر، وتوظيف الخصائص اللُّغويَّة والمضمونيَّة للسُّور المكِّية والمدنية، كلَّما دعت ضرورة التَّفسير ذلك، فنجدها في تفسير مطالع السُّور أو تعقيبا في نهاياتها، أو عند متابعة المتشابه اللَّفظيِّ والنَّظائر في متون السُّور لاستخراج الحِكم والأحكام على مستوى الآية أو الآيات ذات المضمون الواحد أو المتقارب، وما لبث أنِ استدرج تحصيلُ المعنى وضبطُه علماءَ التَّفسير إلى ساحة أرحب فظهرت واضحةً باستواء علم الأشباه

والنَّظائر على مستوى المفردة القرآنيّة وفي حدود الآيات من السُّورة أو السُّور وكـأنَّ هذه العلوم قد فصَّلت مجمل ما كان عليه شأن التَّفسير منذ عهد النَّبيِّ ﷺ ممَّا عُـرِف فيها بعدُ بأوثق طرق التَّفسير وأعلاها، وهو تفسـير القـرآن بـالقرآن، يقـول الإمـام الزَّركشـيُّ: (أحسَنُ طريقِ التَّفسيرِ أن يُفَسَّرَ القرآن بالقرآن فما أُجْمِـل في مكـان فقـد فُصِّل في مَوْضع آخر وما اختُصِرَ في مكانٍ فإنَّه قد بُسِـط في آخـر)[2] وهـو طريـقٌ في التَّفسير لم يخلُ منه تفسيرٌ منذ نشأته، حتَّـى لقـد أصـبح عنوانـا لتفسـير شـهيرٍ مـن العصر الحديث، وهو تفسير: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلّامة محمّـد الأمين بن محمّد المختار الشّنقيطيّ (ت1393ه).

لقد أحال طولُ النَّظر في الكتاب العزيز من زاويـة تتبُّع نقـاط التَّقابـل والتَّشـابه والتَّناظر بين المفردات القرآنية، ومن خلال استغلال خصائص اللُّغـة العربيـة التـي نزل بها الوحي الكريم، من ترادف ومشترك واشتقاق وتضـادٍّ وخصـوص وعمـوم وإجمال وتبيين وإطلاق وتقييد وغيرها، على الالتفـات إلى شـبكات مـن العلاقـاتِ اللُّغويَّة التي ستحيل بالضَّرورة على شبكات مُقابِلة من علاقات المعاني والـدَّلالات والتي كانت محصِّلتُها ما اصـطُلِح عليـه في العصـر الحـديث بالتَّفسـير الموضـوعيِّ للقرآن الكريم، وقد بلغ مرحلة متقدِّمة مع الزَّمن، وأخذ مظهرين أحـدهما: متابعـةُ موضوع السُّورة العامّ، وثانيهما: متابعة موضوعٍ معيَّنٍ في القرآن الكريم، كالصَّـبر في القرآن الكريم، أو الأمثال في القرآن الكريم، أو الإنسان في القـرآن الكـريم، أو غـير ذلك. وضمن هذا الرُّؤيـة العجـلى ظهـرت مقاربـةُ **مقارنـة السُّـور** وفيَّـة للجهـود

التَّفسيرية ذات المسار الأفُقيِّ، سواء ما كان منها لغويًّا مستندا على خصائص اللُّغة العربيّة، أو ما كان منها دلاليًّا موظِّفا آليات علم المعنى وإجراءات علم الدَّلالة.

تقوم المقاربة على إقامة تصنيفٍ جديدٍ للسُّور القرآنيَّة أساسُه ضمائمُ تجمعها روابطُ لفظيُّة، وترتبط بينها بعلائقَ لفظيَّةٍ ومضمونيَّةٍ، وقد قامت -في مُجملِها- على قراءةٍ فاحصةٍ لمسارٍ طويل حافلٍ، بدايته الأولى: تفسيرُ القرآن بالقرآن، ثمَّ استثمارُ مقولات علمَيْ المناسبة بفروعه عند الإمام البقاعيِّ (ت:885ه) والأشباه والنَّظائر عند الإمام السُّيوطي (ت:911ه)، وما يتَّكئان عليه من أسُسٍ ومباحثَ لغويّة، ثمَّ ما كان من الفتوح الأخيرة في منجزات التَّفسير الموضوعيِّ تنظيرا وتطبيقا، لتستوي هذه المقاربة مُسفِرةً عن تصنيف جديدٍ لسُورٍ قرآنيةٍ، نابعٍ من طبيعةِ طائفة معيَّنةٍ من ألفاظها، أو محتكِمٍ إلى نسقٍ معلومٍ يطبع تلك السُّورة أو السُّور بطابعه، وممَّا يَميزُ هذه المقاربةَ اجتهادها في تأليف جهازٍ مصطلحيٍّ دقيق، يتناسب مع طبيعة معاييرها ومنهجها وكذا التَّصريح بكلِّ الجهود السَّابقة لها من الأعلام والأعمال، وهو ما يجعل لها حيِّزا معلوما من مسار التَّفسير، ويرشِّحها لتكون إضافةً نوعيَّةً، بشخصيّة ذات خصوصيَّةٍ مصطلحيةٍ ومنهجيةٍ وإجرائيةٍ، وتلك أسّس نشأة العلوم وبداية ظهورها.

وقبل الشُّروع في تناوُل الموضوع؛ يحسن وضعُ تصنيفِ السُّور القرآنيَّة حسب المقاربة التي يقدِّمها الأستاذ صافي، والتي ستكون بمشهدها هذا ميدانا للعرض ومحاولةً للقراءة والتَّحليل.

القسم الأوَّل: السُّور المتشابهة المطالع.

- أسرة الحمد: الفاتحة، الأنعام، الكهف، فاطر، سبأ؛
- أسرة يأيُّها النَّاس: النِّساء، الحجّ؛
- أسرة يأيُّها الذين ءامنوا: المائدة، الحجرات، الممتحنة؛
- أسرة المُسبِّحات: **الإسراء**، الحديد، الحشر، الصَّف، الجمعة، التَّغابُن، **الأعلى**؛
- أسرة تبارك: **الفرقان**، الملك؛
- أسرة يأيُّها النَّبيُّ: الأحزاب، الطَّلاق، التَّحريم؛
- أسرة لا أقسم: القيامة، البلد؛
- أسرة ويل: المطفِّفين، الهمزة.

القسم الثَّاني: السُّور المتشابهة الفواصل.

- أسرة: **الإسراء، الفرقان**؛
- أسرة: **الكهف**، الجنّ، طه، النَّجم، **الأعلى**؛
- أسرة: اللَّيل، الضُّحى.

القسم الثَّالث: السُّور المفتَتحة بأنساقٍ تعبيريَّةٍ متشابهةٍ.

- أسرة: الصَّافات، الذَّاريات، المرسلات، النَّازعات؛
- أسرة: الواقعة، التَّكوير، الانشقاق، الانفطار، الزَّلزلة.

1-1- **إجراءات الامتداد الأفقيِّ للمقاربة وتطبيقاتها:** يؤطِّر توظيفُ هذا الإجراء أساسَ تلك الخصائص الشَّهيرة للُّغة العربيّة من ترادف واشتارك واشتقاق

وغيرها، وتستغلُّ نقاط التَّماس اللَّفظيِّ أو المضمونيِّ باستثمار مخرجات نظريةِ الحقول الدَّلالية، لتكون سندا لتعيين المعنى وتوجيه الدَّلالة أو الدَّلالات، ويأخذ هذا الامتدادُ مظهرَيْن يتجلَّى أحدُهما في مستوى السُّورة ثمَّ يتجاوزه إلى ضميمة السُّور، ومن التَّطبيقات التي أسَّست بها المقاربة لرؤيتها:

1-1-1- إثبات التَّجاذُب اللَّفظيِّ على مستوى السُّورة: وله في مقاربة الأستاذ صافي مظهران:

1-1-1-1- التَّجاذُب اللَّفظيُّ في المادَّة المعجميَّة الواحدة: وهو أمرٌ له بذوره التُّراثيَّة، ومشاهد لاستوائه في العصر الحديث تحت مسمَّى: التَّفسير الموضوعيِّ في الشِّقِّ المتعلِّق بموضوع السُّورة، كما فعل الأستاذ عبد الله دراز (ت: 1958م) مع سورة البقرة في سفره القيِّم: النَّبأ العظيم، والذي جاء فيه: «السِّياسة الرَّشيدة في دراسة النَّسق القرآنيِّ تقضي بأنْ يكون هذا النَّحو من الدَّرس هو الخطوة الأولى فيه فلا يتقدَّم النَّاظر إلى البحث في الصِّلات الموضعيَّةِ بين جزء وجزء منه —وهي تلك الصِّلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها- إلاَّ بعدَ أنْ يُحكِم النَّظر في السُّورة كلِّها بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها على وجهٍ يكون معوانا له على السَّير في تلك التَّفاصيل عن بيِّنة»[3] وقريبا من ذلك ما ذهب إليه الشَّيخُ محمَّد محمَّد المدني (ت: 1968م) في كتابه المجتمع المثاليُّ كما تنظِّمه سورة النِّساء. والذي عاب على المفسِّرين عنايتهم (بكثير من الجوانب المتَّصلة بدراسة القرآن الكريم، وقلَّ فيهم من عُني بهذا الجانب الذي هو دراسة الرُّوح العامّ لكلِّ سورة، والغرض

الذي تهدف إليه)[4] والجهدان في النهاية ليسا سوى التَّفسير الموضوعيِّ الذي يتابع موضوعا معيَّنا في القرآن الكريم كلِّه.

لقد كان جهد الأستاذ **دراز** متَّجها إلى تعالُق المعاني وتعانق الدَّلالات في السُّورة الواحدة، دون جعل اللَّفظ وأحواله اشتقاقا أو اشتراكا أو ترادفا أساسا لبداية تعيين موضوع السُّورة، وكان جهد الشَّيخ المدني منصبًّا على مفاهيم وقضايا معنوية تتخلَّل السُّورة الواحدة، بينما اتَّجهت مقاربةُ الأستاذ صافي اتِّجاها آخر انطلق فيه من المادَّة الأولى للقرآن الكريم، وهي الألفاظ اللُّغوية، ثمَّ راح يتابعُ علائقها، ووشائجها، عبر تلك **التَّجاذُبات** المتعدِّدة المظاهر، وهو ما يُكسب السُّورة **ثوبا خاصًّا** بها، وذلك عملٌ تختصُّ به كلُّ سورة، وكان ذلك ممَّا أوحت له به تلك الأمثلة التي أسَّس بها لمقاربته هذه، فضرب سبع أمثلة لذلك التَّجاذب اللَّفظيِّ من المادَّة المعجميَّة الواحدة في السُّورة الواحدة ومثالُه تردُّد تركيب:﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ [الكهف: 6] ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ [الكهف: 64] في سورة الكهف، وتركيب: ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾[الفرقان: 22] ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾[الفرقان: 53] في سورة الفرقان، ومنها اشتقاقات الفعل (اسْتَفَزَّ) الوارد ثلاث مرَّات في الإسراء:﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ ﴾ [الإسراء: 64] ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ ﴾[الإسراء: 76] ﴿يَسۡتَفِزَّهُم ﴾ [الإسراء: 103][(5)]. وهو الأمر الذي بسط فيه القول وعدَّد له الأمثلة، مثبتا أنَّ لِلسُّورة القرآنيّة ملمحًا لفظيًّا متكرِّرًا يطبع السُّورة بطابعه ويضفي عليها مسحته.

1-1-2-1- التَّجاذُب اللَّفظيُّ للمادَّة المعجميَّة المتقاربة: ومنطقُ هذا التَّنميط هو متابعةُ التَّجاذب اللَّفظيِّ بين موادَّ معجميّةٍ متقاربةٍ، يعدُّ توظيفا صريحا لنظرية الحقول الدَّلالية التي تخضع بموجبها الألفاظ لمقاربة الألفاظ ذات المعنى المتقارب في السُّورة، فتوحي بشكل من أشكال التَّعالق الذي يؤسِّس الموضوع العامَّ للسُّورة ويكوِّنُ العمودَ اللُّغويَّ الحاملَ لجملةِ المضامين، وكان اختيارُ المثالَيْن لإثبات ذلك من سورتَيْ الزُّخرف والأنبياء، على أنَّ اختيار النَّماذج وعرضها كان بالاتِّكاء على المصادر المعجمية العربية موفَّقا إلى حدٍّ بعيد فاكتسبت المقاربة بذلك قوَّة التَّأسيس وواقعيّة الحضور.

تقفُ المقاربة على التَّمثيل للتَّجاذب اللَّفظي بمادَّة معجمية متقاربة يجمعها حقلٌ دلاليٌّ واحد، فيكونُ العمادَ اللُّغويَّ لموضوع السُّورة، والتَّمثيلَ لذلك بألفاظ مخصوصة من سورة الزُّخرف، تشكِّل حقلا دلاليًّا مرتبطا باسمها وهي:

﴿ ٱلۡحِلۡيَةِ ﴾ [الزُّخرف: 18] ﴿ مُتۡرَفُوهَآ ﴾ [الزُّخرف: 23] ﴿ فِضَّةٖ ﴾ [الزُّخرف: 33] ﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ ﴾ [الزُّخرف: 35] ﴿ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ ﴾ [الزُّخرف: 53] ﴿ بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ ﴾ [الزُّخرف: 71] وكلُّها ألفاظٌ توزَّعت في جنبات سورة الزُّخرف فأكسبتها مسحة خاصَّة، وقد سحبتها عليها الدَّلالة اللُّغويّة لهذه الألفاظ العائمة في حقل التَّرف والأموال والمُتعة. وعلى النَّسق نفسه كانت تحضير إطار سورة الأنبياء على ألفاظ حقل دلاليٍّ يستوي على وقعِ ألفاظ العقوبة والإهلاك، وكأنَّه تعبيرٌ عن حظٍّ مشتركٍ بين الأمّم التي كذَّبت رسلها. غير أنَّ التَّعبير القُرآنِيَّ يعمَدُ إلى تنويعٍ

لفظيٍّ يحتفظ بدلالته العامَّة للإهلاك ويخصُّ كلَّ مقام بما يناسب القومَ من لفظ العقوبة، ومن هذه الألفاظ:

- القصم: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: 11].

- الحصيد: ﴿جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: 15].

- القذف/ الدَّمغ/ الزُّهوق: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18].

- الجذاد: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء: 58].

- التَّقطُّع: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [الأنبياء: 93].[6]

إنَّ هذا المشهد يستحضرُ الإجراءَ العامَّ (الشَّهير) في التَّفسير، وهو تفسيرُ القرآن بالقرآن، ولكنَّ جديد المقاربة هو انتهاج طريقة في التَّفسير تُقيِّد الإطلاق وتضبط اتِّجاهه، فبينما كان المفسِّر يقارن بين الألفاظ المتجاذبة في القرآن الكريم كلِّه على صورة غير منضبطة بضابط، جاءت هذه المقاربة لتقارن بين الألفاظ المتجاذبة لغةً أو معنًى ولكن في إطار سُوَرٍ ذات وشائج أسرية تتقدَّم فيها أولوية التَّقابُل، وهو تخصيصٌ لعمومٍ، أو تقييد لمطلق، أو تفصيل لمجمل أو غيره، ومن أمثلة الخروج بالتَّرابُط اللَّفظيِّ من السُّورة الواحدة إلى السُّورتَيْن إلى الثَّلاث فالأكثر؛ ما أورده الأستاذ صافي من تمثيلٍ لتلك المقارنة بين معنى آيات ثلاث في القرآن الكريم تضمَّنت كلُّها لفظتَيْ: (شهيق وزفير) ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: 12] ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ ٧ [الملك: 7] واجتمع اللفظان في سورة هود، ولكنَّه ينسب

الفعل إلى أهل النَّار ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴾[هود: 106] وكذلك الأمر في موضع الأنبياء: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنبياء: 100] وبهذا يكون ما ورد في الفرقان والمُلك هو ما يخدُم المعنى ويجعل من السُّورتَيْن –بتوظيف روابط لفظيَّةٍ أخرى– أسرةً واحدةً، فإنَّ المعنى الأوضح والأكثر تفصيلا والأشدَّ تعلُّقا بسياقه، هو ما جاء في سورتَيْ الفُرقان والملك، بحكم انتمائهما لضميمة أسرية واحدة، فيما يأتي معنى اللَّفظَيْن في سورة هود مجملا لفظا ومضمونا،[7] وكذلك الأمرُ في موضع الأنبياء فإنَّ فعل الزَّفير ومعناه متعلِّقان بأهل النَّار لا بها، وموضع الأنبياء هذا لم تورده المقاربة.

وحاصل ما في أفقيّة هذه المقاربة أنَّها جهدٌ تنظيريٌّ وممارسة تطبيقية أعادت تنظيم مسلك تفسير القرآن بالقرآن، وأضافت له آلية تفسيرية قيِّمة، فقدَّمت الألفاظ التي تضمَّنتها السُّورُ ذات الضَّميمة الواحدة، وجعلت منها سندا قويًّا في التَّوجيه أو التَّعيين أو التَّرجيح أو غير ذلك من مسالك المعنى، كما أعطت للتَّفسير الموضوعيِّ دفعا قويًّا حين رفدته بإجراء تنظيميٍّ مكَّنه من لمِّ شمل المعاني المتفرِّقة وتوجيهها لخدمة هدف واضح، وأكسبته سندا لترجيح معنى ضمن المعاني، أو ردِّها أو تقديمها أو تأخيرها، بحسب الحمولات الدَّلالية للألفاظ أو التَّراكيب، ولئن كانت المعاني والدَّلالات حول الموضوع الواحد عائمةً مقنَّعةً في ترتيب المعاني وتوجيه الدَّلالة. ومبرِّرا قويًّا في التَّرجيح، فإنَّ المسلك الأثريَّ الشَّهير (تفسير القرآن بالقرآن) و(التَّفسير الموضوعيَّ) لم يعودا مصطلحَيْن دالَّين على جهدٍ عائم هائم؛ بل

صارت المقاربة التَّفسيرية الجديدةُ أحـد الآليـات المحكمـة لضـبط المعـاني وتوجيـه الدَّلالات وفق ضوابط لغوية ومعايير منهجيّة واضحة.

ثانيا: المحور العموديُّ: يتوجَّـه الحـديث حـول هـذا المحـور إلى الآليـات التـي اعتمدتها المقاربة في طرائق تعيين المفاصل اللُّغوية والآليـات المتَّبعـة في جعلهـا رائـزا من الرَّوائز المعتمدة في إثبات الانتماء إلى إحدى الأسر، وتحديد مسالك تعيين أنـماط الارتباط اللَّفظيِّ أو المضمونيِّ الموضوعيِّ للآية الواحدة، وتعيين ما يصـنِّفها ضـمن إطار معيَّن، وفي خانة الارتباط مع غيرها في السُّورة أو السُّـور ذات النَّسـق الواحـد وذلك من طريق الحفر الموضعيِّ لمواقع ذلك الارتباط.

1- الحفر العموديُّ؛ عمق التَّحليل واعتصار المعنى: أثناء اعـتمادِ المقاربـة لرؤيـة أفُقيةٍ تستحضر مواقع الألفاظ والمضامين على مسـتوى السَّـطح القـرآنيِّ في السُّـوَر ذات الأسرة الواحدة؛ تُفـرَدُ المواقـعُ التـي وردت في الأسر المتشـابهة بمزيـد عنايـة واهتمام، فتخصُّها بإجراءٍ تحليليٍّ يستهدف نقـاط التَّقـاطع اللَّفظـيِّ أو المضـمونيِّ في الضَّميمة الأُسريّة الواحدة، لتخضـع تلـك المواضـع لإجـراءاتِ تحليـلٍ موضِـعيٍّ يتوسَّل بالمقابِل أو المقابِلات الوضعية للمفردة أو المفردات، ثـمَّ يحـتكم إلى موقعهـا الإعرابيِّ وتأثير المجاوِرات اللُّغوية، ثمَّ استدعاء العوامل المعنوية، وإجـراءات علـم البلاغة كالإسناد والتَّقديم والتَّأخير والحذف وغيرهـا، وقـد يُسـتنجَدُ بمقـارِبٍ أو مشابهٍ في موضعٍ آخر بإدراج المعنى أو المعاني المقابلة في الضَّميمة الأسريـة الواحـدة والذي قد يصبح أوَّل الأدوات المساعدة في تعيـين المعنـى أو توجيهـه، كـما تُسـتغلُّ

وظائف التَّرادف أو الاشتقاق أو المشترك أو غير ذلك من المباحث التـي تسـتثمر في خصائص اللُّغة، وتستفيد منها.

1-1- **تعيينُ المعنى أو المعاني المعجميَّـة:** مـن أوَّلِ الإجـراءات التـي تنتهجُهـا المقاربة وأهمِّها، تلك العمليةُ التي تتوسَّـل فيهـا اللَّفظـة بالمعـاجم، ليُـدرَك الأصـلُ اللُّغويُّ للَّفظ أو الألفاظ، وغالبا ما تلجأ المقاربة فيه إلى تحديد المعنـى المعجمـيِّ هـو عند تعلُّق المعاني المقابلة في أسرة السُّور بضرورة الوقوف على المعنى المعجميِّ، ففـي استعراض الأستاذ الصَّافي لمقارنة سورتَيْ المطفِّفين والهمـزة، قـدَّم في مقـام عـرض السُّورتَيْن بيانا مُعجميًّا للفظتَيْ: همزة ولمزة،[8] باعتبـار أنَّ ذلـك سـيُحيلُ عـلى عقـدِ مقارنةٍ بين المعنى في هذه السُّورة والمعنى المقابل له في المطفِّفين، وممَّا يلفت النَّظر هنـا هو اعتماد المقاربة على معاجم لغويـةٍ أقـربَ إلى الاسـتخدام القـرآنيِّ كـالمفردات في غريـب القـرآن للرَّاغـب الأصـفهاني، أو المعـاجم المتـأخِّرة التـي اكتملـت مادَّتهـا واستوى منهجُها، كتاج العروس للزَّبيدي، ولسان العرب لابن منظور.

كما اعتمدت المقاربة في تعيين المعنـى أو اختيـاره جمعـا أو دفعـا أو ترجيحـا عـلى أقوالِ قاماتِ المفسِّـرين الـذين اشـتهرت إحـاطتهم باللُّغـة والبيـان، مـن القـدامى والمحدثين، فمن تفاسـير الأثـر والرِّوايـة تفسـير الطَّـبري (ت: 310ه) وابـن كثـير (ت:774ه) ومن تفاسير اللُّغة والبيان: الكشَّاف لجار الله الزَّمخشــري (ت: 538ه) والمحـرِّر الـوجيز لابـن عطيـة الأندلســيِّ (ت:542ه) وروح المعـاني للألـوسي (ت1270ه) وأنـوار التَّنزيـل وأسرار التَّأويـل للإمـام البيضـاوي الشِّـيرازي (ت:

1286ه) ومفاتيح الغيب للإمام الرَّازي (ت: 606) وفتح القـدير للشَّـوكاني (ت: 1250ه) والتَّحرير والتَّنـوير للإمـام الطَّـاهر بـن عاشـور (ت:1393ه-1973م) وتفسـير الشَّـعراوي (ت: 1329ه-1419ه)، ففـي معـرض التَّمهيـد لعـرض المقارنـات بـين السُّـور المفتتحـة بأنسـاق تعبيريّـة متشـابهة (الصَّـافات، الـذَّاريات المرسلات، النَّازعات، العاديات) لزم الأستاذ صافي تعيينُ معنـى الصَّـافات، فعَمَـد إلى عرض أظْهرِ أقوال المفسِّرين، ومنها (الزَّاجرات) تحضيرًا لربط المعنـى المقابـل في سورة النَّازعات التي تحوي اللَّفظ ذاته، والذي لم ترد من مادَّته في القرآن الكـريم إلاَّ أربعة مواضع ثلاث منها في الصَّافات ورابعها في النّازعات، وفي سـياق متقـارب.[9] وباستعراض قائمةِ أبرز الأعلام وتفاسيرهم؛ نقف عـلى الخلفيـة المعرفيـة للمقاربـة وكذا وجهتها العامَّة.

1-2- **التَّحرير النَّحويُّ والتَّوجيه التَّركيبيُّ:** تَعمـدُ المقاربـة إلى تحريـر المسـائل النَّحوية وتوجيه التَّراكيب اللُّغويـة توجيهـا مبـاشرا دون إغـراق في ذكـر الأقـوال واستعراض الآراء إلاَّ ما كان منها خادما للمعنى فتذكر فيه الأقوال بقـدر مـا يخـدم الغاية جمعا أو دفعا أو استئناسا، فما تتوخَّاه المقاربـةُ هـو التَّأصـيل لرؤيـةٍ نظريـةٍ لهـا أبعادُها وعناصِرُها، ولا شكَّ أنَّ الجانب التَّركيبيَّ من أبرز أعمـدة هـذه المقاربـة في جانبها العموديِّ الذي يحفر في أنماط التَّراكيب ووجوهها، ولكنَّ ذلـك لـيس غايـةً لذاته، فلم تُورِد المقاربةُ من مسائل التَّراكيب وقضاياها إلاَّ ما خـدم هـدف المقاربـة الأوَّل، ومن أظهر الأمثلة في ذلك تقديم الأسـتاذ صـافي لمطلعَـيْ سـورتَيْ الإسراء

والفرقان (سبحان) و(تبارك) بحكم تشابُه فواصلهما، فلم يَزِد في الحديث عن (سبحان) على قوله: هي اسمُ مصدر معناه: أسبِّح الله تسبيحا، واكتفى في الحديث عن تبارك بقول الزَّجَّاج: تبارك تفاعل من البركة. أمَّا كلُّ ما جاء عن اللَّفظتَيْن غير هذا فهو بسط للمعنى في السِّياق تحضيرا لعقد المقارنة.[10] وأظهرُ من ذلك سوقُه للتَّحليل النَّحويِّ لآيتيْن من سورتيْ الكهف والجنِّ بحكم انتمائهما لأسرة واحدة ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ٢٧ [الكهف: 27] ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾٢٢ [الجنّ: 22] مشيرا إلى اشتراكهما في نقاطٍ اشتراكًا يوحي بأنَّهما بلَبوس تركيبيٍّ واحد فابتداء الآيتين معا كان بفعل أمر (اتْلُ - قُلْ) ثمَّ استعمال أداة النَّفي المفيدة للتَّأبيد(لن) في كليهما، ثمَّ اسم المفعول (ملتحدًا) على المفعولية في الموضِعَيْن[11] وقد أورد ذلك مُكتفِيًّا من البحث النَّحويِّ بما يثبت به وجهته حول مواضع التَّقابل عند المقارنة بين السُّور.

1-3- البيان البلاغيُّ في خدمة المقارنة بين السّور: مع أنَّ الخلفِية المعرفيّة لمعظم الأعلام الذين اتّكأت المقاربة على مصادرهم، ومع التَّخصُّص العلميِّ الذي أمضى فيه الأستاذُ صافي (صاحب المقاربة) هو البلاغة العربيّة، إلاَّ أنَّ الملاحَظَ هو ندرة المقولات البلاغية النَّظرية ومصطلحاتها، فلم تحمل المقاربة في عمومها إلاَّ تلك الآثار التي تتركها الصُّور البلاغيّة على المعاني، وسواء في ذلك منها ما كان على سبيل الاقتباس عن أعلام التَّفسير، وعرض أقوالهم، أم ما كان على سبيل التَّأليف من الكاتب وتحريره لوجهة الأقوال وتصريف المعاني والدَّلالات، ومن أمثلة ذلك

ما يورده عند استعراض مواضع التَّقابُل بين سورتيْ طه والنَّجم في إطار أسرة السُّور المتشابهة الفواصل، فقد اتَّكأ على الأسلوب البلاغيِّ، فجعل منه موضعا للتَّقابل بين الآيات ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: 78] ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النَّجم: 16] ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النَّجم: 54].[12] وهو أسلوب يفيد التَّكثير والاستعظام، اتَّخذ منه وسيلةً لإثبات علاقاتِ الانتساب -في جملة علاقات كثيرة على مستوى سور هذه الأسرة- فكانت الإشاراتُ البلاغيّة أداةً لخدمة هدف المقاربة الأسمى.

ثالثا: إشاراتٌ عجلى في خصائص المقاربة: أفضت متابعةُ هذه المقاربة على محورَيْها الأفقيِّ والعموديِّ على جملة من الملاحظات، رأت المداخلةُ أنْ تعرضها في فقراتٍ تتناول كلُّ واحدة منها مشهدا من المشاهد اللافتة في المقاربة، وإيراد بعض ما تركته من أثرٍ منهجيٍّ أو معرفيٍّ أو إجرائيٍّ في مسار إثراء المباحث النَّظرية لعلوم القرآن، أو إمداد الباحثين في مجال التَّفسير بأدواتٍ وآلياتٍ تفسيريَّةٍ جديدة، تكون مَعْبَرًا لفتوحٍ تفسيرية أخرى، على سبيل خدمة كتاب الله، ولغة كتاب الله.

1- **مواضع التَّقابُلات وإقامة المقارنات**: لئن اعتمدت مقاربةُ **مقارنة السُّور** هذا المسلك غير بعيد عن جهود أعلام التَّفسير السَّابقين، وطرائقهم في تحليل الآية والوقوف على تفاصيل وضع ألفاظها وتركيبها، فإنَّ ما استدركته على ذلك وشكَّل إضافة نوعيَّةً فارقةً، هو اعتماد المقاربة على مقارنة الأوضاع والتَّراكيب واستعراض الإشارات واللَّطائف البلاغية للمواضع المنتقاة لإثبات الانتماء إلى الضَّمائم الأسرية

قبل غيرها بحكم أنَّ المعنى ضمن هذه الضَّمائم مقدَّمٌ على غيره تأسيسا على اختيارات مؤسَّسة، وتصنيفات مبرَّرة، جعلت من تقديم التَّحليل في إطار الضَّميمة مقدَّمًا على غيره ممَّا جاء في مواضع أخرى من سور القرآن الكريم، فإذا ما تمَّ تناوُل لفظ أو تركيبٍ من موقعِ تَقابُلِه مع نظيره أو مماثِلِهِ في سورة أخرى ضمن الضَّميمة الواحدة، فإنَّ بناءَ المعنى، أو اختيارَه أو توجيهَهُ مقدَّمٌ على غيره لو ورد في موضع آخر خارج إطار الضَّميمة، ونموذجُ ذلك من المقاربة معنى المركَّب الوصفي (سلطان مبين)،[13] الوارد في سور: ﴿إبراهيم، النَّمل، الصَّافَّات، الدُّخان الذَّاريات، الطُّور﴾ لكنَّ معناه في سياق سورتَيْ الصَّافات والذَّاريات أولى بالتَّقديم إنْ ظهر، وأدعى إلى الاستئناس بسياق إحدى السُّورتَيْن على الأخرى إنْ خفيَ، أمَّا معناه في السُّور الأخرى فمحكوم بسياقه الذي ورد فيه.

2- **تصنيف إضافيٌّ جديد للسُّور القرآنية**: دأب الدَّارسون لعلوم القرآن على أنَّ من أشهر تصنيفات سور القرآن الكريم هو التَّقسيم المكِّيُّ والمدنيُّ، وهو ترتيبٌ زمنِيٌّ ومكانيٌّ عامٌّ أتبعته دراسات واسعة تابعت خصائصَ كلٍّ منهما ومواضيعه وتوَّجَ هذا التَّصنيفَ التُّراثيَ درسٌ حديثٌ لافتٌ، كما فعل الأستاذ محمَّد عزّة دَرْوَزَة (1404ه) بكتابه (التَّفسير الحديث) ومثلُ ذلك فعل الأستاذ عبد الرَّحمان حسن حبنكة الميداني بكتابه: (معارج التَّفكُّر ودقائق التَّدبُّر، تفسير تدبُّريٌّ للقرآن الكريم) وفي مقدِّمته يقول:(... وَقد رَأَيْتُ بالتَّدبُّر الميدانيِّ للسُّور أنَّ مَا ذكره المختُّصون بعلوم القُرْآن الكَرِيم من تَرْتِيب نزُولٍ، هُوَ -فِي معظمه- حقٌّ، أخذا

من تسلسل التّكامُل التّربويِّ. واكتشفتُ فِي هذا التّدبُّر أمورا جليلة تتَعَلّق بحركة البناء المعرفيِّ لأمور الدّين، وحركة المعالجات التّربويّة الرّبانية الشّاملة)[14] وهو تصنيفٌ -لا شكَّ- له آثارُه التّربوية والتّعليميّة، ولا أقلَّ منها أنّه تصنيفٌ يسايرُ مفاصل السِّيرة النّبويّة الشّريفة، ويرافق أحداثها.

وهناك تصنيفٌ آخر وهو تقسيمٌ يتناسب مع التّرتيب التّوقيفيِّ للمصحف الشّريف -على المشهور- وهو التّقسيم الذي يجمع بين مقدار الطُّول للسُّور وترتيبها في المصحف الشّريف، وقد استند -بمقتضاه- العلماءُ في تقسيم السُّور القرآنية إلى ما رواه الإمام أحمد في المسند بسند حسن، عن واثلة بن الأسقع أنّ النّبي ﷺ قال: (أُعطيتُ مكان التّوراة السّبع، وأعطيتُ مكان الزّبور المِئين، وأعطيتُ مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلتُ بالمُفَصّل) وفي رواية غيره: (السّبع الطِّوال) وتقسيم السُّور بهذا الاعتبار:

- **الطِّوال**: ﴿البقرة، آل عمران، النِّساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، وقيل: براءة. وقيل: يونس﴾؛
- **المئون**: وهي فئة السُّور التي تزيد على مئةٍ أو قريبا منها؛
- **المثاني**: وهي السُّور التي ثنّت المئين ووَلِيَتْها؛
- **المفصَّل**: وهو من الحجرات أو ق -على خلاف- إلى النّاس، وهو أقسام أيضا:
- **طوال**: من الحجرات إلى النّبأ أو الطّارق؛

- أوساط: من النَّبأ أو الطَّارق إلى الضُّحى أو البيِّنة؛
- قصار: من الضُّحى أو البيِّنة إلى النَّاس.

وهو ترتيبٌ لا ريب أنَّ لـه خصائصَـه ومميِّزاتِـه، ولمضـامينه ترابُطـاتٌ وعلائـقُ وهذا التَّرتيب هو الذي نشط فيه -بقوَّة- علم المناسبة بين نهايـات السُّـور وبـداياتها والمناسبة بين بداية السُّورة ونهايتها (أمَّا السُّور التي تقارب نهاية السِّياق التَّرتيليّ مـن القرآن الكريم، فإنَّ ردَّ معاقد المعاني، وهي المعاني الكليّة إلى ما سبقها كـافٍ في تِبيـان موقع السُّورة على مَدْرَجَة المعنى الكُلِّيّ للقرآن الكريم، وهذه المرحلة وإنْ كـان فيهـا من الصّعوبة غيرُ قليلٍ؛ إلاَّ أنَّ لها من الأثـر والمنزلـة في فقـه معنـى السُّـورة ومـنهج بنائها. هذا علاوة على أنَّ فيها بيانًا لتناسب سور القـرآن الكـريم، وذلـك التَّناسُـب ضربٌ من إحكام القرآن الكريم لا يقلُّ البتّة عن تناسب آيات السُّورة الواحـدة).[15] كما أنَّ مُعظم ما تناوله المفسِّرون والدَّارسون ضمن هذا الإطار هو علائقُ مضـمونيةٌ عامَّةٌ بين مواضيع السُّور ذات التَّصـنيف الواحـد، والتَّركيـز أكثـرَ عـلى مقتضـيات التَّرتيب التَّوقيفيِّ للسُّور القرآنية، مع الأخـذ في الحُسـبان الجانـبَ الكمِّـيَّ للآيـات ومتابعة الجامع العدديِّ بينها.

أمَّا المقاربة التَّفسيرية الجديدة، فقد جاء تصنيفُها الجديد مبنيا على معـايير أخـرى لها قدرٌ معتبرٌ من الاطِّراد، متجاوزا التَّقسيم المكِّيَّ والمدني، ولكـن مـن غـير إقصـاءٍ لخصائصه ومميِّزاتـه. كـما تجـاوز التَّقسـيمَ الكمِّـيَّ المتوافـق مـع التَّرتيـب التَّـوقيفي للمصحف الشَّريف، ولكنَّه استغلَّ منه معيار المناسبة بين السُّور، ووظَّف أنماطا مـن

التَّرابط الموضوعيِّ بين فئاته، وفي ذلك يقول الأستاذ صافي (وإنَّما حسبي في هذا الكتاب الذي أعُدُّه باكورة البحث في علم المقارنات بين السُّور؛ أنْ أؤصِّل لهذا النَّوع من التَّحليل اللُّغويِّ لمجموعات الأسر القرآنية)[16] ولما كان هذا التَّصنيفُ غير منضبط بالضَّوابط المشتهرة بين التَّصنيفين السَّابقين، فقد لزمه أنْ يجد لنفسه تسميةً ومنهجا يبرِّران انفراده، ويبرزان خصائصه، فكان مصطلح **المقارنة** أقرب دلالة على منهج التَّصنيف، فهو يُخضع السُّوَر التي أدركتها معاييره لأحكامه، على أنْ يكون الالتفاتُ للتَّقارب الموضعيِّ أو الموضوعيِّ استئناسا، فالمعايير التَّصنيفيَّة في المقاربة تقتضي أنْ يكون أساس التَّصنيف لفظيا ومضمونيا ولكنَّ ذلك لا يعني الانغلاق على هذين الاعتبارين، وقد انفتحت المقاربة -بعد التَّصنيف- على كلِّ ما لَهُ علاقة باستواء هذا المسلك في التَّصنيف، وإثبات فعاليّته وجدواه.

3- **الجمع بين ترتيب النُّزول وترتيب المُصحف:** يتيح الأخذُ بهذه المقاربة إمكانيةَ استغلال ترتيب السُّور حسب نزولها، كما يتيح الأخذ بترتيب المصحف فأمَّا ترتيبُ النُّزول فيفضي إلى الاشتغال على معرفة المسافة الزَّمنية والكمِّية الفاصلة بين السُّور ذات الضَّميمة الواحدة، ومعرفة الأوَّل من الآخر في النُّزول تحضيرا لما يلحق ذلك من متابعة ومقارنة، واستغلال الأدوات اللُّغوية التي يكون بها للأوَّل نزولا سلطانُ العموم والإطلاق والإجمال، ويكون للآخِرِ فضل التَّخصيص والتَّقييد والتَّبيين، كما يمكِّن استغلالُ هذا التَّرتيب من الوقوف على خصائص المكّي والمدنيِّ، والاستئناس بسيرة من نزل عليه القرآن الكريم ﷺ واستثمار مراحل التَّطوُّر

والارتقاء في المجتمع الإسلاميِّ الأوَّل، وهو المجتمع الـذي رافـق النُّـزولَ القـرآنيَّ بتفصيلاته، ولا ريب أنَّ الأخذ بهـذه الاعتبـارات سينصرـف بالمعـاني والـدَّلالات والأحكام في التَّفسير منصرَفًا غير الذي أخذ في التَّفسير وقد عُدم هذه الرَّوائز.

وأمَّا الاشتغالُ على ترتيب المُصحف فهو استغلالٌ للكمِّ الهائل من التَّفاسير التـي تابعت القرآن الكريم بالبيان والتَّحليل، سواء في ذلك ما توجَّه منـه إلى المواضـع، أم ما انصرف منه إلى الموضوعات، فأمَّا ما توجَّه منها إلى المواضع فهـي تلـك التَّفاسـير التـي أعملـت النَّظـر في موضـع الآيـة، تُتابِعهـا بالتَّقليـب والتَّفصـيل وعـرض الاحتمالات وبسط وجوه القول، فتكتفي المقاربةُ من ذلك بما يخدمُ مسعاها في تعيين مواضع التَّقابل والمقارنة وأمَّا استغلالُ ما توجَّه إلى الموضوعات فهو استثمارٌ عـامٌّ في مسـلك بيـان القـرآن بـالقرآن، واسـتغلال علـم المناسـبات وثمراتـه في اكتشـاف العلاقات بين السُّور والآيات والأساليب والمفردات في القـرآن الكـريم، ولا ريـب أنَّ اكتساب مثل هذه الأدوات واستثمارها في عملية التَّفسير يختلـف اختلافـا فارقـا عن عمليات التَّفسير التي عدمت آلية أو آليات.

ولعلَّ ممَّا يُحسب لمقاربة الأستاذ صـافي في التَّفسـير هنـا، هـو تقديمُـه بـين يـدي الضَّمائم القرآنية ببيان ترتيـب السُّـور في الاتِّجـاهَيْن معًـا، فيـذكُرُ تـرقيم السُّـورة في النُّزول، وترتيب سور الأسرة الواحدة، وكذا ترقيم ترتيبها في المصـحف، وفي ذلـك تأسيسٌ لاستغلال كلِّ ما يتيحه التَّرتيبان ممَّا يخدُمُ مسعى المقاربة ويصحِّح وجهتها.

4- **مميِّزات التَّصنيف الجديد للسُّور**: يبدو التَّصنيفُ الجديد للسُّور القرآنيَّة التي انتظمَتْها هذه المقاربة أكثر دقَّة وتفصيلا، وهو تقسيمٌ نابعٌ من صُلب بنية السُّورة القرآنية، وأملته مضامين السُّور وألفاظها. وتراوحت معالمُه بين المطالع والفواصل. وهو وإنْ بدا منطقيًّا في العرض؛ إلاَّ أنَّه أحال على بعض الإشكالات التي قد تبدو طبيعيَّة لا تبرير لها من جنس معايير المقاربة، وقد تبدو مبرَّرة، وقد يكون تناوُلها مدخلا لمجالات بحث أوحت بها هذه المقاربة، ويبدو الأستاذ صافي مُدركا لخطورة مثل هذه المبادرة، وعلى إحاطة معتبرة لاستثناءاتها، وما قد يشذُّ عن ضوابطها ومعاييرها، فصرَّح قائلا: (ولست أروم في هذا البحث أن أستقصيَ جميع السُّور المتشابهة المطالع، وجميع السُّور المتشابهة الفواصل، وجميع السُّور ذات الأنساق التَّعبيريَّة المتشابهة في بداياتها بالدِّراسة والتَّحليل، فهذا أمرٌ صعبُ المنال وغيرُ ميسورٍ الآن)[17] وهو ما يدعو إلى إيراد بعض ما يتضمَّنه هذا الاستدراك ويشير إلى بعض ما قد يكون آفاقا بحثية جديدة لهذه المقاربة، ومن ذلك:

4-1- **تعدُّد انتساب السُّور إلى أكثر من أسرة**: وهي حالة تعكس استجابة السُّورة الواحدة إلى معيارَيْن مختلفَيْن من معايير التَّصنيف في آن واحد، ومن أشكاله في هذه المقاربة:

- انتساب سورة الأعلى لأسرة المسبِّحات: ﴿الإسراء، الحديد، الحشر الصَّف الجمعة، التَّغابُن، **الأعلى**﴾؛ والأسرة المتشابهة الفواصل في آن واحدٍ: ﴿الكهف الجنّ، طه، النَّجم، **الأعلى**﴾؛

- انتساب سورة الكهف إلى أسرة الحمد المتشابهة المطالع: ﴿الفاتحة، الأنعام **الكهف**، فاطر، سبأ﴾ وأسرة أخرى المتشابهة الفواصل من سورتَيْ ﴿الكهف الجنّ﴾؛
- انتساب سورة الفرقان إلى أسرة السُّور المتشابهة المطالع ﴿الفرقان، الملك﴾ والأسرة المتشابهة الفواصل ﴿الإسراء، الفرقان﴾.

4-2- عدم انتظامِ سورٍ لها معايير المقاربة الشَّكلية نفسها: وهو استدراكٌ يورد سُوَرًا يطالُها أحد معايير التَّصنيف المعلنة، ولكنَّ البحث الأوَّلِّي في رابط لفظيٍّ أو مضمونيٍّ يجمعُها يبدو متعذِّرا، وقد تكون إطالةُ النَّظر، وإدامة التَّدبُّر سبيلا إلى ما يعيد النَّظر في هذا التَّصنيف تقويما واستدراكا، ومن نماذج هذه الاستدراكات:

- سورة النِّساء مستبعدة من أسرة ﴿الإسراء، الفرقان﴾ مع اشتراكها معهما في تشابه الفواصل، إلاَّ أنْ يكون عامل انتساب ﴿الإسراء، الفرقان﴾ إلى السُّور المكِّيَّة وانتساب سورة النِّساء إلى السُّور المدنية السَّببَ في هذا الاستبعاد؟
- سورة العاديات مستبعدة من أسرة ﴿الصَّافات، الذَّاريات، المرسلات النَّازعات﴾ مع اشتراكها معها في النَّسق التَّعبيريِّ، فهل يكون قِصرُها مانعا من انتمائها لما يفترض أنْ تكون ضمنه بحكم تشابه النَّسق التَّعبيري؟
- هل من ضابط لغويٍّ أو مضمونيٍّ حسب معايير المقاربة تُمكِّن من إدراج سور: ﴿الجنّ، الكافرون، الصَّمد، الفلق، النَّاس﴾ وأسرة ﴿البروج، الطَّارق﴾ في أسرتَيْن بموجب معيار **تشابُه المطالع**، إذ تبتدئ الأولى بلفظ (قل) وتبتدئ الثَّانية بلفظ ﴿والسَّماء﴾ على سبيل القَسَم؟

- ألا يمكن إنشاء أسرة أخرى هي أسرة: مطلع القسم مثل: ﴿الطُّور، البروج الطَّارق، الفجر، الشَّمس، اللَّيل، الضُّحى، التّين، العصر...﴾ أو أسرة الأسئلة الإلهيّة ﴿الإنسان، الغاشية، الماعون، الفيل... ﴾ أو أسرة مطالع العظمة ﴿الفتح نوح القدر، الكوثر﴾ وفيها من المطالع المضمونيّة واللَّفظيّة القويّة ما يبرِّر تشكيل مثل هذه الأسر؟

4-3- عدم استغراق السُّور القرآنية الكريمة كلِّها: مع ما سَعَت إليه هذه المقاربة من محاولة وضع ضوابط ومعايير تتَّسم بالسَّعة والاستغراق، فقد بقي كمٌّ معتبرٌ من السُّور القرآنية ينتظر مزيد التَّدبُّر، فلقد أطرت هذه المقاربة تسعًا وثلاثين (39) سورة، ويستحثُّ خطى الدَّارسين لاستكشاف ما قد يُسهِم في اطِّراد معايير هذه المقاربة على خمس وسبعين (75) سورة أخرى، واستغراق جميع سُور القرآن الكريم على أنْ لا يكون تحقيقُ هذا المسعى ذريعَةً إلى تكلُّف ما لا وجه له والانسياق وراء الجانب الشَّكليِّ لهذه المقاربة على حساب مضمونها المعرفيِّ والمنهجيِّ، ولعلَّ إدراك الأستاذ صافي لأبعاد هذا المسعى هو ما جعله يقف عند حدود ما بلغه الوُسعُ فيقول: «حسبي أنْ أفتح الباب على مصراعيه أمام الباحثين للولوج في لجَّة المقارنات بين السُّور القرآنيَّة، وإيجاد العلاقات التي تربطها وإيضاح المناسبات التي تجمعها والوشائج التي تميِّزها عن أخواتها، والهندسة اللُّغوية التي تُشيِّدها وتبنيها»[18].

الخاتمة: تجاوزت المقاربة التّفسيريّة عند الأستاذ صافي كلَّ أنساق التَّناسُب القرآنيِّ التي عرفتها الكتابات التُّراثية والحديثة، فجاءت المقارنة بين السُّور وفق هذه المقاربة تجميعا واعيا لثمرات جهود الأوَّلين، وقد كانت منثورة تلقائيّة غير منضبطة، لتأخذ شكلا جديدا أبرزُ ما فيه نَمطيَّةٌ منضبطةٌ تعالج ظاهرةً على قدر معتبر من الاطِّراد والشُّمول.

وممَّا يُحسب لمقاربة الأستاذ صافي هو تأسيسها المنهجيُّ والمعرفيُّ الذي أقرَّ هذه الجهد السَّالف، ونسب كلَّ مشهدٍ منه لصاحبه ومصدره، وفي ذلك مَحْمَدتان أولهما: تثمين الجهد السَّالف والاعتراف فيه لأهل الفضل بأفضالهم. وثانيهما: بيان محتوى المقاربة الجديدة وظهور ملامحها مطبوعة بطابع الوضوح والتَّميُّز، ويتجلَّى ذلك من خلال المصادر المُعلن عنها. والأعلام المصرَّح بهم، وهو ما منح المقاربة القيام على أرضية معرفيَّةٍ صلبة جمعت بين الإقرار بالمُنجَزِ السَّالف وحسن عرض المستجدِّ.

المقارنة التَّفسيريّة بحمولتها ووجهتها المستجدَّة قراءة واعية ومؤسَّسة، وعلى درجة متقدِّمة من الشُّمول والدِّقة والإقناع، فتحت مسالك تفسيريَّة أخرى استهدفت آيات قرآنية كريمة جامعُها الأكبر: استثمار العلاقات المعجميّة والنَّحوية والبلاغيّة العربيّة، واستفادة للفتوحات اللُّغوية في مستوياتها المختلفة، وتفعيلٌ منظَّم لمقولات وإبداعات الدَّرس البلاغي المتنامي عبر مسار زمنيٍّ طويل. فهي في جانبها التَّأسيسي إعادة استحضار للتُّراث، وفي جانبها المستجد نموذج تطبيقيٌّ لما أضحى يُعرف في الدَّرس اللِّسانيِّ الحديث بلسانيات النَّص الذي يتجاوز لسانيات الجملة

هذا الأخير الذي أشبعه الدَّرس التُّراثي العربيُّ معالجةً وتحليلا، فتجاوزت المقاربةُ بذلك التَّحليل المحلِّيِّ المستهدِفِ للآية القرآنية في موضعها إلى الِارتِفاقِ بنظائرها في ضمائم السُّور كمعيار اعتمدته هذه المقاربة.

تجاوزت المقاربة في ثوبها الجديد أنساق التَّناسُب القرآني وأشكالَه التي عرفها التُّراث التَّفسيري الثَّرُّ وأحسنت إخراج مسعى بحثي جمع بين الجرأة والتَّثبُّت فأورث ذلك إجراء تنظيميًّا تنظيريًّا وتطبيقيًّا واضحا وأصبح للتَّناسُب القرآنيِّ في إطار المقاربة الجديدة معنى آخر جديرا بأن ينتقي لنفسه اسما يناسب منشأه ومساره وهدفه، وهو مقارنات السُّور.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1- أمحمَّد صافي المستغانمي، **جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور**، ط1. بيروت: 1439ه-2018م.

2- بدر الدّين الزَّركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم ط1. القاهرة: 1376ه-1975م، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابى الحلبيّ وشركاؤه. عبد الرَّحمان حسن حبنكة الميداني، **معارج التَّفكُّر ودقائق التَّدبُّر**، ط1. بيروت: 1421ه-2000م، دار القلم.

3- محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ط3، د ب، د ت مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

4- محمّد عبد الله دراز، **النَّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**، د ط. الدَّوحة: 1405ه-1985م، دار الثَّقافة.

5- محمَّد محمَّد المدني، **المجتمع المثالي كما تنظِّمه سورة النِّساء**، (طبعة دوليّة) القاهرة: 1410ه-1990م، الدَّار المصرية للنَّشر والتَّوزيع.

6- محمود توفيق محمّد سعد، **العزفُ على أنوار الذِّكر**، ط1. القاهرة: 1424ه، مكتبة وهبة.

الهوامش والإحالات.

[1]- محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، د ب، د ت، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ج2، ص316.

[2]- بدر الدّين الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط1. القاهرة: 1376ه-1975م، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابى الحلبي وشركاؤه، ج2، ص175.

[3]- محمّد عبد الله دراز، النَّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د ط. الدَّوحة: 1405ه-1985م دار الثَّقافة، ص159.

[4]- محمَّد محمَّد المدني، المجتمع المثالي كما تنظِّمه سورة النِّساء، (طبعة دولية) القاهرة: 1410ه-1990م، الدَّار المصريّة للنَّشر والتوزيع، ص8.

[5] - أمحمّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ط1. بيروت: 1439ه-2018م، ص37-52.

[6] - أمحمّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص62- 66.

[7]- ينظر: في تفصيل الرَّوابط اللَّفظية والمضمونية بين السُّورتين: أمحمّد الصَّافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص215.

[8]- أمحمّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص262.

[9] - أمحمَّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص369.

[10] - أمحمَّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص280.

[11] - أمحمَّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص321.

[12] - أمحمَّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص352.

[13] – أمحمَّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص386.

[14]– عبد الرَّحمان حسن حبنكة الميداني، معارج التَّفكُّر ودقائق التَّدبُّر، ط1. بيروت: 1421هـ-2000م، دار القلم، (المقدِّمة).

[15]– محمود توفيق محمّد سعد، العزفُ على أنوار الذِّكر، ط1. القاهرة: 1424هـ، مكتبة وهبة ص30.

[16] – أمحمَّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص21.

[17]– أمحمَّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص21.

[18]– أمحمَّد صافي المستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، ص21.

التّفسير الموضوعيّ في ضوء نظريّة النّظم

(قراءة في تفسير أحمّد صافي المستغانمي)

د. عثماني عمّار

ج. أحمد زيانة، غليزان

1- **مقدمة**: يعدّ علم التّفسير من العلوم التي مسّتها الحركة التّجديديّة في العصر الحديث فهو على غرار علوم اللغة والأدب شهد تطوّرا ملحوظا في القرن العشرين فصاحبه تحوّل جديد غيّر في كثير من المفاهيم والإجراءات المتعلّقة بهذا العلم.

يعتبر التّفسير الموضوعيّ أهمّ ما انتهى إليه تفكير العلماء في هذا القرن، ومنهج العمل فيه عن طريق الموضوع ، له خصوصيّة تميّزه عن التّفاسير القديمة، وهي الفكرة التي تبناها أمين الخولي الذي وضع تصورًا تجديديا في منهج علم التّفسير تقول عائشة عبد الرّحمن: (وقد كان المنهج المتّبع في درس التّفسير- إلى نحو ربع قرن من الزّمان- تقليديا أثريا لا يتجاوز فهم النص القرآني على نحو ما كان يفعل المفسّرون من قديم، حتى جاء شيخنا الإمام (الأستاذ أمين الخولي) فخرج به عن ذلك النّمط التّقليدي، وتناوله نصّا لغويّا بيانيا على منهج أصله).[1]

والتّفسير الموضوعيّ في أبسط تعاريفه هو (إفراد موضوع خاصّ في القرآن الكريم بجمع ما تفرق منه للدّرس والبحث)،[2] أي أن تختار موضوعا خاصًّا

كالموت مثلا وتستقرئ الآيات التي وردت فيها لفظة (الموت) في جميع سوره لتنتهي إلى خلاصة عامّة تفهم من خلالها معنى الموت في القرآن الكريم، وكيف عبّر عنه القرآن لفظا ونظما.

ولهذا يرى (أمين الخولي) إنّ الإجراء التّطبيقي فيه أنّ (تجمع آية الخاصّة بالموضوع الواحد جمعا إحصائيا مستقصيّا ويعرف ترتيبها الزّمني ومناسبتها وملابستها الحافة بها، ثمّ ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم).[3]

والبحث عن المعاني الخاصّة الغاية التي يطمح إليها هذا النّوع من التّفسير فالألفاظ فيه تكتسب صيغة الموضوعات التي يعرضها القرآن الكريم، ولهذا يرى محمّد محمود حجازي أنّ التّفسير الموضوعيّ هو (جمع الآيات في موضوع واحد وترتيبها حسب النّزول مع الوقوف على أسباب ودراستها دراسة منهجيّة موضوعيّة كاملة لتعطينا موضوعا واحدا له وحدة متكاملة متناسقة لا تباين فيها ولا اختلاف حتى تلتقي جميع النّصوص كلّها في مصب واحد مع التّعرض لمناسبة الآيات في سورها).[4]

فغاية المفسّر هو (بيان الآيات القرآنيّة ذات الموضوع الواحد وإنّ اختلفت عبارتها وتعدّدت أماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه ويلم بكل أطرافه وإن أعوزه ذلك لبعض الأحاديث المناسبة للمقام لتزيدها إيضاحا وبيانا).[5]

1- التّفسير الموضوعيّ عند أحمّد صافي: يشتغل الدّكتور أحمّـد صـافي عـلى البلاغة القرآنيّة، فـالمطّلع عـلى سـيرته العلميّـة يقتنـع القـارئ باهتماماتـه بـالنّص القرآني، تفسيرا وبلاغة. ومن أهمّ المؤلّفات، كتابه: (بلاغة النّظم في لغة الجسـم في القرآن الكريم)، والأصل فيه أطروحة دكتـورا حـاز مـن خلالـه عـلى جـائزة دبيّ الدّولية للقرآن الكريم؛ لأهميّة الكتاب، وسبق الموضوع فيه. ومنها كانت لنا وقفـة مع الكتاب لاستجلاء منهج التّفسير عند الرّجل، وبيان طبيعة الموضوع فيه.

يندرج كتاب الدّكتور أحمّد صافي ضمن كتب التّفسير، فهو يبحث في الآيـات القرآنيّة التي تتضمّن تواصلا غير لفظي، محاولا البحث في (العبارات والتّراكيـب اللغويّة، التي تتعلّق بأعضاء جسم الإنسان وحركاتها، وإيماءاتها، التي ورد ذكرهـا في القرآن الكريم) وغايته في ذلك الوقوف على (دلالاتها الصـّريحة وإيحاءاتها غـير المباشرة، والمعاني التي يرسمها النّظم القرآني وهو يبرزها ويجلّيها).[6]

ولعل من منبهات هذه الدّراسة التي قدّمها الـدّكتور أحمّـد صـافي إلى المكتبـة العربيّة هو اطّلاعه على الأبحاث التي أنتجتها الجامعات الغربيّة في (علم التّواصل غير اللفظي) من جهة، وما قدّمه العلماء قديما في كتب التّفسير والبلاغة مـن جهـة أخرى، فهو يدرك (أنّ علماء المسلمين والباحثين في علـوم القـرآن الكـريم وسـنّة رسول الله ﷺ، قد وقفوا عند كثير من التّعابير والتّراكيب المتعلّقـة بأعضـاء جسـم الإنسان وحركاتها، وإيماءاتها وفسروا دلالاتها، وإيحاءاتها).[7]

إنّ المطلع على كتب التّفسير والبلاغة على كثّرتها وتعدّد مناهجها يجد أنّ العلماء والدّارسين قد تطرّقوا إلى الآيات التي تشكل فيها أعضاء الجسم طريقا للتّواصل سواء كان ذلك بوعيّ أم بغير وعيّ، فالأكيد أنّهم تأملوا تلك التّراكيب اللغويّة ولكنهم في الغالب الأعمّ لم يتفطنوا إلى أنّ هناك نوعا من التّواصل (التّواصل غير اللفظي) تستجليه تلك الآيات، فورودها في أعمال السّابقين لا يعني أنّها شكلت موضوعا عامّا، تمّ حصره ودراسته، ومن ثمّ تعد دراسة أمحمّد صافي فريدة في نوعها، فالتّراكيب اللغويّة الخاصّة بجسم الإنسان في القرآن الكريم (لم يسبق جمعها ودراستها بطريقة تحليليّة بلاغيّة علميّة).[8]

إنّ محاورة خصوصيّة التّفسير الموضوعي عند أمحمّد صافي له أسبابه التي دفعت بنا إلى إدراج دراسته ضمّن هذا الإطار، فقد صرح بأنّ أهميّة بحثه متعلّقة بـ (أهداب علم التّفسير الجليل؛ حيث إنّه يرمي بنيان الإعجاز البياني القرآني المتفرّد بتجلية الجماليّات الفنيّة البيانيّة البديعة، التي تحفل بها الآيات التي تتحدث عن أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم).[9]

ومن جهة أخرى فإنّ المطّلع على العمل الذي أنجزه أمحمّد صافي تبيّن أنّه عمله ينخرط في سياق الدّراسات التي قدّمها عدد غير قليل من الباحثين، واشتهر تحت مسمّى التّفسير الموضوعيّ، خاصّة وأنّه عمل على ترتيب مادة نصوصه انطلاقا من تصنيفه لكلّ موضوع منعزلا عن الآخر، فهو تراه يبحث عن في التّراكيب التي وصفت الرّأس، ثمّ ينتقل إلى تلك التي وصفت النّاصية. وهو ما يلتقي مع

أطروحة هذا النّوع من التّفسير المبني منهجه على (بيان الآيات القرآنيّة ذات الموضوع الواحد، وإن اختلفت عبارتها وتعدّدت أماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسّر جميع نواحيه ويلم بكلّ أطرافه).[10]

لقد اتّبع أمحمّد صافي طريقا خاصًّا في محاورة إشكاليّة بحثه، وذلك بتتبع الآيات في الموضوع الواحد وإذا كان هدفه الأسمى في البحث عن التّواصل غير اللفظيّ في الكتاب المبين فإنّ مجال دراسته لم تخرج عن هذا الإطار، فهو قد بحث في الآيات التي تضمّنت هذا النّوع من التّواصل، وانفرد لكلّ نوع بموضوعه الخاصّ فالتّواصل عن طريق الرّأس وحركاته وإيماءاته جعله منفصلا عن التّواصل عن طريق العين مثلا؛ فالموضوع العامّ متعلّق بلغة الجسم، والتي هي(إشارات وإيماءات جسديّة ترسل رسالات محدّدة في مواقف وظروف مختلفة تظهر لك المشاعر الدّفينة وتخرجها للسّطح فتصل من خلالها معلومات أو أفكار عن الشّخص للآخر بحيث لا يستطيع إخفاء الأفكار التي تدور في الذّهن).[11]

ومن هذا المنطلق حدّد أمحمّد صافي مجال عمله، حاصرا إياه في التّراكيب اللغويّة الخاصّة بالرّأس والعنق، وبالوجه وما حوى، وبالتّواصل بالأرجل والأيدي، وأيضا بالقلب والصّدر وما جاورهما، وأعضاء متنوّعة أخرى.

2- **مصادر بحثه:** ناقش الدّارسون قبل أمحمّد صافي قضيّة (لغة الجسم) وبحثوا عن ظلال هذه اللغة في القرآن الكريم؛ غير أنّ بحوثهم لم تتّصل بعلم التّفسير كما أراده في كتابه فمحاولة محمّد الأمين موسى أحمد تعلّقت بعلوم

الإعلام والاتّصال، يقول فيما بيانه: « لقد دفعني هذا الإحساس بأهميّة الاتّصال في حياة الإنسان، وتحديه المستمر للدّماغ البشريّ إلى الالتجاء للقرآن الكريم باعتباره أعظم رسالة تواصليّة تلقاها الإنسان، لتلمس بعض الإجابات الشّافية لبعض التّساؤلات المؤرّقة في علم الاتّصال، متضمّنة جل ما يتعلّق بالتّواصل عبر القنوات غير اللفظيّة». [12]

ولكن اختلاف موضوع الدّراسة بينهما لا يعني عدم الإفادة، فلا شكّ أنّ باحثًا يعرف من خلالها مفهوم ودلالة الاتّصال غير اللفظي، خاصّة وأنّ أمحمّد صافي انطلق في دراسته من البحث في هذا النوّع من التّواصل، فقد أفاد من البحث المذكور (في حصر كثير من التّعابير والتّراكيب المتعلّقة بأعضاء جسم الإنسان). [13] فعمل محمّد أمين موسى تميّز بالشّمول في استقراء الآيات التي وردت فيها ما يتعلّق بلغة الجسم.

وأمّا دراسة الدّكتور أحمّد سليمان الهنداوي الموسومة بـ (**البلاغة القرآنيّة في التّصويريّ بالإشارة والحركة الجسميّة**) فإنّ غايتها معرفة النّظم القرآني في نقله للحركة الجسميّة والإشاريّة، ولم تكن بلاغية على قدر ما حمله العنوان (البلاغة القرآنيّة) فقد غاب فيها التّحليل البلاغيّ الذي هو ثمّرة علم البلاغة، رغم أنّ صاحبها قال: «هذا بحث في روضة من رياض القرآن الكريم يتناول جانبا جديدا من بلاغته، وهو الصّورة الحركيّة بالأعضاء الجسميّة التي يقصد من ورائها الدّلالة على معنى مستكن في باطن النّفس الإنسانيّة ». [14]

وبخصوص رسالة الماجيستر (لغة الجسد في القرآن الكـريم) لصـاحبها أسـامة جميل عبد الغني فقد أفادت أمحمّد صافي في الوقوف على بعض التّعـابير التـي فاتـه جمعها؛ أي حصر الآيات القرآنية التي تتضمّن تواصلا غير لساني، ويظهـر الفـرق بين العملين من خلال الإشكالات التي تبناها الباحثـان. وإذا كـان أسـامة جميـل يبحث في توظّيف القرآن للّغة الجسد فإنّ غاية صاحب مدوّنة البحث معرفة كيفيّة توظيف البيان القرآني في عرضـها وتوظيفهـا. فرسـالة أسـامة جميـل (تسـتعرض وتحلّل الأدلّة القرآنية التـي تثبـت أنّ القـرآن الكـريم تحـدث عـن هـذا الموضـوع وتناوله بشيء من التّأصيل والعمق. وهذا هو شأن القـرآن الكـريم النّبـع الصّـافي لكلّ العلوم)،[15] فهو يريد إثبات أهميّة القرآن في نشأة العلوم وتطوّرهـا، ولا شـكّ أنّ القرآن (مفجّر العلوم ومنبعها، ودائـرة شمسـها ومطلعهـا، أودع فيـه سـبحانه وتعالى علم كلّ شيء).[16]

وزخرت المكتبة القرآنيّة بدراسات أخرى ذات طابع لغويّ، على نحو البحـث الدّلاليّ الذي قدّمه عمر عتيق، والذي يرمي من خلالـه معرفـة شـبكة العلاقـات الدّلالية بين الحركـات الجسـميّة الظّـاهرة ومعناهـا اللغـويّ في القـرآن الكـريم. وحاول أنّ يؤصّل للتّوصل غير اللفظيّ مـن خـلال علاقـة لغـة الجسـد بـالعلوم المجاورة، باحثا عن التّكامل بين اللغة المنطوقة ولغة الجسـد، وهـي دراسـة مهمّـة تتناول الجانب الدّلالي وعلاقته بأعضاء جسم الإنسان. فالتّعبير الجسديّ في نظـره

(يختزل بعدا دلاليا ويضمر بعدًا نفسيا، وهما بعـدان يتجـاوزان الدّلالـة المعجميّـة السّطحية لألفاظ التّعبير الجسديّ).[17]

وفي نفس المجـال بحـث أحمّـد محمّـد داود في (**جسـد الإنسـان والتّعبـيرات اللغويّة**) ولم يقصد فيه البحث جمع شتات التّعبيرات اللغويّة المتعلّقـة بلغـة الجسـد وإنّما (النّظر في هذه التّعبيرات نظـرة كليّـة تكشـف عـن العلاقـات الدّلاليـة بـين التّعبيرات المأخوذة عن كلّ عضو أو جزء من أجزاء الجسد الإنسانيّ، وما طرأ على تلك التّعبيرات من تطوّرات دلاليّة في رحلتهـا عـبر الزّمـان، أو تراجعهـا ونـدرة استعمالها، وما أهدرناه من ثروة لغويّة فيّاضة في إطار تعبيرات جسد الإنسـان).[18] وقد أفاد أمحمّد صافي من هذا الكتاب في (الوقوف على المعانيّ التي استعملت فيها كثير من العبارات والتّراكيب في الشّعر العربيّ، والـدّلالات التـي تحملهـا، والتـي سعى الكاتب إلى توضيحها استنادا إلى المعاجم والمقاييس العربيّة).[19]

3 – **منهجه**: من خلال ما اطّلعنا عليـه مـن دراسـات في التّفسـير الموضـوعيّ وجدنا أنّ هناك دراسة قليلة تناولت الجانب المنهجي فيه؛ ويضطرنا الأمر في قراءة الأعمال البحثيّة معرفة منهج أصحابها في معالجة القضايا التي اشتغلوا عليها.

ويقصد بالمنهج (الطّريقة، أو الخطوات التي ينبغـي اتّباعهـا، أو التّقيّـد بهـا).[20] وليس منهج إعداد البحث كما يعتقد بعضهم.

وللتّفسير الموضوعيّ خطوّاته ومنهجـه التـي اتّفـق حولهـا المفسـّرون، ولـربما يختلف بعضهم في ترتيب تلك الخطوات، أو التّخليّ عن أحدها. والباحث القـرآنيّ

لا بدّ أن يكون مدركا لقواعد منهجه، وخطوات المنهج (مرحليّة متدرّجة متتابعة يلتزم بها الباحث خطوة خطوة، ولا يجوز أن ينتقل إلى خطّوة إلاّ بعد استكمال سابقتها ولا يجوز أن يقدم خطّوة تاليّة على خطّوة سابقة).[21]

ولقد كشف أمحمّد صافي منهجه في مدخل عمله، وقد سماه بخطوات إجرائيّة وهي أساس عمله ويمكن أن نضع تلك الخطوات وفق الشّكل الآتي:[22]

- جمع التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بأعضاء جسم الإنسان؛
- تصنيف تلك التّعابير وفق نظيرها، أيّ ممّا هي متعلقة بالرّأس، أو الوجه، أو العين الرّقبة، وهلمّ جرا؛
- تفسير تلك التّراكيب بلاغيا بالاعتماد على كتب الأصل في ذلك، وعلى رأسها، كتاب الكشّاف للزّمخشري؛
- التّأمل في المفردة القرآنيّة الخاصّة بالموضوع، وإيضاح جمال التّصوير فيها
- بيان سياق الآيات ومقامها.

4-1 موضوعه: إذا كان التّفسير الموضوعيّ ألوانه ثلاثة؛ تفسير للمصطلح القرآنيّ، وللموضوع القرآنيّ، وللسّورة القرآنيّة فإنّ عمل أمحمّد صافي يندرج ضمّن النّوع الثّاني فالموضوع عنده متعلّق بالكيفيّة التي عرض فيها البيان القرآنيّ الاتّصال غير اللفظيّ، اختاره المؤلّف من واقعه، فالمفسّر عليه أن (يأخذ الموضوع من الحياة ويتدبّر ما قاله فيه العقل البشريّ، ثمّ يخلص به عارضا له على القرآن

لغرض تقييمه قرآنيا)،[23] وهو العمل الذي قدّمه أمحمّد صافي للمكتبة القرآنيّة واللغويّة.

واختيار الموضوع يعدّ المرحلة الأولى من مراحل التّفسير الموضوعيّ والموضوع في عمل أمحمّد صافي واقعيّ، فقد اختاره من خارج النّص القرآنيّ، وهو ما ذهب إليه حسن حنفي في تأكيده على ضرورة اختيار الموضوع بحسب ما نحتاجه في الحياة المعاصرة؛ والتّواصل غير اللفظيّ من الموضوعات التي غزت الفكّر البشري الحديث بمنبهات غربية، فقد كان لهم فضل السّبق في محاورة هذا النّوع من التّواصل أكاديميا، وكان لزاما علينا العودة إلى أصولنا من أجل فهم هذا الموضوع.

ويعد تسجيل المفسّر لأهدافه بحثه من بين الخطوات المرحليّة التي تشترك فيها ألوان التّفسير الموضوعيّ، وهو ما انتبه إليه الدّكتور أمحمّد صافي، وعرضه في مدخل عمله، حاصرا إياه في بيان التّعابير اللغويّة القرآنيّة المتعلّقة بأعضاء جسم الإنسان، وتوضيح كيف تصرف البيان القرآنيّ في توظّيفها بوصفها تراكيب تندرج ضمّن علم الاتّصال غير اللفظيّ.

وبمّا أنّ الموضوع وحداثته شرطان في التّفسير الموضوعيّ، فإنّ أمحمّد صافي يدرك أهميّة موضوعه وحاجة الحياة المعاصرة إليه؛ فالتّواصل غير اللفظيّ في نظره علم فنيّ «تجتذب مباحثه الباحثين، وتلتفت مواضيعه أنظار المتأمّلين».[24]

كما أنّ الدّكتور أمحمّد صافي لم ينطلق في عمله من خلفيّة فكريّة أو عقائديّة ليثبّتها في القرآن الكريم أو أن يستشهد له من التّنزيل الحكيم، بل إنّ غايته حسب

فهمنا تتعلّق بأنّ في القرآن الكريم بعض الآيات وأنّه تمّ تفسيرها انطلاقا من مقولات نظريّة النّظم الجرجانيّة إلاّ أنّها لم تأخذ في عين الاعتبار ورود بعض الألفاظ المتعلّقة بجسم الإنسان، والتي انضوت حركاتها في العلم الحديث تحت التّواصل غير اللفظيّ. ومن هنا يتحتم علينا إعادة تحليل تلك التّراكيب وفق ما أنتجه المعطى اللسانيّ الحديث.

وقد تميّز موضوع المؤلّف بالأصالة، فهو إن كان قد اطّلع على بعض الأعمال التي سبقته فهو متفطّن أنّ علاقتها لا تتقاطع مع موضوعه بشكل تامّ، فالذين بحثوا في علم الاتّصال غير اللفظيّ، فهم إمّا أن يكونوا قد أرادوا البحث في علم الإعلام والاتّصال، أو بيان مصدريّة القرآن في نشأة العلوم الإنسانية، أو أنّهم بحثوا عن توظيف أعضاء جسم الإنسان في الشّعر والأدب ودراسة دلالتها، وهو ما كنّا قد أوضحناه في بحثنا بخصوص مصادر الموضوع عند أمحمّد صافي آنفا. أمّا بحث الدّكتور صافي فهو ينحو بنفسه اتّجاها آخر، يتعلق بتفسير التّراكيب القرآنيّة المتعلّقة بأعضاء جسم الإنسان على ضوء نظريّة النّظم.

وبيان أصالة الموضوع في هذا النّوع من التّفسير يعد شرطا ضروريًا لا ينبغي أن يحيد عنه المفسّر؛ لأنّ المفسّر مضطر إلى تغيّير موضوعه إن وجد من سبقه إلى ذلك وأن يتجه إلى البحث في موضوع آخر وهو ما يتفق عليه الدّراسون ونُقاد التّفسير الموضوعيّ.

4-2 جمع الآيات وترتيبها: وكثير من الدّراسين يـرون أنّ الآيـات في التّفسـير الموضوعيّ ينبغي أن تكون مرتبة تريبا بحسـب نزولهـا، وطريقـة البحـث في هـذا النّوع من التّفسير على رأي السّـماحي أن تتّبـع الآيـات في الموضـوع الواحـد عـلى حسب نزولها، وتدرس كلّ نجم على هذه الأسباب والدّواعي المحيطة به.[25] وهـو ما ذهب إليـه الـدّكتور أمحمّـد محمـود حجـازي في التّأكيـد عـلى جمـع الآيـات في الموضوع الواحد، وترتيبهـا حسـب النّـزول مـع الوقـوف عـلى أسـباب النّـزول ودراستها دراسة منهجيّة كاملة لتعطينا موضوعا واحدا.[26]

والملاحظ في تفسير أمحمّد صافي أنّه قسّم أبواب كتابه بحسـب تنـاول الآيـات الكريمات للموضوع فنجد أنّه خصّص بابا للرّأس، وآخر للوجه، وثالثـا للأيـدي والأرجل، ورابعا للقلب والصّدر، وهي أبواب مرتّبة ترتيبا منطقيـا، وإنّ لم يظهـر سببه المؤلّف، فالمتأمل أنّ ترتيبه لم يكن عشوائيا. حيث إنّ المادة العلميّة للموضـوع يراها مصطفى مسلم أن تكـون مقسّـمة عـلى أبـواب، و (يضـع تحـت كـلّ بـاب فصولا، وتحت كلّ فصل مباحث، فيجعل العنصر الأساسيّ الجامع عنوانا للبـاب ثمّ يجعل العنصر الفرعيّ عنوانا للفصـل، ثـمّ يجعـل الجزئيّـات الصّـغيرة عنـاوين للمباحث)،[27] بـل إنّ أمحمّـد صـافي جعـل أصـغر الجزئيّـات عنـاوين للمطالـب فالمبحث المتعلّق بالرّأس مثلا قسّمه إلى أجزاء، فهناك متعلّق بنكس الرّأس، وآخـر بليِّه، وثالث بإنغاصه، وهكذا...

وهو في ذلك لا ينظر إلى ترتيب الآيات في القرآن الكريم بحسب النّزول، وإنّما التّرتيب عنده مبنيّ على التّسلسل الطّبيعيّ والمنطقيّ للموضوع، وهو رأي يعزّزه الدّكتور مصطفى مسلم، ويرى المفسّر بأنّه مطالب بأنّ (يتّبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بتفسيرها، يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال الآيات الكريمة، فينسق بين عناصره).[28]

والموضوع يفرض عليك طبيعة التّرتيب؛ ولهذا فعلى المفسّر من وجهة نظر محمّد باقر الأبطحي أن (يجمع الآيات الباحثة عن الموضوع الخاصّ بحيث تكون الآيات مستوعبة لما يحتاجه الموضوع من المباحث والمطالب ومرتّبة بحسب ما يقتضيه التّسلسل الطّبيعي للموضوع).[29]

4-3 معرفة سبب النّزول: يعتبر معرفة سبب نزول الآيات وقصّتها طريقا لفهمها وبيانا لدلالاتها، ويرى السّيوطي أنّ بيان الأسباب له فوائد وتتجلى في:[30]

- معرفة وجه الحكّمة الباعثة على تشريع الحكم؛
- تخصّيص الحكم به عند من يرى أنّ العبرة بخصوص السّبب؛
- إذا عرف السّبب قصر تخصّيص اللفظ العامّ؛
- الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال، فلاّ يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصّتها وبيان نزولها.

وتتضح فائدة أسباب النّزول في التّفسير الموضوعيّ للقرآن في جانبين:[31]

- فهم تطوّر الأحكام الشّرعية في عصر الرّسالة، حيث إنّ فهم الظّروف التي عاصرت آيات تحريم الخمر يسهم في فهم تطوّر الموقف القرآنيّ من هذه القضيّة وطريقة تعامله معها؛

- الاستفادة منها في فهم حركة القرآن في الواقع وفعله فيه، إذ إنّ النّظرة الكليّة للموضوع المدروس قرآنيا يفهم من خلال علاقات الآيات ببعضها، وفهم الآية ينطلق من معرفة سبب نزولها.

إنّ معرفة ملابسات الآية القرآنيّة وسبب نزولها المنطلق في فهمها عند أمحمّد صافي، والقارئ لكتابه يدرك وعيّ الرّجل بذلك، فالملاحظ أنّه كان قبل أن يجري على الآية تحليله البلاغيّ يذهب إلى تحديد سياقها ومثلا في حديثه عن التّعبير بتنكس الرّأس الوارد في الآية الثّانية عشر من سورة السّجدة: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ يذكر سياقها فيقول: « جاء التّعبير بتنكّس الرّأس في سياق حديث القرآن الكريم عن صورة المجرمين وهم يعرضون على ربّهم ».[32]

4-4 اعتماد التّفسير التّحليليّ: يعدّ التّفسير التّحليليّ من أقدم المناهج، فهو يتّبع الآية الواحدة ولا يتجاوزها حتى يعرف معناها ويقف عند دلالة ألفاظها، فهو (البيان والتّوضيح بأسلوب ينتهجه الباحث لتجزئة نصّ قرآني إلى عناصره التي تدخل في تشكيله والتّعرف على أنواع ارتباطاتها مع بعض وإزالة أي إشكال أو

غموض يلفها، وصولا للغاية المبتغاة)،[33] ولتحقيق تلك الغاية يعمد المفسّـــر بهـذا الأسلوب إلى التّحليل في الآيـة (فيبـيّن سـبب نزولهـا، وبيـان غريبهـا، وإعـراب مشكلها، وبيان مجملها).[34]

والتّفسير التّحليلي الذي نهجه الدّكتور أمحمّد صافي اعتنـى بالجوانـب البلاغيّـة ولا نقرأ فيه قصصًا وأخبار التّأريخ، فهو يبحث في النَّص القـرآني دون غـيره مـن النّصوص، وينظر في المعانيّ زمن النّزول؛ ومن ثمّ فإنّ آليّة التّحليل فيه تعتمد عـلى (تفكيك الوحدة التّعبيرية وحلّ اشتباكاتها لرصد خصـائص الجزئيّـات وصـفاتها وسلوكها في إطار الوحدة الكليّة وموقعها من القواعد والبيان والأحكام).[35]

اعتمد أمحمّد صافي على مكتبة ثريّة، تحتوي على أصول كتب التّفسير، ممّا يمكنه من فهم الآيات وتحديد سياقاتها كما أسلفنا الشّرح في العنصر (جــ)، فقـد اعتمـد على كتاب (التّحرير والتّنوير لابن عاشور في تفسير العنديّـة ﴿عنـد ربّهـم﴾ في آيـة نكس الرّأس، وعلى (الفتح القدير) للشّوكاني في فهم معنى التعدّي بحرف الجر في القرآن الكريم، وعرف معنى حركة الإنغاض من مراجعة تفسير الطّـبري. وهلـمّ جرا من التّفاسير التي اعتمد عليها المؤلّف في معرفة مشكل الآيات وتحديد بيانها.

يقوم منهج التّفسير عند أمحمّد صافي على بيان مناسبة الآية أوّلا، ثمّ إنّـك تـراه يأخذ بالتّركيب اللغويّ المتعلّق بموضوع تفسيره (التّواصل غير اللفظي) فيشـــرح دلالـة ألفاظـه، ويقـف عنـد تركيبـه النّظمـي، ويبـيّن معـاني الأسـماء والأفعال

والمشّتقات المستعملة في ذلك التّركيب، فهو في ذلك يحلّل الآية إلى أجزاء، ويفسّر وضعها في هذا السّياق.

فهو في المطلب الأوّل من المبحث الأوّل الخاصّ بـــ (التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالرّأس، يقف أوّلا على الكلمة البؤّرة في الآية، التي تشير إلى موضوعه (التّواصل غير اللفظيّ)، وهي التّركيب (ناكسوا رؤوسهم) والذي يعتبره (جزء من صورة متكاملة يرسمها البيان القرآنيّ للمجرمين المنكرين للبعث يوم القيامة).[36]

ويمكنّنا تحديد الآليّات التي اعتمد عليها الدّكتور أمحمّد صافي في تفسيره الخاصّ بهذا المطلب، وفق الشّكل الآتي:

- تحديد دلالة مادة (النّكس)؛
- بيان صورة التّركيب وتوضيح جمالها؛
- دراسة الرّوابط والعلاقات بين كلمات التّركيب وعلاقته داخل الآية؛
- تحديد أطراف العمليّة التّواصلية؛
- بيان بلاغة التّركيب وسرّ استعماله.

5- **النّظم أساس التّفسير**: تعدّ نظريّة النّظم التي أرسى قواعدها الشّيخ عبد القاهر الجرجاني من أهمّ النّظريّات التي تثّبت حداثة التّفكير اللغويّ العربيّ؛ وقد ارتبطت آليّات النّظرية بالقرآن قديما، إذ دعا عبد القاهر إلى دراسة نظّمه (القرآن) فقال: « كان حرًي بأن توقظ له الهمّم، وتوكّل به النّفوس، وتحرّك به الأفكار وتستخدم فيه الخواطر».[37]

ويعتبر الزّمخشري من أفاضل العلماء المفسّرين الذين طبقوا مقولات النّظرية والمفسّر عنده لا يجني فائدة، (ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلاّ رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التّنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبّع مظانهما همّة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استضاح معجزة رسول الله ﷺ).[38]

ولا يعنينا في المقام الحديث عن علاقة المفسّرين بنظرية النّظم قديمًا وحديثًا وكيفيّات تطبيقها؛ فقد صنّفت في ذلك الموضوع مقالات وأطاريح، والذي يهمنا تطبيقاتها في تفسير الدّكتور أمحمّد صافي، وهو يحاول أن يستجلي الآيات التي تتضمّن تراكيب متعلّقة بأعضاء جسم الإنسان، وهي أعضاء أسندت لحركات وهيئات تثير استجابة تواصليّة، يفهم منها معنى معيّنا بحسب أهل هذا العلم الحديث.

ممّا لا شكّ فيه أنّ المفسّر الموضوعيّ يهدف عمله إلى بيان وكشف وجه الإعجاز في القرآن الكريم بتلك الطّريقة المخصوصة، ومن ثمّ فهو مدرك أنّ دليل إعجاز القرآن في نظمه؛ قال عبد القاهر: « إذا ثبت الآن أنّ لا شكّ ولا مريّة في أنّ ليس النّظم شيئا غير توخي معاني النّحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، ثبت من أنّ طالب دليل الإعجاز في نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النّحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يعلم أنّها معدنه ومعانه، وموضعه ومكانه، وأنّ لا مستنبط له سواها، وأنّ لا وجه لطلبه فيما عداها، غار نفسه بالكاذب من الطّمع ومسلم لها إلى الخداع ».[39]

لقد كان الدّكتور أمحمّد صافي حريصا في مقدّمة دراسته على تبيان علاقة عمله بالنّظم والبلاغة، بل إنّ عمله ينخرط ضمّن الدّراسات البلاغيّة القرآنيّة أيضا فدراسته يغلب عليها (البحث والتّحليل البلاغيّ للعبارات والتّراكيب اللغويّة المتعلّقة بأعضاء الجسم، والدّلالات والإيحاءات التي تضفيها على المضامين والمعاني التي يقدّمها النّص القرآنيّ للعالمين).[40]فهو كان يبحث في النّظم القرآني ولهذا اعتبر دراستَه (حلقة من حلقات تطبيق نظريّة النّظم الجرجانيّة، التي تعنى بدراسة معاني النّحو، ودلالات ترتيب الألفاظ والتّراكيب).[41]

لقد انطلق أمحمّد صافي من تصوّر مفاده أنّه (ثمّة إشكاليّة في تفسير هذه الآيات القرآنية، وفهم الأغراض التي تحملها تلك التّعابير بين طيّاتها)،[42] ويقصد بتعبيره (هذه الآيات القرآنيّة)ّ الآيات المتعلّقة بأعضاء الجسم، فهو يرى أنّ عمل المفسّرين لم يقف وقفة تأني عند خصوصيّة هذه الآيات، انطلاقا من طبيعة التّواصل غير اللفظيّ الملاحظ فيها. ومن ثمّ كان لزاما عليه أن يسدّ نقصا في تفسيرها.

وإذا ارتبطت مشكلة تلك الآيات بالمعنى فإنّ ما قاله عبد القاهر الجرجاني بخصوصه وعلاقته باللفظ وعلاقة المعنى النّظم، كفيل بتوضيح المشكلة وبيان أسرار التّراكيب فيها، ولهذا كان النّظم أساس التّفسير عند أمحمّد صافي.

ولقد بنيّت نظريّة النّظم على أعمدة، فقد عبّرت عنها المصطلحات الآتية كما تراها سناء حميد البياتي:[43]

- معاني النّحو؛

- التّعليق؛
- التّرتيب؛
- البناء؛
- الوجوه والفروق.

ينطلق أمحمّد صافي في تحليلاته لنظم القرآن من الكلمة، فيبحث في معانيها وهي خارج السّياق أولا ويستقرئ ما تقوله معاجم الألفاظ والدّلالات، تماشيا وقول عبد القاهر: « فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التّأليف، وقبل أن تصير إلى الصّورة التي بها يكون الكلم إخبارًا وأمرًا ونهيًا»،[44] أي قبل أن تأخذ شكلها البلاغيّ. فهو عند تدبره للتّركيب اللغويّ نكس الرّأس في الآية الثّانية عشرة من سورة السّجدة، يحدّد أوّلا دلالة النّكس في المعجم، والتي تدلّ على أنّ النّاكس هو المطأطئ رأسه من الذّل.

ثمّ يبحث بعد ذلك في العلاقات النّحوية بين الكلمات داخل التّركيب، باعتبار أنّ النّظم في حقيقة أمره (أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رسمت فلا تخلّ بشيء منه).[45] واعتبر التّركيب (إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم) جملة شرطيّة، ذُكر فعلها، وحُذف جوابها، والدّلالة في ذلك إثبات الهول والفزع.

و من جهة البناء التي تعتمد عليه نظريّة النّظم، والمقصود به من جهة نظر تمام حسان، فهو أنّ تجعل (للمباني بحسب المعاني النّحوية (الوظيفيّة) كأن تبني لمعنى الفاعليّة (مبنى) هو الاسم المرفوع في بعض المواطن، أو ضميرا متّصلا في موضع آخر، ومضيرا مستترا في موضع ثالث، فالبناء ... هو اختيار المباني الذي يقدّمها الصّرف للتّعبير عن المعاني النّحوية)،[46] وبناء على ذلك انتبه الدّكتور أمحمّد صافي إلى صيغة الكلمة ودورها الوظيفيّ في التّركيب، فهو يرى أنّ استخدام اسم الفاعل في الآية (ناكسو) له دلالة وسبب في الوضع، لاستمرار وثبوت هيئة المجرمين يوم القيامة (طأطأة الرّأس). وإنّك لتراه يحلّل بنيّة التّركيب ويجزئها ليبيّن سبب ورودها بهذا الشّكل، وغايته في الاستعمال، فهو مدرك أنّ الكلمة بنت السّياق على حد تعبير عبد القاهر الجرجاني؛ ولهذا ناقش أسئلة من قبل سبب استخدام الجمع، والتّعبير بالضّمير الغائب، وتوظيف الصّفة والإضافة، ومعنى البناء للمجهول، والتّعدي بحر الجرّ، وهلمّ جرا من الأشكال التي استخرجها من التّركيب السّابق، ووضع لها إجابات تحقق فهمنا للآية بشكل دقيق. ومثال استعمال الفعل المضعف للدّلالة على الشّدة والكثّرة، وأنّ البناء المجهول للدّلالة على العموم.

ومن ثمّ فهو يعلم أنّ تلك المعاني النّحوية لكلّ لفظة متعالقة فيما بينها، وقد فهم جيدا التّعليق النّحويّ الذي أراده عبد القاهر؛ لأنّه (لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلّق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك)[47]

ولهذا راح يستقرئ الآيات التي جمعها ويبحث في أسباب تعالق الألفاظ، وعلاقة ذلك بالمعنى؛ ومن ذلك استعمال الفعل (تعالوا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ يرى أنّ استدعاءه له معنى، إذ يقول: «واختير الفعل (تعالوا) في مخاطبتهم بدل (هلمّوا) أو (ائتوا) أو (أقبلوا)؛ لتحريك هممهم للارتفاع والتّعالي إلى مقام رسول الله ﷺ الرّفيع الجناب وإشارة إلى علوّ منزلة الشّرع الذي يدعون إلى الإيمان به».[48]

وأمّا استقراء الآيات من حيث التّرتيب، والذي يعتبره الجرجاني (التّرتيب) ركيزة أساسيّة بنى بها نظريّة النّظم فإنّ الإجراء في ذلك حسب تمام حسان يرتكز على الرّتبة، يقول فيما بيانه: «وأمّا التّرتيب فإنّه وضع العلامات المنطوقة أو المكتوبة في سياقها الاستعماليّ حسب رتب خاصّة تظهر من فوائد التّقديم والتّأخير».[49]

وبناءً على ذلك، تدبّر أمحمّد صافي الآيتين 42 و43 من سورة إبراهيم، ووقف عند تركيب (إقناع الرّؤوس)؛ ليبيّن أهميّة ترتيب الجوارح فيهما، إذ يقول: «ورد ذكر شخوص الأبصار أوّلا؛ لأنّ حركة البصر هي أوّل ما يعبّر عن حال صاحبه ثمّ ثنّى ببيان سرعة حركاتهم؛ فهم ملبّون مهطعون إلى الدّاعي، ثمّ ثلث بوصف إقناعهم لرؤوسهم من شدّة هول المشهد، وشدّة ذلّتهم فيه، ثمّ جاء توكيد العبارة الأولى (شخوص الأبصار) بعبارة: (لا يرتدّ إليهم طرفهم)؛ فهم من فرط فزعهم قد شخصت أبصارهم، وبقيت مفتوحة لا ترتّد إليهم ولا تطرف؛ فالجملة الأولى أثبتت لهم صفة الشّخوص، والثّانية نفت عنهم حركة ارتداد الطّرف إليهم

فالثّانية مؤكّدة للأولى من حيث المضمون، وتـمّ تـأخير وصـف أفئـدتهم بـالفراغ لكونها غير مرئية؛ فالفزع لا يتجلّى فيهـا كـما يـتجلى في حركـة الأبصـار، وحركـة الأجسام».[50] وفي نفس التّركيب لم تفته ملاحظات بلاغيّة من قبيـل تقـديم الجـار والمجـرور في قولـه تعـالى: ﴿تشـخص فيـه الأبصـار﴾ ويـرى أنّ (تقـديم الجـار والمجرور(فيه)، المفيـد للظّرفيّـة؛ للدّلالـة عـلى الاهـتمام بيـوم القيامـة، وإبـرازه للأذهان، وأفاد تأخير (الأبصار) تشويق المسّتمع أو القارئ إلى معرفة ما يشـخص في ذلك اليوم العسير).[51] والملاحظ في ذلك أنّ الدّكتور أمحمّد صـافي بنـى تفسـير على أهميّة التّقديم في الكلام؛ فقد قال عبد القاهر الجرجاني: « ... ثـمّ تنظـر فتجـد سبب أن راقك ولطف عنـدك، أن أقـدم فيـه شيء، وحـوّل لفـظ عـن مكـان إلى مكان».[52]

وأمّا بخصوص متابعة الفروق والوجوه في نظمّ الكلام فـإنّ الغايـة ليسـت في ذاتها، وإنّما في علاقتها بالأغراض والمعاني المعبِرة عنها، يقول عبد القاهر: « فـاعلم أنّ الوجوه والفروق كثيرة ليس لها غاية تقف عندها... ثمّ أعلـم أنّ ليسـت المزيّـة بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسـبب المعـاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثمّ بحسب موقع بعضها من بعض، واسـتعمال بعضها مع بعض».[53] ومن أمثلة ذلك في تفسير الدّكتور أمحمّـد صـافي إشـارته إلى ورود الكلام بالنّكرة، في قوله تعالى: ﴿ناصيّة كاذبة خاطئة﴾ يقول فيما بيانـه: « ثـمّ تكرّر ذكر النّاصية على البدليّة في قوله تعالى: ﴿ناصيّة كاذبة خاطئة﴾ وجـاز إبـدال

النّكرة من المعرفة؛ لأنّ النّكرة قد وصفت فاستقلت بالفائدة... »،[54] ولكنّه في ذلك لم يذكر سبب ارتباطها (النّكرة) بالغرض المعبّر عنه.

كما اهتمّ أمحمّد صافي في تفسيره ببيان جمال التّركيب من خلال التّوقف عند الصّورة البلاغيّة، وربطها بطبيعة التّركيب الذي جاءت فيه من حيث النّظم عملا بقول عبد القاهر: «أعلم أنّ سبيلك أوّلا أن تعلم أنّ ليست المزيّة التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدّعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلّم إليها بخبره، ولكنّها في طريق إثباته لها وتقريره إياها»،[55] وهو في ذلك يقصد بالأجناس التّشبيه وضروب المجاز. ويمكن أنّ نستجلي ذلك في تعليقاته (أمحمّد صافي) على الكنايات المتعلّقة بالرّأس الواردة في الآيات.

لعل أهمّ ما يمكن قوله إنّ الدّكتور أمحمّد صافي لم يبق تناوله للآيات المتعلّقة بأعضاء الجسم؛ بل إن حاول أن يكشف ما تتّفق عليه تلك الآيات المصنّفة ومعرفة المعنى المعبر أنّه. وإذا كان نموذج بحثنا متعلّق بالتّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالرّأس، فإنّه يرى بخصوصها (أنّ ثمّة حركات وهيئات متعلّقة بالرّأس، وظّفها البيان القرآني في التّعبير عن دلالات ومشاعر وانفعالات نفسيّة بشريّة، خصوصا ما يتعلّق بذكر حال المنافقين والكافرين في الدّنيا، ووصف حال المجرمين في الآخرة).[56]

6-خاتمة: إنّ التّفسير الموضوعيّ أثبت فعاليّته في فهم النّص القرآني؛ فهو يساعد على محاورة موضوعات الحياة واستخلاص نتائج مثّمرة بخصوصها واسقاطها على القرآن يعني تحقيق الفهم فيها ومعرفة ضوابطها.

لقد تميّز عمل الدّكتور أمحمّد صافي بالتّنظيم واستعمال منهج التّفسير الموضوعيّ، كما استطاع أن يخرج بنتائج مرضيّة بخصوص التّواصل غير اللفظيّ وأنّ مقاربة التّراكيب اللغويّة الدّالة في الآيات على أعضاء الجسم وفق نظريّة النّظم اختيار ذكيّ؛ لأنّ مقولات تلك النّظريّة متعلّقة في مضانها بالتّواصل وإنجاحه وكيفيّات التّعبير عن الأغراض والمعاني.

ومن ثمّ فإنّ عمله هو إضافة نوعيّة للمكتبة القرآنية؛ ودعوة جديدة لتبني هذا المنهج في دراسات موضوعات الحياة المعاصرة.

7ـ هوامش:

[1]– عائشة عبد الرّحمن: التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر، ط7، (د.ت)، ج1 ص13.

[2] – محمّد حسن الذّهبي: التّفسير والمفسرون، دار الأرقم، بيروت، (د.ت)، ج1، ص 102.

[3]– أمين الخولي: مناهج تجديد في النّحو والبلاغة والتّفسير والأدب، دار المعرفة، مصر، ط1، 1961 ص 306.

[4]– محمّد محمّد حجازي: الوحدة الموضوعيّة في القرآن، دار الكتب الحديث، القاهرة، 1970 ص25.

[5]– أحمد الكومي، ومحمّد القاسم: التّفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم، دار الهدى للطّباعة والنّشر القاهرة، ط1، 1980، ص16–17.

[6]– أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم، ط1، 2020، ص9.

[7]– المصدر نفسه، ص 10

[8] – نفسه، ص 11

[9]– أمحمّد صافي المستغانمي: المصدر السّابق، ص13–14.

[10]– أحمد الكومي، ومحمّد القاسم: المرجع السّابق، ص 16.

[11]– بني يونس محمّد محمود: سيكولوجيا الواقعية والانفعالات، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007 ص، 304.

[12]– محمّد أمين موسى أحمد: الاتّصال غير اللفظيّ في القرآن الكريم، دار الثّقافة والإعلام، الشّارقة ط1، 2003، ص10.

[13] – أمحمّد صافي المستغانمي: المصدر السّابق، ص 17.

[14]– محمّد سليمان هنداوي: البلاغة القرآنيّة في التّصوير بالإشارة والحركة الجسميّة، مطبعة الامانة ط1، 1995، ص3.

[15]– أسامة جميل عبد الغني: لغة الجسد في القرآن الكريم، رسالة ماجيستر، إشراف عودة عبد الله جامعة النّجاح، 2010، ص ي.

[16]– عبد الرّحمن السّيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار ابن حزم، بيروت، 2015، ص 7.

[17]– عمر عتيق: لغة الجسد في القرآن الكريم، المجلة الأردنيّة في الدّراسات الإسلاميّة، المجلّد9 العدد1، ص 82.

[18]– محمّد محمّد داود: جسد الإنسان والتّعبيرات اللغويّة، دار غريب، القاهرة، ط1، 2006، ص3.

[19]– أمحمّد صافي المستغانمي: المصدر السّابق، ص19.

[20]– عبد السّتار السّعيد: المدخل إلى التّفسير الموضوعيّ، ص 56.

[21]– نفسه، ص 58.

[22]– أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، ص 15 و16.

[23]– مصطفى مسلم: مباحث في التّفسير الموضوعيّ، دار القلم، دمشق، ط3، 2000، ص 25.

[24]– أمحمد صافي المستغانمي: المصدر السّابق، ص9.

[25]– محمّد محمّد السّماحي: مذكرات في التّفسير الموضوعيّ، ص 39.

[26]– محمّد محمّد حجازي: الوحدة الموضوعيّة في القرآن الكريم، ص 25.

[27]– مصطفى مسلم: المرجع السّابق، ص 37.

[28]– محمّد مسلم: المرجع السّابق: ص 25.

[29]– محمّد باقر الأبطحي: المدخل إلى التّفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم، مطبعة الآداب، العراق 1969، ص5.

[30]– السّيوطي: الإتّقان في علوم القرآن، ص 58.

[31]– سامر عبد الرّحمن رشواني: منهج التّفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم (دراسة نقديّة)، دار الملتقى سوريّة، ط1، 2009 ص107.

[32]– أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، ص25.

[33]– محمّد صالح عطيّة الحمدانيّ: منهج التّفسير التّحليلي للنّص القرآني، مركز البحوث والدّراسات الإسلاميّة، 2008، ص 14.

[34]– مساعد بن سليمان الطّيار: فصول في أصول التّفسير، دار النّشر الدّولي، الرّياض، ط1، 1993 ص 32.

[35]– فخر الدّين قباوة: التّحليل النّحوي أصوله وأدواته، ص15.

[36]– أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، ص25.

[37]– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق أبو محمود شاكر، دار المدّة، بجدة، ط3، 1992 ص 80.

[38]– الزّمخشريّ جار الله: الكشّاف.

[39]– عبد القاهر الجرجانيّ: المصدر السّابق، ص 404.

[40]– أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، ص 10.

[41]– نفسه، ص 10.

[42]– نفسه، ص 11.

[43]- سناء حميد البياتي: قواعد النّحو العربيّ في ضوء نظريّة النّظم، دار وائل، عمان، ط1، 2003 ص13-14.

[44]– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 44.

[45]– نفسه، ص 81.

[46]– تمام حسان: اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثّقافة، المغرب، 1994، ص 187.

[47]– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 86.

[48]– أمحمّد صافي: بلاغة النّظم، ص 30.

[49]– تمام حسان: المرجع السّابق، ص188.

[50]– أمحمّد صافي المستغانمي: المصدر السّابق، ص35-36.

[51]– نفسه، ص 36.

[52]– عبد القاهر: السّابق، ص 106.

[53]– نفسه، ص 87.

[54]– أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، ص 50.

[55]– عبد القاهر الجرجاني: السّابق، ص 71.

[56]– أمحمّد صافي المستغانمي: المرجع السّابق، ص25.

الموازنة بين قوّة الإقناع وبلاغة الإمتاع في فنّ مخاطبة الجمهور

(قراءة في كتاب: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)

د. سماحية خضار
ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم

تمهيد: إنّ المنزلة التي بلغها فنّ الخطابة عند العرب قديما وحديثا دفع النّقاد والدّارسين إلى الإبداع في تقدّيماتهم لمفهوم الخطابة الذي استمدّ مرجعيّته أساسا من القصد والوسيلة في فنّ التّحدّث إلى الجماهير بإقناع وإمتاع على السّواء، حيث إنّ الخطبة بوصفها فنّا هادفا للإفصاح والإبانة، لا تعتمد فقط اللغة قويّة، والأسلوب المتين المقنع، قصد استنهاض الهمم وبثّ الحماسة في نفوس الجماهير متّكئة على القرينة العقليّة والحجّة الشّرعيّة الدّامغة فحسب، بل لا بدّ للخطيب أن يتّصف بمقوّمات خاصّة وأن يتشبع بالزّاد الذي يؤّهله إلى مرتبة الخطيب النّاجح.

ولقد ساهم العلّامة أمحمّد صافي المستغانمي في بسط رؤاه حول فنّ الخطابة وشروط نجاحها، وحول الصّفات التي يرتقي بها الخطيب إلى مصاف الخطباء المفوهين الذين يشار إليهم بالبنان في ميدان الخطابة الفسيح، والذين تتفتح أكمام الفصاحة والإقناع في حضرتهم.

وسنحاول من خلال ورقتنا البحثيّة أن نأتي بقراءة لفصول ومباحث كتابه الموسوم: (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) قصد كشف الإضافة التي حمّلها الرّجل مُؤلَّفه حول فنّ الخطابة في الأدب العربيّ.

1- عن كتاب: الخطيب النّاجح (بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع): صدر الكتاب في طبعته الأولى عن دار بن كثير بفرعيها بيروت/ لبنان ودمشق/ سورية سنة 1438 للهجرة الموافقة لسنة 2017 للميلاد، وقد جاء في ثلاثمائة وثمانيّة وستين [368] صفحة، من القطع المتوسّط، مقسّم منهجيا –بعد المقدّمة والمدخل– إلى فصلين اثنين، فصل نظريّ، وآخر تطبيقيّ، ونصّ في آخره يلخّص ما حواه ويشرح فكرته الرّئيسة التي انبنت عليها فصوله ومباحثه والأسئلة التي استفزّت كاتبه، كالآتي:

(الخطابةُ فنُّ التّحدُّث إلى الجماهير بإقناعٍ وإمتاع. ولهذا الفنّ من القول منزلةٌ ساميّةٌ ومكانةٌ عاليةٌ عند العرب قديما وحديثا، وعند كافّة شعوب العالم. ولهذا الفنّ من القَول أيضا أصولٌ وأساليبُ ومهاراتٌ يصلُ مَنْ أتقنها إلى ذُروة التّفنّن والإبداع في مخاطبة الجماهير، واستهوائهم، وتحريك عواطفهم وإقناعهم بما يريد من أفكار بأساليب حجاجيّة قويّة، ومهارات لغويّة جاذبة وملكةٍ لفظيّة غزيرة مثراءة).

فما هي الخطابة، وما مقوِّمات الخطيب النَّاجح، وما المهاراتُ التي ينبغي له أن يَمْهَرَ فيها، وما الزَّاد الذي عليه أن يتشبَّعَ به ويرتوي منه، وما العوامل المساعدة على نجاح الخطبة في العصر الحديث؟ هذه الأسئلةُ وغيرُها تجيبُ عنها صفحات هذا

الكتاب، ولسوف يَجِدُ فيها الخطيبُ المبتدئُ ما يُعينُهُ على اقتحام عقبة البدايات الصّعبة، وتتفتّحُ أكمامُ الفصاحة بين جنبيه، ولسوفُ يجدُ فيها الخطيبُ المتمرّسُ أيضًا ما يُبصِّرُه، ويرتقي به إلى مصافّ الخطباء المجيدين المصاقعة الذين يُشارُ إليهم بالبنان في ميدان الخطابة الفسيح الممتع المؤثّر الجذّاب، والله الهادي إلى سواء السّبيل).[1]

2- **فصل الكتاب الأوّل: مقوّمات الفنّ الخطابيّ:** شغل الفصل الأوّل من الكتاب مائة وخمسة وستين صفحة (165) صفحة (من الصّفحة السّابعة العشر (17)، إلى الصّفحة المائة والثّانية والثّمانين (182)، بنسبة تفوق الثّلث بقليل وقد قسّمه الكاتب إلى إحدى عشرة مبحثا، تحوي بدورها مطالب كثيرة، تصب كلّها في بسط مفصل لكلّ شاردة وواردة تخصّ فنّ الخطابة ومقتضياته، وشروطه وعوامل نجاحه قديما وحديثا، وكذا أتى بكلّ ما على الخطيب اتّباعه قصد التّمكن منه أحسن التّمكّن، والقبض على أسباب نجاح خطبته في أدقّ تفاصيلها وأصغر أجزائها من دون أن يقصّر قيد أنملة، أو أن يترك للقارئ أدنى تساؤل لم يجب عنه متدثّرا بما حمله معين اللغة العربيّة الأوّل والأصيل من دُرر: كتاب الله وسنة نبيّه الكريم ﷺ. وها نحن نجتهد في تلخّيص ما جاء فيه، متبعين المسار الذي ارتضاه له كاتبنا دون أن نحيد أو نبتدع.

خصّ العلّامة أمحمّد صافي المستغانمي المباحث الأربعة الأولى لفنّ الخطبة وكلّ ما تعلّق بها، فيما اختار أن يبسط لشروط الخطيب ومواصفاته موسّعا فيها في المباحث: الخامس والسّادس والسّابع، على أن يجيء في المبحث الثّامن بهدي

النّبي ﷺفي خطبه، ليترك عيوب الخطبة وطرق معالجتها في المبحث التّاسع، وأنواع الخطباء في العاشر، خاتما مباحث الفصل بوصايا ونصائح عامّة للخطباء، إذ جاءت عناوين المطالب غزيرة متفرّقة غير متداخلة شملت جميع ما يخصّ هذا الفنّ الذي لطالما بلغ منزلة عظمى لدى العرب وفنّونهم الأدبيّة.

وقد ارتأى علامتنا ترتيب مباحث الفصل الأوّل من كتابه كالآتي:

المبحث الأول: فنّ الخطابة: حيث عرّفها مبتدءً بأنّها: (فنّ محاورة الجماهير وإقناعهم واستمالتهم. وهي مشتّقة من مادّة (خ.ط.ب) ولها في العربيّة معان)[2] ليسترسل بعدها في المعنى اللغوي والاصطلاحي للمصطلح بمختلف اشتقاقاته متّكئا على معناه في القرآن الكريم، وكذا على أمّات المعاجم من مثل: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، وكتب التّفاسير للزّمخشري والفرّاء.

ولم ينس إسهامات (علماء البيان والنّقد الأدبيّ) الذين عرّفوا الخطابة تعريفات متقاربة تدور كلّها حول العناصر الآتية:

- **العنصر الأوّل**: مخاطبة الجماهير؛
- **العنصر الثّاني**: الإلقاء والمشافهة؛
- **العنصر الثّالث**: الإقناع والاستمالة.[3]

ثمّ حرص على أن يتعرض لتاريخ الخطابة، وعلى العوامل المساعدة لنشأة هذا الفنّ عند العرب، والتي أجملها في: موهبة البيان العربي، الحميّة الجاهليّة، حرّية الرّأي، الأميّة العربيّة، مكانة الخطيب الجاهليّ وصفاته.

ليترك القول في آخر المبحث لـ فنّ الخطابة، ومكانتها في بيئة الإسلام.

المبحث الثاني: أنواع الخطب: أكّد المستغانمي في هذا المبحث على أنّ (الخطب تتنوّع حسب تنوّع موضوعاتها ومضامينها، فمنها الخطب السّياسية والوعظيّة والقضائيّة، والمحفليّة، كخطب التّأبين، والتّكريم، والزّواج، والإصلاح وغيرها)[4] ثمّ أتى بحديث موجز عن كلّ نوع تبصرة وذكرى.

المبحث الثالث: كيفيّة إعداد الخطبة: رأى صاحب الكتاب أنّ لابدّ للخطبة من مقدّمة، عرض وخاتمة، وقبل إلقاء الخطبة على جمهور السّامعين يمرّ الخطيب في إعدادها بمراحل هي:

- **المرحلة الأولى**: اختيار الموضوع؛
- **المرحلة الثّانية**: تركيب العناصر وتنسيقها؛
- **المرحلة الثّالثة**: اختيار الشّواهد والأدلّة؛
- **المرحلة الرّابعة**: الصّياغة الخطابيّة النّهائيّة[5].

المبحث الرّابع: الأسلوب الخطابيّ: فرّق المستغانمي الخطبة عن بقيّة الفنّون الأدبيّة بأنّ لها (سمات وخصائص تتميّز بها، ولكلّ بنيان أركان وأسّس يقوم عليها وركن الخطابة الرّكين، وأسّها المتين من حيث الأسلوب هو الإفهام والإبانة والتّوضيح).[6]

ثمّ أجمل –شارحا وممثّلا– خصائص الأسلوب الخطابيّ فيما يلي:

1- وضوح الألفاظ والعبارات.

2- التزام الجمل القصيرة.

3- تنوّيع الأساليب.

4- تخيّر الألفاظ وانتقاؤها.

5- الإيجاز وحذف فضول الكلام.

6- حسن استعمال المترادفات.

7- مراعاة مقتضى الحال.

8- حسن سوْق الشّواهد.

9- التّوشيح بالحكم والأمثال وروائع الأشعار.

10- التّناسب التّوافقي بين طبائع الألفاظ والموضوعات الخطابيّة.

ليُفصّل في المطلب الثّاني من المبحث في الاستشهاد وأنواع الشّواهد من خلال تبيين أهميّة الشّاهد، شروطه، أنواعه من القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف والأقوال المأثورة للصّحابة وعلماء السّلف، ثمّ الاستشهاد بالقصّة كآخر مصدر.

المبحث الخامس: مواصفات الخطيب النـاجح: أكّـد العلامـة أنّ (الخطيـب المصقّع النّاجح يمتاز بسمات، ويتميّز بخصائص تؤهّلـه لاعـتلاء المنـابر، وخـوض غمار فنّ الخطابة).[7]

وقد ارتأى أن يقسّـم مبحثـه إلى مطلبـين اثنـين حسـب مـا اقتضـته مواصـفات الخطيب النّاجح التي آثر أن تكون: صفات متعلّقة بذات الخطيب، وصفات متعلّقـة بمظهره؛ فما تعلّق بذاته هو:

- الاستعداد الفطريّ؛
- طلاقة اللسان؛
- رباطة الجأش؛
- القدرة على مراعاة مقتضى الحال؛
- الجرأة والشّجاعة والثّقة بالنّفس؛
- صلاح الخطيب، ومنها: سداد رأيه ونفاذ بصيرته، حسن الخلـق، الإخـلاص طلب رضا الله ﷻ؛
- الفراسة والقدرة على الاستنباط؛
- الحماسة وتأجّج العاطفة؛
- قوّة الملاحظة؛

- حسن الإلقاء، وفيها: جودة النّطق، مجانبة اللحن، التمهّل في الإلقاء الحركات والإشارات؛ حيث أنّ أسرار الإلقاء الجيّد عنده ثلاثة: أسلوب العرض وإحساس الجمهور بالتّواصل المباشر، والبشريّة في الخطاب.

فسرعة البديهة، وصدق اللهجة، والتّلطّف في الحديث والتّودّد للسّامعين، اليقين العميق والاقتناع الشّخصي، الطّاقة الاحتياطيّة، والتّدريب العمليّ. لينهي هاهنا ما تعلّق بصفات الخطيب الذّاتية.

أمّا الصّفات المتعلّقة بمظهر الخطيب فقد أجملها في:

وقار لبسه وجمال مظهره، وقفة الخطيب حال أداء الخطبة، حسن إشارة الخطيب واتّزان حركاته.

المبحث السادس: عوامل نجاح الخطبة: يرى صاحب الكتاب أنّ (هناك عوامل كثيرة تساعد على نجاح الخطبة، يَحسُنُ بالخطيب النّاجح أن يراعيها أثناء إعداده لخطبه وإلقائه لها"[8] حصرها فيما يأتي:

- تجنّب خوض الخطيب فيما لا يعلم؛
- مخاطبة النّاس بما يعرفون؛
- مراعاة مقتضى الحال؛
- التّنويع في الأساليب الخطابيّة، ومنها: الاستدراج، وسَوق القصّة، توظيف طرائق الاستمالة وأساليب الإثارة، والمشاركة الوجدانيّة؛
- مهابة الخطيب ونفوذه الاجتماعيّ؛

- القدرة على شّد الانتباه.

لينهي المطلب والمبحث بأربع نصائح ضروريّة للخطيب النّاجح هي: البدء بالرّغبة القويّة، معرفة ما الذي ستتحدّث عنه، التّصرف بثقة، التّدرّب ثمّ التّدرّب ثمّ التّدرّب.

المبحث السّابع: مصادر ثقافة الخطيب النّاجح: الخطيب في نظر المستغانمي (مكلّف بمهمّة الأنبياء، وهي رسالة شاقّة ومسؤوليّة جليلة، تنوء بحملها الجبال الرّاسيّات، تحتّم عليه أن يتدرّع بعدد من العلوم النّقليّة والعقليّة والاجتماعيّة والنّفسيّة، ويتحصّن بها تجنّبا للوقوع في مهاوي الجهل. فهو مطالب أن يكون صائب الفكر، سديد الرّأي، فصيح اللسان، جيّد البيان، ذكي الفؤاد مطلّعا على كثير من علوم عصره وثقافات المجتمعات المعاصرة ولغات أهلها، وكيف يكون ذلك إذا كانت ثقافته محدودة، ومخزونه العلميّ ضحلا؟

والخطيب أوّلا وقبل كلّ شيء داعية، يدعو إلى دين الله، ولا بدّ أن يكون على بصيرة من أمره: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(يوسف 108).

والخطيب الذي يدعو إلى دين الإسلام، عليه أن يكون أوّل الدّاعين إلى المتضرّعين بقوله تعالى: :﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾(طه 114)، وأوّل الممثّلين لقوله تعالى:﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق 1)، وأوّل المنتفعين والفائزين بالمنزلة السّامية

التي كتبها الله تعالى لأهـل العلـم في قولـه: :﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمـر 9) ؛ لذا كان لزاما عليه أن يسعى جاهدا لبناء نفسه، وتقويّـة جانبـه، وتحصـين ذاتـه بكثير من العلوم والفنّون، ومن أهمّها وأبرزها:

- القرآن الكريم؛
- السّيرة النّبويّة؛
- السّيرة العطرة؛
- علوم اللغة العربيّة بأنواعها.[9]

المبحث الثامن: هديه ﷺ في خطبه: أرسل الله تبارك وتعالى إلينـا محمّـدا ﷺ قدوة لنا في أقواله وأفعاله، حيث كان ﷺ قرآنا يمشـي على الأرض، والمسـلم الملتـزم حقّا هو الذي يقتفي آثاره، ويحتذي حذوه شبرا بشبر وذراعا بذراع. وقديما قـال أبـو بكر الصّديق لعمـر بـن الخطـاب رضي الله عـنهم أجمعـين خـلال مُنصـَـرفهم مـن الحديبية: (الزم غِرزَه، أي اقتف أثره. واسـلك سـبيله، فـإنّ النّجـاح في هـذه الـدّنيا والفوز يوم القيامة مضمون لمن تمسّك بسنّته واهتدى بهديه).[10]

وقد جمع علامتنا بتؤدة وإتقان ودقّة جميع صفاته عليه ﷺ وهديـه في خطبـه حتّـى يقتدي بها الخطيب النّاجح الطّالب للتّميّز والفردانيّة في خطبه حسب الأتي:

- كان ﷺ يخطب قائما؛

- وكان ﷺ يخطب على المنبر؛
- وكان ﷺ يُقبِل على النّاس ويُسلّم عليهم؛
- وكان ﷺ يجلس على المنبر قبل أن يخطب؛
- وكان ﷺ يتوكّأ على عصا أو قوس؛
- وكان ﷺ يجلس بين الخطبتين؛
- وكان ﷺ يفتتح خطبه بحمد الله والثّناء عليه بما هو أهله؛
- وكانت مضامين ﷺ (على حمد الله، والثّناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنّة والنّار والمعاد، والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه، ومواقع رضاه، فعلى هذا كان مدار خطبه)؛[11]
- وكان ﷺ يُقصر الخطبة ويطيل الصّلاة؛
- وكان من هديه ﷺ قراءة شيء من القرآن على المنبر؛
- وكان من هديه ﷺ أن يتشهّد في خطبه؛
- وكان ﷺ يقطع الخطبة لحاجة، ويشير بأصبعه المسبِّحة إذا دعا؛
- وفي إلقائه كان ﷺ يتأنّى في حديثه، (وإذا أشار، أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجّب قلّبها، وإذا تحدّث اتّصل بها، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح)؛[12]
- وكان هديه ﷺ في القراءة في صلاة الجمعة والعيدين أن يقرأ بـ ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى﴾ و﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وفي هذا أقوال أخرى.

المبحث التاسع: عيوب الخطبة وطرق معالجة بعض أدواتها: (للخطبة عيوب كثيرة يقع فيها الكثير من الخطباء، وتكون سببا في انصراف الجماهير عنهم وبالتّالي لا تأتي الخطابة أكلها، وبدل أن ينقاد النّاس إلى الفضائل والأحكام الشّرعية والأخلاق الحميدة التي يدعوهم إليها الخطيب؛ تكون النّتيجة على العكس من ذلك انصرافا وإعراضا ونفورا).[13]

وأشهر هذه العيوب وأكثرها ذيوعا حسب أمحمّد صافي المستغانمي:

- اللّحن في اللغة؛
- عيوب النّطق والصّوت؛
- الإطالة في الخطبة؛
- سوء الإلقاء؛
- شيوع وذيوع العاميّات؛
- سوء الاستشهاد وسوء الاستنباط؛
- السّجع المتكلّف والزّخرفة اللفظيّة المصطنعة؛
- عدم حفظ النّصوص؛
- تقليد الخطباء المشهورين؛
- العنف في معالجة أخطاء المصلّين؛
- خلوّ الخطبة من القرآن والسّنة؛
- الاستشهاد بالقصص الخرافيّة والأساطير الخياليّة؛

- التّركيز على جانب واحد من الموضوع.

وفي الأدواء التي يعاني منها الخطباء أتى صاحب الكتاب في المطلب الثّاني من المبحث بـ: (داء العصبيّة والتّوتّر، النّسيان الذي أعطى طرقا لمعالجته جمعها في: الانطباع، والتّكرار، وترابط الأفكار، وتسجيل (كتابة) ما يُتوقّع نسيانه).

المبحث العاشر: أنواع الخطباء: يرى المستغانمي أنّ (الخطابة درجات بعضها فوق بعض، والخطباء يتفاوتون ويتفاضلون في مقدرتهم الخطابيّة، فهناك **الخطيب القارئ** الذي يتقيّد حرفيّا بالخطبة المكتوبة، وهناك **الخطيب الحافظ** الذي يحفظ الخطبة بتفاصيلها ويقوم بسردها على جمهوره، وهناك **الخطيب المرتجل** الذي يصدر عن بحر من العلوم والفنون وقاموس ثريّ من الألفاظ والعبارات الجزلة، ومخزون واسع من الشّواهد القرآنيّة والحديثيّة والشّعريّة، يتصرّف فيها كما يشاء، ويتفنّن في صوغ خطبته ونسج عباراتها كما يملي عليه ضميره وعقله وبيانه والموقف الذي يعيشه).[14]

المبحث الحادي عشر: وصايا ونصائح عامّة للخطباء: استهلّ العلّامة أحمّد صافي المستغانمي مبحث كتابه هذا بمطلب أوّل جاء فيه بوصيّة حكيم الهند للخطباء التي تضمنّها كتاب الصّناعتين لأبي هلال العسكري وقد حرص على شرح كلّ أجزائها بالتّفصيل؛ إذ إنّ جماع القول فيها (أنّ مدار فنّ الخطابة على الإفهام والإيضاح والبيان والتّبيين. والخطيب المفوّه هو الذي يمهُر في صناعة الكلام، ويخاطب كلّ قوم بقدر طاقتهم، ويعطي لكلّ مقام مقالا).[15]

ثم ّيخصّص المطلب الثّاني من المبحث للوصايا الفنيّة التي لا يستغني عنها خطيب، وقد أجملها في:

- الرّاحة النّفسيّة؛
- البسمة الحانيّة؛
- جمع الجمهور؛
- الوقوف حيث الجميع يرى؛
- الاتّزان؛
- عدم تكلّف الفكاهة في افتتاح الخطاب؛
- عدم البدء بالاعتذار؛
- إيثار الفضول؛
- وضع اليدّ على الدّاء؛
- الحرص على الخاتمة القويّمدة.

3- **فصل الكتاب الثّاني: من روائع الخطب في عصور العربيّة الزّاهرة:** جاء الفصل الثّاني من الكتاب في مائة وسبعة وخمسين صفحة (157) من الصّفحة المائة والخمسة والثّمانين (185) إلى الصّفحة الثّلاثمائة والاثنين والأربعين (342)؛ إذ آثر علامتنا هاهنا أن يحشد أكبر عدّد من الخطب التي عرفتها عصور اللغة العربيّة الزّاهرة، حيث حرص على جمعها وتصّنيفها وترتّيبها متدرّجا حسب الحقب الزّمنيّة التي جاءت فيها من دون أن يشرح أو أن يعلّق عليها؛ إذ ظهر جليّا حسن انتقائه إلى

الخطباء الذين كانت خطبهم فواصل هامّة في تاريخ الأمّم والشّعوب فخلّدتها الأيّام والكتب ومازالت تتداولها الأقلام والألسن إلى أيامنا.

وأمّا الخطب التي جُمعت في الكتاب حسب عصورها فهي في ستّة مباحث كالآتي:

- خطب جاهليّة غرّاء؛
- من روائع خطب العصر الإسلاميّ والرّاشديّ؛
- من خطب العصر الأمويّ؛
- من خطب العصر العباسيّ؛
- خطب أندلسيّة؛
- خطب من العصر الحديث.

4- **خاتمة:** سعى البحث حثيثا أن يقرأ جميع التّفاصيل التي حواها كتاب العلّامة أمحمّد صافي المستغانمي الذي وسمه بـ (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)؛ وذلك لما أتى به من إضافة نوعيّة في فنّ الخطابة؛ هذا الفنّ الذي لطالما بلغ منزلة عظمى بين الفنون الأدبيّة لدى العرب، فاستفزّ -ومازال- أقلام الدّارسين وقرائح المفكّرين.

وقد خلصت قراءة الكتاب إلى النّتائج التّالية:

- تطرّق صاحب الكتاب إلى كلّ شاردة وواردة فيما خصّ ويخصّ فنّ الخطابة في اللغة العربيّة ممّا خوّل له أن يكون مرجعا معاصرا مهما لكلّ مهتمّ بهذا المجال؛

- اللغة السّلسة الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض تفتح شهيّة القارئ والباحث لمواصلة القراءة دون انقطاع والاستزادة من معيّن الأفكار الغزيرة التي حواها الكتاب بخلاف الكتب التي تتعرّض للفنون القديمة كفنّ الخطابة؛

- الاهتمام بتشكيل الكلمات في الكتاب -على صعوبة الأمّ- شكّل إضافة غير مسبوقة أعطت للقارئ زيادة في متعة القراءة وساعدته على تجنّب اللحن، وزوّدت رصيده اللغويّ الصّحيح؛

- حرص الكاتب على الإلمام بكلّ النّصائح التي يحتاجها الخطيب من عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع مهما صغُرت أم اعتُقد قلّة شأنها، أغنت القارئ والمهتمّ عن قراءة كتب أخرى تطرّقت لفنّ الخطابة؛ فقد كان الكتاب جامعا مفصّلا مرتِّبا إلى أبعد الحدود.

5ـ الإحالات:

القرآن الكريم (روايّة حفص عن عاصم).

[1]- أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامـل الإقنـاع ووسـائل الإمتـاع، دار بـن كثـير بيروت –لبنان ودمشق- سورية، الطّبعة الأولى، 2017م/ 1438هـ، صفحة الغلاف الأخيرة.

[2]- المرجع نفسه، ص 17.

[3]- المرجع نفسه، ص 19.

[4]- المرجع نفسه، ص 31.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص 41.

[6]- المرجع نفسه، ص 55.

[7]- المرجع نفسه، ص 69.

[8]- المرجع نفسه، ص 93.

[9]- المرجع نفسه، ص 105 – 106.

[10]- ينظر: المرجع نفسه، ص 139.

[11]- ابن القيّم، زاد المعاد، الجزء الأول، ص 188.

[12]- ابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى، الجزء الثّاني، ص 119.

[13]- أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتـاع، المرجـع السّـابق ص 149.

[14]- المرجع نفسه، ص 169.

[15]- المرجع نفسه، ص 174.

بلاغة نظم التّراكيب اللغويّة من منظور أمحمّد صافي المستغانمي

د. شهرزاد غول / د. كريمة زيتوني
ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم

الملخص: تعتبر نظريّة النّظم من بين أهمّ النّظريّات اللغويّة الّتي اشتغل عليها مختلف الدّارسين القدماء، وسار على نحوهم العديد من الباحثين المحدّثين، من بينهم أمحمّد صافي المستغانمي الجزائري، وكان ذلك في دراسته الضّخمة، الموسومة بـ(بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) التي جاءت في كتاب بلغ حجمه ستمائة صفحة (600 ص).

ومن هنا جاء بحثنا محاولة في الوقوف على هذه النّظريّة على أنّها من أهمّ النّظريّات الّتي عنيت بدراسة أهمّ خاصيّة لغويّة؛ المتمثّلة في التّراكيب هذا من جهة ومن جهة أخرى احتفاء بأحد أهمّ الدّارسين العرب الجزائريّين، الذي كان له الفضل في جعل مدوّنته مرجعا أساسيّا يثري نظريّة النّظم، على غرار مؤلّفاته ودراساته وجهوده المتواصلة في خدمة لغة القرآن العظيمين، وهو: أمحمّد صافي المستغانمي.

تمهيد: استطاع العديد من الكتّاب الجزائريّين الالتحاق بالرّكب الفكريّ العالميّ عامّة والمشرقيّ العربيّ خاصّة والمغربيّ تحديدا، حيث ظهر إبّان النّهضة

العلميّة جملـة مـن المبـدعين في ميـدان الأدب واللغـة والنّقـد، والـذين أسـهموا في التّأسيس للدّراسات العلميّة الجزائريّة إلى يومنا هذا، داخـل الـوطن وخارجـه، بـما جادت به أناملهم في الكتابة عن مختلف القضايا والظّواهر اللّغويّة والأدبيّـة، تنظـيرا وتطبيقا، من بينهم: أمحمّد صافي المستغانمي، الذي قدّم الكثير من الأبحاث خاصّـة في القرآن الكريم، لعلّ أهمّها بلاغة النّظم في لغة الجسم في القـرآن الكـريم وهـو مـا تمحور حوله موضـوع المداخلـة المصـاغ في العنـوان الآتي: (بلاغـة نظـم التّراكيـب اللّغوية من منظور أمحمّد صافي المستغانمي)، وهي فكرة تندرج خلفها التّسـاؤلات الآتية: من هو أمحمّد بن صافي المستغانمي؟ وما هي أهمّ مؤلّفاته؟ ثـمّ كيـف تنـاول بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم؟ وإلام وصل من خلال دراسته هذه؟

هذه التّساؤلات سنحاول معالجتها من خـلال التّطـرّق إلى العنـاصر الآتيـة إلى: التّعريف بالدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، ثمّ نظريّة الـنّظم ومفاهيمهـا ثـمّ تقـديم لكتاب بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم لـ صافي، ليليـه بعـدها ... إدرج العنوان التّطبيقي الخاصّ بك، متّبعين بذلك منهجـا لغويّـا متراوحـا بـين الوصـف والتّحليل والاستنباط والاستقراء وحتّى المقابلة في بعـض الأحيـان وفـق مـا تمليـه طبيعة الموضوع.

1– **تعريف أمحمّد بن صافي المستغانمي:** أمحمّد بن صـافي المسـتغانمي هـو أحـد أهمّ الأقطاب العلميّة الجزائريّـة المعـاصرة ولـد بمسـتغانم في 07 أكتـوبر 1965م واصل تعليمه الجامعيّ ونبـغ فيـه بحصـوله عـلى شـهادة اللّيسـانس ثـمّ الماجسـتير

فالدّكتوراه تخصّص اللغة والأدب العربيّ، إلّا أنّه لم يقـف عنـد الدّراسـات اللّغويّـة بل انفتحت جهوده على مختلف الأبحاث والدّراسات والمهام.

تقلّد العديد من المناصب العلميّة بين ما هو تعليميّ وتربويّ وإداريّ، لعلّ أهمّهـا أستاذ لمادة اللغة العربيّة، كـما عمـل إلى إنجـاز الكثـير مـن الدّراسـات والكتـب في مجالات مختلفة: اللّغة العربيّة، التّفسير، الإعجاز البيانيّ في القرآن الكريم، على غـرار أعماله الإبداعيّة، خاصّة الأوبرا الشّعرية في مدح سيّد الخلق محمّد ﷺ، بقصيدته (يـا صاحب الحوض العميم تحيّة) والتي حاز بها على جائزة البردة في مـدح النّبـيّ عليـه أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم.

كما له الكثير من الحصص والمحاضرات التّلفزيونيّة، منها: (كذلك يضــرب الله الأمثال) في قناة المجد العلميّة، وأيضا (البيان القـرآني) ومعـدّ ومقـدّم لبرنـامج (في رِحاب سورة في قناة الشّارقة الفضائية) الّتي يقيم بها حاليا.

ومختلف أعماله منشورة في مختلـف المواقـع الإلكترونيّـة، وصـفحات التّواصـل الاجتماعيّ وشاشة اليوتيـوب، وبالتّـالي هـي متاحـة لأيّ باحـث للاطّـلاع عليهـا والاستفادة منها، ومازال بحثه ونشاطه العلميّ متواصلا إلى يومنا هذا، أطـال الله في عمره، وزاده علما على علم، ونفعنا بعلمه.

وقد كان من بين أهمّ كتبه التي أثارت فضول البحث لدينا: كتاب (بلاغة الـنّظم في لغة الجسم في القرآن) وارتأينا قبل وقوفنا عليه (الكتاب) التّطرّق إلى أهـمّ ركيـزة

قامت عليها الدّراسة، وهي النّظم على أنّه نظريّة نقديّة سنوضّحها أكثر في العنصر الموالي.

2- **نظريّة النّظم:** لعلّ من أهمّ المقابلات اللغويّة لمصطلح النّظم هي: الضّمّ التّأليف، الاتّساق الائتلاف، والتّرتيب... وهي مترادفات من شأنها مدّنا بالمفهوم الاصطلاحي بعدما أصبح النّظم قضيّة نقديّة وصلت إليها عصارة التّفكير النّقديّ العربيّ القديم على لسان صاحبها الذي عرف بها وهو عبد القاهر الجرجانيّ (ت:471هـ) خاصّة في كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، الذي كان من دواعي تأليفه كما يذكر قائلا: (ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرّمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتّنبيه على مكان الخبيء ليطلب وكما يفتح لك الطّريق إلى المطلوب لتسلكه وتوضع لك القاعدة لتبنّي عليها ووجدت المعوّل على أنّ هاهنا نظما وترتيبا، وتأليفا وتركيبا، وصياغة وتصويرا ونسجا وتحبيرا).[1]

هذا وقد كان بعض النّقاد قبل عبد القاهر الجرجانيّ قد وقفوا على مفهوم النّظم بمعنى التّأليف وانتقاء الألفاظ، منهم: الجاحظ (ت:255هـ)، وابن قتيبة (ت:276هـ)، الرّماني (ت:386هـ)، وكان ذلك في سيّاق حديثهم عن نظم القرآن الكريم، دون الخوض في أدقّ معاني النّظم ومفاهيمه، لأنّ (القرآن جاء بنظم لم تكن العرب تألّفه؛ حيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر النّاس. هو ديوان العرب

قبل الشّعر، فقد خاطب العرب لما لم يوقفهم عليه، وما لا يدركون بفطرتهم اللّغويّة بوجه التّصرّف فيه، وليس ذلك ممّا يستقيم به أمر، ولا هو عند العرب من معاني الإعجاز في شيء؛ لأنّ الوضع يعجز أهله، وهم كانوا أهل لغة).[2]

وقد عرف العرب القدماء قبل مجيء الإسلام بالبلاغة والفصاحة والبيان حتّى في لغة تواصلهم اليوميّة، إلّا أنّ القرآن الكريم قد أعجزهم بنظم وبكلّ ما فيه فربط بعض الدّارسين ذلك النّظم بسلامة الألفاظ من الاستكراه والتّعقيد، ومنهم من أرجع قضية النّظم إلى دقّة صناعة المعانيّ، أمّا الفريق الثّالث فجعل قوّة نظم القرآن الكريم في الجمع بين ألفاظه ومعانيه على حدّ سواء، وربطها بقضايا أخرى وهي تركيب تلك الألفاظ وتنظيمها وترتيبها ترتيبا نحويّا، ورائد ذلك الفريق هو عبد القاهر الجرجانيّ الذي تكلّمنا عنه سابقا.

في حين أنّ النّظم هو (رصانة البيان واستحكام التّأليف باعتباره لجام الألفاظ وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضها ببعض، فتقوم له صورة في النّفس يتشكّل بها البيان)[3] وهو أيضا: وضع كلّ لفظ في موضعه اللائق به، بحيث لو أبدل مكانه غيره، ترتّب عليه إمّا تبدّل المعنى أو ذهاب رونقه وسقوط البلاغة معه، وفي ذات الوقت هو رعاية قوانين اللغة.[4]

والنّظم هو نظريّة نقديّة قائمة بذاتها، أرسى معالمها النّاقد والمفكّر الإسلاميّ عبد القاهر الجرجانيّ، حاول فيها الوقوف على أهمّ القضايا النّقديّة التي جاءت مشتّتة في كتابات سابقيه، فتكلّم فيها عن اللّفظ والمعنى والصّور البيّانيّة في الإعجاز القرآنيّ.

وهكذا يغدو مقياس النّقد عند عبد القاهر قائما على نظم الكلام؛ لأنّه يقيم الرّوابط بين الأشياء، تلك الرّوابط التّركيبيّة النّحويّة، وهذا ما أشار إليه محمّد مندور قائلا: "وأعلم أنّه ليس النّظم إلاّ أنّ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت"[5].

فالمعاني في النّظم كما يقرّر الجرجانيّ ليست في اللفظة ذاتها، ولا في جرسها الموسيقي ولا لدلالتها ميزة أفضل عن الأخرى، (ليس بين أيّة لفظة وأخرى في حال انفراد كلّ منهما عن أختها من تفاضل، لا يحكم على اللّفظة بأيّ حكم قبل دخولها في سياق معيّن ... وهذا السّياق هو الذي يحدث تناسق الدّلالة ويبرز فيه المعنى على وجه يقتضيه العقل ويرتضيه، ولهذا كانت المعاني لا الألفاظ هي المقصودة في إحداث النّظم والتّأليف)[6]؛ أي أنّ النّظم (تعليق الكلمة بعضها على بعض، وجعل بعضها بسبب من بعض).[7] فتعدّى بذلك أبعادا أخرى في جنس الكلام، (والمتعلّق في مسندات الجملة كإسناد الجار والمجرور، أو الظّرف إلى كلمة سابقة أو لاحقة، وبذلك يحسن السّكوت عليه، فقولك رأيت حلما في المنام، نجد (في المنام) يتعلّق بالفعل رأيت وإلّا لما أفاد)[8] ويجعل الجرجانيّ وجوه التّعلّق ثلاثة: تعلّق اسم باسم، تعلّق اسم بفعل، تعلّق حرف بهما، على مستوى الجملة مهما كان نوعها إسميّة أم فعليّة كانت، وأوجه التّعلّق الثّلاثة تكمن في:

- تعلّق اسم باسم: كأن يكون خبر ا، حالا، تابعا، صفة، توكيد، عطف بيان بدلا، ويدخل هذا في باب الإسناد في الجملة؛

- تعلّق اسم بفعل: فاعل، مفعول بأنواعه، الاسم المنتصب على الاستثناء، ولم يتحدّث عن نائب الفاعل الذي ربّما عدّه في باب المفعول به، ويدخل هذا النّوع في باب الإسناد في الجملة الفعليّة.

- تعلّق الحرف بهما، ويكون على ثلاثة أضرب:

- أن يتوسّط بين الفعل والاسم مثل: مررت بزيد؛
- تعلّق الحرف بما يتعلّق به العطف مثل: جاءني ومحمّد؛
- تعلّق بمجموع الجملة كتعلّق حرف النّفي، والاستفهام والشّرط والجزاء بما يدخل عليه: ما خرج زيد/ لا رجل في الدّار/ إن يأتي زيد أكرمه.

ويؤكّد الجرجاني أنّ (نظم الكلام يقتفي آثار المعاني وترتبها حسب ترتّب المعاني في النّفس، وليس النّظم عنده في مجمل الأمر إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها مداره على معاني النّحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنّها أن تكون فيه، وليس هو إلّا توخي معاني الكلم)[9]. فلا معنى للنّظم عند عبد القاهر الجرجانيّ غير توخّي معاني النّحو وأحكامه فيما بين الكلم، وبهذا فإنّ عبد القاهر الجرجانيّ لا ينظر إلى الكلمة مفردة بل في تركيبها في متتالية لغويّة مفيدة مع ما قبلها وما بعدها من ألفاظ. ولعلّ ما انماز به الجرجانيّ عن سابقيه وحتّى معاصريه هو تأسيس نظريّته النّقديّة في النّظم على الجمع بين مختلف القضايا الجزئيّة في كتابات البعض، والتي جمعها

وأدرجها ضمن أسّس نظريّته، كجمعه بين اللفظ والمعنى على أنّهما وجهان لعملة نقديّة واحدة.

كما ربط الجرجانيّ النّظم بالصّور البيّانية، إذ نلفيه يؤكّد أنّها من أهمّ مقتضيّات النّظم، إذ يقول: (هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتّمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النّظم، وعنها يحدث وبها يكون)[10] فدور النّظم والتّركيب النّحوي في الصّور البيّانيّة عند الجرجانيّ ليس متوقّفا على الدّلالة الحقيقيّة في المعنى الأوّل المباشر، وليس في المقصود ممّا يعطيه التّعبير اللّغوي فيها من دلالات ظاهريّة، وإنّما الغرض منها كامن فيما وراء ذلك المعنى الظّاهر، وما يتبع من معاني ثانية تذهب بعيدا بخيال المتلقّي وإعمال عقله.

وبطريقة حاذقة يجمع الجرجانيّ بين أهمّ علوم اللغة العربيّة (ففي النّظم تنطمس الحدود بين النّحو والبلاغة وبين اللغة والشّعر، وتتفاعل عناصر التّأسيس لتنشئ نسيجا من العلاقات هو النّص)[11] وهي إشارة إلى أنّ نظريّة النّظم الجرجانيّة مصطبغة بصبغة حداثية لقت صداها في الكثير من الدّراسات حول النّص وسرّ تماسك أجزائه.

3 - تقديم كتاب بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم لمحمّد صافي:

كتاب (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) لـ أمحمّد صافي المستغانمي هو دراسة ضخمة تقارب 600 صفحة، حديثة الصّدور عن جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن

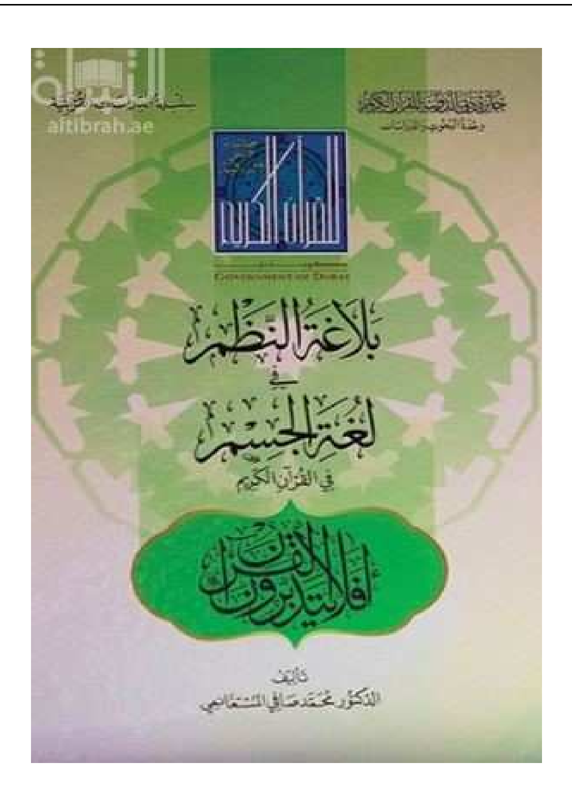
الكريم (وحدة البحوث والدّراسات) بدولة الإمارات العربيّة المتّحدة، في طبعته الأولى عام 2020م، ضمن سلسلة الدّراسات القرآنيّة.

ويبدو لنا جليّا عند تصفّحنا للكتاب أنّه كان قبل صدوره في شكل كتاب أكاديميّ كان مخطوط أطروحة دكتوراه في اللغة العربيّة، تخصّص بلاغة، بالجامعة العالميّة الإسلاميّة، ماليزيا. كما أنّه يشار في آخر هذه الكتاب إلى ملخّص مفاده أنّه دراسة تحليليّة لما ورد ذكره في القرآن الكريم من التّعابير والتّراكيب اللغويّة المتعلّقة بأعضاء جسم الإنسان، وجهد لفهم الدّلالات البلاغيّة الخاصّة بأعضاء جسم الإنسان، والتي جاء التّعبير بها في مواضع كثيرة من الذّكر الحكيم.

وهو محاولة لتذوّق جماليّات هذه التّراكيب المجازيّة والإضافات التي أوقفت القارئ والباحث بأسلوبها الغير مباشر، وبحثا لتصرّف البيان القرآني في عرضها وتوظيفها وتحليلها بلاغيّا.

جاء الكتاب مبوّبا إلى أربعة أبواب، وكلّ باب إلى فصول تراوحت بين ثلاثة أو أربعة فصول، وكلّ فصل إلى مباحث، وكلّ مبحث إلى مطالب مختومة بخاتمة تليها مجموعة من الفهارس حول الآيات الكريمة، والأبيّات الشّعريّة والأعلام والمصطلحات البلاغيّة، بصفة الموسوعيّة لما تحمله الدّراسة من توسّع ملحوظ في الموضوع وكلّما يتعلّق به.

واجهة كتاب بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم.



4. **الدّراسة التّطبيقيّة:** تُعدّ لغة الجسم وسيلة لنقل المشاعر والأفكار عبر إشارات وإيماءات وحركات مختلفة لأعضاء الجسم. وقد وظّف القرآن الكريم آيات عديدة تشير إلى هذه اللغة لتوجيه البشر وتنويرهم وتقريب المعنى من خلال التّصوير الفنّي للقصص القرآنيّ وتصوير مشاهد حياة الآخرة من حشر وحساب وجزاء وعقاب باستخدام لغة الجسم في الصّور البيانيّة لتجسيد معنى أو صفة أو عبرة...

1.4. **دراسة تحليليّة للفصل الأوّل:** انتقينا كنموذج للدّراسة الفصل الأوّل لإبراز ميزة البحث وجديّته وإظهار خصائصه.

ناقش الدّكتور أحمّد صافي في الفصل الأوّل (**بلاغة التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالرّأس والنّاصية**) في مبحثين:

4.1.أ. دراسة المبحث الأوّل (التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالرّأس): حاولنا جمع ما تطرّق إليه الدّكتور من حركات وهيئات متعلّقة بالرّأس في جدول صنّفناه حسب الدّراسة التّحليليّة البلاغيّة لتيسير المعالجة وضمّ أكبر عدد من أوراق البحث حتّى يتسنّى للقارئ الاطلاع على أغلبها في وقت وجيز دون كلل أو ملل.

- **جدول الدّراسة**[12]:

الصّفة	الآية الدّالة	المعنى المقصود	الموقع النّحوي	الصّورة البلاغيّة
نكس الرّأس.	﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ [12] السّجدة.	المقصود قلب الشّيء والنّاكس هو المطأطئ رأسه من ذلّ.	جاءت ناكس خبر وجملة المبتدأ والخبر (المجرمون ناكسوا رؤوسهم) في محلّ جرّ إضافة إذ.	كناية عن الذّل والمهانة.
ليّ الرأس.	﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون﴾ [05] الأنبياء.	ليّ الرؤوس: إمالتها إلى جانب غير وجه المتكلّم إعراضا عن كلامه.	(لووا رؤوسهم) جملة جواب شرط.	كناية عن معنى الإعراض والنّفور والاستهزاء.
إنغاض الرّأس.	﴿أو خلقا ممّا يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أوّل مرّة فسينغضون	أنغض رأسه: أي حركه إلى فوق إلى أسفل والإنغاض هو	(فسينغضون) واقعة في جواب شرط مقدّر في محلّ جزم والتّقدير إن قلت لهم	كناية.

	إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾، الاسراء [51].	تحريك الرّأس نحو الغير كالمتعجّب منه.	ذلك فسينغضون إليك رؤوسهم.	
إقناع الرّؤوس شخوص البصر ارتداد الطّرف خلو الفؤاد.	﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ [42 و43] إبراهيم.	مقنعي الرّؤوس أي ناصبين رؤوسهم يمدونها إلى أعلى، لا يقدرون على الالتفات حيث تجمدت العروق في رقابهم.	مهطعين مقنعي رؤوسهم حالان من المضاف المحذوف التّقدير أصحاب الأبصار.	كناية عن هول ما شاهده الكفار.
صبّ الحميم من فوق الرّؤوس.	﴿هذان خصمان اختصموا في ربّهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم﴾ [19] الحجّ.	يصب يرون العذاب ويذوقونه وتفيد صيغة المضارع (يصبّ) عدم انقطاع العذاب عنهم والحميم المغلي، يصب من فوق رؤوسهم دون انقطاع.	(يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم) إمّا استئنافيّة أو خبر ثان للموصول (فالذين كفروا قطعت) أو حال من ضمير لهم أي الذين كفروا قطعت لهم ثيابهم.	وجود مقابلة ترسمها الألفاظ لأهل النّار عند مقارنتها بالصّورة الجميلة التي ترسمها لأهل الجنّة.

اشتعال الرّأس شيبا.	﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرّأس شيبا ولم أكن بدعائك ربّ شقيّا﴾ [4] مريم.	اشتعل: اشتعلت النّار توقدت، التهبت اندلعت.	شيبا: تمييز.	استعارة تصريحيّة.
الأخذ بالرّأس.	﴿ولما رجع موسى إلى عضبان آسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ [150] الأعراف.	الأخذ بالرّأس في هذه العبارة... بالشّدّة والقوّة في التّناول.	وردت رأس اسم مجرور.	كناية عن شدّة الغضب.

يضمّ الجدول مجموعة الأوصاف التي ذكرها صافي في كتابه حيث بدأ بالرّأس الذي يزودنا بمعارف ومعلومات عديدة كالخوف والذّل والسّخرية وكبر السّن ... وغيرها. وقد صور القرآن الكريم بعض هذه المشاهد التي أجملناها في الجدول أعلاه والمستقى من كتابه مصدر الدّراسة.

تحدّث عن حركة الرّأس المنكوسة التي توحي بأكبر مظاهر الذّل والنّـدم والغـمّ خاصّة عند العرض للحساب. ونلمس السّخرية عندما خاطب الله تعالى نبيّه بحـال الكفرة حين يبلغهم أنّه قادر على إعادتهم إذا كانوا حجـارة أو حديـدا (فسينغضـون إليك رؤوسهم) بمعنى تحريك الرّأس برفعه وخفضه اسـتنكارا واسـتهزاء حتـى لا يقابلون رسول الله ﷺبالحجّة. كما تحدّث عن إقنـاع الـرّأس الـذي نقصـد بـه رفعـه ملتصقا بالعنق وقد يكمل هذا الأخير مشهد الخوف أو الذّهول مـع إيـماء العـين أو شخوص الأبصار، إذ يوجد ترابط للحركات التّعبيريّة الجسـميّة في المشـهد الواحـد فتظهر الصّورة البلاغيّة للتّوظيف القرآني لتعابير أعضـاء الجسـم بواسـطة تراكيـب لغويّة مترابطة، متسلسلة تقرب الصّورة الحقيقيّة للأذهان كما حلّلها الدّكتور أمحمّـد صافي المستغانمي. تصـف الآيتـان يـوم القيامـة المفـزع الـذي يتوعّـد فيـه الظّـالمين لمحاسبتهم، ووردت عبارة (يؤخّرهم) للتّأكيد على أنّهم المعنيّون بالعـذاب وأردفهـا بجملة من الأوصاف والتّعابير لـبعض أعضـاء الجسـم، بـدأ بـأهمّ عضـو البصـر ووصفه بالشّاخصة حيث تبقى مفتوحـة سـاكنة لا تطـرف. تلاهـا مبـاشرة بصـفة الإسراع إلى الدّاعي الذي يدعوهم (مهطعين) ينظرون إليه في صـمت وذهـول وفي ذلّة واستكانة، (مقنعي الرّؤوس) بمعنـى ناصـبين الـرّؤوس، يمـدونها إلى أعـلى لا يستطيعون الالتفات، وزيادة على تأكيد المعنى الـدّال عـلى شـخوص الأبصـار، (لا يرتدّ إليهم طرفهم) أي تظلّ أعينهم مفتوحة لا تطـرف ليختمهـا بقولـه (وأفئـدتهم هواء) أي أنّ قلوبهم فارغة غير مستقرّة في مكانها. ويعلّـل صـافي المسـتغانمي ورود

تعابير أعضاء الجسم مرتّبة على هذا الشّكل المنطقيّ حيث بـدأ بـأهمّ عنصـــر مرئـيّ نستدلّ به على حالة الانسان (الأبصار) تلتها مباشرة وصـف حركـة الظّـالمين وهـم مهطعون وقد أقنعوا رؤوسهم من شدّة الفزع والذّل، وعاد إلى تأكيد العبـارة الأولى (شخوص الأبصار) بقوله (لا يرتدّ إليهم طـرفهم) وكانـت الجملـة الثّانيـة مؤكّـدة للأولى كما أدلينا سابقا، وتمّ تأخير وصف أفئدتهم بالفراغ لكونها غير مرئيّة وكلّ مـا يحدث بداخلها ينعكس على الأعضاء الظّاهريّة[13]. وتـتجلّى بلاغـة الـنّظم في اقتفـاء المعاني وتتابعها على حسب ترتيب المعانيّ في النّفس.

ودلّت الآية 04 من ﴿سورة مريم﴾ على كبر السّــن بـذكر اشـتعال الـرّأس شـيبا وأخبرتنا بتقدّم سنّ زكريا، وأصبحت فرصة إنجابه للولـد نـادرة ولبلاغـة التّراكيـب اللغوية التي وظّفها القرآن الكريم دور في إظهار الصّورة، فقد شـبّه الشّـيب في بياضـه وإنارته بشواظ النّار، وانتشاره في الشّعر باشتعالها وأسـند الاشـتعال إلى الـرّأس وهـو مكان الشّيب (استعارة تصريحيّة) حيث استعار لصورة الشّـيب في الـرّأس. وإذا كـان الشّيب ينتشر عند كبر السّن عادة إلاّ أنّه قد يظهر أحيانا في غير وقتـه لأسـباب مختلفـة كما ورد في قوله تعالى (فكيف تتّقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا) المزمل (18).

قد تكون حركة الرّأس معبّرة عـن الحالـة النّفسـية التـي تعـتري صـاحبها وقـد تقتصـر على الجزاء والانتقام مستشهدين بما حدث في قصّة موسى وهـارون علـيهما السّلام (الأعراف 150).

1.4.ب. دراسة المبحث الثّاني (التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالنّاصية):(14)

وصف النّاصية	الآية الدّالة	المعنى المعجميّ	الإعراب	الصّورة البيانيّة
السّفع بالنّاصية.	﴿كلا لئن لم ينته لنسفعنا بالنّاصية﴾ [15] العلق.	للسّفع بالنّاصية معنيان الأوّل: الجذب والأخذ والقبض أي لنأخذن بها ولنصهرنها الثّاني: لنسودن وجهه.	لنسفعا: لام جواب القسم. نسفعا: فعل مضارع مبني على الفتح لاتّصاله بنون التّوكيد الخفيفة. والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن. بالنّاصية: جار ومجرور.	كناية عن أخذ المجرم إلى العذاب.
ناصيّة كاذبة خاطئة.	﴿ناصيّة كاذبة خاطئة﴾ [16] العلق.	النّاصية الشّعر الذي يكون في مقدّمة الرّأس أو ما انسدل على الجبهة من شعر الرّأس.	ناصيّة عند أهل البصرة بدل من النّاصية قبلها لأنّها موصوفة، كاذبة خاطئة نعتان لناصية.	مجاز عقلي للنّاصية لأنّها كاذبة خاطئة.
الأخذ بالنّاصية.	﴿إنّي توكّلت على الله ربي وربّكم ما من دابّة إلّا هو آخذ بناصيتها﴾ [56] هود.	الأخذ: هو الإمساك والتّناول للشّيء عن طريق الغلبة والقهر.	هو: مبتدأ، آخذ: خبر، وبناصيّتها: جار ومجرور متعلّقان بآخذ، والجملة؛ (ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها) في محلّ صفة لاسم الجلالة.	

وردت كلمة النّاصية في عدّة آيات من القرآن الكريم، فبالإضافة إلى الآيات المذكورة في الجدول أعلاه، توجد الآية 41 من سورة الرّحمن (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنّواصي والأقدام)، وتعدّ النّاصية مركز اتّخاذ القرارات، وقد ورد هذا في الآية 16 من سورة العلق، فالنّاصية هي المسؤولة عن الكذب وارتكاب الخطأ بوصفه لها بناصية كاذبة خاطئة، وهي في الحقيقة وصف لصاحبها. وقد وصف التّعبير القرآنيّ النّاصية بالخاطئة وليس المخطئة وهذا دليل آخر على دقّة التّعابير القرآنية، حيث خصّص الله ﷻ الخاطئة للمتعمد والمخطئ لمن وقع في الخطأ دون قصد أو تعمد،[15] والأخذ هو أخذ عقاب وإهانة وإذلال، ولعلّ تخصيص النّواصي والأقدام لأنّهم كانوا يعبسون عندما ينظرون إلى المسلمين ويتعمّدون إيذاءهم، ويراد بالتّعبير تصوير لحظات الإهانة والإذلال حينما يسوق الملائكة الكفّار إلى جهنّم[16].

الخاتمة: تؤدّي لغة الجسم دورا فعّالا في إظهار البلاغة القرآنيّة من تشبيهات واستعارات وكنايات... حيث كانت الإيماءات والحركات والهيئات مجسّدة في تلك الصّور البيانيّة، لتعكس معان بليغة استخدمها القرآن الكريم لمعالجة موضوعات عديدة ومتنوّعة.

وتضفي لغة الجسم على الاتّصال اللفظيّ نشاطا وحيويّة، وهذا ما بيّنه وبرهن عليه الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في كتابه الموسوم بـ: (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم).

وبالرّغم من وجود دراسات سابقة، ذكرها الباحث في مقدّمة مؤلّفه، وأخرى لم يشر إليها كبحث خيري زهير رشدي الجنيدي الموسوم بـ: (لغة الجسم في القرآن الكريم) سنة 2002م، إلاّ أنّ بحثه تفرد بجمع التّراكيب اللغويّة الخاصّة بجسم الإنسان الوارد ذكرها في القرآن الكريم بطريقة تحليليّة بلاغيّة، أضف إلى ذلك بناء عنوان دقيق يجمع بين طياته أغلب البحوث والدّراسات السّابقة، مصحّحا ومصوّبا مصطلح (لغة الجسد) الذي اعتاد على استعماله أغلب الباحثين في غير محلّه واستبداله باللفظ الدّقيق الذي يتماشى مع البيان القرآنيّ والمتمثّل في (لغة الجسم) مستدلا بكتاب الله.

ولم يقف عند حدود هذا المصطلح، بل حدّد فروق ودقائق العديد من الكلمات المتقاربة كالفرق بين العين والبصر والطّرف، والفرق بين العنق والرّقبة والجيّد وبين القلب والفؤاد...

ونختم قولنا بأنّ كتاب (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) كتاب قـيّم متميّز، تضمن علم الاتّصال غير اللفظيّ، وسلّط الضّوء على فنّ وعلم لغـة الجسـم الذي يستخدمه الإنسان في سائر مجالات الحياة. ويمكن الاستفادة منه في مجال علـم النّفس.

الهوامش:

[1] – عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمّد شاكر، دار المدني، جدّة، ط: 03 1992م/ 1413ه، ص 34.

[2] – صالح بلعيد، مناسبة وكلمة، ج: 3، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر، 2018م ص 103.

[3] – المرجع نفسه، ص 102.

[4] – المرجع نفسه، ص 103.

[5] – محمّد مندور، النّقد المنهجي عند العرب، ط: 2003م، نهضة مصر للطّباعة والنّشر، ص 334.

[6] – إحسان عبّاس، تاريخ النّقد الأدبيّ عند العرب، دار الثّقافة، بيروت، ط: 4، 1983م، ص 420.

[7] – عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص 4.

[8] – صالح بلعيد، نظريّة النّظم، دار هومة للطّبع والنّشر، الجزائر، ط: 2004م، ص 125.

[9] – محمّد عبد المنعم خفاجي، الأسلوبيّة والبيان العربيّ، الدّار المصريّة اللّبنانية، ط: 1، 1992م القاهرة، ص 79.

[10] –عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعّجاز، ص 393.

[11] – توفيق حمدي، موقّف عبد القاهر الجرجانيّ من الاستعارة، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجانيّ دار محمّد علي الحاميّ، صفاقس (تونس)، 1998م، ص 50.

[12] – جدول من إنشائنا، جمعنا فيه ما يقارب 21 صفحة (30-51) من المبحث الأوّل في الفصل الأوّل للمصدر المدروس، بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، أمحمّد صافي المستغانمي.

[13] – أمحمّد صافي المستغانمي، بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، مركز البحوث والدّراسات جائزة دبيّ الدّولية، الإمارات العربيّة المتّحدة، ط 01، 2020م – 1442ه، ص 43.

[14] – جدول من تصميمنا متعلق بالمبحث الثّاني من الفصل الأوّل للمصدر المدروس (من ص 51 إلى ص 57).

[15] – أمحمّد صافي المستغانمي، المصدر السّابق، ص 54.

[16] – المصدر نفسه، ص 56.

"تداوليّة الخطابة عند العلاّمة محمّد صافي المستغانمي بين بلاغة الإبداع وقوّة الإقناع"

د. عبد الحليم بن عيسى
ج. وهران1 أحمد بن بلّة

1- **تقديم:** لا يمكن إنكار أهميّة التّخاطب للإنسان باعتباره كائنًا اجتماعيًّا يتواصل مع غيّره بالكلام، وفق مكوّناتٍ تنظيميّة معيّنة. وليست الخطابة نظامًا لسانيًّا محايثًا؛ بل إنّها نسقٌ تداوليٌّ أيضا، تقتضي في بنائها تمثّل قواعد البناء اللغويّ من جهة، واعتماد آليات الأنساق التّداوليّة المتعدّدة والمتنوّعة من جهة أخرى. وعليه فبناء الخطاب يستدعي بداية تشكّل وحداته اللغويّة ضمن متتاليّة علائقيّة ما تحكمها قواعد اللغة، لتتحقّق فعاليّته أكثر ضمن استعماليته في الموقف المحدّد، حيث يتلاقح مع معطيات أخرى تَسِمُه بسماتٍ تلفّظيّة أخرى، تعطيه قوّته الإبلاغيّة والإمتاعيّة والإقناعيّة.

وفي هذا الإطار قد نتساءل ونقول: ما هي المكوّنات اللغويّة والآليات غير اللغويّة الأساسيّة التي تسهم في بناء الخطابة بما يحقّق لها بلاغتها الإبداعيّة وقوّتها الإقناعيّة؟

إنّ إثراء هذه الإشكاليّة يقتضي منّا تتبّع بناء الخطاب، ومراقبة تلفّظه، بما يحقّق إنتاجيّته وتأثيريّته، وسنستنير في ذلك بالمعطيات الكفاءة التّخاطبيّة التي فصّل فيها القول العلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي، والممارسات الخطابيّة المعتمدة في مؤلّفاته.

2-الخطابة أي مفهوم؟: بداية من الضّروري أن نؤكّد على صعوبة الإحاطة بمفهوم الخطابة، نظرًا لطبيعتها المعقّدة والمركّبة من جهة، ثمّ لتعدّد الأنساق المعرفيّة التي تسهم في إنتاجها وتأويلها من جهة أخرى. وقد تساءل العلّامة أمحمّد صافي المستغانمي بداية لماذا فنّ الخطابة؟ فأدرك حينها أنّها لا تكاد تنفصل عن وجود البشر، فهي عريقة عراقة الوجود الإنساني على هذه البسيطة. فكانت بذلك الوسيلة المثلى التي اُعتمدت في صناعة الأفكار وبناء الحضارات، وتوجيه الآراء، وغرس المعتقدات. وقد اكتست في الإسلام أهميّة كبرى؛ إذ اُعتمدت بقوّة من أجل ترسيخ العقيدة الإسلاميّة بمختلف أركانها وأحكامها الشّرعيّة. وكان نبيّنا محمّد ﷺ الأسوة الحسنة في ذلك فقد أوتي جوامع الكلم، وأكرمه ربّه بكفاءة خطابيّة إبلاغيّة فائقة وموهبة بيانيّة رائقة، في بيئة يتقن أهلها إنتاج القول، ويتفنّنون في صنعة الكلام ويتفقّهون في إجادة أصناف البلاغة، فكان أن أفحمهم من الجنس الذّي تفوّقوا فيه. وقد تبعه في ذلك الصّحابة رضوان الله عنهم، فكانوا خير خلف لخير سلف في إجادة القول وإتقانه.

ومنه قد نتساءل من جديد مع الباحث أمحمّد صافي المستغانمي عن بلاغة هذه الخطابة، حتّى كانت لها هذه المنزلة في استدراج العقول، والقوّة في التّأثير على النّفوس، والهيمنة في الإقناع والاقتناع.

ولكي يوضّح العلّامة أمحمّد صافي المستغانمي طبيعة الخطابة انطلق من الدّلالات اللغويّة، والمفاهيم الاصطلاحيّة، ثمّ استعمالاتها في القرآن الكريم. وقد

تأكّد لديه بعد الوقوف على الدّلالات اللغويّة للخطابة أنّها مواجهة ومراجعة ومشاركة للكلام بين الخطيب والمتلقّي. ثمّ إنّها من الخَطْبِ؛ أي الأمر العظيم الجَلَل، وهذا ما يدلّ على أنّ شأنها عظيم سواء في إنتاجها، أو غاياتها، يقول ابن وهب (ت:365هـ): «إنّما يقام بالخطب في الأمور التي تجلّ وتعظم... وكذلك لا يسمّى خطيبا إلّا من غلب ذلك على وصفه، وصار صناعة له»[1].

أمّا مفهوم الخطابة في الاصطلاح فقد نؤسّسه من المفاهيم الأساسيّة التّاليّة:

-عرّفها أرسطو بأنّها «قوّة تتكلّف الإقناع المكن في كلّ واحد من الأمور المفردة»[2]. وقد شرح ابن رشد هذا التّعريف، فقال: «ويعني (بالقوّة) الصّناعة التي تفعل في المتقابلين، وليس يتّبع غايتها فعلها ضرورة. ويعني بـ(تتكلّف) أن تبذل مجهودها في استقصاء فعل الإقناع الممكن. يعني بـ(الممكن) الإقناع الممكن في ذلك الشّيء الذي فيه القول، وذلك يكون بغاية ما يمكن فيه. ويعني بقوله "في كلّ واحد من الأمور المفردة"؛ أي في كلّ واحد من الأشخاص الموجودة في مقولة من المقولات العشر. وهذا هو الفصل الذي به تنفصل هذه الصّناعة عن سائر الصّناعات»[3].

-وقال محمّد أبو زهرة: «الخطابة مصدر خطب يخطب؛ أي صار خطيبًا، وهي على هذا صفة راسخة في نفس المتكلّم، يقتدر بها على التّصرف في فنون القول لمحاولة التّأثير في نفوس السّامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم.

فالخطابة مرماها التّأثير في نفس السّامع ومخاطبة وجدانه، وإثارة إحساسه للأمر الذي يراد منه، ليذعن للحكم إذعانًا ويسلّم به تسليمًا»[4].

-عرّفها الباحث صافي المستغانمي بأنّها: «نوع من النّثر يختلف بخصائصه ومميّزاته عن الأنواع الأدبيّة الأخرى، ولا يمكن اعتبار الخطابة نثرا فنيّا أدبيّا، وإن كانت تحتوي على الكثير من خصائصه البيانيّة مثل جمال التّركيب والصّنعة اللفظيّة والصّور البيانيّة والمحسّنات البديعيّة؛ لأنّ النّثر الفنّي يقوم على إظهار المقدرة البيانيّة في الحديث عن موضوع ما أو وصفه بالاعتماد على الأساليب البيانيّة والتّألّق في اختيار الألفاظ وصوغ العبارات المزدوجة والمسجوعة وغيرها. بينما الخطبة، وإن تضمّنت الكثير ممّا يشتمل عليه النّثر الفنّي الأدبي إلّا أنّها ترتكز على ركني الإقناع والاستمالة»[5].

ومنه يتَّضح أنّ الخطابة فنّ نثري خاصّ، تختلف عن الأجناس الأدبيّة الشّعريّة والنّثريّة الأخرى، وهي تقوم على مخاطبة الخطيب جمهور المتلقّين في موضوع ما وفق بناء لغويّ خاصّ، قوامه الكلمة الفصيحة والأسلوب البليغ، والحجّة الدّامغة بما يستجلب الألباب، فتستلذّ له النّفوس وتقتنع به العقول. تتأسّس على مظهرين أساسيّين؛ مظهر بلاغي أسلوبي ومظهر حجاجي وتداولي. وتتنوّع بحسب موضوعاتها بين الخطبة الدّينيّة والسّياسيّة والقضائيّة والاجتماعيّة والحربيّة والعلميّة وغيرها.

وقد تأكّد لدى الباحث الألمعي أمحمّد صافي المستغانمي أنّ الخطابة تجمع بين الوظيفيّتين؛ الوظيفة الإبداعيّة والوظيفة الإقناعيّة، مهمّتها إنتاج القول بما يحقّق الاقتناع لدى المتلقّي عن تدبّر وتفكّر وتبصّر بما يفضي إلى اليقين. وهذا ما يدفعنا للدّراسة والكشف في بنية الخطابة وخصوصيّتها الإبداعيّة، وتقنيّاتها الحجاجيّة.

3-بنية الخطابة ومكوّناتها: لاحظ العلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي أنّ الخطابة تتأسّس على ثلاثة أركان أساسيّة هي؛ الخطيب، والخطبة، والمتلقّي، ثمّ فصّل القول بعد ذلك فيها، وبيّن مقتضياتها البلاغيّة والإبلاغيّة. وقبل مناقشة أبرز هذه السّمات والمكوّنات من الضّروري أن نشير إلى أنّ البلاغة الغربيّة تميّز بين خمس مراحل يتمثّلها الخطيب كي ينجز خطبته ويلقيها أمام الجمهور وهي: الإيجاد، والبناء والعبارة، والذّاكرة والإلقاء[6]؛ إذ يمثّل (الإيجاد) المرحلة الأولى في إعداد الخطبة يقتضي من الخطيب إعداد الطّرائق الحجاجيّة المحايثة وغير المحايثة التي يتوسّل بها لتحقيق الإقناع. أمّا (البناء) فهو إفراغ هذه الحجج في مخطّط أو نظام معيّن، ووفق ترتيب خاصّ بدءً بالافتتاح ثمّ السّرد وتقديم الحجج وصولا إلى الاختتام فالافتتاح يهدف إلى إثارة اهتمام المتلقّي، وتهيّئته لتلقّي مضمون الخطبة والاقتناع بأطروحاتها. في حين تقتضي (العبارة) صياغة الخطابة في بنيات لغويّة بلاغيّة منسجمة وفق معايير خاصّة ومبادئ تخاطبيّة محدّدة، تتلاءم مع مقاصدها وغاياتها. أمّا (التّذكّر) فيرتبط بمجمل التّقنيات التي قد يعتمدها الخطيب استعدادًا لإلقاء خطبته. و(الإلقاء) هو التّلفّظ بالخطاب في أداء خاصّ بتوظيف الإشارات

والحركات التي تتناسق مع العبارات الملفوظة. وقد نركّز في هذه المناسبة على كل ما يتعلّق بالخطيب والخطبة.

4- **بلاغة الخطبة بين الوظيفتين الإبداعيّة والإقناعيّة**: أكّد الباحث أمحمّد صافي المستغانمي أنّ الخطبة تتكوّن من مقدّمة وعرض وخاتمة، وقبل إلقائها على الجمهور، يعدّها الخطيب وفق أربع مراحل:

أوّلا-اختيار الموضوع: تستدعي من الخطيب الدّقّة في انتقاء الموضوع بما يخدم أبناء مجتمعه، وما يسهم في احتواء انشغالاتهم، وحلّ مشاكلهم والمساعدة على تحقيق الآفاق التي يتطلّعون إليها. ومن الضّروري ههنا إفراد كل خطبة بموضوع محدّد يشرحه ويحيط بجميع مسائله، ضمن رؤية موضوعيّة، بما يمكّنه من جلب المستمعين، ويجعلهم ينخرطون ويتفاعلون بكلّ طواعيّة مع فكرة الخطبة، وبالتّالي يذعنون لأهدافها وغاياتها.

ثانيا-تركيب العناصر وتنسيقها: ويتمّ ذلك ضمن نسقيّة لغويّة منسجمة مع مسائل الموضوع ومقاصده، ومتناسقة مع أهدافه وغاياته، بَدْءًا بالاستهلال أو المقدّمة؛ حيث يدبّجها الخطيب بعبارات يستفتح بها الخطيب خطبته، و «من أخصّ خصائصها أن تكون حافزةً شائقةً مُشَوّقةً رائقةً، لافتةً للانتباه، ممهّدة للموضوع بعدها. ومن شأنها أن تعطي للسّامع فكرة إجماليّة عن عامّة من معاني الخطبة ومراميها. كما تكون -عادة-ضابطة لخطوات الخطيب موضّحة لأقسامها مشيرة إلى الأفكار التي يريد الخطيب الخوض في شرحها وتفصيل القول فيها»[7].

وينضوي كلّ هذا ضمن ما يسمّى لدى البلاغيّين براعة الاستهلال، أو حسن الابتداء، أو براعة المطلب، تستدعي اعتماد الألفاظ العذبة، والعبارات المهذّبة بما يستجلب المخاطب لموضوع الخطبة ويشدّ انتباهه كي يستمع لعرض الخطبة وأطروحاتها. فالخطيب الذّي يحسن البداية، فإنّه يستطيع أن يستدرج المستمع ويجعله ينخرط بكل طواعيّة في مقدّمات الموضوع المعالج، بما يسهم في الاقتناع التّام بأهدافه وغاياته.

ويأتي بعد الاستهلال عرض الموضوع وقضاياه ضمن نسقيّة إبلاغيّة خاصّة، من حيث التّرتيب والأساليب البلاغيّة المعتمدة، والأدلّة المقنعة التي قد يرتكز عليها الخطيب في تبرير أفكاره. وتتمظهر ههنا بقوّة مقدرته البيانيّة والإبداعيّة والإقناعيّة في اختيار الألفاظ، وبناء العبارات والأساليب وتوظيف أصناف المجاز من تشبيهات واستعارات وكنايات، واعتماد المحسّنات البديعيّة من مقابلة ومطابقة وجناس وتوريّة، من دون تكلّف أو صنعة. يقول الجاحظ: «ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيّرا في جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التّعقيد، حُبِّبَ إلى النّفوس، واتّصل بالأذهان، والتحَمَ بالعقول، وهُشَّت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب»[8].

وقد بيّن الباحث أمحمّد صافي المستغانمي أنّ جودة العرض تقوم على مقوّمات وشروط معيّنة منها؛ وحدة الموضوع، وترتيب أجزائه، ثمّ الوضوح في المعنى والأسلوب، مع التّدليل بالأدلّة المنطقيّة أو الخطابيّة، ثمّ الخاتمة حيث تقتضي حسن

الاختتام بصياغتها في عبارات منمّقة وقويّة ومؤيّدة بآيّة أو حديث بما يخدم الغايات المنشودة، مع تقديم دعوة صريحة من أجل العمل بما جاء في مفاصل الخطبة.

قد نمثّل لهذه البنيات بخطبة أبي بكر الصّدّيق ﵁؛ فبعدما أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، قال: «أَمّا بَعْدُ؛ أَيُّهَا النّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، الضّعِيفُ فِيكُمُ الْقَوِيُّ عِنْدِي حَتَّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالقَوِيُّ فِيكُمُ الضّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ إِنْ شَاءَ اللهُ. لَا يَدَعُ قَوْمٌ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللهُ بِالذّلِّ، وَلَا تَشيعُ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بالبَلَاءُ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللهُ»[9]. فهي خطبة بليغة، أفصح فيها أبو بكر الصّدّيق ﵁ بكلّ موضوعيّة عن فكرته المقصودة القائمة في أساسها على الحكم المشترك، المبني على تنفيذ أحكام الشّريعة وطاعة الله سبحانه وتعالى، فاستطاع بذلك أن يصل بها إلى قلوب النّاس لأنّه لم يخرج عمّا ورد في القرآن الكريم والسّنة النّبويّة.

ثالثا-اختيار الشّواهد والأدلّة: يتمثّل الخطيب في هذه المرحلة مجمل الآليات والتّقنيات الحجاجيّة التي من شأنها أن تدعم أفكاره وأطروحاته فتحقّق التّصديقات المبتغاة. وقد ذكر أرسطو في هذا السّياق أنّ الحجج نوعان؛ فـ«منها بصناعة، ومنها بغير صناعة، وقد أعني باللاتي بغير صناعة تلك اللاتي ليست تكون بحيلة منا، لكن بأمور متقدّمة، كمثل الشّهود والعذاب والكتب والصّكاك وما أشبه

ذلك. وأمّا اللاتي بالصّناعة فبما أمكن إعداده وتثبيته على ما ينبغي بالحيلة وبأنفسنا»[10]. ومنه يتضّح أنّ تحقيق (الإقناع) يكون بالحجج الجاهزة (غير الصّناعيّة)، لا يتدخّل فيها الخطيب؛ بل هي خارجة عن اجتهاده، مثل الشّهود والاعترافات والوثائق والإثباتات وغير ذلك. وقد تكون هذه الحجج غير جاهزة (الحجج الصّناعيّة)؛ ينجزها الخطيب في عمليّة إبداعيّة بحسب فطنته وكفاءاته وقدراته، وهي ثلاثة أصناف:

❋ ما يتعلّق بست الخطيب وأخلاقه (الإيتوس Ethos)؛

❋ ما ارتبط بأحوال المخاطبين (الباتوس Pathos)؛

❋ ما ارتهن بالخطاب وبنياته الحجاجيّة (اللوغوس Logos).

فمهمة الخطيب ههنا هو تقديم الحقائق والتّدليل لها وفق آليات ما، منها ما هو جاهز يستدعيه ويوظّفه بحسب الحاجة، ومنها ما يرتبط بكفاءاته وقدرته على بناء الحجاج بما يقنع المتلقّي.

وقد احتضنت البلاغة الجديدة هذه الفكرة، وعملت على بعثها من جديد وفق رؤية موضوعيّة تحتوي كلّ أشكال الخطابات، وهذا من خلال ما قدّمه (بيرلمان Perlman) و(تيتيكاه/ Tyteca) حيث أكّدا أنّ «موضوع نظريّة الحجاج هو درس التّقنيّات الخطابيّة التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التّسليم»[11]. وما تبنّاه (أونسكمبر Anscombre) و(ديكرو/ Ducrot) حينما وضّحا أنّ الحجاج كامنٌ في اللغة في حدٍّ

ذاتها، لا فيما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بنى شبه منطقيّة أو شكليّة أو رياضيّة خارجة عن نطاق اللغة. وغيرها من الدّراسات البلاغيّة الجديدة التي تناولت أشكال التّدليل والحجاج وفق مقاربات منطقيّة وبلاغيّة ولسانيّة.

رابعا–الصّياغة الخطابيّة النّهائيّة: تمثّل مرحلة البناء الفكريّ للخطبة، وقد أكّد العلّامة أمحمّد صافي المستغانمي أنّه ينبغي للخطيب أن يُحسن بناء خطبته وتركيبها وفق نسق خاصّ، ومنطق محدّد يقدّم فيها موضوعه وأفكاره وأطروحاته في تراتبيّة معيّنة، يحترم فيها آليات إنتاج الخطبة؛ سواء في الاستهلال الذي يستدعي مثلًا في الخطبة الدّعويّة الدّيباجة الإسلاميّة المعروفة القائمة على الحمد والتّوحيد والاستغفار، والصّلاة على خير الأنام محمّد ﷺ، وذكر الآيات التي تحثّ على التّقوى وحسن العمل، ثمّ الإشارة إلى الموضوع. مع اعتماد خطّة واضحة في تقديم الخطبة في مادّتها ولغتها وأساليبها البيانيّة وإلقائها أيضا.

وأكّد الباحث أمحمّد صافي المستغانمي أنّ الغايّة من الخطبة ليست إلقاء الأخبار أو بسط المعلومات، من دون العمل على تحقيق الاقتناع لدى المتلقّي، عن طريق التّصديق بالمقولات المطروحة في الخطاب، وأبعادها المقاصديّة. وقد أشار من قبل أرسطو إلى أنّ التّصديقات التي تتحقّق بالكلام أنواع ثلاثة؛ فـ«منها ما يكون بكيفيّة المتكلّم وسَمته، ومنها يكون بتهيئة للسّامع واستدراجه نحو الأمر، ومنها ما يكون بالكلام نفسه قبل التّثبيت»[12].

تؤكّد لنا هذه المراحل أنّ إنجازيّة الخطابة تنبني على قواعد ومبادئ واستراتيجيّات خاصّة، تقتضي كفاءة خطابيّة مركّبة، لا تكفي معها الكفاءة البلاغيّة، لترتهن بقدرات أخرى غير لغويّة، لها طابع منطقيّ واجتماعيّ وثقافيّ تفرض علينا ألّا ننظر إلى الخطيب على أنّه مجرّد ذات لسانيّة محضة، بل ننظر إليه كشخصيّة اجتماعيّة وثقافيّة ونفسيّة لا تكاد تنفصل عن المقوّمات الإنسانيّة والاجتماعيّة التي تمليها الحضارة الإنسانيّة ككل.

5 –الخطيب وكفاءاته الخطابيّة: لعلّنا نكون قد أدركنا أنّ فعاليّة الخطابة تقتضي (كفاءة خطابيّة) خاصّة سواء في إنتاج الخطبة أو إلقائها أو غاياتها. ولا تتحقّق كلّ هذه المبتغيات إلّا إذا تحلّى الخطيب بقدرات وملكات نوعيّة تؤهّله لذلك، قد نركّز بناءً على ما أورده العلّامة أمحمّد الصّافي المستغانمي على ما يلي:

-القدرة على إنجاز الخطبة وفق مقتضيّاتها الإبداعيّة التّعبيريّة، ومستلزماتها التّأثيريّة الإقناعيّة، ولا تتأتّى للخطيب ذلك إلّا وفق آليات محدّدة؛ سواء في اختيار ألفاظها، أو تأليف أساليبها التّعبيريّة، أو ترتيب جملها وفقراتها، أو بسط أدلّتها وبنياتها الحجاجيّة. ولابدّ ههنا من الابتعاد عن أشكال التّغريب والغموض والإسهاب والتّشدّق في الكلام والتّقعّر والتّكلّف، يقول الجاحظ (ت:255هـ): «تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتّشادق من غير أهل الباديّة بُغض، والنّظر في عيون النّاس عيّ، ومَسّ اللحيّة هُلْك، والخروج مما بُني عليه أوّل الكلام إسهاب»[13].

وتستدعي (الكفاءة الخطابيّة) ههنا من المتكلّم أن يكون على دراية بكيفيّات إنتاج الخطبة وفق مقاماتها ومقتضيّاتها التّعبيريّة؛ فيطابق ويلائم بين الكلام وملابساته الخارجيّة. ولا يتأتّى له ذلك إلّا بالمعرفة الواعية بسمات لغة الخطبة وكيفيّات استخدامها بحسب الموضوعات والأحوال التي تُنجز فيها.

ويحصّل الخطيب هذه الملكة بالممارسة والمران على إنتاج القول وإلقائه؛ فـ «رأس الخطابة الطّبع، وعمودها الدّربة، وجناحاها رواية الكلام وحَلْيُها الإعراب وبهاؤها تخيُّر الألفاظ، والمحبّة مقرونة بقلّة الاستكراه»[14]. وهنا نشير إلى أنّ لغة الخطبة (لغة الجمهور) تقتضي من الخطيب تكييف خطابه بحسب الوسط الاجتماعيّ الذي يخطب فيه؛ أي أن يراعي نوعيّة المخاطبين وكل ملابسات السّياق الذي يجري فيه التّخاطب.

-القدرة على التّعاطي مع موضوع الخطاب المعيّن بحسب مقتضيّاته من جهة وما يستدعيه الحال الذّي تجري فيه الخطبة من جهة أخرى، مع ضرورة تمثّل القضايا التي تحتاج إلى التّوضيح والشّرح والتّدليل. وهنا نشير إلى أنّ موضوع الخطبة قد يتأسّس على رأي يقتضي توضيح، أو أمر غير متّفق عليه، أو فكرة مختلف حولها، أو دعوى تقتضي الإثبات أو الإبطال.

وقد حذّر (بيرلمان /Perelman) في هذا السّياق من خطأي الإفراط والتّفريط أو المبالغة والإهمال فيما يتعلّق بالمسائل موضع النّقاش والتّحليل؛ فعلى الخطيب تقديم تصوّره في المساحة الملائمة له، ثمّ منحه القدر المناسب من الحجج التي لا

يشكّل إيرادها لدعم الموضوع مفارقة أو نشازا؛ لأنّ تهويـل الموضـوع وإعطائـه مساحة أكبر من حجمه، ثمّ التّوسّل بعد ذلك بجلّ الأطر المعرفيّة السّائدة في بيئة معيّنة من أجل دعمه وإثباته هو أمر باعث على السّخريّة. وبالمقابل فـإنّ عـرض الفرضيّات والتّحليلات في الهامش، أو في الظّلّ وعدم الانتباه إلى أهميّتها في مقام الإلقاء هو بدوره دليل على عدم خبرة المتكلّم وتشـوّش أفكـاره[15]. وكـلّ ذلـك يستوجب أن يكون الخطيب مُلِـمًّا بموضـوعه، وعـلى درايـة واعيـة ودقيقـة بـما يدعو إليه.

-القدرة على التّدليل على القضايا المطروحة في الخطبة وفـق مقتضـيّات البنيـات الحجاجيّة التي يبسطها الخطيب في خطبته، سـواء أكانـت هـذه البنيـات بلاغيّـة أو برهانيّة أو لغويّة، وانطلاقا ممّا تستوجبه آليـات الاسـتدلال البلاغـي والمنطقـي مـن جهة، وما تمليه تقنيّات (التّوجيـه/ L'orientation) مـن جهـة أخـرى. فقـد يوجّـه الخطيب حجاجيّته على مستوى السّامع ومسـتوى الخطـاب نفسـه؛ فعـلى مسـتوى السّامع يتحقّق التّوجيه بأن يفرض عليه نمطا مـن النّتـائج باعتبارهـا الوجهـة التـي يؤول إليها حتما. أمّا على صعيد الخطاب فيتمّ من خلال تـوالي العبـارات الحجاجيّـة في بناء الخطاب اللغوي؛ أي بأن يكون ق1 مؤديّا بالضّـرورة إلى ق2 بالتّصـريح أو التّضمين. وعلى هذا الأساس أقرّ (ديكـرو/ Ducrot) بسـلطة الخطـاب الحجـاجي الذّي يسدّ المنافذ على أيّ حجاج مضـادّ، فيحـرص عـلى توجيـه المتلقّـي إلى وجهـة واحدة فقط[16].

وقد تأكّد لدى البلاغيين أنّه إذا أراد المتكلّم تحقيق الاقتناع لدى المتلقّي فلا بد أن يدرك كيفيّات بناء الحجّة، فقد ورد عنهم أنّ «جُمَّاعَ البلاغةِ البصرُ بالحجّة، والمعرفةُ بمواقعِ الفُرصة»[17]. فالبلاغة قد تَسِمُ الخطاب بسمات تعبيريّة قد لا تبتغي من خلالها الوظيفة الإبداعيّة والجماليّة فحسب؛ بل قد تروم الوظيفة التّأثيريّة القائمة على الإقناع والإفحام، ممّا تدعو البليغ إلى ضرورة بناء الكلام وتقديم الحجّة بما يخدم هذه الوظيفة.

ولهذا ذمّ الجاحظ من فاتته هذه البلاغة؛ فقال: «وليس، حَفِظك الله، مضرّةُ سلاطة اللسان عند المنازعة، وسَقَطات الخطل يوم إطالة الخُطبة، بأعظمَ مما يحدُث عن العيّ من اختلال الحجّة، وعن الحَصَر مِنْ فوت دَرك الحاجة. والنّاس لا يعيِّرون الخُرْس، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز. وهم يذمون الحَصِر ويؤنِّبون العييّ، فإن تكلّفا مع ذلك مقاماتِ الخطباء، وتعاطَيَا مناظرة البلغاء تضاعف عليهما الذّم، وترادَفَ عليهما التّأنيب»[18]. وفي ذلك إشارة إلى أنّ الإخلال بالاحتجاج في القول في الموقف المعيّن أَلومُ من المسهب الثّرثار والخَطِل المكثار، أو العيي اللجلاج. فتأكّد لدى الجاحظ أنّ الكلام البليغ الذي يبتغي فيه صاحبه التّأثير والإقناع «يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصّنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة النّطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأنّ ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق»[19]، حيث يراهن الجاحظ ضمن هذا الطّرح

على الآليّات والاستراتيجيّات التي قد يتعهّدها المتكلِّم لتحقيق القوّة الحجاجيّة للخطاب، على اعتبار أنّ فعّاليّة القول ليس في لفظه وتأليفه ومضمونه؛ بل قد ترتهن بإقناعيّته أيضا. وهي بلاغة ركّز عليها الجاحظ؛ فقال بالحصر: «وإنّما عنيت محاجَّة الخصوم، ومناقلَة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان»[20]. فهي بلاغة حجاجيّة من صنف خاصّ، لا تبقى في حدود تحقيق الإخبار والإمتاع؛ بل تتعدّاها لترتهن بالمقوِّمات والتّقنيات التي تطالّ التّخاطب ككلّ؛ بدءًا بالمتكلّم، ثمّ المتلقّي، ثمّ المقام بمختلف معطياته، فتستمال القلوب، وتفحم العقول.

ويحضر هذا الطّرح في الدّراسات الغربيّة الحديثة مع (بيرلمان/ Perelman) و(تيتكا/ Tyteca)؛ من منطلق أنّ حجاجيّة الخطاب تتأسّس على المقولات اللغويّة التي قد تتجاوز أشكال التّعبير العادي، وقدرتها البلاغيّة على الإثارة والإقناع ولذلك دَعَوَا إلى تأسيس بلاغة جديدة، تبحث في بلاغة الحجّة وأساليبها التّعبيريّة والتّقنيّات الخطابيّة التي تحقّق التّأثير المطلوب. ولذا غدا الحجاج لديهما «نظريّة تدرس التّقنيّات الخطابيّة كوظيفة حجاجيّة وتفحص شروطها وآثارها؛ إذ تنصبّ الممارسة على الحجج العقليّة والتّجريبيّة، وعلى قضايا ترجع إلى الرّأي وتواجه الجانب اللاعقلاني من رغبات ومصالح وأهواء، ممّا يوجب التّمييز بين البرهنة المستقلّة عن الذّات، وبين الحجاج كممارسة ذاتيّة اجتماعيّة»[21]. فمن خلال هذا التّوضيح، ندرك أنّ الحجاج من منظورهما مؤسّس على مكوّنات خاصّة تستدعي توظّيف التّقنيّات الخطابيّة التي تحقِّق الوظيفة الحجاجيّة، ثمّ تفحّص الشّروط

والآثار التي تكتنف الخطاب الحجاجي، وبالتّالي تأمين الوظيفة الحجاجيّة المقصودة القائمة على قيم مضبوطة، تؤطِّرها مفاهيم أساسيّة؛ أهمّها الحقيقة والعدل والحريّة والمعقوليّة.

وإضفاء الطّابع العقلي على الحجاج عند (بيرلمان/ Perelman) جعله يخرج الخطابة من دائرة المغالطة والاتّهام والتّلاعب بالجمهور؛ وعليه فالحجاج ليس إيهاما أو مناورة؛ بل إنّه «معقوليّة وحريّة، وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة، ومن أجل حصول التّسليم برأي آخر بعيدا عن الاعتباطيّة واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة عادة وبعيدا عن الالزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل، ومعنى ذلك كلّه أنّ الحجاج عكس العنف بكلّ مظاهره»[22]. فالحجاج حوار بنّاء وفعّال، يتنافى مع كلّ أشكال التّعنّت والتّعنيف والإرغام تحتويه أدبيّات مضبوطة، تحقّق له كلّ الأبعاد الإيجابيّة التي تدفع كلّ أشكال التّصادم والخلاف، وتحلّ محلّه إمكانات الاتّفاق والوفاق، بما يحقّق لبّ الصّواب ومحض الرّأي.

-القدرة على تهيئة المُخاطب واستمالته كي ينخرط بكل طواعيّة في أطروحة الخطبة، انطلاقًا من المقدّمات، ثمّ عرض الموضوع، ثمّ الخاتمة. كما أنّ الخطاب لا يكون فعّالا ومقنعا ما لم مكيّفا بحسب فئات المخاطبين فالمقامات تتعدّد، والأقدار تتنوّع، والأفهام تتفاوت، وكل ذلك يدعو الخطيب إلى موافقة هذه الأحوال.

ومن الضّروري أن نؤكّد أنّ لغة الخطبة عامّة؛ لأنّها متلقيها عامّ؛ أو ما يسمّيه (بيرلمان/ Perlman) و(تيتكا/ Tyteca)؛ (المتلقّي الكوني)؛ يقتضي من الخطيب بناء التّعابير بما يتوافق مع تنوّعاته ومستويّاته بمّا يحقّق الانسجام معه؛ فـ «لكي يستمدّ الخطاب نفاذه المطلوب، على الخطيب أن يضع في الحسبان مستوى العقول التي يهدف إلى إقناعها، وكذلك عليه الوعي بنوعيّتها»[23]. ومن هنا يتوجّب على الخطيب أن يكون مدركا للسّمات العامّة والمشتركة التي تميّز مخاطبيه، والأكثر من ذلك من الضّروري أن يكون حاملا لانتظارات المتلقّين وآفاقهم.

-التّحلّي بأدبيّات التّخاطب واستراتجياته حتّى يتمكّن الخطيب من كسب ودّ المُخاطب وثقته، وتحقيق التّأثير والاقتناع، ترتبط بالمؤشّرات اللفظيّة وغير اللفظيّة التي قد يُجسّدها المتكلّم في إنتاجه الخطابي، فيقدّم صورة تفاعليّة إيجابيّة عن نفسه وخطابه ككلّ. تقتضي هذه أدبيّات تمثُّل مبادئ إنتاج الخطبة وإلقائها؛ منها على وجه الخصوص:

-**مبدأ التّواجه**: يقوم على احترام وضعيّة التّخاطب بين المتكلّم والمتلقّي؛ فمن أخلاقيّات التّخاطب في البيئة العربيّة أن نتواجه مباشرة مع من نتحدّث إليه، فننظر إليه بما يُلفت انتباهه ويؤنّسه. وقد حدّد الجاحظ ما يجب أن يتحلَّى به المتكلِّم ضمن هذه القاعدة حتّى يحفظ وجهه؛ إذ يقول: «حدّثنا غيلان بن جرير قال: "لاَ تُطْعِمْ طَعَامَكَ مَنْ لاَ يَشْتَهِيه"، يقول: لا تُقْبِلْ بحديثك على مَن لا يُقبِل عليه بوجهه. وقال عبد الله بن مسعود "حَدِّث النّاسَ ما حَدَجوكَ بأبصارهم، وأذِنُوا لك

بأسماعهم، ولَحَظُوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترةً فأمسك»[24]. وهي دعوة صريحة إلى التّواجه في التّخاطب بين المتكلّم والمتلقّي بما يضمن الاستماع والإنصات؛ أي النّظر المتبادل بين المتكلّم والمتلقّي، وبالتّالي خلق الفعاليّة والاستمراريّة في التّخاطب.

تستوجب هذه القاعدة أن يُحسن المتكلّم إنتاج القول بما يلفت انتباه المخاطَب ويُكسب ثقته، كما تستدعي من المتلقّي التّفاعل الإيجابي بالاستماع الجيّد، وقد قال بعض الحكماء: «مَنْ لَمْ يَنْشَطْ لِحَدِيثِكَ فَارْفَعْ عَنْهُ مَؤُونَةَ الِاسْتِمَاعِ»[25].

-مبدأ الصّدق في القول وتحرّي الحقّ: يستدعي من الخطيب أن يكون صادقا فيما يزعم ويقول، وصدق أحد الحكماء إذ قال: «لاَ تقول ما لا تعلم ولا تَتَعاطَى ما لا تَنَال، ولا يخالف لسانُك ما في قلبك، ولا قَوْلُكَ فعلَك»[26]. ويقول حسّان الباهي: «ولا تحاج إلا بما لك به علم وما تعتقد بصدقه، وعليك بالسّعي إلى الحقّ وترك الباطل، ولا تتّبع الهوى فتلبس الحقّ صورة الباطل، ولا تبتغي بنظرك التّكسّب والمباهاة والزّفر بالخصم، وامتنع عن الرّياء وكل طرق الاحتيال والتّضليل»[27]. فالصّدق يضفي الاحترام والتّقدير بين الخطيب والمخاطب، ويدفع كلّ أشكال الشّك وسوء النّيّة بينهما، وبالتّالي تأمين تحقيق الغايات المقصود. وصدَق الشّاعر إذ قال[28]:

لاَ يَكْذِبُ المَرْءُ إلاَّ مِنْ مَهَانَتِهِ ... أَوْ عَادَةِ السّوءِ أَوْ مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ
لَجِيفَةُ الكَلْبِ عِنْدِي خَيْرُ رَائِحَةٍ ... مِنْ كِذْبَةِ المَرْءِ فِي جِدٍّ وَفِي لَعِبِ

ويذكر طه عبد الرّحمن أنّه «متى تحقّق المتكلّم بالصّدق في الخبر والصّدق في العمل، والصّدق في مطابقة قوله لفعله، انفتح باب التّواصل الصّادق بينه وبين المخاطب، وتزايدت أسباب التّقارب بينهما، واندفع كل منهما في طلب التّقرّب من الآخر»[29]. لتبقى الأهمّيّة ههنا ليست مرتبطة بفعل القول وسلامته وبلاغته؛ بل تتعلّق في أساسها بالإخلاص الذي يقوم عليه الخطاب وقصده.

ويقول الباحث أمحمّد صافي المستغانمي: «والخطيب المخلص يجري الله الحكمة على لسانه، ويستطيع بفضل الله تعالى، ثمّ بفضل إخلاصه، أن يُرقِّقَ أقسى القلوب ويعود بها إلى بارئها سبحانه وتعالى. والله يكتب القبول لكلام صادر عن قلب مؤمن صادق يبتغي صاحبه وجه الله تعالى، والعكس صحيح، فكم وجدنا في حياتنا المعاصرة من علماء بلغاء وخطباء مصاقع لا يرتاد مجالسّهم أحدٌ؛ لأنّ القلوب تتوجّه إلى حيث ترتاح وتقرّ»[30]. فنفاذيّة الخطبة من إخلاص قائلها، وإكساب القلوب القاسيّة من رقّة القلوب المؤمنة.

ويقول العلّامة أمحمّد صافي المستغانمي: «وَلْيَعلم الخطيبُ أنّه يُخاطب أُناسًا عُقلاء يقارن بين القول والعمل، وإذا رأوا خطيبا يخالف قوله فعله تلاشت ثِقتهم به، وذهب كلامه أدراج الرّيّاح، وضاعت مواعظه سدى»[31].

وهنا نشير إلى أنّ من شِيّم العربي الاتّصاف بالصّدق في القول، والبعد عن أشكال الحيل والشّطط والمراوغة. وهي سمة تكرّسها الفطرة العربيّة السّليمة وتفرضها العقيدة الإسلاميّة، وتقوم عليها الأعراف الاجتماعيّة العربيّة الأصيلة.

وترتهن مقتضيّات (الصّدق التّـداولي) بأركـان التّخاطـب ككـلّ، وبـالموقف الـذي يجري فيه الكلام؛ قد نستأنس في ذلك مع الحجّاج؛ إذ يروى أنّه «جلـس يومـاً لقتـل أصحاب عبد الرّحمن بن محمّد بـن الأشـعث فقـام رجـل مـنهم فقـال: أصـلحَ الله الأمير! إنّ لي عليك حقّاً، قال: وما حقّك؟ قال: سبّك عبد الـرّحمن يومـا، فـردّدت عنك؛ فقال: من يعلم بذلك؟ فقال: أَنشُد الله رجلاً سمع ذلك إلاّ شهِد، فقام رجلٌ من الأسرى فقال: قد كان ذلك أيّها الأمير، فقال: خلّوا عنـه. ثـمّ قـال للشّـاهد مـا مَنَعك أن تنكر كما أنكر؟ فقال: لقديم بُغضيـ فيـك! فقـال الحجـاج: وليُخَـلَّ عنـه لصِدْقِه»[32]. باحترام قاعدة الصّدق التّداولي في هذا التّخاطب، ممّا مكّن الشّـاهد مـن النّجاة برقبته من سيف الحجّاج. وهو صدق واقعي مؤصّل في البيئـة العربيّـة، تُمليـه فطرة العرب الصّافيّة التي تسـتدعي نقـل الحقـائق والتّعامـل معهـا دون تزييـف أو انحراف أو مغالاة.

-مبدأ التّلطّف والإخلاص والتّعفّف في القول: يقوم على استعمال الفعل القـولي الذّي من شأنه أن يُظهر الوُدَّ والتّعَفُفَ والإخلاص للمتلقّي و(التّلطّف) في الكـلام هو تأليفه بما يستعطف به المتكلّم القلوب، ويستميل به النّفوس ويـؤنس لـه العقـول فقد «قال محمّد بن عـلي "رضي الله عـنهما": البلاغـة قـول مفقـهٌ في لُطـفٍ فالمفقـه: المفهم، واللطيف مـن الكـلام: مـا تعطـف بـه القلـوب النّـافرة، ويُـؤنسُ القلـوب المستوحشة، وتلينُ به العريكة الأبيّة المستصعبَة ويبلغ بـه الحاجـة، وتقـام بـه الحجّـة فتخلص في نفسك من العَيْب، ويُلزِمُ صاحبَك الـذّنب مـن غـير أن تهيجه وتُقلقَـه

وتستدعي غضبه وتستثير حفيظته»[33]. وتقوم هـذه القاعـدة عـلى الـتّكلّم في ألطـف وجه، وأعذب عبارات، وأسلس أسلوب، مع استعمال الطّرفة والملحة، قال علي بـن أبي طالـب "ﷺ": «إنّ القلـوب تَمَـلُّ كـما تَمَـلُّ الأبـدانُ؛ فَأَهْـدوا إليهـا طرائـفَ الحكمة»[34]. وقد يتحقّـق بتوظيـف الأقـوال غـير المبـاشرة التـي تـومئ إلى القصـد المطلوب، فيكون المعنى مفهوما، واللفظ مقبولا، والغرض مضمونا.

أمّا (الإخلاص) فهو إنتاج الخطبة على أتمّ وجه دون مكابرة، أو طلب سمعة أو مجاهرة بريّاء. في حين يقوم (التّعفّف) على استخدام العبارات التـي تصـون الـنّفس وتحافظ على ماء الوجه سواء للخطيب أو للمتلقّي، وكـلّ ذلـك بـما يخـدم الصّـالح العامّ، يقول الجاحظ: «فإن أراد صاحِبُ الكلام صلاحَ شأن العامّة ومصلحَةَ حـال الخاصّة، وكان ممَّن يعُمُّ ولا يخُصّ، وينصح ولا يغُشّ، وكان مشغوفا بأهـل الجماعـة شَنِفا لأهل الاختلاف والفرقة، جُمعـت لـه الحظـوظ مـن أقطارهـا، وسـيقت إليـه القلوب بأزمتها، وجُمعت النّفوس المختلفة الأهواء على محبّته وجُبلت عـلى تصـويب إرادته»[35].

-مبدأ الجديّة والابتعاد عن أشكال التّكلّف والهزل في القـول: تسـتلزم أخلاقيّـة التّخاطب الجِدّ والابتعاد عن أشكال التّكلّف والهزل في التّخاطب بما قـد ينـتج عنـه سوء الأخلاق، قال الشّاعر[36]:

لِلْجِـدِّ مَـا خُلِـقَ الإنسـانُ فَالتمِسَـنْ   بِالجِـدِّ حَظَّـكَ لاَ بِـالهَزْلِ وَاللَّعِـبِ
لاَ يَلْبَـثُ الهَـزْلُ أَنْ يُجْنِـي لِصَـاحِبِه   ذَمّـاً ويُـذْهِبَ عَنْـهُ بَهْجَـةَ الأَدَبِ

فالجدّ في القول، والدّقّة في إصابة القصد، يضفيان تقرُّباً صادقاً وخالصاً بين طرفي التّخاطب، وبالتّالي تحقيق الفعاليّة في ذلك، كما يورِّثان المتكلّم الهيبة والصّرامة في إنتاج الفعل الكلامي ونجاحه.

فالجدّ في القول هو التّعبير عن الموضوع بكلّ إخلاص من غير مراوغة أو تضليل أو سلاطة أو هذر أو مباهاة أو مِراء أو تهكّم أو تجاوزٍ للمقدار. والجدّ يورث الوقار والجمال للسان، قال «العباس بن عبد المطّلب للنبي "ﷺ" فيمَ الجمالُ؟ قال في اللسان... وقال خالدّ بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلاّ صورة ممثلة أو بهيمةٌ مهملةٌ»[37].

أمّا التّكلّف في الكلام فهو العيّ والاضطراب في التّعبير عن القصد يقول أبو هلال العسكري (ت:395هـ): «فالتّكلّف طلب الشّيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بالسّهولة. فالكلام إذا جُمع وطُلبَ بتعب وجهد، وتُنُوِّلت ألفاظه من بُعدٍ فهو متكلّف؛ مثالُه يقولُ بعضهم في دعائه: اللهم ربَّنا وإلهنا، صلِّ على محمّد نبينا، ومن أراد بنا سوءً فأَحِطْ ذلك السّوء به، وأرسخه فيه كرسوخ السّجِّيل على أصحاب الفيل، وانصُرنَا على كلِّ باغٍ وحَسُود، كما انتصرت لناقة ثمّود»[38]. فمن البلاغة أن يعطى كلّ الموضوع حقّه من الكلام من غير تنقّص أو إزراء أو مبالغة، وبالتّالي تحقيق المقصود.

خاتمة: لعلّنا نكون قد أدركنا من خـلال مطارحتنـا العلميّـة حـول طبيعـة الخطابة أنّها ليست مجرّد بنيات لغويّة إبداعيّة محايثة؛ بل إنّها نسـقٌ معـرفي وثقـافي ونفسـي وأخلاقي أيضا، وهذا يعنى وجود قواعد لغويّة تحكم بلاغة الخطابة من جهة وهناك مبادئ غير لغويّة في كلّ قول مـن جهـة أخـرى، يقتضـيها التّفاعـل الكلامي بكلّ معطياته.

ثمّ هناك علاقة وثيقة بين الخطيب والخطاب، باعتبار أنّ هذا الأخير عمل من أعماله أو تجلّي من تجليّاته، وانطباع من انطباعاته، يعكس فيه شخصيّته وأخلاقـه وآراءه ومقاصده ضمن مؤشّرات لفظيّـة وعبـارات تداوليّـة وبيّنـات حجاجيّـة تسهم بفعاليّة أكثر في تحقيق غايات الخطاب وأهدافه. تؤطّر هذه المظـاهر سـياق التّأويل الذي يوجّه انتباه المخاطـب، ويحـدّد معـالم إدراكـه. ولأجـل ذلـك مـن الضّروري على الخطيب أن يظهر في خطابه بمظهـر الشّـخص المقبـول والجـدير بالثقة والصّدق والإخلاص.

كما تستدعي الخطابة كفـاءات نوعيّـة، منهـا مـا هـو ذاتي تـرتبط بـالمؤهلات الفطريّة الشّخصيّة التي يتمتّـع بهـا الخطيـب كجهـارة الصّـوت، وسـلامته مـن عيوب النّطق وتمكّنه من الإلقاء بإجادة الحركات المصاحبة لذلك. ومنها مـا هـو مكتسب وهو الأهمّ، ترتبط بالتّمكّن بكيفيّات إنتاج الخطبة وقواعدها ومبادئهـا واستراتيجيّاتها. تتنزّل مظاهر هـذه الكفـاءات في الخطبـة ضـمن مـؤشّرات قـد تكون لغويّة أو غير لغويّة.

قد تمكّن هذه الكفاءات الخطيب من تكييف خطابه بحسب معطيّات الوسط الاجتماعي الذّي يخطب فيه، تجعله يراعي أنواع المخاطبين من ناحيّة مستوى الإدراك والفهم، ومن ناحيّة اقتناع المخاطب بما قُدِّمَ له من عدمه، فضلا عن اختبار قدراته ميدانيّا، بما يمكّنه من اكتساب الخبرات العمليّة التي تؤهّله أكثر للممارسات الخطابيّة المستقبليّة.

المصادر والمراجع المعتمدة:

أوّلا-العربيّة:

-الاستعارة في محطّات يونانيّة وبلاغيّة وغربيّة، د.محمّد الولي، الرّباط منشورات دار الأمان، ط1/ 2005م؛

-أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، تونس جامعة منوبة (د.ت)؛

-البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تح: حفني محمّد شرف، مطبعة الرّسالة 1969م؛

-بهجة المَجالسّ وأنسُ المُجالسّ وشحذ الذّهن والهَاجس، ابن عبد البر النّمري القرطبي (ت463)، تحقيق محمّد مرسي الخولي، بيروت دار المكتب العلميّة، ط2 (د.ت)؛

-البيان والتّبيين، الجاحظ، تح: عبد السّلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي، ط7 1998م؛

-تلخيص الخطابة، ابن رشد، تح: محمّد سليم سالم، القاهرة بحنة إحياء التّراث الإسلامي، 1968م؛

-تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، لخليل بن أيبك الصّفدي، تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصريّة بيروت (د.ت)؛

-الحوار ومنهجيّة التّفكير النّقدي، د.حسان الباهي، الدّار البيضاء، دار أفريقيا الشّرق، ط1/ 2004م؛

-الخطابة، أرسطو، ترجمة عبد الرّحمن بدوي، دار القلم بيروت، ووكالة المطبوعات بالكويت، 1979م؛

-الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمّد أبو زهرة، الكويت دار الكتاب الحديث، ط1، 1980م؛

-الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، د.أمحمّد صافي المستغانمي بيروت دار ابن كثير، ط1/ 2017م.

-الرّوض الأنف في شرح السّيرة النّبويّة لابن هشام، للإمام عبد الرّحمن السّهيلي (581هـ)، تح: عبد الرّحمن الوكيل، القاهرة دار الكتب الإسلاميّة، (د.ط)؛

-الصّناعتين الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكري، تحقيق د. علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2(د.ت)؛

-الظّرف والظّرفاء، أبو الطّيب بن يحيى الوَشَّاء، تحقيق د.فهمي سعد، بيروت عالم الكتب، ط1/ 1986م؛

-في نظريّة الحجاج دراسات وتطبيقات، د.عبد الله صولة، تونس مسكيلياني للنّشر والتّوزيع، ط1/ 2011م؛

-لُباب الآداب، الأمير أسامة بن منقذ (ت584هـ)، تحقيق د.أحمد شاكر، القاهرة منشورات مكتبة السّنة، ط1/ 1987؛

-اللسان والميزان أو التّكوثر العقلي، د.طه عبد الرّحمن، المغرب المركز الثّقافي العربيّ ط1/ 1998.

-مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، د.محمّد سالم ولد الأمين الطّلبة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 23، العدد3، يناير-مارس 2000م؛

-مقالات الأدباء ومناظرات النّجباء، علي بن عبد الرّحمن بن هذيل الفزازي الغرناطي، تح: محمّد أديب الجادر، دار البشائر سوريّة، ط1، 2002م؛

-النّظريّة الحجاجيّة من خلال الدّراسات البلاغيّة والمنطقيّة واللسانيّة، محمّـد طـروس الدّار البيضاء دار الثقافة للنشر والتّوزيع، ط1/ 2005م.

ثانيا-الأجنبيّة:

-Traité de l’argumentation : La nouvelle rhétorique, Chaïm Perlman et Lucie Olbrechts Tyteca, Préface par Michel Meyer, Bruxelles, éditions de l’université de Bruxelles,2008.

-Les échelles Argumentatives, Oswald Ducrot, Paris Editions de minuit, 1980.

الهوامش:

[1]– البرهان في وجوه البيان، تح: حفني محمّد شرف، مطبعة الرّسالة، 1969م، ص152 .

[2]– الخطابة، أرسطو، ترجمة عبد الرّحمن بـدوي، دار القلـم بـيروت، ووكالـة المطبوعـات بالكويـت 1979م، ص9.

[3]– تلخيص الخطابة، ابن رشد، تح: محمّد سليم سالم، القاهرة بحنة إحياء التّراث الإسلامي 1968م ص28.

[4]– الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمّـد أبـو زهـرة، الكويـت دار الكتـاب الحديث، ط1، 1980م، ص19 .

[5]– الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، د.أمحمّد صافي المستغانمي، بيروت دار ابن كثير، ط1/ 2017م، ص20.

[6] – تناول الدّكتور محمّد الولي هذه المكونات بالشّرح في كتابه الاستعارة في محطات يونانيّـة وبلاغيّـة وغربيّة، الرّباط منشورات دار الأمان، ط1/ 2005، ص31 وما بعدها.

[7]– الخطيب النّاجح، د. أمحمّد صافي المستغانمي، ص44.

[8] – البيان والتّبيين، ج2، ص8 .

[9]– الرّوض الأنف في شرح السّيرة النّبويّة لابن هشام، للإمام عبد الرّحمن السّهيلي 581هـ، تح: عبد الرّحمن الوكيل، القاهرة دار الكتب الإسلاميّة، د.ط، ج7، ص556 .

[10]– الخطابة، ص9.

[11] Traité de l’argumentation : La nouvelle rhétorique, Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts Tyteca, Préface par Michel Meyer, Bruxelles, éditions de l’université de Bruxelles,2008, P : 5.

[12]– الخطابة، ص10 .

[13]– البيان والتّبيين، ج1، ص44 .

[14]– نفسه، ج1، ص44 .

[15]– يُنظر مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوّره في البلاغة المعاصرة، د.محمّد سالم ولـد الأمـين الطّلبـة مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلّد 23، العدد3، يناير–مارس 2000، ص81.

[16] Les échelles Argumentatives, Oswald Ducrot, Paris Editions de minuit, 1980 ; p60.

[17]– البيان والتّبيين، الجاحظ، 1/ 88، والصّناعتين، أبو هلال العسكري، ص21.

[18]– البيان والتّبيين، الجاحظ، 1/ 12.

[19] – نفسه، 1/ 14.

[20]– نفسه، 1/ 15.

[21]– النّظريّة الحجاجيّة من خلال الدّراسات البلاغيّة والمنطقيّة واللسانيّة، محمّد طروس، ص55.

[22]– الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنيّاته من خلال (مصنف في الحجـاج –الخطابـة الجديـدة)، بيرلمـان وتيتيكاه، د.عبد الله صولة، ضمن كتاب أهمّ نظريات الحجـاج في التّقاليـد الغربيّـة مـن أرسـطو إلى اليوم، ص298. وفي نظريّة الحجاج دراسات وتطبيقات، د.عبد الله صولة، تونس مسكيلياني للنّشـر والتّوزيع، ط1/ 2011، ص12.

[23] Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique, Chaïm Perlman et Lucie Olbrechts Tyreca, p 9.

[24]– البيان والتّبيين، الجاحظ، 1/ 103–104.

[25]– نفسه، الجاحظ، 1/ 105.

[26]– لُباب الآداب، الأمير أسامة بن منقذ ت584هـ، ص228.

[27]– الحـوار ومنهجيّـة التّفكـير النّقـدي، د.حسـان البـاهي، الـدّار البيضـاء، دار أفريقيـا الشـّرق ط1/ 2004، ص34.

[28]– ينظر الظّرف والظّرفاء، أبو الطّيب بن يحيى الوَشَّاء، تحقيق د.فهمي سعد، بـيروت عـالم الكتـب ط1/ 1986، ص99.

[29] – اللسان والميزان، طه عبد الرّحمن، ص252.

[30]– الخطيب النّاجح، ص77.

[31]- نفسه، ص76.

[32]- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، لخليل بن أيبك الصّفدي، تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم منشورات المكتبة العصريّة بيروت د.ت، ص264-265.

[33]- الصّناعتين الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكري، ص57.

[34]- مقالات الأدباء ومناظرات النّجباء، علي بن عبد الرّحمن بن هذيل الفزازي الغرناطي، تح: محمّد أديب الجادر، دار البشائر سوريّة، 2002، ط1، ص20-21.

[35]- البيان والتّبيين، ج2، ص8.

[36]- بهجة المَجالسّ وأنسُ المُجالسّ وشحذ الذّهن والهَاجس، ابن عبد البر النّمري القرطبـي ت463 تحقيق محمّد مرسي الخولي، 2/ 572.

[37]- البيان والتّبيين، 1/ 170.

[38]- الصّناعتين الكتابة والشّعر، ص50.

التّصوّر الإبستيمي الاستشرافيّ للمعجم التّاريخيّ رؤية أمحمّد صافي المستغانمي

- لقاءاتٌ صحفيّة أنموذجاً-

Epistemological perception of the historical lexicon Amhamad saffi mustaghanami's vision- press encounters-

الباحث ط.د عبد الرّحمان بردادي
ج. عبد الحميد بن باديس ،مستغانم

الملخص: تهدف هذه الورقة إلى وصف الصّورة الإبستيمولوجيّة التي يرسمها فضيلة الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي من خلال رؤيته للمعجم التّاريخي، أو لنقل أنّها قراءة في رؤيته العلميّة والإيديولوجية لقضيّة التّاريخ الليكسيمي للألفاظ ، وما تكتنزه العربيّة من تراث لغوي ساد الآفاق، حيث يتبطّنُ هذا المعجم التّاريخيّ تاريخُ الملفوظات التي تهيمن على إطار جغرافي معيّن، وتمثّلُ بدورها تاريخاً طويلا جدّاً حدّده المستغانمي في ستّة عشر قرنا، كما تمثّل العصورُ الأولى منه حقبةً ذهبيّة للّسان العربيّ المبين.

Abstract: This paper aims to describe the epistemological image drawn by Dr. Amhamad mustaghanami's virtue through his vision of the historical lexicon, or, let's say, a reading in his scientific and ideological vision of the lexical historical cause of words. and the linguistic heritage of Arabic that prevailed. This historical lexicon has a history of words

that dominates a particular geographical setting. it represents a very long history, set by Dr. mustaghanami in 16 centuries, and the early ages represent a golden period for the Arabic language.

1 – تقديم: ترفض هذه الورقة البحثيّة أيّ تدخّل براديغمي بعيـد عـن العلميّـة حيث تسلّط الضّوء على قيمة فكريّـة ومعجميّـة متمثّلـة في شـخص أمحمّـد صـافي المستغانمي، إذ تبرز جهوده اليوم بعد مسـيرة طويلـة، وحافلـة بالإنجـازات، ومـن بينها المعجم التّاريخي الذي صدر بدعم ومرافقة صاحب السّمو الشّيخ سـلطان بـن محمّد القاسمي عضو المجلس الأعلى للثّقافة حـاكم الشّـارقة، ليخـرج علينـا –بعـد بحث طويل– مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة بهذا المنجز الـذي يسـجّل التّـاريخ يومـا بعد يـوم ولتُثـرى المكتبـة العربيّـة بهـذا المعجـم الضّـخم الـذي يعـبر عـن فـترات كرونولوجيّة طويلة جداً تعكس جهود ومعارف المجتمعات العربيّة التـي عايشـت الأمم ونهلت من ثقافاتها والعكس صحيح.

إنّ لكلّ معجم وظيفةً، ولكلّ قاموس فئة مستهدفة، ولعل المعجـم التّـاريخي قـد أُنشِئ ليكون نبراساً منيراً تهتدي به الأمّم، العربيّة منها وغير العربيّة، للتّعريف بقيمة القرآن والكلام الفصيح، وتاريخ العرب وأيـامهم وحـروبهم وسـلمهم، وأنسـابهم وكلامهم الذي كرّمه الله من فوق سبع سماوات.

لذا، يجدرُ بنا في هذه الدّراسة أن نفحص القيمـة الإبسـتيمولوجيّة التـي اتّخـذها المعجم التّاريخي الشّارقي مطيّة له، مستأنسين برؤية أمحمّد صافي المستغانمي بوصـفه أمينا عامّا لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، وذلك من خلال تقصـّي أفكاره وتصـوّراته

الإيديولوجيّة للمعجم التّاريخي، والإشكاليّات التي تطرحها المدوّنة التّاريخيّة لجسّ نبض الطّرح المعجميّ ونتحسّس ذلك من خلال لقاءات صحفيّة له.

2-من هو أحمّد الصّافي المستغانمي؟ أحمّد صافي المستغانمي دكتورٌ في اللّغة العربيّة، وهو مفسرٌ للقرآن الكريم متخصّص في البيان والبلاغة، تقلب في عدّة وظائف في ميدان التّربيّة والتّعليم في الجزائر، وفي دولة الإمارات العربيّة المتّحدة. يشغل الآن منصب الأمين العامّ لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة، وهو عضو اتّحاد المجامع اللغويّة والعلميّة، وعضوٌ بالمجلس العلمي للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة. مُعدٌ ومقدّمُ برامج تلفزيونيّة مثل (البيان القرآني) في قناة المجد العلميّة، وبرنامج (في رِحاب سورة) في قناة الشّارقة الفضائيّة. له عدّة مؤلّفات منها: تصريفُ القول في القصص القرآنيّ، دراسة مقارنة لقصّة موسى عليه السلام، والخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع وكيف تصبح فصيح اللسان، ومفاتيحُ النّجاح وسنن السّعادة، رؤية تأصيليّة وبلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم والأساور المرصّعة في أسرار الأحرف المقطّعة، وجواهر الدُّرر في علم مقارنة السّور، وأخرى تحت الطّبع.

3-المعجم التّاريخيّ، نسخةُ الشّارقة (مجمعُ اللغة العربيّة بالشّارقة): المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة في نسخته الشّارقيّة ديوانٌ يضمّ جميع ألفاظ اللغة العربيّة ويبيّن أساليبها، ويوضّح تاريخ استعمالها أو إهمالها، وتطوّر دلالاتها ومبانيها عبرَ العصور، ويُعنى بذكر الشّواهد ومصادرها مع التّوثيق العلميّ لكلّ مصدر فهو

معجم لغويّ موسّع يكشف عن تاريخ اللغـة العربيّـة، وعـن تـاريخ الأمّـة العربيّـة وحضارتها. يتطلّب إنجازه جهودا كبيرة علميّة وماديّة، وينبغي أن يأخـذ البـاحثون فيه بعين الاعتبار ما يأتي:

- دراسة عصور اللغة العربيّة؛
- مستويّات الاستعمال؛
- الوحدات المعجميّة؛
- التّركيز على الشّواهد؛
- مستوى اللّغة المدروسة؛
- ترتيب الموادّ والمداخل والمعاني؛
- معاني الألفاظ وتطوّر دلالاتها؛
- انتقاء مصادر المدوّنة الحاسوبيّة.[1]

يُشرفُ على المشروع صاحب الفضيلة الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّـد القاسـمي حاكم الشّارقة، عضو المجلس الثّقافي الأعلى، حيث تمّ إطلاقُ هـذا المعجـم التّـاريخي بعد عمـل شـاقّ وطويـل بمباركـة مـن الشّـيخ سـلطان ومشـورته ومرافقتـه الماديّـة والمعنويّة، حيث تصدّرت هذا المشـروع المجلّـدات الثّمانيّـة الأولى، ضـمّت مفـردات حرفي الهمزة والباء، وقد استندت اللجنة المشرفة على العمـل إلى قاعـدة بيانـات تضـمّ جذور اللغة العربيّة بمداخلها، ومكتبة رقميّة فيها آلاف الكتب والمصـادر، كـما يجـدر بنا الإشارة إلى الفريق الذي ضحّى بوقته وجهده في تخريج هذا العمل، حيـث شـارك

في تحريره علماء وباحثون من عشرة مجامع عربيّة تحت إشراف اتّحاد المجامع اللغويّة والعلميّة بالقاهرة.

4-**تعريف التّصور الابستيمي:** يُطلقُ لفظُ أو مصطلحُ الإبستيمولوجيا على العلم الذي يدرسُ مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها دراسةً نقديّة توصل إلى إبراز أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعيّة.[2] كما تعدّ الإبستيمولوجيا فرعا من فروع الفلسفة وهي تقابل نظيراتها من العلوم الأخرى من قبيل الأنطولوجيا والميتافيزيقيا، حيث ينفردُ كل ضرب من هذه الأضرب المتنوّعة بمباحثه وموضوعاته شبه المنفصلة أو المنعزلة في رواق معرفي ما.

من خلال هذه التّعريفات نجد أنّ الابستيمولوجيا هي حفرٌ عميقٌ في غياهب فلسفات العلوم، ولعلّ هذا التّحديد الاصطلاحي الذي أوردناه يتلاقح في أكثر من قناة معرفيّة مع **التّصوّر الابستيمي للمعجم التّاريخي**، ذلك أنّ المعجم التّاريخيّ (هو سجلّ الأمّة، الذي يرصد دلالات الألفاظ من حيث العموم والخصوص والرّقي والانحطاط، ويتتبّع تطوّراتها، ويسجّل مختلف استعمالاتها من حيث الزّمان والمكان، وطبيعة الموضوع وبحسب الشّيوع والنّدرة)[3] فكأنّهما يأخذان عوامل قيامهما من ناموسٍ واحد، فالمعجميّة التّاريخيّة تتتبّع اللفظة أو الوحدة المعجميّة في أصولها وجذورها، والمعجم التّاريخي بذلك يتخصّص في تاريخ الألفاظ ومعانيها منذ ولادتها، يتبّع الدّلالة الكامنة فيها، كما يتقصّى ظروف اختفائها وظهورها، وكذا استمرارها وبقائها، وبالتّالي فهو يصف ويؤرّخ ويحلّل، وكذلك تفعل

الابستيمولوجيا، فالأخيرة تطرح أسئلة مـن قبيـل (كيـف تتكـوّن معارفنـا؟ كيـف تنمو؟ إذ يتكوّن هذا اللفظ المركّـب إبسـتيمولوجيا/ épistémologie مـن مقطعـين الأوّل/ epitémo وتعني المعرفة أو موضوع المعرفة من أصلها الإغريقي، أمّا المقطع الثّاني فهو تابعة اللوغوس/ logie وهو المنهج العقلي)[4]، وهذا الطّرحُ الـذي نعالجـه يحتاجُ منا مقاربة إبستيمولوجيّة تحفر في المقاربـة التـي اتّخـذها مجمـع الشّـارقة للّغـة العربيّة، وأراد من خلالها أن يؤسّس لمعجميّة تاريخيّة تملأ الفراغ العلمي لكـمّ هائـل من الألفـاظ التـي بقيـت رهـن المـدوّنات المختلفـة لأزمنـة عديـدة، تنتظـر أقـلام المجتهدين وهمّة المعجميّين.

فالسّؤالُ المطروح هو: كيف تناول المسـتغانمي عـدّة قضـايا وإشـكاليّات تحـوم حول معضلة إنشاء المعجم التّاريخيّ، أو بالأحرى كيف يتصـوّر حلـول معضـلاتٍ حالت بين اللغة العربيّة وبين معجمها الذي يحكي نضالها الأبـدي، ويـروي أخبـار قبائلها وأيّامهم؟ وكيف تلاقحت لغتهم مع لغات أخرى؟ وما هـو أسـاسُ الأخـذ بالرّوايّة التي تُعتمدُ كمثالٍ معجمـي، خاصّـةً إذا كـان المثـالُ قرآنيـاً، أو مـن السّـنة النّبويّة، أو من أقوال الصّحابة؟ هل هناك معيـارٌ تفاضـليٌ في اختيـار المدوّنـة أم أنّهـا مفتوحةٌ لكل الملل والنّحلِ التي تدور في ديدن اللفـظ العـربيّ، وتأخـذ منـه ويأخـذ منها؟ ما تأثيرُ ذلك على المصداقيّة المعجميّة التّاريخيّة؟ كُلُها أسـئلة تصـبُّ في معـيّنٍ واحد، وتلتهبُ بمجرد الاقتراب منها، وتشتعل جذوتها، فبأيّ ماءٍ نُطفئها؟

لا يُمكننا الرّدُ على هذه الأسئلة سوى بالأخذ من المعين الذي أخذ منه المستغانمي، ذلك أنّه يبدو هادئاً جدّاً في حواراته، خاصّةً حينما ينطلقُ في الحديث عن المعجم التّاريخي، إذ من خلال قراءتنا لمجموعة من اللقاءات التي جمعتهُ بالصّحافة الوطنيّة في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، أو غيرها من المجلّات الدّوليّة اكتشفنا أنّه قد تبلوّرت في ذهنه فكرة المعجميّة التّاريخيّة بأسلوبٍ ناضج، حيث يسرد في أكثر من لقاءٍ المراحل المتقلبة التي مرّ بها المعجمُ التّاريخي، ويوردُ الأسباب التي حالت دون تحقّق هذا المعجم وتخريجه ليستفيد منه الباحثون إلى قلّة المؤونة وطول الطّريق، وصعوبة المسالك والمدارج، حيث يقول: "المُعجمُ التّاريخي تعثّر في العقود الماضيّة، فقد كان ثمّة خطّة فكريّة وعلميّة لإنجازه ولكنّه يفتقرُ إلى خطّة ماديّة زمنيّة"[5] وبالعودة إلى المراحل التي مرّ بها المعجم التّاريخيّ، فإنّ أولى المحاولات كانت تلك التي همَّ بها المستشرق الألماني أوجست فيشر، وذلك لاهتمامه الكبير باللغة العربيّة، فقد عيّن عضواً في مجمع اللغة العربيّة في مصر بعد إنشائه، واستمرّ يتردّد على القاهرة في شتاء كلّ عامّ حتى 1939، أي بعد قيام الحرب العالميّة الثّانيّة حيث لم يستطع الرّجوع واستمرّت عضويّته في المجمع إلى سنة 1945، وتوفي سنة 1949م، متمنياً أن يُجمع شتاتُ أعماله التي أودعت مجمع فؤاد الأوّل بالقاهرة، إذ يعد من بين أبرز أعماله مشروعه (المعجم التّاريخي)، الذي أخذ من عمره وجهده أربعين سنة، كلّها بحثٌ وتنقيب[6]. بعد فيشر جاءت عدّة

محاولات في مصر وتونس ثمّ قطر إلاّ أنّها بقيت محاولات متقلبة المزاج، أو لنقل أنّها متواضعةٌ جدّاً رغم السّيولة الماديّة المتوفّرة لها، والعناية الحكوميّة المرافقة إيّاها.

5-التّصوّر الإبستيمي للمعجم التّاريخيّ، رؤية المستغانمي من خلال لقاءاته الصّحفيّة: لقد طرحنا مجموعة من الأسئلة التي تصبُّ في بوتقة النّظرة الابستيميّة للمعجم التّاريخي في نظر المستغانمي، ولعل هذه الأسئلة هي الجدول الذي تتفرعُ منه أسئلةٌ أخرى لتصب في الأخير في مصبِ الحيرة والاستفهام، إذ نجدُ أنّ أوّل سؤالٍ يتبادرُ إلى ذهننا هو: ما المعجمُ التّاريخي في نظر المستغانمي وما الهدفُ منه؟

يُجيبُ المُستغانمي عن هذا السّؤال قائلاً: " **إنّ المُعجمَ التّاريخي هو سجلّ الأمّة وذاكرتها، وإذا كان الإنكليز أمضوا أكثر من سبعين سنة لإنجاز معجمهم التّاريخيّ الذي يؤرّخ لخمسة قرون، وأمضى الفرنسيّون أكثر من أربعين سنة لإنجاز معجمهم التّاريخيّ الذي يؤرّخ لثلاثة قرون...فإنّ المُعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة يؤرّخُ على أقلّ تقدير لستّة عشر قرناً، يؤرخُّ لقرنين في الجاهليّة ولأربعة عشر قرناً في الإسلام**"[7]

ومنه فإنّ المستغانمي قد حدّد البنيّة الزّمنيّة اللكسيميّة التي يُعالجها المعجمُ التّاريخيّ ويتدرّجُ في شرحها وتقسيم وحداتها، إلى أقسام ووحدات تنتمي إلى مراحل كرونولوجيّة مختلفة، وإلى فضاءات جغرافيّة مختلفة، وانتماءات قبليّة، فما هي المصادر التي ينتقي منها المعجم التّاريخي مادّته، ليصل إلى مرحلة الإحاطة الشّاملة بالمدوّنة المعجميّة، يقول الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة:" نحنُ مطالبون بالتّحدي الكبير، أن نجمع هذه المدوّنة الحاسوبيّة الكبرى التي تضمّ كلّ ما قيل في

الشّعر الجاهليّ، وكلّ ما قيل في الشّعر الإسلاميّ أيضا، ثمّ بالعصرين: الأمويّ والعبّاسيّ مروراً بالدّويلات إلى أن نصل إلى العصر الحديث، هذا في الشّعر، فما بالكمّ في تفاسير القرآن عبر العصور المختلفة، وكتب الأحاديث والسّنة، ثمّ كتب التّاريخ تاريخ الطّبري، تاريخ ابن خلدون، تاريخ ابن الأثير وغيرها، وكتب الجغرافيا والعلوم"[8] ومنه نجد أنّ المدوّنة المعجميّة التي يتتبّعُها المعجم التّاريخي ويستقي منها مادّته هي مادّةٌ متنوّعة كما أنّها لا تقتصرُ على زمن دون آخر، فالمُعجمُ التّاريخي في نسخة الشّارقة هو تشكّلٌ أزمانيٌ يفسّرُ نفسهُ بنفسه، ويؤوّلُ متشابههُ بمحكمه كيف لا وهو يتأسّسُ على اللفظ القرآني الآتي من الوحيّ الرّباني، كما أنّه لا يتوقّف عند ذلك بل يتجاوز اللفظة في سياقها الدّيني ليتساءل عن أصل الكلمة وجذورها الإيتيمولوجيّة ، قبل الوحيّ وقبل نزول القرآن الكريم، ففي حديث جمع صافي المستغانمي مع ماريا زنولا رئيسة قسم اللسانيّات والآداب بالجامعة الكاثوليكيّة أكّد على فرادة هذا المنتج المعجميّ التّاريخيّ، واختلافه الشّديد والواسع عن المعاجم التّقليديّة الأخرى، إذ يقول: "**يُعنى المعجم بتتبّع اللفظ العربيّ في أوّل استعمال له ويجيب عن أسئلة: من هو المستعمِل الأوّل للفظ؟ وفي أي سياق ورد؟ وما الدّلالة التي كان يحملها؟ وهل تغيّر من ناحيّة الشّكل والصّوت والتّهجيّة؟ وهل طرأ عليه تغيير في البنيّة الصّرفيّة، وهل تحوّلت دلالتّه من معنى إلى معنى آخر؟ ومتى تمّ ذلك؟ هذه الأسئلة ومثيلاتها لا تجيب عنها القواميس والمعاجم اللغويّة العاديّة، وإنّما يجيب عنها المعجم التّاريخيّ.**"[9]

من خلال هذه الفقرة التي قدّم بها المُستغانمي المُعجم التّاريخيّ في إحدى جلسات الجامعة الكاثوليكيّة والتي دار النّقاش فيها حول المعاجم ووظيفتها وجدنا المُتحدث قد أعطى نظرةً عامّة حول الإشكاليّات المعجميّة التي يروم أيّ معجم حلّها وتفكيك مستغلقها، خاصّة إذا تحدّثنا عن إشكاليّة الأوليّة اللفظيّة أو بتعبير آخر سؤال (المن) أيّ من قال هذا اللفظ وكيف قاله، وما الذي كان يعنيه بقوله؟ وبالتّالي فإنّ المستغانمي قد كان صريحاً في رفع التّحدّي والمضي قدماً بمشروع مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، حيث من الصّعوبة بمكان أن تبحث عن أشياء أغلب الأخبار الواردة عنها غامضة، ولا تتأسس في مجملها على دليل ماديّ بل على مجرد روايّات وهذا الأخير إشكالٌ آخر، وبالإضافة إلى كلّ هذا نجد أنّ التّاريخ بعيدٌ جداً أي التّاريخ الدّاعي إلى التّأريخ للوحدات المعجميّة العربيّة وهذا ما يطرحُ عدّة أسئلة ابستيمولوجيّة أخرى تُفرزُ حيرةً وتساؤلاً حول المذهبيّة المعجميّة التي يرتضيها المُعجمُ التّاريخيّ لنفسه، فيجيبُ المستغانمي عن هذا قائلاً: "**نحنُ لسنا إقصائيين نؤرّخُ لجهة على حساب أخرى، مهمّة المعجم التّاريخيّ والمدوّنة الحاسوبيّة التي تمّ إنجاز خطوات فيها والحمد لله، الاستقصاء وتتبّعُ اللفظ العربيّ كيف استعمل، فقد استعمله طرفة بن العبد هكذا، واستعمله عنترة بن شداد هكذا...فأنا ما يهمّني جدّا كباحث عربيّ أو غير عربيّ أن أبحث عن كلمة معيّنة...فنحن بالعكس لا نقصي أحداً**"[10] فالإقصاء بعيدٌ كلّ البُعد–كما صرح المستغانمي– عن طبيعة عمل فريق المُعجم التّاريخيّ، هذا لخصوصيّة المعجم وطابعه

الشّمولي البانورامي والأبعاد العالميّة التي يطمح إليها، كلّ هذه الخصائص تترفعُ عن البُعد الإقصائي في عمل مجمع الشّارقة، فالهدفُ بيّنٌ واضحٌ وضوح الشّمس في كبد السّماء، والغايّة الإبستيميّة تتحدّدُ ملامحُها، وتتبدّد شوائبُها بمجرد أن يكتمل العمل ويتحقّق فعليّاً في المستقبل القريب. وإذا أردنا أن نحلّل ما تبقى من كلام المستغانمي، فما علينا إلّا أن نتقصّى خرجاته الصّحفيّة وحديثه الشّيق عن المعجم التّاريخي، حيث لا يترك فرصةً إلّا ونجدهُ يصول ويجول في رِحاب الإتيمولوجيّة العربيّة، مُعرباً عن غبطته بالحدث الأهمّ في التّاريخ العربيّ، ومعلناً عن مشروعٍ موضوعيّ يهمّه اللفظ العربيّ دون أدلجةٍ، كما أنّ من أولويّات مجمع الشّارقة التّأصيلُ للّفظ خارج الإطار التّقليدي، أي باستعمال الحوسبة وتجاوز الآليّات المعجميّة التّقليديّة القديمة بحكم أنّ المعجميّة الحاسوبيّة اليوم أضحت تغطّي مساحات واسعة من عمل المعجميّين، وأمست تُنيرُ طريقهم وتغنيهم عن مراحل الجمع والتّصنيف والجرد والتّأصيل.

6- **الكمُّ والكيف... الحوسبة، عقيدة المُعجم التّاريخيّ الشّارقي:** تتكيّفُ رُؤية مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة مع مقتضيّات العصر وتطوّرات المعلوماتيّة ونظُمِ الحوسبة، ولعلّ هذا يظهرُ في كلام المُستغانمي حينما يتطرّقُ لقضيّة المصادر وكيفيّة التّجميع والتّصنيف والاستشراف المعجميّ، إذ يركّز دائما في تصريحاته-أثناء صولاته وجولاته -على الحوسبة وضرورة الاعتماد على نظم الحاسوبيّة والبيانات والخوارزميّات المختصرة للمسافات الإلكّترونيّة، إذ يطرح سؤالاً مفاده: **" كيف**

أبحثُ في تراث ستة عشر قرناً؟"[11] ثمّ يجيبُ بعد سؤالٍ مجازي غـير حقيقـي قـائلاً: **"لا أستطيعُ إذا لم أكن مُزوّداً بهذه التّقنيّات (يقصد تقنيّات الحوسـبة)، مـثلاً نبحـثُ عن كلمة (مكتب) من فعل كَتَبَ، ومن أوّل من اسـتعملها بمفهومهـا الحـديث؟ لا أدري يمكن في العصر الأمويّ أو العصر العباسيّ أو في العصر الحديث، وبالتّالي يأتي أصل استعمال الكلمة وبأيّ معنى، ثمّ إذا تطوّرت الكلمة نذكر التّطـوّر الـدّلالي لها هذا هو عمق العمل المعجميّ التّاريخيّ، وعندما ينجـز القـاموس التّـاريخيّ سـيكون حافظاً لذاكرة الأمّة".**[12] إنّ سرّ اللجوء إلى الحوسبة والمعلوماتيّة يكمنُ في السّــرعة والإيجاز اللذين توفّرهما آلة الحاسوب، وقد يلاحظ من يقرأ للمسـتغانمي أنّـه يعـي جيداً تـأثير عامـل السّــرعة في الوصـول إلى المعلومـة ودلالتّهـا في عصـور مختلفـة واستعمالاتها المتقلّبة أو المترادفة أو المتكافئة حيثُ تتطوّرُ الكلـماتُ في جميـع اللغـات بشكل عجائبي، فالمعجمُ التّاريخيّ للّغة العربيّة، سيكشفُ عن كنزٍ لغويّ لا مثيل لـه يقول محمّد حسن عبد العزيز: **" إنّ المعجم التّاريخيّ سـيحدث ثـورة في الدّراسـات التّاريخيّة واللغويّة، وسيكشف للباحثين عن كنوز كانـت مدفونـة وعـن معـارف لم تكن متاحة من قبل... هو ليس ديواناً للعربيّة فحسـب، يضـمّ بـين دفتيـه مفرداتهـا وأساليبها: مبانيها ومعانيها، ما استخدم منها وما أميت أو هجر، وما حدث لهـا مـن تغيّر عبر الأزمان والأصقاع، بل سيكون كذلك ديوانـاً لتـاريخ العـرب والمسـلمين ديوانا للأحداث الكبرى من فتوحات وحروب وهجرات وكوارث، ديواناً لحيـاتهم الاجتماعيّة بنظمها وبمظاهرها الماديّة والرّوحيّـة... المعجـمُ هـو علاقتنـا بالشّـعوب**

الأخرى وتأثّرنا بهم وتأثيرنا فيهم، هو الوجهُ الآخر للحياة الإنسانيّة بكلّ تجليّاتها المادّيّة والرّوحيّة".[13]

يتشاكلُ هذا النّصُ الطّويل مع رؤيّة أمحمّد صافي المستغانمي إذ يتطابق كلامهُ مع كلام محمّد حسن عبد العزيز في أكثر من جيب من جيوب البحث في هذا المضمار المهم، حيث يُنبئنا حسن عن ثورة ابستيمولوجيّة سيُحدثُها المعجمُ بعد تخريجه وإخراجه للمتخصّصين في الدّراسات اللغويّة خاصّة والإنسانيّة التّاريخيّة بشكل عامّ، لكن السّؤال الذي يتبادرُ إلى أذهاننا هو: كيف سيتعاملُ مجمعُ الشّارقة مع التّراث المحروق والمبتور من ذاكرة الأمّة، كالذي حدث في زمن التّتار وعلى رأسهم هولاكو الذي أحرق مكتبة بغداد، حيث اسودَ نهر دجلة من كثّرة الحبر الذي صبغ صفاء مائه، فعكر جداوله، وملأ ظلاماً خواءه، فكيف رد المستغانمي على هذه الجزئيّة المهمّة التي تُشكلُ فجوّة إبستيميّة عميقة، ومطبّاً عويصاً من مطبّات البحث في تاريخ المفردات؟

7-المدوّنةُ المعجميّة، مُستغلقٌ من مُستغلقات المعجم التّاريخي: هذا المبحث سجيبُ على السّؤال السّابق، وهو كيفيّة التّعامل مع الفجوات التّاريخيّة التي أفرزت مدوّنة معجميّة تم إتلافُها عمداً وبشكل مباشر، أو لتدخل العوامل البيئيّة وبشكل غير مباشر. إنّ المعجم التّاريخي يؤرخُ لما هو موجود كما يذكرُ المستغانمي: **" نحنُ نؤرّخُ لما هو موجود، ما وصلناَ من كتب التّراث في جميع الفنّون والآداب والثّقافة والفلسفة نؤرخُ له، والآن لدينا لجنة علميّة في مجمع القاهرة، جمعت لنا**

آلاف العناوين الدّقيقة ببلوغرافيا من الكاتب والمحقّق متى توفي الكاتب ومتى توفي المحقّق؟ كلّ هذا يساعدنا عندما ندخل في البرمجيات ونبحث عن كلمة... بالنّسبة للّغة نحنُ نريد اللّغة السّليمة التي استعملها الشّعراء والمفكّرون والمؤرّخون"[14] فمجمعُ الشّارقة يستندُ في بحثه المدوّناتي على الواقع الكائن لا الواقع المُمكن أو الأمكن، وهو بهذا يستخدمُ الموجود أي ما تمّ التّوصّلُ إليه في زمننا، وعليه فالمدوّنة المعجميّة الكائنة هي المفتاحُ الذي تتبّعهُ اللجنة المشرفة أوّلاً عن طريق الجمع أي جمع الوحدات الليكسيميّة وتفرد لكلّ واحدة منها جذاذة خاصّة ثمّ ترتبُ ترتيباً يخضعُ للألفبائيّة المتعاهد عليها، كما أنّ التّرتيب داخليّ وخارجيّ يعتد نظاماً اشتقاقياً دقيقاً، فترتب المشتقات بالنّظر لنوعها وتأتي في الصّدارة أبنيّة الأفعال ثمّ أبنيّة الأسماء، ثمّ الشّرحُ والتّخريجُ وفي الشّرح طرقٌ مختلفة تستدعي الوحدة الليكسيميّة وحدات متاخمة أخرى، كما أنّها تستدعي ما يُسمّى مُعجميّاً بالمثال أي فهمُ الوحدة في إطارها السّياقي، أو ضربُ المثال وتوظيف اللفظة والكلمة في جملةٍ من النّثر أو الشّعر أو من موردها الأصلي وأين قيلت.

إنّ مجرد الحديث عن معجميّة تاريخيّة تستدعي منّا طرح عدّة قضايا، ولعلّ المعجم التّاريخي للّغة العربيّة، بعد مجلّداته الأولى، سيجيبُ عن عدّة أسئلة تطرحها الأكاديميّة اليوم، حول تاريخ اللّغة وقضاياها المتعلّقة بالأبعاد الدّينيّة داخل دلالة الوحدات المعجميّة التي تشهد تضارباً في أصولها، وقد طرح هذا السّؤالُ على

المستغانمي في جريدة اليوم السّابع، وذلك في مقالة عنوانها: **"هل استعان القرآن بمفردات فارسيّة وآراميّة... المدير التّنفيذيّ لمشروع المعجم التّاريخي للّغة العربيّة يجيب"**حيث قال مُجيباً: **"القرآن لم يستعن بكلمات أخرى بل ثبّت كلمات اصطفاها العرب من لغات أخرى مثل استبرق وسندس وغيرها وأصبحت لغة عربيّة في القرآن فيما يمكن أن نسميه بهجرة الكلمات. فالكلمات تهاجر أيضا مثل البشر وكثير من المفردات العربيّة هاجرت إلى اللغات الإنگليزيّة واللاتينيّة والفرنسيّة والعكس حصل بالفعل، وهذا ما نسميه بالتّلاقح الشّرعي، وطالما استخدمها القرآن فقد أصبحت كلمات عربيّة."**

إنّ ما نلاحظه في حديث الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في حضوره الإعلاميّ بحكم أنّه الأمين العامّ والوجه المشرق لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، أنّ رؤيتهُ الإبستيمولوجيّة للمعجم التّاريخي رؤية مبنيّة على أسّس صلبة وعلى دراسات عميقة في أصل الإشكالات المعجميّة التي تراود كلّ مهتم بهذا المشروع الضّخم الذي سيُنبئُ عن ميلادٍ جديد للحضارة العربيّة بكلّ مكوّناتها واختلاف مشاربها، وتنوّعها الثّقافيّ والهوياتيّ، والمستغانمي لا يترك صغيرة ولا كبيرة في المعجم التّاريخيّ إلّا وأشار إليها، إذ نجده يرد على كلّ استفسار إيتيمولوجي أو ابستيمولوجي أو تساؤل بريء يخص القارئ العادي، وأيّ ردّ، إنّ رده شافٍ يروي كلّ ذي همّة واجتهاد.

من خلال هذه اللقاءات الصّحفيّة التي أوردنا مقتطفات منها نجدُ أنّ المعجم التّاريخيّ الذي صدرت أجزاؤه الأولى في طريق صحيح بهمة الأساتذة العلماء

والباحثين المجتهدين، حيث يحتاجُ الكلام عنه أو تقييمه وقتاً طويلاً وهدوء الصّرح المعرفيّ بعد اكتمال أجزائه، فالانتقاد ليس أوانه في هذه اللحظات، بل يجب أن تقف جيوش البحثة خلف هذا المنجز، تدفعه إلى الأمام، وتربطُ على قلوب القائمين عليه، وتشجّعهم وترفعُ من معنويّاتهم، لتتأصّل فينا روح الجماعة، الجماعة العاملة التي تخدمُ دون أن تنتظر جزاء ولا شكوراً، فحيثما كانت وأينما وجدت فيد الله معها.

مراجع البحث.

[1]- سلطان القاسمي، المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة جاء للنّهوض بهذه اللغة وخدمتها، موقع مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة، حكومة الشّارقة، الرّابط: / المعجم التّاريخي للّغة العربيّة/https://www.alashj.ae نُشر يوم: 23 مارس 2020، اقتبس يوم 13 أوغسطس 2021 في السّاعة 14:02 صباحا.

[2]- محمود زيدان، نظريّة المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، مكتبة المتنبي الدّمام، المملكة العربيّة السّعوديّة، 2012، ص: 7.

[3]- شاهد البوشيخي، مشروع المعجم التّاريخيّ للمصطلحات العلميّة، مجلة مجمع اللغة العربيّة دمشق، سوريا، مج: 78، ج 03، ص: 685.

[4]- عبد القادر بشته، الابستيمولوجيا مثال فلسفة الفيزياء النّيوتونيّة، الطّليعة للطّباعة والنّشر بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص: 10.

[5]- أميمة أحمد، حوار مع أمحمّد صافي المستغانمي، مجمع اللّغة العربيّة في الشّارقة يؤرخ لستة عشر قرناً عربياً وإسلامياً، مجلة الشّارقة الثّقافيّة، العدد: 21، يوليو 2018، ص: 6.

[6]- ينظر: يوهان فك، تاريخ حركة الاستشراق، تعر: عمر لطفي العالم، دار قتيبة، دمشق، سوريا 1996، ط1، ص: 340، 341.

[7]- أميمة أحمد، حوار مع أمحمّد صافي المستغانمي، مجلة الشّارقة الثّقافيّة، مرجع سابق، ص: 6 و7.

[8]- المرجع السّابق ، ص 7.

[9]- أزاد عيشو، المستغانمي من ميلانو: "المُعجمُ التّاريخي" يُمثلُ ذاكرة أمّتنا، جريدة الإمارات اليوم عدد: أبريل 2019، الرّابط الإلكتروني: https://www.emaratalyoum.com/life/culture/2019-04-01-1.1197965 ، يوم الاقتباس: 15 أوغسطس 2021م.

[10]- المرجع السّابق.

[11]- أميمة أحمد، حوار مع أمحمّد صافي المستغانمي، مجلة الشّارقة الثّقافيّة، مرجع سابق، ص: 7.

[12]- المرجع السّابق، ص: 7، 8.

[13]- محمّد حسن عبد العزيز، المعجم التّاريخيّ للّغـة العربيّـة، وثـائق ونـماذج، دار السّـلام، القـاهرة مصـر، ط1، 2008، ص: 42.

[14]- أميمة أحمد، حوار مع أمحمّد صافي المستغانمي، مجلة الشّارقة الثّقافيّة، مرجع سابق، ص: 9.

الشّاهد الشّعريّ في كتاب (مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة) أمحمّد الصّافي المستغانمي.

(الغايات الجماليّة والأهداف الإقناعيّة)

الدّكتور: عبد الرّحمن بن زورة
ج. عبد الحميد بن باديس مستغانم

الملخص: يَحْضُر الشّعر بقوّة في كتاب (مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة؛ رؤية تأصيليّة) للدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، فهو يستخدم الشّواهد الشّعرية -وأغلبها من شعر الحكمة- بوصفها دليل إثبات على صحّة ما يذهب إليه وحُججا دامغة تفيد الإقناع، خلال عرضه للمفاتيح الخمسين لأبواب النّجاح وتعداد السّنن الضّامنة للسّعادة، وهو بحث طويل يقع كتابه في أربع مائة وأربع وستين صفحة يستنبط أحكامه من كتاب الله تعالى أوّلا، وسنّة نبيّه ﷺ ثانيا، حيث يُلفي القارئ ما يربو عن مئة وستّة وعشرين بيتا شعريّا، من عيون الشّعر العربيّ كلّها تندرج ضمّن أغراض الوعظ والإرشاد، وشعر الحكمة والزّهد والتّصوّف وتتوزّع على مساحة الموضوعات المتناولة في الكتاب، لتغطيّة سنن السّعادة المذكورة، على نحو يجعل هذه الشّواهد، في المقام الثّالث بعد القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف منزلة وتوظيفا، وهذا ما يشير إليه الكاتب بقوله «حاولت أن أسلك في عرضه أسلوب تحريك النّفس البشريّة، وتذكيرها بخالقها

وبارئها من خلال ذكر بعض الآيات القرآنية الكريمة، والنّصوص النّبوية الشّريفة وهزّها ببعض الأشعار الحكيمة التي تحيي فيها جذوة الإيمان الخالص وشعلة الاعتقاد الصّحيح»[1].

فإلى أيّ مدى يفلح الخطاب الشّعري الحكميّ في عضد الخطاب الدّيني المؤسّس على النصّ القرآني والحديث النّبوي الشّريف؟ وما هي الجماليّات البلاغيّة التي توصف بها هذه الشّواهد الشّعريّة المنتقاة بإحكام من محفوظات ومختارات أمحمّد صافي المستغانمي، المولع بالشّعر العربيّ وأوزانه، الشّغوف بفنّونه وإيقاعاته الخبير بأساليبه وأغراضه، حفظا وتدريسا؟ وهو الذي ما فتئ يكتب عن مكانة الشّعر والخطابة عند العرب بل ويؤلّف في ذلك كتابا كاملا يَسِمُه (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)؟

ستسعى هذه الورقة البحثيّة في هذا المضمار بغية رصد النّماذج الشّعرية الموظّفة في الكتاب لمساءلتها عن غاياتها ووظائفها، وكشف أسرارها وفنّياتها. والله الموفّق.

حين يختار أمحمّد صافي مفتاحا من مفاتيح النّجاح السّعادة ليشرحه ويفصّله ويبرز رأي القرآن فيه وصدْق حديث رسوله ﷺ، يشفع بعد ذلك لتلك المعاني القرآنيّة بالنّفحات الشّعريّة الطّيبة، فيختار الحكمة البليغة والرّأي السّديد، وفي غالب الأحيان لا يكتفي إلاّ بقول الشّاعر لا بالشّاعر نفسه، فترد الأبيات أسانيد عمليّة، لا تلتفت إلى المناسبات التي وردت فيها القصائد ولا جانبها العروضي، ولا يتّسع له المجال لذلك، ولا يسمح لشرح نوع الصّورة البيانيّة ولا تتعرّض لقائليها

لأنّ الكاتب يركّز على عملها في أداء المعنى وترسيخه وتوضيحه فيورده حجّة دامغة، ومثالا حيّا منسجما مع الآية ومع الحديث فيتّضح به المقال، ويتأكّد به المعنى ويكتمل به الاقتناع.

وسوف نتعرّض لهذه النّماذج الشّعرية الحكميّة الوعظيّة الإرشاديّة لوضعها في أطرها المناسبة فننسبها إلى قائليها، ونذكر بحورها الشّعرية ونقف فيها على مؤهّلاتها الفنّيّة التي استوجبت اختيارها من قبل الشّيخ أمحمّد صافي المستغانمي في كتابه المذكور.

1 -قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آيةٌ تدلّ على أنّه واحدُ

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص29.

هذا البيت الشّعريّ للشّاعر الزّاهد أبي العتاهية (130ه/ 213ه)، نظّمه على بحر المتقارب (عن المتقارب قال الخليل فعولن فعولن فعولن فعول) رفقة أبيات لها مناسبتها[2] تتوافق معانيها تماما مع ما ذهب إليه الشّيخ أمحمّد صافي المستغانمي في حديثه عن(الإيمان بالله تعالى ضرورة كونيّة)[3] وقد ورد البيت تاليا لبيت ذي أسلوب إنشائي متمثّل في الاستفهام (المتكرّر: كيف، وكيف؟)غرضه التّعجب (فيا عجبا! كيف يعصى الإله؟ أم كيف يجحده الجاحد ؟) حيث يستنكر الشّاعر عصيان العصاة ويستقبح جحودهم، وحجّة الشّاعر هنا مبنيّة على التّناقض والنّكران، إذْ كيف تعمى عيونهم عن إبصار الحقيقة الماثلة للعيان .

وقد حقّق هذا الأسلوب الحجاجي التّقريعيّ البليغ أهدافه الهامّة فأفحمهم لما فيه من إثارة واضحة مستفزّة للأذهان، جالبة للآذان.

2 – قال الشّاعر أبو نواس:

تأمّلْ في نبات الأرض وانظرْ إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذّهب السّبيك

على قضب الزّبرجد شاهدات بأنّ الله ليس له شريك

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص32.

في هذه المرّة لفت انتباهنا ذكر الشّيخ أمحمّد صافي لاسم الشّاعر (أبي نواس) وهي من المرّات القلائل التي يهتمّ فيها الكاتب بذكر الشّاعر.

وهي أبيات من بحر الوافر(بحور الشّعر وافرها جميل مفاعلتن مفاعلتن فعول) تنتمي إلى غرض الوصف، توسلها الشّاعر للتّأمّل في مخلوقات الخالق، والتّدبّر في ملكوته، والتّفكير في آياته، وما أعظمها من آيات!

اختار لها الشّاعر أسلوبا إنشائيا طلبيا متمثّلا في أسلوب الأمر وكرّره (تأمّلْ وأنظرْ) على سبيل التّأكيد لأنّ أسلوب الأمر هنا له سلطة التّأثير على النّفوس، وله وقدرة عجيبة على توجيه السّامع نحو مراد الشّاعر منه، فيفضي إلى إحداث أثر الاستجابة لديه.

وباستثناء البيت الأوّل حيث ساد أسلوب الأمر المذكور، فإنّ بقيمة الأبيات الأخرى سادها الأسلوب الخبري المساعد على الوصف والتّدبر لأنّ (الكلام إذا

نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطريّة لنشاط السّامع، وأكثر إيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد)[4].

3 – قال الشّاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه   هذا محال في القياس بديع
لو كان حبّك صادقا لأطعته   إنّ المحب لمن يحب مطيع

كتاب(مفاتيح النّجاح) ص33.

وفي السّياق السّالف ذاته، يستشهد الكاتب ببيتين من بحر الكامل (كمل الجمال من البحور الكامل متفاعلن متفاعلن متفاعل) للشّاعر الحكيم الإمام الشّافعي وينسبان للبحتري ولغيرهما[5] وهما بيتان مفعمان بالحكمة والموعظة، تتجلّى فيهما بشكل صارخ حالة التّناقض لدى بعضهم في علاقتهم بخالقهم، فالله تعالى في محكم تنزيله يقول:﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾آل عمران، الأية:31، لأنّ المحبّة الحقّة الخالصة مُلزمة لطاعة الله تعالى، وتقتضي البعدَ عن المعاصي والقربَ منه ﷻ وملازمَة طاعته.

وقد ازدان البيتان بتوجيه الخطاب إلى المعني بالتّناقض تحديدا، من خلال توظّيف الأسلوب المباشر (تعصِي/ تُظهِرُ/ حبّك / أطعتَه...) في شكل محاورة يتلقّى فيها المُخاطَب التّقريع والتّحقير. ثمّ يقيم عليه الحجّة باستخدام أسلوب الشّرط وجوابه (لو كان حبّك صادقا لأطعتَه) مضيفا أسلوبا تقريريا حاسما للجَدل(إنّ المُحبّ للمُحبّ مُطيعُ) (وقد يجمع المرسل أكثر من أسلوب في البيت

للإقناع والتّوجيه وهذا ما يسمّى بالتّوجيه المركّب)[6] هذه الصّفات وغيرها أهّلت البيتين للاستشهاد بهما في سنن السّعادة لدى الشّيخ أمحمّد صافي، في أعظم باب من أبواب النّجاح وهو الإيمان بالله.

4- قال الشّاعر:

لعمـرُكَ ما الإنسانُ إلاّ بدينه فلا تترك التّقوى اتّكالا على النّسب
فقد رفعَ الإسلامُ سَلمان فارس وقد وضع الشّركُ النّسيبَ أبا لهب

كتاب(مفاتيح النّجاح) ص33 قائل البيتين هو الإمام علي كرم الله وجهه (23 ق هـ/ 40 هـ) وردا في ديوانه ﷺ (ص 15) وهما من بحر الطّويل (طويل له دون البحور فضائل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعل) وظّف الشّاعر في البيت الأوّل أسلوب القصر (ما الإنسان إلاّ بدينه) فقصر مصير الإنسان على صدق دينه فقط لأنّ النّسب لا ينفع صاحبه إذا أخّره عن صالح الأعمال لقوله: "مَن بطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ ـ يعني أخَّره ـ لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ، كما كان شأنُ أبي لهب عمّ النّبيﷺ: ماذا كانت نهايته؟ لقد أنزل الله تعالى فيه سورة كاملة ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ المسد، الأية: 1، الأية: 5.

بخلاف (سلمان الفارسي توفي سنة 33 هـ) فهو(صحابيّ ومولى للنّبي ﷺ، وأحد رواة الحديث النّبوي وهو أوّل الفرس إسلاماً؛ أصله من بلاد فارس، ترك أهله وبلده سعيًا وراء معرفة الدّين الحقّ)[7] فكان له ما أراد وأعزّه ربّه بالإسلام ورفع

شأنه... وبين الرّفع الذي حظي به (سلمان الفارسيّ) دون نسب، والوضع الذي طال (أبي لهب) على الرّغم من نسبه الشّريف، تأسّست المقابلة، فشمل هذا المحسّن البديعيّ المعنوي المركّب التّضاد بين المعاني على مساحة البيتين، فأشاع حُسْنا في الأداء التّعبيريّ، وعزّز القدرة على التّمييز بين الخطأ والصّواب فبضدّها تتميّز الأشياء، ومن ثمّ تحقّق الإمتاع الفنّي، وتمّ إيضاح المعنى وتوكيده، فترسّخ في النّفوس، علاوة على جمال الأسلوب ووضوحه[8] ينضاف إلى ما سبق الكناية عن عدم الغرور، إذْ ينبغي للإنسان ألاّ يغتر بنسبه، وأن يهتمّ بعمله الصّالح حتّى ينال به الدّرجات العُلى (فالمَوَازِينُ بالتَّقْوَى وَليستْ بالنَّسَبِ).

5- قال الشّاعر:

وإنّ امْـرَأ يْبتاعُ دنيا بدينه ... لُمنقلبٌ منها بصَفقةِ خاسِرِ

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص34.

يستثمر الشّيخ فكرته، ويوسّع الحديث عن أوّل مفاتيح النّجاح وهو مفتاح الإيمان بالله تعالى فيستشهد بقول أبي العتاهية المذكور(فالويل كلّ الويل لمن ابتاع دنياه بدينه، وآثر الحياة الفانيّة على الحياة الباقيّة وفضّل الفتات والحطام على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[9] والبيت من بحر الطّويل وهو من رائيّة مشهورة لشاعر الزّهد أبي العتاهية (130ه/ 213ه) وهي لعمري تذكرة لكلّ ذي حجر![10] فالواجب على العاقل أن يأخذ ممّا عنده لما بعده من التّقوى والعمل الصّالح، بإصلاح السّريرة ولزوم الطّاعات، وإرشاد الذّات.

وزيادة على براعة التّصوير، وقوّة التّشخيص، وعرض الدّنيا في صورة سلعة تباع وتشترى، وصفقة تجاريّة فيها الرّابح والخاسر، وكذا الكناية عن سوء المنقلب وسرعة المآل (منقلب) ورنين الجناس النّاقص بين لفظتي (دنيا/ بدينه) وما له من تأثير على أذن السّامع ... زيادة على ذلك، فإنّ من جماليّات البيت أيضا أسلوبه التّقريريّ (إنّ) الأكثر ملائمة لتحقيق جملة الأغراض والمقاصد، ضمانا للإفادة والتّأثير في المتلقّي لأنّ المقام مقام وعظ وإرشاد، وما أكثرَ هذا الغرض في شعر أبي العتاهية!

6- قال الشّاعر :

نرقّعُ دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ، ولا ما نرقّع

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص34.

البيت الشّعري لإبراهيم بن الأدهم القدوة الإمام العارف، سيد الزّهاد أبي إسحاق العجلي، وقيل التّميمي الخراسانيّ(100ه/ 160ه) ينتمي إلى بحر الطّويل ويرد في أسلوب خبريّ مشحون بطاقة بلاغيّة تجلّت في جودة اختيار اللفظة الموحية، وانتقاء المعني الواضح الدّقيق، ففي صدر البيت استعار الشّاعر للدّنيا الدّنيئة صورة بذيئة فهي خرقة بالية ممزّقة، يتمّ ترقيها على حساب ديننا الذي شبّهه أيضا بلبوس، فأفلح الشّاعر في الصّورتين في إخراج الدّنيا من حالتها المعنوية إلى وضعية التّجسيم، تشخيصا للمعنى في مشهد حركيّ مثير.

ومن زاوية أخرى وظّف الشّاعر تقنيّة لافتة تمثّلت في اللّف والنّشـر[11] فقـد ذكـر الشّاعر(نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا) أوّلا، ثمّ عاود الرّجوع لنّشـر وتفصيل مـا تـمّ لفّـه فذكر (فلا ديننا يبقى ولا ما نرقّع) فهو نـشر غير مرتب.

ولا نبرح البديع قبل أن نلفت الانتباه إلى المقابلة (نرقّع دنيانا/ تمزيق ديننا) ولعـلّ ذلك ما يوحي بمنطق عجيب في بنيّة التّركيـب حيـث إنّ البيـت قـائم عـلى معادلـة السّبب والنّتيجة، فإذا كان السّبب هو ترقيع الدّنيا، فإنّ النّتيجة هي تمزيق الدّين.

وانتهى البيت بلفتّة بلاغيّة جميلة هي حذف كلمة (الدّنيا) من آخر البيت، إذ كـان مقدّرا أن يقول (فلا ديننا يبقى ولا دنيانا) فحذف لفظة الدّنيا لدلالة يريدها الشّـاعر قد تكون التّحقير والحطّ من شـأن الـدّنيا، وعوّضـها بـما ينـوب عنهـا (مـا نرقّـع). والبيت في عمومه كناية عن التّفـريط والاغـترار بالـدّنيا الفانيـة، فحـريّ بالإنسـان العاقل اللّبيب ألاّ يغترّ، ويعدل عن التّعلّق بالآمال الكاذبة.

7- قال الشّاعر:

ولسـت أبـالي حـين أقتـل مُسـلما   عـلى أيّ جنـب كـان في الله مصـرعي
وذلـك في ذات الإلـه وإن يشـأ   يبـارك عـلى أوصـال شـلوٍ ممـزّع

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص34.

هذان البيتان للشّاعر خبيب بن عدي، صحابي جليل من الأوس، وقارئ داعيـة إلى دينه (ت4ه)[12] وهما من بحر الطّويل، أوردهما الكاتب في حديثه عن الإيمان بـالله (فالتّزوّد بالعمل الصّالح شعار المتّقين، وخير دليل على الإيمان الصّادق، هو التّـدرّج

بالتّقوى، والتّوقّي من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ بالعمل الصّالح والإيمان الخالص)[13] وهذا ما أحسن الشّاعر الصّحابيّ الجليل تصويره وسط جوّ جاهليّ حاقد، حين التمّ المشركون حوله متشفّين بإراقة دمّه الطّاهر النّقي. فكان منه الإقرار (ولست أبالي حين أقتل مسلما) وهي كناية عن الثّبات وتسليم الأمر لله تعالى.

8- قال الشّاعر:

إذا المرْءُ لمْ يلبس ثيابا من التُّقى تقلّب عُرْيانا ولو كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربّه ولا خيرَ فيمن كان لله عاصيا

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص35.

هذان البيتان لصاحبهما أبي العتاهية شاعر الزّهد (130ه/ 213ه) وهما من بحر الطّويل؛

قال الحسن البصري رحمه الله: «ما زالت التّقوى بالمتّقين، حتّى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الوقوع في الحرام»، وقد وظّفهما الكاتب في أوّل مفتاح من مفاتيح النّجاح وهو (مفتاح الإيمان بالله تعالى) فهو كما يقول الشّيخ: «الرّكن الرّكين، الذي يجلب الاطمئنان لكلّ قلب، والسّعادة لكلّ نفس»[14] فاستحقّت هذه المعاني الرّوحية الرّائعة صورا بيانيّة موحية مواتية لاستخدام الانزياح اللّغوي الذي يجعل التّقوى ــ وهي اسم معنى ــ لباسا ساترا للمرْء. فمن غير التّقوى عَرِيَ المرْء في أعين النّاس وخاب وخسر ولو كان كاسيا، فقد استحالت التّقى سترا واقيا وتحوّل عدمها عريا سافرا بفعل القيمة الجماليّة التي أحدثها الانزياح، فالقيمة الانزياحيّة

التي تصدرها مفردات البيت، قيمة إبداعيّة خارقة (فالشّاعر في رصده دلالة الكلمات والعبارات يبحث عما هو مجهول؛ فيستحضره؛ ويفعله في سياق يعبث به الانزياح الذي يطبع اللّغة بملامح جماليّة شعريّة).[15]

9 – قال الشّاعر:

إذا غامرتَ في شرفٍ مروم ... فلا تقنعْ بما دون النّجوم

فطعمُ الموت في أمْرٍ حقي ... كطعمِ الموتِ في أمرٍ عَظيم

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص41.

هذان البيتان من بحر الوافر(بحور الشّعر وافرها جميل ... مفاعلتن مفاعلتن فعول)لأبي الطّيب المتنبّي وقد ألفيته شاعرًا طموحًا باسلا شجاعًا مبدعا في شعره متعصّبا لعروبته، ثاقبا في نظرته، مفتخرا بنفسه وأفضل أشعاره ما ورد في باب الحكمة، ولذلك يحظى بالحضور القويّ في شواهد الشّيخ أمحمّد صافي المستغانمي. ويتأسّس اختيار الصّافي للبيتين على ما شملاه من جمال في اللّفظ، وبيان في العبارة ورونق في المعاني وعُلوٍّ في الهمّة، فقد جعل المتنبّي طلب الشّرف مغامرة صعبة المنال تتطلّب الصّبر والطّموح اللاّمتناهيين، فعبّر عن هذا المعنى الجميل بصورة بيانيّة هي الكناية (كناية عن الطّموح)ثم إنّ القارئ يستشعر حاجة المعنى إلى رافد يعضده ويقوّيه ويثبّته عند المتلقّي ويجلّيه، فيعمدُ الشّاعر إلى مزيد من الإقناع والتّثبيت في البيت الثّاني، فيجعله دليل صحّةٍ وإقناعٍ على ما في البيت الأوّل، ولكنّه هذه المرّة ينوّع في الصّورة البيانيّة فينتقل إلى استعارة مكنيّة تجعل للموت طعما يستساغ، وفي

تشبيه تمثيليّ (صورة مركّبة منتزعة من متعدّد لوضعيتين مختلفتين للموت يبرزهما الطّباق: حقير/ عظيم) يصنع الفارق المراد والغايّة المرجوّة، فخير للمرء أن يموت شريفا نبيلا.

9- قال الشّاعر:

تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ومن يخطبِ الحسناءَ لم يُغلها المهْر

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص45.

البيت من بحر الطّويل، للشّاعر أبي فراس الحمداني (320ه/ 357ه) ابن عمّ سيف الدّولة الحمداني، من رائيّته الشّهيرة:

أراك عصيّ الدّمع شيمتك الصّبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر؟؟

ويقصد (زين الشّباب) كما سمّى نفسه في قوله:

زينُ الشّباب أبو فراس لم يُمتّع بالشّباب

يقصد أنّه من أراد شيئا ذا قيمة عاليّة في الحياة فلا يبالي بما يُلاقي من مَصاعب من أجلِ ذلك، وهذا المعنى وارد عند أبي الطّيب المتنبّي في قوله:

ومنْ تكن العَلياءُ همّةَ نفسه فكلُّ الذي يلقاه فيها مُحبّب

فمن جماليّات البيت صورته البيانية المتمثّلة في التّشبيه الضّمني[16] فقد شبّه حال القوم في طلب المعالي، فاسترخصوا كلّ شيء حتىّ نفوسهم -وهي أغلى يملكون- بحال امرئ يخطب الحسناء، أتراه يضنّ عليها بزيادة المهر؟ أو يبخل عليها بشيء؟

(فالشّطر الثّاني ـ عجز البيت ـ يكمّل التّشبيه الضّمني، حيث ورد دليلا على صحّة معنى الشّطر الأوّل ـ صدر البيت) وأهل البلاغة يرون هذا النّوع من التّشبيه أكثر بلاغة وجمالا، لأنّه يضع المعنى المقصود في صورة تزيده قوّة وتأثيراً، كما أنّه يأتي بالمعني مصحوباً بالدّليل القاطع.

ولكن بلاغة البيت وجماليّة التّصوير فيه لا تَقِفان عند هذا الحدّ المعجمي إذْ إنّ الدّلالة النّصيّة لتطفح بسياق يستهدف ما هو أبعد وأغلى وأثّمن لدى الإنسان الشّهم، فيتحوّل الموت إلى (لذّة وجمال وسعادة) حيث إنّه موت عزّ وشهادة وشرف ونبل وسعادة وفوز في الآخرة، وهذا ديدن العربيّ الشّجاع منذ القديم حتّى قبل الإسلام.

10- قال الشّاعر:

ترفّق أيّها المولى عليهم   فإنّ الرّفق بالجاني عتاب

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص91.

البيت لأبي الطّيب المتنبّي (303ه / 354 ه) من بحر الوافر، يطلب فيه الشّاعر من سيف الدّولة الرّفق بخصومه وإن جنوا، فإنّه من رفق بمن جنى عليه، كان ذلك الرّفق عتابًا آسرا، لا لوما قاسيا؛ ومِنْ ثمّ فإنّ الصّفح عن الجاني يجعله عبدًا لك وهنا مكمن الحكمة البليغة، وموطن الرّأي السّديد ولا غرْوَ في ذلك، فالمتنبّي معروف بهذه الدُّرر، فهو القائل(وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمُ) .

وقد حقّق المتنبّي هذه اللّطائف باستخدام الأسلوب الانشائي الطّلبي المتمثّل في الأمر[17] (ترفّق) غرضه طلب الالتماس، ثمّ أسلوب النّداء (أيّها المولى) فهو يخاطب مليكه في ضراعة وتوسّل، لا يخاطبه آمراً متحكّمًا، إذ إنّ الملك لا يأمره أحد من رعاياه. ثمّ استخدم أيضا أسلوب التّقرير في عجز البيت (إنّ الرّفق) على سبيل التّأكيد.

11- قال الشّاعر:

أحسِنْ إلى النّاس تَستعبدْ قلوبَهم فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

كتاب(مفاتيح النّجاح) ص92.

نعم؛ فالحكمة تقول(من وجدَ الإحسان قيدا تقيّد) هذا البيت الشّعري الذي استشهد به الشّيخ أمحمّد صافي في المفتاح السّادس للنّجاح والسّعادة وهو (الرّغبة المشتعلة) قائلا «لكي تنجحَ يجب أن تكون رغبتك في النّجاح تفوق خوفك من الفشل »[18] البيت لشاعر الحكمة الشّهير أبي الفتح البستي، شاعر الزّهد[19] من قصيدة مطوّلة من بحر البسيط (إنّ البسيط لديه يبسط الأمل مستفعلن فاعلن مستفعلن فعل)، وقد شمل البيت أكثر من صورة، ففي صدر البيت كناية عن تحكّم الإحسان وامتلاكه وسيطرته سيطرة كلية على قلوب النّاس، وفي عجزه استعارة مكنيّة شبه الشّاعر فيها الإحسان وهو اسم معنى بإنسان يعي ويستعبد ويسيطر، فحذف المشبّه به الإنسان، وترك لازمة من لوازمه (استعبد)على وجه الاستعارة المكنيّة وكم في الصّورتين من تشخيص للمعنى وتقديمه في صورة

حركيّة مستمرّة في الزّمن بدلالة لفظ (لطالما) ومن زاويّة أخرى فقد زانَ البيتَ اختيارُ الشّاعر للأسلوب الإنشائي الطّلبي المتمثّل في أسلوب الأمر (أحسن) غرضه النّصح والإرشاد.

12- ولم يبرح الكاتب الصّفحة ذاتها ولا المعنى نفسه، فأورد بيتا داعما للشّاهد الحكمي السّالف الذّكر من بحر الطّويل، وهو لأبي الطّيب المتنبي من قصيدة قالها في مدح سيف الدّولة يمدحه ويهنئه بعيدِ الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاث مائة هجريّة، أنشده إياها في ميدانه بحلب وهما على فرسيهما: (لكلّ امرئ من دهره ما تعوّدا) حيث يقول:

لِكُلِّ اِمرِئٍ مِن دَهرِهِ ما تَعَوَّدا   وَعادَةُ سَيفِ الدَولَةِ الطَّعنُ في العِدا
وقيّدت نفسي في ذَرَاك محبّة   ومَنْ وَجدَ الإحسانَ قيْدًا تَقيّدا

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص92.

البيت الثّاني هو الشّاهد المقصود، ومعناه، في شرح البرقوقيّ (في ذَرَاك: في كَنَفك. يقول: إنّما أقمتُ عندك حبّاً لك، لأنّك قيّدتني بإحسانك)[20] وأمّا في شرح شعر المتنبي، الأفليلي: فقال: (وقيّدت نفسي في ذراك وأرضك، وقصرتها على إحسانك وفضلك، ومن وجد الإحسان قيدًا تقيّد به، وألزم نفسه إياه، ولم يختر لها مقصوداً سواه)[21] وفي ذلك صورة بيانية هي الكناية عن لزوم المتنبّي سيفَ الدّولة وانقياده له فهو لا يفارقه.

13 – قال الشّاعر :

ذمَّ الزّمـــــانَ بنـــو الزّمـــان وإنّـــما   ذمّـــوا نفوســــــهم وإنْ لمْ يشـــــعروا

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص104.

البيت من بحر الكامل (كمل الجـمال مـن البحـور الكامـل متفـاعلن متفـاعلن متفاعل) وفيه أسلوب قصر عن طريق لفظة (إنّما) التي قصـرت الـذّمّ عـلى النّـاس دون سواهم، فإذا ذمّ أهلُ الزّمانِ الزّمانَ، فقد ذمّوا أنفسهم وما يشعرون، وفي ذلـك كناية عن غفلتهم (لأنّهم يبحثون عن النّجاح خارج ذواتهم، ومفـاتيح النّجـاح بـين صدورهم... نتائجك اليوم هي خياراتـك بـالأمس)[22] فلـيس الزّمـان إلاّ للنّـاس الذين فيه يعيشون. ويتقاطع هذا البيت من حيث معناه مع البيت الموالي.

13 – قال الشّاعر:

نعيــــب زماننـــــا والعيـــــب فينـــــا   ومـــــا لزماننـــــا عيـــــب ســـــوانا

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص104.

تُنسب الأبيات[23] إلي شـعراء كثـيرين في مقـدّمتهم الإمـام الشّـافعي، غـير أنّهـا للشّاعر ابن لنكك وهو أبو الحسن محمّد بـن محمّـد بـن جعفـر البصــريّ الأديـب النّحوي الشّاعر (توفي360 هـ/ 970م) نشأ في البصـرة وعاش في بغـداد، حيـث يرى أغلب المؤرّخين والكتاب مثل الصّفدي في كتابه (الوافي بالوفيّـات) والـزّركلي في (الأعلام) وياقوت الحمويّ في (معجم الأدبـاء)[24] ذهبـوا إلى أنّ قائلها هـو أبـو الحسن محمّد بن محمّد بن جعفر البصريّ الشّهير بـ(ابن لنكك) وكان شـاعرا كبـيرا

لكنّه لم يصل إلى المكانة التي يستحقها، بسبب معاصرته للمتنبي. وهو ناظم الأبيات المذكورة التي منها قوله:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا
يُعاف الذّئبُ يأكلُ لحمَ ذئب   ويأكل بعضُنا بعضًا عيانا[25]

وأبياته من بحر الوافر (مفاعلتن مفاعلتن فعول) ومنها هذا البيت الشّهير الذي يستشهد به الشّيخ أمحمّد صافي المستغانمي في المفتاح السّابع للنّجاح والسّعادة وهو ضرورة (تحمّل المسؤولية)[26] لأنّ (مبدأ تحمّل المسؤولية مبدأ عظيم دعتّ إليه جميع الأديان السّماوية ... أمّا اللّوم والعتاب فهو ملجأ الضّعفاء)[27] ومن أجل ذلك قال الله تعالى﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾سورة النّجم 38/ 39.

والمعنى المقصود من البيت أن الزّمان (بوصفه زمنا) ليس به عيْب، ولا هو أهل لأن يُذمّ؛ إنّما مَردّ العيب والذّمّ لأفعال النّاس وأخلاقهم، لأنّ الزّمان إنّما هو وعاء ظرف لما يكون فيه من أقوال النّاس وأعمالهم وأحوالهم؛ فمتى حصل الذّمّ والعيبُ كان الحقيقُ به من ارتكب الفعل الشّنيع المذموم، وليس (الوعاء) الظّرف الذي تحدث فيه الأفعال.

فالبيت الشّعري مشحون بطاقة سلبيّة يلجأ إليها ضعاف النّفوس لتبرير فشلهم لذلك تصدّى لهم الشّاعر لتصويب اعوجاجهم وتقويم سلوكهم، مستخدما المقابلة بين المعاني لتجليتها، وأسلوب القصر في الشّطر الثّاني(سوانا) إذ جعل العيب مقصورا على النّاس دون سواهم. ولهذا يقول الشّيخ: «فلا تعجل بإلقاء اللّوم على

أحد، فكلّ ما أنت فيه هو من صنع يديك وتخمين تفكيرك، ونتاج قراراتك ومخرجات اختياراتك»[28]

14- يقول الشّاعر:

إنّ الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص140.

صاحب البيت هو الحسين بن إبراهيم أبو عبد الله النّطنزيّ الأصبهانيّ النّحوي الملقّب بذي اللسانين من كبار أئمة العربيّة توفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة من شعره من بحر الكامل، يتضمّن البيت الكناية عن علوّ الشّأن ورفعة المنزلة لدى العلماء، وأسلوبه تقريري (إنّ الأكابر) وظّف فيه الشّاعر أسلوب اللف والنّشر فذكر أوّلا (الأكابر يحكمون على الورى) ثمّ نشر وفصّل (وعلى الورى تحكّم العلماء) لاحظ منزلة العلماء لديه في قوله:

العزُّ مخصوصٌ به العلماء ما للأنام سِواهم ما شاءوا
إنّ الأكابرَ يحكمون على الوَرى وعلى الأكابرِ يحكمُ العلماء

15- قال الشّاعر:

العلم ينهض بالخسيس إلى العلا والجهل يقعد بالفتى المنسوب[29]

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص140.

البيت المذكور مُستشهَدٌ به في (مفتاح السّعادة الحادي عشر) وهو مفتاح (قوّة التّخصّص المعرفيّ) لأنّ العلم كما يقول الشّيخ صافي (شرف في الدّنيا ورفعة في

الآخرة)[30] البيت واحد من ثلاثة أبيات فقط[31] من بحر الكامل (كمل الجمال من البحور الكامل متفاعلن متفاعلن متفاعل) وهو لصاحبه (شاعر العلماء وعالم الشّعراء) دعبل الخزاعيّ (138ه/ 246 ه)[32] يتحدّث فيه عن فضل العلم ومنافعه ويرفع من قيمة أهله، ويبيّن مضار الجهل. ومكمن البلاغة في البيت تقاطب شطريّه ألفاظا ومعاني، في ثنائيّة ضدّية على طول مبناه، ففي قول الشّاعر (العلم ينهض) استعارة مكنيّة جميلة جسّدت العلم ــ وهو اسم معنى ـ وجعلت منه كائنا حيّا ناهضا في صورة حركيّة تشي بكثير من الحيويّة وفي الشّطر الثّاني في قوله (والجهل يقعد) أيضا استعارة مكنيّة شخّصت الجهل -وهو اسم معنى- وجعلت منه كائنا حيّا يقعد بصاحبه، فحذف الشّاعر المشبه به وترك صفة من صفاته (يقعد)على سبيل الاستعارة المكنية. ويضاف إلى الاستعارتين المذكورتين، صورتان أخريان هما الكناية في صدر البيت عن مفهوم النّهوض والتّحضّر والايجابية، بخلاف عجز البيت فهو كناية عن التأخّر والتّخلّف ومفاهيم السّلبية، ومن ثمّ كان لهذا التّقابل في المعاني والألفاظ ــ بضدّها تتميّز الأشياء ــ ما يشكّل مقابلة أيضا مؤلّفة من المتناقضات التّالية(العلم/ الجهل) و (ينهض/ يقعد) و(الخسيس/ المنسوب) .

16- قال الشّاعر:

ترجو النّجاة ولم تسْلكْ مسالكها   إنّ السّفينةَ لا تجري على اليبَسِ

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص186.

هذا البيت الشّعريّ الجميل لشاعر الزّهد أبي العتاهية (130ه/ 211ه) وأمّا عن مناسبته فقد (ذُكر عَن أبي الْعَتَاهِيَة رَحمَه الله أَنّه دخل يَوْماً على الرّشيد، فَقَالَ لَهُ الرشيد: أَنْشدني، فَقَالَ: اجْعَل لي الأمان، قَالَ: أَنْت آمن)[33].

فَأَنْشَأَ وَأنْشد: لا تأمن الموت.

لَا تأمن الْمَوْت فِي طرفٍ وَلَا نفسٍ | وَإِن تسترت بالحُجَّاب والحرسِ
وَاعْلَم بِأَنّ سِهَامَ الْمَوْتِ قاصدةٌ | لكلِّ مدرَّع منّا ومتَّرس
مَا بَال دينك تَرْضى أَن تدنّسه | وثوبك الدَّهْر مغسولٌ من الدّنسِ
ترجو النجَاة وَلم تسلك مسالكها | إِنّ السَّفِينَة لَا تجْرِي على اليبسِ

فبكى الرّشيد، وخرّ مغشيا عليه.

والبيت (الشّاهد) يحتوي تشبيها ضمنيّا في غاية الرّوعة لما يحمل من منطق، وما يحقّق من إقناع، وما يثبت من حجّة دامغة، وإلاّ كيف كان له هذا التّأثير على الخليفة حتى أبكاه؟ فالمشبَّه حال من يرجو النّجاة من عذاب الآخرة، ولا يسلك مسالك النّجاة، والمشبه به حال السّفينة التي تحاول الجري على الأرض اليابسة. فكان عجز البيت دليلا منطقيا، ومثالا تصويريا حيّا مُلزِمًا للمتلقّي بالانتصاح.

17-قال الشّاعر:

يُحاولُ نيلَ المجدِ والسّيفُ مغمدُ | ويأملُ إدراك المنى وهْوَ نائم

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص237.

قائل هذا البيت الشّعري هو أبو بكر بن عتيق بن عمر بن أحمد البكري السّوارقي[34] والبيت من بحر الطّويل، يتضّمن صورة بيانيّة متمثّلة في الكناية بشكل متكرّر، عبّرت عنها الجملة الحاليّة المكرّرة أيضا (والسّيفُ مغمد) و(وهْو نائم) ففي الشّطر الأوّل، كنايّة عن استحالة نيل المجْد، وفي الشّطر الثّاني كنايّة عن استحالة إدراك المنى، فمنطق المعنى يستدعي قول أحمد شوقي:

فما نيلُ المطالب بالتّمنّي ولكن تؤخذ الدّنيا غلابا

وهذه هي الدّلالة التي أطّرت الغاية النّبيلة التي استهدفها الكاتب في مفتاح السّعادة السّادس والعشرين وهي (العمل) فجاءت الكناية، التي هي من ألطف أساليب البلاغة ،وأجملها وأدّقها، لتقول بالإيحاء والتّلميح، ما لا تقوله بالحقيقة وبالتّصريح، فجمعت بين الفائدة النّبيلة، ولطف الإشارة الوجيزة التي تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها.

18- وفي المضمار نفسه، وفي الصّفحة ذاتها (237) وتجلية لمعاني الجدّ في العمل وفي طلب العلم يورد الكاتب بيتا شعريا لم نجد له شاعرا محدّدا وإنّما ينسب إلى أقوال العلماء الحكماء والمفكرين، وهو قول الشّاعر:

ومنْ طلب العلومَ بغيْر كَدٍّ سيُدركها إذا شابَ الغُراب

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص237.

وهو من بحر الوافر (بحور الشّعر وافرها جميل مفاعلتن مفاعلتن فعول).

وفي هذا التّعبير كناية عن استحالة حدوث الشّيء (يستحيل تحصيل العلم بغير كدّ) لأنّ الغراب لا يشيب أبدا، ولذلك يقال للطّلاب ترغيبا ونصحا وحثّا لهم على طلب العلم، فيكون المعنى المستفاد، بالكدّ والجِدّ يحصل العلم لا بغيره، وقد كانت العرب تتشاءم من صوت الغراب وتربط بين صوته ومفهوم الفراق، فحملت ذاكرتهم تعبير (غراب البين) وهو كناية عن الرّحيل والفراق. ولا يخفى على القارئ ما تقدّمه الصّورة من سخريّة واستهزاء بمن لا يجدّ في طلب العلم.

19– قال الشّاعر:

يمــوتُ رديءُ الشّــعر قبــل صــاحبه وجيّــدُه يبقــى وإنْ مــات قائلــهْ

كتاب (مفاتيح النّجاح) ص253.

هذا البيت الشّعري من بحر الطّويل، وهو للشّاعر دعبل الخزاعي (148ه/ 246ه)[35] يتضمّن في صدره كناية عن تفاهة هذا الشّعر وقصر عمره ويتضمّن في عجزه كناية عن خلوده ورفعة شأنه، وقد تعمق هذا المعني من خلال المقابلة بين الشّطرين (يموت/ يبقى و رديء/ جيّده وقبل/ مات).

خاتمة: لا أزعم أنّني أفلحت في الإلمام بجوانب الموضوع كلّه، فذلك شرف لا أدّعيه ولكنّ الرّغبة الملحّة التي تمليها طرائق التّحليل، وأساليب الإقناع لدى أمحمّد صافي، تفتح أمام القارئ فرصة التّجول في اختياراته الشّعرية الموفقة وتفرض عليه مساءلة جوانبها وشؤونها البلاغية، وهذا ما سعينا، لعلّه يفي بشيء من الغرض.

الهوامش:

1- محمّد صافي المستغانمي، مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة (رؤية تأصيلية)، دار بن كثير دمشق سوريا الطّبعة الأولى 1438ه/ 2018م، ص 35.

2- أشاع أهل المجون أن أبا العتاهية زنديق، وقد حدَّث الخليل النّوشاني قائلاً: أتانا أبو العتاهية إلى منزلنا فقال زعم النّاس أنّني زنديق، والله ما دينيّ إلاّ التوحيد، فقلنا: قل شيئا نتحدث به عنك، فقال:

ألاّ إنّنا كلّنا بائد	وأي بني آدمٍ خالد
وبدؤهمُ كان من ربّهم	وكلّ إلى ربّه عائد
فيا عجبا! كيف يعصى الإله؟	أم كيف يجحده الجاحد؟!
ولله في كلّ تحريكة	علينا وتسكينة شاهد
وفي كلّ شيء له آية	تدل على أنّه واحد

3- محمّد صادق أمين، مداد، فلسفة أبي العتاهية الشّعرية، تاريخ النّشر: 27 شوال 1428 (2007-11-08 http://midad.com/article/210708

4- محمّد صافي المستغانمي، مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة. ص 29.

5- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1)1424ه،2003م،ص 69.

6- نسبها الألوسي في تفسيره وابن عاشور كذلك في تفسيره لمحمود الوراق الفقيه، التّحرير والتّنوير (ج 1،ص 39).

7- أنظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيّات الخطاب، ص 3.

8- أصله من فارس ترك أهله وبلده سعيًا وراء معرفة الدّين الحقّ؛ فانتقل بين البلدان ليصحب الرّجال الصّالحين من القساوسة، إلى أنّ وصف له أحدهم ظهور نبي في بلاد العرب، ووصف له علاماته... وعند هجرة النّبي محمّد إلى يثرب، سمع به سلمان، فسارع ليتحقق من العلامات، فأيقن أنّه النّبي الذي يبحث عنه، فأسلم، وأعانه النّبي محمّد وأصحابه ... شهد سلمان مع النّبي عليه ﷺ غزوة الخندق، وهو الذي أشار على النّبي بحفر الخندق لحماية المدينة من قريش وحلفائها، ثمّ شهد معه باقي المشاهد. وبعد

وفاة النّبي شهد سلمان الفتح الإسلاميّ لفارس، وتولىّ إمارة المدائن في خلافة عمر بن الخطاب إلى أن توفي في خلافة عثمان بن عفان33ه. https://ar.wikipedia.org/wiki/

[9]- ناصر محمد السّعدي، علم البديع ،الطّبعة الأولى2014، دمشق،جامعة دمشق ،ص63.

[1]- أحمّد صافي المستغانمي، مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة.ص 34.

[11]- الرّائية مشهورة منها هذه الأبيات:

كأنّك قد جاورتَ أهلَ المقابر ... هو الموتُ يا بن الموتِ إنْ لمْ تبادر
فَكَم مِن عَزيزٍ قَد رَأَينا امتِناعَهُ ... فَدارَت عَلَيهِ بَعدُ إِحدى الدَوائِرِ
وَكَم مَلِكٍ قَد رُكِّمَ التُربُ فَوقَهُ ... وَعَهدي بِهِ في الأَمسِ فَوقَ المَنابِرِ
إذا أَبقَتِ الدُنيا عَلى المَرءِ دينَهُ ... فَما فاتَهُ مِنها فَلَيسَ بِضائِرِ
إذا أَنتَ لَم تُؤثِر رِضى اللهَ وَحدَهُ ... عَلى كُلِّ ما تَهوى فَلَستَ بِصابِرِ
إذا كُنتَ بِالدُنيا بَصيراً فَإِنَّما ... بَلاغُكَ مِنها مِثلُ زادِ المُسافِرِ
وَإِنَّ امرَأً يَبتاعُ دنيا بِدينِهِ ... لُمنَقَلِبٌ مِنها ا بِصَفقَةِ خاسِرِ
وَكُلُّ امرِئٍ لَم يَرتَحِل بِتِجارَةٍ ... إِلى دارِهِ الأُخرى فَلَيسَ بِتاجِرِ
وَما تَعدِلُ الدُنيا جَناحَ بَعوضَةٍ ... لَدى اللهَ أَو مِقدارَ زَغبَةِ طائِرِ

/ https://www.facebook.com/MAhmedMorsyAHemaya/posts/1812327268986734

[12]- مِنْ علم البلاغة (البديع) اللَّفُّ وَالنَّشْرُ: وَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ شَيْئَانِ أَوْ أَشْيَاءُ، إِمَّا تَفْصِيلًا بِالنَّصِّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَوْ إِجْمَالًا بِأَنْ يُؤْتَى بِلَفْظٍ يَشْتَمِلُ عَلَى مُتَعَدِّدٍ ثُمَّ يُذْكَرَ أَشْيَاءُ عَلَى عَدَدِ ذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِ وَيُفَوِّضُ إِلَى عَقْلِ السَّامِعِ رَدَّ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى مَا يَلِيقُ بِهِ.

رابط الموضوع: https://www.alukah.net/sharia/0/102728/#ixzz71wvFVmqR

[13]- أسره المشركون , وعذّبوه عذابًا شديدًا وقالوا له: (أتحب أن يكون محمد مكانك وأنك معافى في أهلك ومالك), فقال: (والله ما أحب أن أكون معافى في أهلي ومالي ويشاك محمّد -ﷺ- بشوكة -أي وهو كذلك معافى في...) ولما أرادوا قتله أنشأ يقول:

ولســـت أبـــالي حـــين أقتـــل مســـلمًا عـــلى أي جنـــب كـــان في الله مـــصرعي

مـــــا دام في ذات الإلـــــه وإن يشـــــأ يبـــارك عـــلى أشـــلاء شـــلو ممـــزع

الأبيـــات التـــي قالهـــا الصّـــحابي خبيـــب بـــن عـــدي ﷺ عنـــدما صـــلبوه و قتلـــوه...

http://midad.com/article/215236/ مداد، تاريخ النشر: 27 شوال 1428 / 08-11-2007...

[14] - أمحمّد صافي المستغانمي ، مفاتيح النّجاح ،ص33.

[1] أمحمّد صافي المستغانمي، مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة، (رؤية تأصيلية) دار بن كثير، دمشق سـوريا الطّبعة الأولى2018 ، ص33.

[15]– حني عبد اللطيف– شعرية الانزيـاح وبلاغـة الإدهـاش في الخطـاب الشّـعري الشّـعبي الجزائـريّ صفحة موجودة على الرّابط التّالي: http://www.alkalimah.net/Articles/Read/19756 :

[16] - التّشبيه الضّمني: هو تشبيه لا يُوضع فيه المشبه والمشبه به في صـورة مـن صـور التّشـبيه المعروفـة بـل يلمح المشبه والمشبه به، ويفهمان من المعنى، ويكون المشبه به دائـمًا برهانًـا عـلى إمكـان مـا أُسـند إلى المشـبه كقول المتنبي:

مَـــن يَهُـــن يَسْـــهُلِ الهـــوانُ عليـــه مـــــا لجـــــرحٍ بميِّـــــت إيـــــلامُ

أيّ: إنّ الذي اعتاد الهوان يسهل عليه تحمّله، ولا يتألّم له، وليس هذا الادعاء باطلًا؛ لأنّ الميت إذا جُـرح لا يتألّم، وفي ذلك تلميح بالتّشبيه في غير صراحة، وليس عـلى صـورة مـن صـور التّشـبيه المعروفـة، بـل إنـه «تشابه» يقتضي التساوي، وأما «التشبيه» فيقتضي التّفاوت.

[17]- والأمر « صيغة يطلب بها على وجه التّكليف والإلـزام حصـول شيء لم يكـن حاصـلا وقـت الطّلـب وطالب الفعل فيها أعظم وأعلى ممّن طلب الفعل منه »(علي الجـارم، مصـطفى أمـين، البلاغـة الواضـحة البيان والمعاني والبديع، دار المعارف، ص178.

[1] (أيّها القارئ الكريم ـ لكي تنجح وتذوق سعادة النّجاح، وتستسيغ طعمه اللذيذ، فإنّه يتعـيّن عليـك أن تقع في غرام عملك، وعشق وظيفتك، وأن تشغف بها حبّا ولبلوغ ذلك، عليـك أن تطعـم معنـى الرّغبـة المشتعلة).أمحمّد صافي المستغانمي، مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة، (رؤية تأصيلية) دار بـن كثـير دمشـق سوريا، الطّبعة الأولى2018 ، ص92.

-18 أديب زمانه أبو الفتح البستي ولد في بست أفغانستان سنة 330ه/ ت400ه) انظر أخباره في : وفيّات الأعيان 3 / 376 ويتيمة الدّهر 4 / 345 وما بعدها (طبعة بيروت) وأمّا القصيدة: فهي قصيدة النونية والمشتهرة بنونية البستي[1] وتعد من أروع وأشهر قصائده[1] بل من أشهر قصائد الحكمة والزّهد، وقد قام بشرحها كثير من الفضلاء[1] والتي يقول فيها :

زيادَةُ المَرء في دُنياهُ نقصانُ ... وربْحُهُ غَيرَ محض الخَير خُسرانُ

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ ... فطالَما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

يا خادمَ الجسم كم تشقى بِخدمته ... أتطلب الربح فيها فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنّفس لا بالجسم إنسان

-19 شرح البرقوقي، دار الكتاب العربيّ للنّشر، بيروت لبنان،1980 .

http://www.almotanabbi.com/poemPage.do;jsessionid=odVOi4alZs8n2UtXmz-emaLJ.undefined?pageId=105

20– شرح شعر المتنبي – الأفليلي، مؤسّسة الرّسالة للنّشر، تحقيق د. مصطفى عليّان.

http://www.almotanabbi.com/poemPage.do;jsessionid=odVOi4alZs8n2UtXmz-emaLJ.undefined?pageId=105

-21 أمحمّد صافي المستغانمي، مفاتيح النجاح وسنن السّعادة ، ص103 .

-22 من شعره في حقيقة الزّمان وأهله:

يعيبُ النَاسُ كلُّهمُ الزّمانَا ... ومَا لِزمانِنَا عَيبٌ سِوَانَا

نَعِيْبُ زمانَنا والعيب فِيْنَا ... وَلَوْ نَطَقَ الزَّمانُ إِذَنْ هجَانَا

ذِئَابٌ كلُّنَا في زيّ نَاسٍ ... فسُبْحَانَ الذي فيه بَرَانَا

يَعَافُ الذئبُ يأكلُ لَحْمَ ذِئْبٍ ... ويَأكلُ بَعْضُنَا بَعْضَاً عِيَانَا

-23 الثّعالبي، يتيمة الدّهر، تحقيق مفيد قميحة (دار الكتب العلميّة، بيروت 1983).

ياقوت الحموي، معجم الأدباء (دار إحياء التّراث، بيروت 1936).

الصّفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق مجموعة (جمعيّة المستشرقين الألمانيذة 1962).

السّيوطي، بغيّة الوعاة، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم (مكتبة البابي الحلبي، القاهرة 1964).
https://www.marefa.org محمود سالم محمد. (ابن لنكك). الموسوعة العربيّة .

[24] https://alwan.elwatannews.com/news/details/3137564/

-25 أحمّد صافي المستغانمي، مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة. ص 100.

-26 أحمّد صافي المستغانمي. م، ن، ص 101.

-27 – أحمّد صافي المستغانمي. م، ن، ص 105.

- 28 المنسوب: ذو النّسب الرّفيع .أنظر الديوان ص 32.

-29 أحمّد صافي المستغانمي ، مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة، (رؤية تأصيلية) دار بن كثير، دمشق سوريا، الطّبعة الأوّل2018 ، ص139.

-30 وقال في العلم: من بحر الكامل.

العلم ينهض بالخسيس إلى العلا   والجهل يقعد بالفتى المنسوب

وإذا الفتى نال العلوم بفهمه   وأعين بالتّشذيب والتّهذيب

جرت الأمور له فبرّز سابقا   في كلّ محضر مشهد ومغيب

أنظر الديوان: دعبل بن علي الخزاعي ،شرحه حسن بن حمد،دار الكتاب العربي،بيروت ، الطّبعة الأولى،1994 ، ص 32.

-31 جاء في الأغاني عن الجاحظ أنّه قال :سمعت دعبل بن علي يقول:" مكثت نحو ستين سنة ليس من يوم ذرّ شارقه إلاّ وأنا أقول فيه شعرا" أنظر:ديوان دعبل بن علي الخزاعي، شرحه حسن بن حمد، دار الكتاب العربيّ، بيروت ،الطّبعة الأولى، 1994، ص 12.

-32 المصدر: بستان الواعظين لابن الجوزي، الموعظة رقم (282).

-33 شاعر من أهل السّوارقية، قريّة بين مكّة والمدينة المنوّرة، شريف فقيه فاضل فصيح، حسن العبارة سار إلى خراسان وتفقّه على يدّ الإمام محمد بن يحي بنيسابور، ومات بطوس سنة 538 ه، له شعر جيد منه:

ذريني فلا أرضى بعِيشة مُقترِ   وما رضيتْ عنّي السّيوفُ الصّوارم

لــــئن لمْ أزرْهـــــا الحــــربَ قُبّـــا يقودهــــا إلى المـــوت ليـــثُ مــــن قـــريش ضــــبارم
فـــلا ولــــدتني مـــن لـــؤيّ بـــن غالـــب ليـــوثُ الـــوغى والمحصـــنات الكـــرائم
أيطمــــعُ في العليــــاء والمجــــدُ ســــالم وعاتقـــه مــــن عرضــــة السّـــيف ســــالم
يُحـــاولُ نيـــلَ المجـــدِ والسّــفُ مغمــدُ ويأمــــل إدراك المنــــى وهْــــو نــــائم

كتاب السلالة البكرية الصّدّيقية ،الجزء الثّاني لأحمد فرغل الدّعباسي البكري.نشر بتاريخ 1 رمضان 1438ه/ 26 مايو 2017م.

[34]- من أشهر شعراء الشّيعة في القرن الثّاني والثّالث، كان دعبل هجّاء حاد اللسان، الأمر الذي جعله لا يستقر بمكان، فكان دائماً يطارد من قبل الحكام، وكانت هذه الصّفة من الأسباب التي أدت إلى مقتله لدعبل مؤلّفات عدّة، منها: (الواحدة في مناقب العرب ومثالبها)، و(طبقات الشّعراء)، وفضلاً عن ذلك فقد كان دعبل راوياً للحديث، فورد اسمه في كتب الحديث والرّوايات.

الملحق:

يتضمّن الملحق قائمة النّماذج الشّعرية التي تمّ رصدها واستخراجها من كتاب (مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة) لصاحبه أمحمّد صافي المستغانمي، وقد اخترنا عيّنة أجرينا حولها شيئا من التّحليل للوقوف على بعض جماليّاتها وخصوصيّاتها، في حين يبقى المجال مفتوحا لفرصة لاحقة لاستكمال التّحليل.

وقد رأينا أنّ بعض الشّواهد مكرّرة في الكتاب فتحاشينا التّطرق إليها أكثر من مرّة.

الرّقم	الشّاهد الشّعريّ	الصّفحة
1	يا من يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة اللّيل البهيم الأليل ويرى نياط عروقها في نحرها والمخّ في تلك العظام النّحّل ويرى ويسمع حسّ ما دونها في قاع بحر مظلم متهوّل أمنن عليّ بتوبة تمحو بها ما كان منّي في الزّمان الأوّل.	.31
2	قلوب براها الحبّ حتى مذاهبها في كلّ غرب وشارق تهيم بحب الله والله ربّها معلّقة بالله دون الخلائق.	.33
3	إذا أنت لم ترْحلْ بزاد من التّقى ولاقيت بعد الموت منْ قدْ تزوّدا ندمتَ على ألاّ تكون كمثله وأنّك لم ترصدْ كما كان أرْصدا.	.34
4	وكن رجلا رجله في الثّرى وهامته همّته فوق الثّريّا.	.41
5	إنّ المقدّر كائن لا ينمحي ولك الأمان من الذي ما قدّرا.	.84
6	لست أدري من أيّ يوميّ يوم قَدِرَ أو يوم لا يُقدرُ يوم لا يُقْدَرَ لا أخافه ومن المقدور لا ينجو الحذر.	.85
7	لعمرك ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولكنَّ أخلاق الرّجال تضيق.	.92

8	ســـــافر تجـــــد عوضــــا عمّـــــن تفارقـــه وانصـــب فـــإنّ لذيـــذ العـــيش في النّصـــب إنّي رأيــــــت وقـــــوف المـــــاء يفســـــده إن ســــال طـــاب وإن لم يجــــر لم يطـــب والشّـــــمس لـــو وقفـــت في الفلـــك دائمـــة لملّهـــا النّـــاس مـــن عجـــم ومـــن عـــرب والأسْـــدُ لـــوْلا فِـــراقِ الغـــابِ مـــا افترســـت والسّـــهمُ لـــوْلا فِـــراقُ القـــوْسِ لمْ يصـــب.	.112
9	إذا كنــــت ذا عقـــل فـــلا تخـــش غربـــة فـــــما عاقـــــل في بلـــــدة بغريـــــب.	.124
10	ومـــــا أدّبَ الإنســـــانَ مثـــــلُ عقلـــــه ومـــــا عقلـــــه إلاّ بحســـــن التّـــــأدّب.	.124
11	يـــا طالـــب العلـــم نعـــم الـــشيء تجمعـــه لا تعـــــــــدلنّ بـــــــــه درّا ولا ذهبـــــــا العلـــــم كنــــز وذخــــر لا نفــــاذ لـــــه نعـــم القـــرين إذا مـــا عـــاقلا صـــحبا وجـــامع العلـــم مغبـــوط بـــه أبـــدا ولا يحـــاذر فيـــه الفـــوت والسّـــلبا.	.141
12	ينـــال الفتـــى بـــالعلم كـــلّ فضـــيلة ويعلـــو مقامـــا بالتّواضـــع والأدب.	.146
13	وكـــــلُّ شـــــديدةٍ نزلـــــت بقـــــوم ســـــيأتي بعـــــد شـــــدّتها رخـــــاءُ.	.161

14	وقـــــلّ مــــنْ جـــدّ في أمـــــرٍ يحاولـــــه واسْتَصْـــــحبَ الصّـــبرِ إلاّ فــــاز بــــالظّفر.	161.
15	إذا لمْ يكـــــنْ عــــونٌ مــــن الله للفتـــــى فــــأكثر مــــا يجنـــي عليـــه اجتهــــادُهُ.	162.
16	وكــــنْ رجـــــلا رجلُـــــهُ في الثـــرى وهامــــــة همّتـــــه فــــــوق الثّريـــــا.	170.
17	إذا كنــــــــــــــتَ ذا شرف مَـــــــــــرومٍ فــــلا تقنـــــعْ بـــــما دونَ النّجــــــوم فطعـــــــم المـــــوت في أمـــــرٍ حقـــــير كطعـــــم المـــــوت في أمــــر عظـــــيم.	170.
18	ولســـــتُ أرى السّــــعادةَ جمـــعَ مـــال ولكـــــنَّ التّقـــــيّ هــــــو السّـــــعيدُ.	172.
19	ويــــرى الشّــــوك في الــــورود ويعمـــى أن يــــرى فوقهـــا النّــــدى إكلـــيلا.	191.
20	قـــدّر لرجلـــك قبـــل لخطـــو موضـــعها ولا تبيــــــتنّ إلاّ خــــــاليَ البــــــالي مـــا بـــين غمضـــة عـــين وانتباهتهـــا يغـــيّر الله مـــــن حـــــال إلى حـــــال.	217.

21	فـــــما نيـــــل المطالـــــب بـــــالتّمنّي ولكـــــن تؤخـــــذ الـــــدّنيا غلابـــــا.	.233
22	ومـــــا طلـــــب المعيشـــــة بـــــالتّمنّي ولكـــــنْ أَلْـــــقِ دلـــــوَكَ في الـــــدِّلاء ولا تقعـــــد عـــــلى كســـــل التّمنّـــــي تحيـــــل عـــــلى المقـــــادر والقضـــــاء فـــــإنّ مقـــــادر الـــــرّحمن تجـــــري بـــــأخلاق الرّجـــــال مـــــن السّـــــماء مقـــــدّرة بقـــــبض أو ببســـــط وعجـــــز المـــــرْء أســـــباب الـــــبلاء.	.233
23	وإذا الفتـــى عـــرف الرّشـــاد بنفســـــه هـــــانت عليـــــه ملامـــــة الجُهّـــــال .	.235
24	إذا الحمـــــلُ الثّقيـــــلُ توَازعتْـــــه أكُـــــفُّ القـــــوْم هـــــانَ على الرّقـــــاب.	.236
25	العلـــــمُ نـــــورٌ فلا تهمـــــلْ مجالسَـــــهُ واعمـــــلْ جميلا يُرَ فالفضْـــــلُ في العمَـــــل لا تَرْقُـــــدِ اللّيـــــل ما في النّوم فـــــائدة لا تكسلَـــــنَّ تـــــرَ الحِرمـــــانَ في الكســـــل.	.237
26	منْ كـــــانَ يعلـــــمُ أنّ الشّهـــــدَ مطلبُـــــه فـــــلا يَخـــــافُ للدْغ النّحـــــلِ مـــــنْ ألَـــــم.	.238

27	ســـــافرْ تجـــــدْ عِوضــــاً عمّــــنْ تفارقـــه وانْصـــبْ فـــإنّ لذيـــذَ العـــيش في النّصَـــب إنّي رأيــــــتُ وقـــــوفَ المــــاء يفســــدُه إنْ ســــالَ طــــابَ وإنْ لمْ يجْــــرِ لمْ يطـــب والشّـــمسُ لــــو وقفــت في الفلــك دائمــةً لملّهـــا النّـــاسُ مـــن عُجْـــمٍ ومـــنْ عَـــرَب والأسْـــدُ لـــوْلا فـــراق الغـــاب مـــا افترســـت والسّـــهمُ لـــولا فـــراقُ القـــوس لم تصِــدِ والتِّـــبْرُ كـــالتُّرْب مُلْقًـــى في أماكنـــه والعـــودُ في أرْضـــه نـــوعٌ مـــن الحطـــب.	.238
28	تغـــرّبْ عـــنِ الأوطـــان في طلـــب العـــلا وســـافرْ ففـــي الأســـفار خمـــسُ فوائـــد تفـــرّجُ هـــمٍّ، واكتســـاب معيشـــةٍ وعلْـــم وآدابٌ وصُـــحْبةُ ماجـــد.	.239
29	ولمْ أجـــدِ الإنســـانَ إلاّ ابـــن ســـعيه فمـــنْ كـــان أســـعى كـــان بالمجـــد أجـــدرا.	.242
30	والمـــرْءُ يـــورّثُ مجْـــده أبنـــاءَه ويمـــوتُ آخـــرُ وهْـــو في الأحيـــاء.	.239
31	حـــبُّ السّـــلامة يُثنـــي عـــزْم صـــاحبه عـــن المَعـــالي ويُغـــري المـــرْءَ بالكسَـــل.	.254

32	كـــــمْ مــــــنْ منــــزِلٍ يألفـــــه الفتــــى وحنينـــــــــه دوْمـــــــا لأوّل منـــــــــزلِ.	.255
33	وأجمــــــلُ منــــــكَ لمْ تـــــرَ قـــــطُّ عينـــــي وأحســــــنُ منــــــك لم تلـــــدِ النّســــــاءُ خُلقــــــتَ مُـــــبرّأً مـــــنْ كـــــلِّ عيـــــبٍ كأنّـــــكَ قــــدْ خُلقــــتَ كــــما تشــــاءُ.	.259
34	وفي غـــــابرِ الأيّـــــامِ مـــــا يعِــــظُ الفتـــــى ولا خـــيْرَ فـــيمن لمْ تَعِظْـــهُ التّجـــارب.	.261
35	مــــــنْ لمْ تفــــــدْه عــــــبراً أيّامــــــه كـــان العَمـــى أولى بـــه مـــنَ الهُـــدَى.	.262
36	ألمْ تـــــرَ أنّ العقـــــلَ زيْــــنٌ لأهْلــــه وأنّ تمـــام العقـــل طـــولُ التّجـــارب.	.262
37	يـــــا ليـــــلُ طـــــلْ ،يـــــا نـــــومُ زلْ يـــــا صـــــبحُ قــــــفْ لا تطلـــــــع.	.331
38	ألا أيّهـــــا الليــــــل الطّويـــــل ألا انْجـــــل بصـــبح ومـــا الإصـــباح عنـــك بأمثـــل ويـــا لـــك مـــن ليـــل كـــأنّ نجومـــه بكـــلّ مغـــار الفتـــل شـــدّت بيـــذبل.	.331

39	دقّـــات قلـــبِ المـــرْء قائلـــة لـــه إنّ الحيـــــاةَ دقــــــائقٌ وثــــــوان.	.333
40	ومـــن تكـــن العليـــاءُ همّـــة نفســـه فكـــلُّ الـــذي يلقـــاه فيهـــا محبّـــبُ.	.356
41	إذا أعْوزتْـــــكَ أكـــــفُّ اللّئـــــامِ كَفتْـــكَ القناعـــةُ شِـــبعًا ورِيـــا فكـــنْ رجـــلا رجلُـــه في الثّـــرى وهامـــــةُ همّتِـــــهِ في الثّريـــــا فـــإنّ إراقـــة مـــاءِ الحيـــاة دون إراقـــة مـــاء المُحيّـــا.	.356
42	عـــلى قـــدر أهـــل العـــزم تـــأتي العـــزائم وتـــأتي عـــلى قـــدر الكـــرام المكـــارم وتكّـــبر في عـــين الصّـــغير صـــغارها وتعظـــم في عـــين العظـــيم العظـــائم.	.359
43	إذا غـــــامرْت في شرف مـــــروم فـــلا تقنـــع بـــما دون النّجـــوم فطعـــمُ المـــوت في أمـــرٍ حقـــير كطعـــم المـــوْت في أمـــر عظـــيم.	.360
44	إذا هجـــع النّـــوامُ أســـبلتُ عـــبرةً وأنشـــدت ُبيتـــا وهْـــوَ مـــنْ الطّـــفِ الشّـــعر	.363

	ألـــــيس مـــــن الخُـــــــسران أنّ لياليـــــا تمــرُّ بـــلا علْــمٍ وتُحســـبُ مـــن عمـــري.	
45	ولـــــولا أنّ الشـــــعر بالشـــــعراء يـــزري لكنـــت اليـــوم أشـــعرَ مَـــن لبيـــد.	.363
46	إذا هبّــــــــت رياحــــــك فاغتنمهـــــــا فـــإنّ لكـــلّ خـــا ئفـــة ســـكونا.	.379
47	إذا وجـــــد الإنســــان للخــــير فرصــــة ولم يغتنمهـــا فهْـــو لا شـــكّ عـــاجز.	.382
48	وعـــاجز الـــــرأي مِضــــياعٌ لفرصــــته حتّـــى إذا فـــات أمـــرٌ عاتـــب القـــدرا.	.382
49	بــــادرْ إلى الفرصــــــة وانهـــــضْ لمــــا تُريـــــدُ فيهـــــا فهْــــيَ لا تلبـــــثُ.	.384
50	عميــــتُ جنينـــا والـــذّكاءُ مـــن العمـــى فجئْـــتُ عجيـــبَ الظّـــنّ للعلـــمِ مـــوئلا.	.385
51	النّـــاسُ للنّـــاسِ مـــن بـــدْوٍ وحـــاضرةٍ بعـــضٌ لـــبعضٍ وإنْ لمْ يشـــعروا خـــدم.	.388
52	إذا المـــــرْءُ لمْ يـــــبْنِ افتخـــــارا لنفســــه تضـــايقَ عنـــه مـــا بنتْـــه جُـــدودُه.	.392
53	إنّ الفتــــــى مــــــن يقــــول هأنــــذا لــــيس الفتـــى مـــن يقـــول كـــان أبي.	.392

54	إنْ كـــان وجــــهُ العـــذْرِ لــــيسَ ببـــيّن فـــإنّ اطّـــراحَ العـــذْر خـــيرٌ مـــن العـــذر.	.393
55	فكـــمْ مـــن حكـــيمٍ مـــات مـــنْ غـــيرِ علّـــة وكـــمْ مـــنْ ســـقيمٍ عـــاشَ حينـــا مـــن الـــدّهر.	.395
56	يــــــا نـــــــشْءُ أنـــــــتَ رجاؤنـــــــا وبــــــكَ الصّــــــباحُ قـــــد اقـــــترب خـــــــذْ للحيـــــــاة ســـــــلاحَها وخـــــــضِ الخُطـــــــوبَ ولا تهَـــــــب.	.423
56	إذا كنـــــــتَ ذا رأي فكـــــــنْ ذا عزيمـــــــة فــــإنّ فســـــادَ الـــــرّأي أنْ تــــــتردّدا.	.451
57	الـــــرّأيُ قبـــــلَ شـــــجاعة الشّـــــجعان هـــــو أوّلٌ وهـــــي المحـــــلُّ الثّـــــاني.	.452
58	وفي الشّـــــكّ تفـــــريطٌ، وفي الحـــــزْم قـــــوّةٌ ويخطـــئُ في الحـــدْس الفتـــى ويصـــيب.	.452
59	شـــاورْ سِـــواكَ إذا نابتْـــكَ نائبـــةٌ يومـــا وإنْ كنـــــتَ مـــــن أهـــــلِ المشـــــورات فـــالعين تنظـــرُ منهـــا مـــا دنـــا ونـــآى ولا تـــــرى نفســــــها إلاّ بمــــــرآة.	.452
60	وطـــولُ مُقـــامِ المـــرْءِ في الحـــيِّ مخلِـــقٌ لِدِباجتيْـــــــهِ فـــــــاغْترِبْ تتجـــــــدّدِ.	.453

61	لكــــــــلّ شيْءٍ حسَــــــــنٍ زينــــــــةٌ وزينــــــــةُ العاقــــــــل حسْــــــــنُ الأدب قــــــــدْ يشــــــــرْفُ المــــــــرْءُ بآدابــــــــه يومــــــــا وإنْ كــــــانَ وضــــــيعَ النّسَــــــب.	.453

علم البيان وأثره في التّحليل الدّلالي عند أمحمّد صافي المستغانمي

كتاب تصريف القول في القصص القرآني أنموذجا.

د. علي يحياوي
ج. الأغواط -مخبر اللسانيات التّقابلية-

الملخص بالعربيّة: تروم هذه الورقة البحثيّة إلى الحديث عن تصريف القول في القصّة القرآنيّة عند العلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي من خلال مؤلّفه: تصريف القول في القصص القرآني، وهو التّعبير عن المعنى الواحد بطُرق شتّى وأساليب متنوّعة وصياغات لغويّة فائقة، فمادّة صرّف أو تصريف ينطبق مدلولها على المعاني المقصودة من التفنّن والتّنويع والتّشابه في العرض اللّغوي والإبداع البيانيّ المتنوّع في عرض المضامين القرآنية، كما يتطرق البحث إلى المنهج الذي اعتمده المستغانمي في مقاربته التّحليلية البلاغيّة من خلال استعماله التّحليل الدّلالي للوصول إلى المعنى والوقوف عند اللّطائف البيانيّة في القرآن الكريم. وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يسير على المنهج الوصفيّ التّحليليّ.

الكلمات المفتاحيّة: القرآن الكريم– البيان – الدّلالة–تصريف القول– القصّة– التّحليل.

مقدمة: الحمدُ لله على سابغ نَعْمائِه، والشّكر لهُ سُبحَانه على وافِر آلائِه وصلاتُه وسلامُه على صَفوة خلقِه وأنْبيائِه، وعلى آله وصحبه وسائر أوليائه، ومن تبع هُداه إلى يوم الدّين وبعد؛

إنّ مجال البحث في النّص القرآني ومحاولة استكناه مخزُونه البياني والدّلالي لهُو الغاية التي ظهرت في سبيل تحقيقها جُلّ الدّراسات اللغويّة قديمًا وحديثًا، والتي لا تزال تنْهَل من النصّ القرآني أعْذبَ المناهل وتحاولُ استخراج لآلِئِه المكْنُونة، ولا ريْب فهُو المَوْرِد العذبُ الزُّلال الذي لا يظمأ شاربُه، ولا يملُّ دارسُه، ولا تنفدُ روائعُه وكنُوزه، فلقد كان القُرآن الكريم المصْدر الأوّل، والميدان الأخْصَب لكثير من العُلوم العربيّة، والدافعُ إلى نشأتها في الأصل ، فمُنذ نزوله انْبَرى لهُ عُلماءُ أجِلاّءُ يَدرسُونه من مختلف جوانبه البيانيّة واللغويّة والفقهيّة والإعجازيّة... فجعلوه محطّ أنظارهم، وموضع عنايتهم إلى يومنا هذا، يستقون من معينه صافي وينهلون من نبعه الفيّاض علومًا جمّة، وذلك لأنّه المدوّنة الوحيدة التّامة الأجزاء، فهو كلام الله فآياته محدودة، وكلماته معدودة، ومعجزاته غير متناهية، يتميّز بفصاحة اللفظ، وقوّة الدّلالة، وإعجاز النّظم .

يقول الباقلاّني: (القرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه من تعديل النّظم وسلامته، وحسن بهجته، وحسن موقعه في السّمع وسهولته على اللّسان، ووقعه في النّفس موقع القبول، وتصوّره تصوّر

المشاهد، وتشكله على جهته حتى يحلّ محلّ البرهان ودلالة التّأليف، ممّا لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة).[1]

فدراسة أساليب البيان في القرآن الكريم، تُعدُّ عنايةً فائقةً بتنوّع أساليب النّصوص القرآنيّة وتدبّرها وتأمّلها، واستنباط المنهج والأسلوب الذي يسري في نسقها، وجوانب الجمال الذي تتسم به.

و نظرًا لأهميّة هذا المحور – البيان القرآني– ومُختلف قضاياه؛ سنعالج في بحثنا هذا موضوعًا معاصرًا موسومًا بـ : **علم البيان وأثره في التّحليل الدّلالي عند أحمّد صافي المستغانمي – كتاب تصريف القول في القصص القرآنيّ أنموذجا**؛ منطلقين من إشكاليّة رئيسيّة وفق الصّيغة التّالية:

ما لذي قدّمه العلاّمة أحمّد المستغانمي من خلال تصريف القول إلى الدّرس البيانيّ القرآنيّ؟ وما منهجه الذي اتبعه في ذلك ؟

أمّا أهداف البحث فيمكن إيرادها فيما يلي:

- بيان مفهوم البيان القرآنيّ وخصائصه؛
- الوقوف عند دور السّياق في تحديد الدّلالة؛
- الكشف عن لطائف دلاليّة من خلال تصريف القول في القرآن الكريم

وسأتّبعُ و أعتمدُ في دراستي هذه على المنهج الوصفيّ التّحليليّ.

المبحث الأوّل: ضبط مصطلحات الدّراسة:

1 – البيان القرآني:

البيانُ لغة: الإيضاح والإفصاح، تقول: فلانٌ أبْينُ من فلان أي: أفصح منه وأوضح كلاما، وبان الكلام بيانً، اتّضح فهو بيّن، فالإفصاحُ والإيضاحُ أبرز ما يكشف من المعنى المعجمي لـ: بان.[2]

-**البيان اصطلاحا**: عرّفه الجاحظ بأنّه: (اسمٌ جامعٌ لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحُجب دون الضّمير، حتى يفضي السّامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدّليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسّامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع).[3]

وعرّفه ابن النّاظم بأنّه: (معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزّيادة في وضوح الدّلالة، وبالنّقصان ليحترز بذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه)[4]، فالدّلالات تتنوّع تبعا لتنوّع الأساليب، وطرائق عرضه بالزّيادة أو النّقصان بالتّقديم أو التّأخير، وبه يتمّ الكشف عن أسرار التّركيب في التّعبير القرآني، وهو جزء من التّفسير العامّ، تنصبّ فيه العناية على بيان أسرار التّعبير من النّاحية الفنيّة: كالتّقديم والتّأخير والذّكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك ممّا يتعلّق بأحوال التّعبير، وبمعنى أدقّ هو: كشف ظلال التّعبير وما تحمله الألفاظ من

دلالات هامشيّة تدلّ على لطف العبارة وتكشف عن سمة القصد في ظروف السّياق والمقام.

ويعدّ البيان القرآني أوسع من البيان البلاغيّ؛ إذ إنّ الأوّل أوسع إذ يظهر جوانب الإعجاز من خلال العلاقة بين علوم العربيّة المتنوّعة، وأسلوب التّعبير القرآني في بيان كشف الأسرار، وإبراز مواطن الجمال، أمّا البلاغيّ فهو متعلّق بدراسة التّشبيه والحقيقة والمجاز، والاستعارة والكناية، وقد جمع النّص القرآني بينهما.[5]

2- **التّحليل الدّلاليّ**: يقصد بالتّحليل الدّلالي: تحليل الوحدة الدّلالية الدّنيا إلى العناصر المكوّنة لها، والبحث في الأجزاء الدّاخلية للمعنى المفرد، ويتعلّق بالدّلالات المتنوّعة التي يأخذها اللّفظ في اللّغة من صوتيّة وتركيبيّة وسياقيّة، فهو يبدأ من الصّوت اللّغويّ لينتهي أبعد من الخطاب اللّساني، وفيما يخصّ مستويات التّحليل الدّلالي أو مراحله تتوقّف على ماهيّة التّحليل الدّلالي نفسه فالتّحليل اللّساني لعنصر من العناصر إنّما هو تحليل لعنصر لساني، قابل للوصف والتّحليل ولهذا فإنّ الدّلالة إطار يتضّمن العناصر المتّصلة بالمعنى.[6]

3- **تصريف القول**: وهو مصطلحٌ قرآنيٌّ خالصٌ تكرّر في أكثر من اثنتي عشرة مرّة، للتّعبير عن المعنى الواحد بطُرق شتّى وأساليب متنوّعة وصياغات لغويّة فائقة ومادّة صرّف أو تصريف ينطبق مدلولها على المعاني المقصودة من التفنّن والتّنويع والتّشابه في العرض اللّغوي والإبداع البياني المتنوّع في عرض

المضامين القرآنية[7] وتصريف القول ليس في القصص القرآني وإنّما في المواعظ والأمثال وبيان الأحكام الشّرعية وغيرها، وقد ذكره الرمّاني والباقلاني والزّرقاني والنّقراط.[8]

4-مفهوم القصص القرآني: من المعلوم في كتب اللغة أنّ القصّة مشتقة من القصِّ: وهو تتبع الأثر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ [سورة الكهف:64]، ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾[سورة القصص:11].

فسمّى الخبر المؤلّف من حوادث مترابطة يتبع بعضها بعضاً قصّة؛ لأنّ القصاص يتتبع الأحداث فيسردُها حدثًا بعد حدثٍ حتى يصل بالقصّة إلى نهايتها.[9]

والقصّة في القرآن تتتبّع أحداثاً ماضيّة وتعرض منها ما يفيد عرضه في مجال الدّعوة إلى التّوحيد الخالصِ والخُلق الفاضلِ.[10]

ومن هنا كانت تسميّة الأخبار التي جاء بها القرآن قصصًا ممّا يدخل في المعنى العامّ لكلمة خبر أو نبأ، وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنّبأ بمعنى التّحدث عن الماضي، وإن كان قد فرّق بينهما في المجال الذي استعملا فيه جرياً على ما قام عليه نظّمه من دقّة وإحكام وإعجاز، فاستعمل النّبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة زماناً أو مكاناً، على حين أنّه استعمل الخبر والإخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع، أو التي لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان.

ففي النّبأ والأنباء يقول الله تعالى في أصحاب الكهف: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الكهف:13].[11]

ويقول سبحانه في شأن الأمّم الماضيّة وما وقع فيهـا مـن مـثلات: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾ [هود:100]. ويقول سبحانه فيما يقص عـلى نبيّه من قصص الأولـين: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ [هود:49].

وفي الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبـاً المـؤمنين: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمّد:31]، ويقول جلّ شأنّه فـيما يكـون مـن أحـداث يـوم القيامـة: ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴾[سـورة الزّلزلـة:4-5] والتّحـديث بالأخبـار إنّـما يكـون في هـذا الوقـت الـذي تقـوم فيـه السّـاعة.

ومن هذا يتبين لنا أنّ القـرآن يسـتعمل النّبـأ فـيما مضـى، والخـبر في الأحـداث الحاضرة والمستقبلة- غالباً، والخلاصة: أنّ الاشتقاق اللّغوي للقصّة أو القصَـص- كما رأينا- هو كشف عن آثار، وتنقيب عـن أحـداث نسـيَها النّـاسُ أو غفلـوا عنهـا وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديدٍ لتذكير النّاس بها، و إلْفـاتهُم إليها، ليكون لهُم منها عبرةٌ وموعظةٌ، هكذا كان القصص القرآنيّ، ولهذا جاء.[12]

4-1-تكرار القصص القرآني وحكمته: يشتمل القـرآن الكـريم عـلى كثـير مـن القصص الذي تكرّر في غير موضع فالقصّة الواحـدة قـد يتعـدّد ذكرُهـا في القـرآن ومن القصص القرآنية مالا يأتي إلاّ مرّة واحدة مثل قصّة لقمان وأصـحاب الكهـف ومنها ما يأتي متكررًا حسب ما تدعو إليه الحاجة و تقتضيه المصلحة ولا يكـون هـذا

المتكرّر على وجه واحد بل يختلف في الطّول والقصر واللّين والشّدة وذكر بعض جوانب القصّة في موضع دون آخر.[13] ومن حكمة هذا:

1) بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصّة المتكرّرة ترد في كلّ موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يملّ الإنسان من تكرارها، بل تتجدّد في نفسه معانٍ لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

2) قوّة الإعجاز، فإيراد المعنى الواحد في صُور متعدّدة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التّحديّ.

3) الاهتمام بشأن القصّة لتمكين عبرها في النّفس، فإنّ التّكرار من طرق التّأكيد وأمارات الاهتمام كما هو الحال في قصّة موسى مع فرعون، لأنّها تمثل الصّراع بين الحق والباطل أتم تمثيل، مع أنّ القصّة لا تتكرّر في السّورة الواحدة مهما كثر تكّرارها .

4) اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصّة– فتذكر بعض معانيها الوافيّة بالغرض في مقام، وتبرز معاني أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيّات الأحوال.

5) بيان أهميّة تلك القصّة لأنّ تكرارها يدل على العناية بها.

6) مراعاة الزّمن وحال المخاطبين بها ولهذا تجد الإيجاز والشّدّة غالبًا فيما أتى من القصص في السّور المكّية والعكس فيما أتى في السّور المدنيّة.

7) ظهور صدق القرآن وأنّه من عند الله حيث تأتي هذه القصص متنوّعة بدون تناقض.

5 – نبذة عن المستغانمي: باحث وكاتب لغويّ جزائريّ، تقلّب في عدد من الوظائف في ميدان التّربية والتّعليم في الجزائر وفي دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، له باع في مجال دلالة القرآن وبيانه وبلاغته، له توجّهات لغوية بلاغيّة، فرسالته في الماجستير كانت بعنوان: بلاغة تصريف القول في القصص القرآني، دراسة تحليليّة بلاغية لقصة موسى عليه السلام؛ وهي رسالة في المتشابه اللفظيّ، وله دكتوراه في البلاغة العربيّة، ويشغل الآن منصب الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، وهو عضو اتّحاد بالمجامع اللغويّة والعلميّة، وعضو بالمجلس العلميّ للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، معدّ ومقدّم برامج تلفزيونيّة منها البيان القرآني في قناة المجد العلميّة وبرنامج في رِحاب سورة في قناة الشّارقة الفضائيّة .

له عدّة مؤلّفات:

– دُرر بيانيّة، ويناقش الدُّرر البيانيّة واللّمسات الفنّية في القرآن الكريم؛

– كيف تصبح فصيح اللسان، وهو عبارة عن مجموعة دروس ومحاضرات كتبها عندما كان معيداً في الجزائر؛

– الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع؛

– مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة –رؤية تأصيلية–؛

- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم؛

- الأساور المرصّعة في أسرار الأحرف المقطّعة؛

- جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور.

6 - مصطلحات متقاربة بينها فروق دلاليّة:

-**التّفنّن**: والمقصود بها التّلوينات التّعبيرية المتنوّعة، واختلاف الأساليب اللغويّة في التّعبير عن المعنى الواحد، كما أنّ التفنّن في الكلام، نقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر، والحجة أبين، والقبول أتم. ويعدّ الطّاهر بن عاشور الأكثر استعمالا لهذا المصطلح ، كما استعمله البيضاوي في تفسيره، وهناك من المفسّرين من سمّاه الافتنان كالزّمخشري والزّركشي.[14]

- **التّكرار**: وهو الإعادة والتردّد، وهو على رأيين؛ فالقائلون بالتّكرار على رأيّ ابن الأثير؛ فدلالة اللفظ على المعنى مردّدا وبأنّه لا يخلو من فائدة أبدا، أمّا الرّأيّ المعارض؛ فرآه من قبيل المتشابه اللفظيّ ذي الأسرار المتنوّعة المثبّت لربّانية المصدر القرآنيّ، وقد ذكره البيضاويّ والزّمخشري والشّوكاني والنّسفي والكرمانيّ الذي سمّاه التّعداد.

-**التّشابه**: التّماثل والتّقارب بين شيئين أو أكثر في عدد من الصّفات والخصائص فالمتشابه اللفظيّ هو تنوّع طرائق التّعبير اللغويّ القرآني، وقد ذكره الغرناطي وأبو السّعود.

-**التّنويع**: وهو تنوّع الأساليب القرآنيّة وتعدّد عرض الخطاب والقصص والمشاهد، وقد ذكره الزّرقاني والزّمخشري.[15]

7- **بين يديّ الكتاب**: إنّ المطالع لكتاب تصريف القول للعلاّمة المستغانمي يتّضح له أنّه يدرس الجانب البلاغيّ البيانيّ، فهو إذ يتناول القصّة يبين مواضع الجمال فيها، فيشرح طورًا ويقارنُ بين النّصوص المتشابهة تارةً، ويعلّل تارة أخرى للوُقوف على أهمّ الفروق والأسرار والنّكت التي تحملها حلقات القصّة في مواضعها المتنوّعة، وقسّم الكتاب إلى مقدّمة ومدخل وسبعة فصول وخاتمة.

تصريف القول في النّظم القرآني بما في ذلك القصص القرآنيّ بشكل خاصّ واختيرت قصّة سيّدنا موسى عليه السلام لاعتبارات:

- هي أكثر قصص الأنبياء تكرارًا في القرآن الكريم، في أكثر من ثلاث عشرة سورة؛

-الثّوب الفنّي المتنوّع للقصّة.

-تميّز قصّة سيّدنا موسى عليه السلام بميزتين:

-الغرض الدّيني بهدف الموعظة والذّكرى، وكذا التّوزيع لمشاهد القصّة الواحدة في مواضع مختلفة؛

-طريقة العرض للمشهد المكرّر والفروق التّعبيرية دليل على ربّانية المصدر القرآنيّ.[16]

ـالمبحث الثاني: منهج العلامـة المسـتغانمي وشخصـيّته العلميـة: لقـد رسم العلاّمة المستغانمي منهجًا عامّا في مقدّمة كتابه: تصـريف القـول مـن خـلال الاستعانة بأدوات منهجيّة دقيقة ونقصد بالمنهج: **إيضاح الأسّس التـي يقـوم عليهـا منهج المفسِّر**؛ نلخّصها فيما يلي:

– اعتماده على **المنهج التّكاملي**؛ فهو يتناول النّصوص القرآنيّة التي تـدخل ضـمن دائرة البحث، ويحلّلها تحليلاً بلاغيا مبتدئا بدراسة تركيـب الجملـة وتحليـل نظمهـا مشيرا إلى وجوه تفرّد كلّ حلقة من حلقات قصّة موسى عليه السلام واختصاصها بـما ذكـر فيها، والمعاني الجديدة التي تضمّنتها الحلقة باستخدامها بعـض أدوات علـم المعـاني البلاغيّة، وإذا احتوت الآيات على بعض اللّفتات والطّرائف الدّلالية فلا مـانع مـن ذكرها ذلك، ذلك بل يشير إليها لتكتمل جمال الصّورة؛[17]

– اعتماده على آراء العلماء في التّوجيـه؛ فهـو يـذكر الموضـوع البلاغـيّ المطـروح كالإيجاز أو الإطناب ويعرفه ثمّ يذكر آراء العلـماء فيـه، ويعطـي المثـال مـن القـرآن الكريم، وبعدها يأخذ برأي المفسرين كالكرمانيّ والرّازي والغرنـاطي وابـن جماعـة وابن عاشور وعندها يناقش ويرجح الإي الذي يراه أنسب للموضوع؛

– يذكر الرّأي والرّأي المعارض؛

– إفادته من الرّسائل العلميّة السّابقة، ومـن كتابـات مـن سـبقوه مـن القـدامى والمحدثين؛

- يبحث في بطون كتب اللغة والتّفسير والمعاجم بالمناقشة والتّحليل ويقول ونطمئنّ إلى القول؛

- الوقوف عند المعانيّ المعجميّة للألفاظ المراد دراستها؛

-المناقشة والتّرجيح؛

-الموازنة بين النّصوص القرآنيّة؛

-استخلاص الوجوه الجماليّة في الآية؛

- اعتماده على **روايّة حفص** نظرا لذيوعها وشيوعها في العالم الإسلاميّ.

ـالمبحث الثالث: موارد المستغانمي في تفسيره البياني وأثرها في بناء منهجه:

لقد اعتمد العلاّمة أ**محمّد صافي المستغانمي** على مجموعة من الموارد والمصادر تمثّلت في جهود من سبقه من كتب التّفسير، فنجده يسبر أغوار كتب التّراث بمختلف علومها، بالإضافة إلى طريقته في التّحليل والوصول إلى المعنى واستخراج اللطائف البيانية الخاصّة بأحداث القصّة القرآنيّة، ومن هذه المصادر :

- **مِلاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللّفظيّ من آيّ التّنزيل**، لابن الزّبير الغرناطي (708هـ) تح: سعيد الفلاح، دار الغرب، بيروت 1983، وهومن أَجلِّ الكتب التي تناوّلت موضوع المتشابه اللفظيّ في القرآن الكريم وأنفعها لطالب العلم، ومؤلّفه إمام محقّق، وناقدٌ مدقق، شهد له العلماء بالتّقدم في علوم كثيرة، وفنّون متعدّدة، من أبرزها التّفسير والقراءات، والنّحو

وأصول الفقه، وموضوع كتابه هذا هو كما حدّده في مقدّمته في توجيه ما تكّرر من آيات الكتاب العزيز لفظاً، أو اختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التّعبير.[18]

- **التّحرير والتّنوير للطّاهر بن عاشور** (ت1393هـ) تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد هو كتاب تفسير القرآن من تأليف شيخ جامعة الزّيتونة بتونس، حيث وضع فيه مؤلّفه نظرته التّجديدية والإصلاحيّة، وتميز تفسيره بالاهتمام بالجوانب البلاغية للقرآن، وعدم الاتّكال كليةً على التّراث العلمي للتّفسير؛ حيث ينتقد الطّاهر بن عاشور الكثير من المفسّرين، لأنّهم اعتمدوا بحسب رأيه على من سبقوهم دون إضافة قيمة علميّة تذكر، وقد قال في هذا الصّدد: (لأنّهم توهموا أن ما خالف النقل عن السّابقين إخراج للقرآن عما أراد الله به). ويعد (التّحرير والتّنوير) من أهمّ التّفاسير التي يرجع إليها المختصون، واستطاع مؤلّفه من خلاله أن يضع نفسه بين أبرز علماء تفسير القرآن، وهو من أبرز تفاسير العصر الحديث التي كُتبتْ على وَفْقِ نظريّة النّظم عند الجرجانيّ، وقد استعمله المستغانمي في كثير من صفحات كتابه.[19]

وبقيّة التّفاسير نوردها مختصرة:

-دُرّة التّنزيل وغرّة التّأويل للخطيب الاسكافي(ت421هـ)؛

-المفردات للرّاغب الأصفهاني (ت502هـ)؛

-الكشّاف للزّمخشري(ت538هـ)؛[20]

- المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيّة (ت542هـ)؛

- تفسير القرطبي (ت671هـ)؛

-البرهان في علوم القرآن للزّركشي (ت791هـ)؛

-نظم الدُّرر في تفسير الآيات والسّور للبقاعيّ (ت885هـ)؛

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدّين الألوسيّ (ت1342هـ)... ؛[21]

أمّا المصادر التي اعتمد عليها في اللغة العربيّة: قد تنوّعت من قواميس ونحو وبلاغة وغيرها ومنها:

- **المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر لابن الأثير** يُعد من كتب أصول الأدب

-**بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم عبد الله محمّد النّقراط**: عبارة عن دراسةٍ مستفيضةٍ في علم التّفسير، عُنِيَ فيها صاحِبُها بدراسة تصريف القَول القرآني في شتَّى المضامين القرآنية على وجه التّعريف وضرب الأمثلة مثل: تصريف القول في إثبات التّوحيد والعقيدة وبناء السّور والآيات، وآيات الموعظة، وقد استفاد منها العلاّمة المستغانمي.[22]

وبقيّة كتب اللّغة نوردها مختصرة:

-البيان والتّبيين للجاحظ (ت 255هـ)؛

- الخصائص لابن جني(ت392هـ)؛

-البرهان في تشابه القرآن للرّمّاني (ت398هـ)؛

-العمدة لابن رشيق القيروانيّ (ت 456 هــ) تحقيـق: محمّـد محـيّ الـدّين عبـد الحميد؛

- أساس البلاغة لجار الله الزّمخشري (ت538هـ)؛

- لسان العرب لابن منظور(ت711هـ)؛

- قاموس المحيط للفيروز أبادي (ت817هـ)؛

-مقاييس اللغة لابن فارس (ت 395هـ) تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون؛

-مغني اللبيب لابن هشام (ت 761هـ)؛

-البحر المحيط للغرناطي (ت 745هـ)؛

-الإيضاح للقزويني (ت 739هـ)؛

-البلاغة العربيّة-مقدّمات وتطبيقات- بطاهر عيسى 2008؛

-الايجاز لأسرار الطّراز للعلويّ(ت 745هـ)؛

-الإتّقان في علوم القرآن للسّيوطي(ت911هـ).

ونحن ندرس منهج المستغانمي البياني، وطريقة عرضه للـمادة وكيفيّـة الوصـول إلى المعنى المقصود، ألفينـاه ينـاقش ويـرجّح، مزاوجًـا بـين البلاغـة وعلـم الدّلالـة فالرّؤية البيانيّة عند المستغانمي تميّزت عن سابقاتها بعـدّة عنـاصر أضـافت للحقـل البياني في التّفسير رونقا جديدا.

ـالمبحث الرّابع: نماذج تطبيقية من قصة سيدنا موسىﷺ:

4-1 -التّصريف في اختيار الصّيغة المناسبة للمقام:

المثال الأوّل: دلالة الصّيغة الصّرفيّة مستمعون بدل سامعون: يقول العلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي:« بعد لقاء المناجاة العُلوي، واللّحظات القُدسيّة التي عاشها موسى ﷺ في الجانب الأيمن من الطّور، حمّلهُ ربّه عزّ وجلّ أمانة تبليغ رسالة التّوحيد إلى فرعون ومَلِئِه، وأرسَل معهُ أخاهُ هارون رسُولا، وأثناء دراسة مشهد الإرسال من سورة الشّعراء لفت انتباهي لفظ (مستمعون) من قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴾. [سورة الشّعراء: 15]. وتبادر إلى الذّهن السؤال الآتي: ما السرّ في العدول إلى (مستمعُون) بدل (سامعُون)؟

وبالتّأمل في سياق الآية الكريمة؛ يتضح أنّ اللفظ اختير بعنايةٍ فائقةٍ لتصوير مدى العناية الرّبّانية، والمعيّة الإلهيّة لموسىﷺ فهو معهما يسمعُ ويرى، فلا مطمح لتسرّب الخوف إلى قلب أحدهما أوكليّهما؛ من هنا جاء اختيار صيغة مُستمعون وهي على وزن افتعل الذي تفيد صيغته التكلّف والاجتهاد في الاستماع، ولمّا كان الله –سبحانه وتعالى–منزّهًا عن التّكلّف والافتعال؛ فإنّ هذه الصّيغة تتمحّض لمعنى مزيدِ العنايةِ والتّوفيقِ الذي أحاط به ربّ العالمين عبْديْه المُرسَليْن إلى فرعون ومَلِئه». [23]

قال صاحب التّحرير والتّنوير: (مُستمعون أشدّ مبالغة من سامعُون؛ لأنّ أصل الاستماع أنّه تكلّف السّماع، والتكلّف كنايةٌ عن الاعتناء، فأريد هنا علمٌ خاصٌّ بما يجري بينهما، وبين فرعون ومَلئِه، وهو العلمُ الذي توافقُه العنايةُ واللُّطف).[24]

والشّاهد في هذا المثال، أن الله تبارك وتعالى اختار لفظ مُستمعون الذي يتناسب مع مشهد الحفظ والرّعاية والتّوفيق.[25]

المثال الثّاني: صيغة ساحر في الأعراف، وسَحَّار في الشّعراء:

في مشهد سورة الأعراف قال السّحرة لفرعون: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾.[سورة الأعراف:111]. وقالوا له في المشهد نفسه من الشّعراء: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾.[سورة الشّعراء:36-37].

وهنا يلحظ المتأمل عدولهم عن اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة، ويتساءل عن نكتة ذلك العدول والحقيقة أنّ معيار التّناسب ذاته ينطبق في هذا المقام، حيث إنّ مشهد الأعراف يبيّن أنّ السّحرة هم الذين بادروا فرعون بالكلام لمّا رأوا المعجزتين فقالوا: إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ.

أمّا في المشهد نفسه من سورة الشّعراء، فقد كان فرعون متحيّرا مبهُوتًا، وبلغت به الاستكانة أن طفِق يُشاورهم في أمره، فخرج عن كبريائه، وقال هو لملئِه: إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ، وهنا أراد مَلؤُه مُمالأتهُ وتطمينهُ وتسكين بعض قلقِه فاستعملوا صيغة المبالغة سحّار، فجاؤوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ليُطامنوا من نفسه ويُسكّنوا

بعض قلقِه.[26] فصيغة ساحر اتّصفت بالحدث وذات الحدث والقائلُ هم الملأ، أمّا صيغة سحّار فتدلّ على مبالغة في إحداث الفعل والقائلُ فرعون، والحاشيّة تجامله لأنّ فرعون هو المتّهم لموسى ﷺ.

4-2-التّصريف في الكلمات المتقاربة (الحيّة، الثّعبان، الجآنّ) وفق دلالة السّياق:

يقول المستغانمي: «عندما يكلّ النّمط التّركيبي للجملة أن يوضّح أسرار كثير من الفروق والاستعمالات اللغويّة، فإنّ الكلمة الأخيرة والقرار الفيصل في إيضاح المعاني وترجيح المقاصد هي للسّياق، واذا استعن بالقرينة السّياقية في المقامات المتنوعة التي سردت فيها قصّة ﷺ، فإنّ مشكلة التّضاد أو التّناقض بين ما يوهم ظاهره الاختلاف، ترتفع كليا، ويتم فهم المراد من النّص القرآني بيسر، ويزداد اقتناع القارئ المتدبر بروائع الاعجاز البياني في كتاب الله تعالى».[27]

«فسورة طه المكيّة ذات الإيقاع الهادئ، وفي مطلعها الجملة الافتتاحيّة التي تصوّر جوّها العامّ، نزلت لطمأنة قلب المصطفى ﷺ ومواساته واختيار اسم الحيّة يتناسب مع المشهد الذي عُرضت فيه من ناحية، ومع جوّ السّورة من ناحية أخرى؛ فمن حيث الاشتقاق فالحيّة من الحياة، وما سمّيت حيّة إلاّ لطول عمرها، وهذا المعنى يتناسب مع الحياة السّعيدة التي أنزلت سورة طه تبشر الحبيب ﷺ بها».[28]

« أمّا دلالة الثّعبان على الذّكر الضّخم العظيم من الحيّات التي يتناسب مع مشهد المباراة المُوسوية الفرعونية الذي اتّسم بقوّة المُواجهة، وشدّة المناظرة في البلاط الفرعونيّ، حيث إنّ مشهد المباراة مع السّحرة كان مهيبًا وشديدًا في جوّ كلّه تحدّ

وعُنفوان، وهذا ما جعله يتناسب مع جوّ الأعراف والشّعراء المشحُونتين بالأحداث الصّاخبة». [29]

« وفيما يخصّ لفظ الجآنّ؛ فالنّظرة الموضوعيّة للنّص القرآني، ترجّحُ أن لفظ الجآنّ في الآية يقصد به الجنّ السّريع الحركة، والله عزّ وجلّ لم يُسمّ الحيّات جانّا بل شبّهها بالجآنّ في اهتزازها السّريع اللاّفت الانتباه، والتّشبيه أسلوبٌ من أساليب العرب في كلامها، ثمّ إنّ الجنّ عالمٌ مخيفٌ بالنّسبة للإنسان، وقد جاء سياقا القصص والنّمل محفُوفين بالخوف من كلّ جانب». [30]

4-3-التّصريف في الكلمات المتقاربة (انبجست، انفجرت) وفق دلالة السّياق:

كلّ لفظ في القرآن اختير بعناية تتناسب مع جوّ السّورة، لما ضرب موسى عليه السلام الحجر بعصاه﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ [سورة البقرة:60] وفي الأعراف ﴿ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ ﴾[سورة الأعراف:160] الانفجار أكثر و الانبجاس أقلّ، فسياق سورة البقرة سياق الإنعام على بني إسرائيل وافقه الانفجار، وفي الأعراف سياق المعاصي وآثام بني إسرائيل فوافق (الانبجاس) والفخر الرّازي قال: «الذي استسقى في البقرة هو موسى عليه السلام فأجابه الله (انفجرت) وفي الأعراف بنو إسرائيل هم الذين طلبوا الاستسقاء فقال (انبجست)» [31] البيان القرآني يختار لك لفظة تناسب سياقها.

ممّا سبق نلاحظ ما يلي:

-1-في البقرة: موسى استسقى لقومه.

في الأعراف: قوم موسى هم استسقوا موسى.

-2- في البقرة : الله قال لموسى: اضرب.

في الأعراف : أوحى الله لموسى.

-3-في البقرة: طلب الله من القوم أن يأكلُوا ويشربوا.

أمّا في الأعراف: طلب الله منهم أن يأكلُوا ولم يذكر الشّرب.

فناسب في البقرة كثرة الماء وقوله (انفجرت).

أمّا في الأعراف فناسب قلّة الماء فناسب (فانبجست).

-5- **دلالة التّقديم والتّأخير في قصّة موسى** عليه السلام: يرى العلاّمة المستغانمي أنّ دلالة البلاغة في التّقديم والتّأخير تقع في الرّتب غير المحفوظة أمّا الرّتب المحفُوظة فلا يقع فيها تقديمٌ ولا تأخيرٌ، ويكون التّقديم أو التّأخير لاعتبارات معنويّة كالتّخصّص أو العناية أو التّفضيل أو الكثّرة والقلّة أو مراعاة التّناسق.[32]

5-1- بين موسى وهارون: في قصّة موسى مع السّحرة ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[سورة طه:70] ما دلالة تقديم هارون على موسى؟ وردت في القرآن موسى وهارون ﴿ربّ موسى وهارون﴾ في سورة الشّعراء وفي الأعراف الأصل موسى نبي بني إسرائيل وهو كليم الله وهارون وزيره، لكن في سورة طه نجدُ حضورًا لهارون مكثّف. في السّورة صورة التّثنية وأعطى الله تعالى لهارون دورا أساسيا في الآيات ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[سورة

طه:43-46] موسى نقل شعور أخيه ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ وفي قصة السّامري أيضًا حضور هارون ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[سورة طه:92-94] حضور هارون في سورة طه واضح مكثّف، فكان من تكريمه تقديم هارون على موسى ونطق السّحرة الذين انقلبوا إلى مسلمين مؤمنين نطقوا باسمه أوّلا من وحي اللّقاء ولا ينبغي أن نحكم أنّ هارون أفضل من موسى، بعض المفسّرين قالوا لأنّه أكبرُ من موسى عليه السلام هذا كلامٌ جميلٌ؛ لكن ليس بدليل لأنّ في السّور الأخرى تمّ تقديم موسى عليه السلام على هارون.[33]

ومن بركات هذا الأسلوب ﴿آمنا بربّ هارون وموسى﴾ يتناسب مع الإيقاع الصوتي لسورة طه (يخشى، أرى، هدى، ينسى...) لكن لا نقول تمّ تقديم هارون فقط لأجل الإيقاع الصّوتي والفاصلة القرآنية، وإنّما لأجل حضور هارون البارز لأجل تكريمه شاء الله تعالى أن يقدّمه، وقد يكون السّحرة مرّة قالوا هارون وموسى ومرّة قالوا موسى وهارون، ويمكن أنّ بعض السّحرة قالوا هذا وبعضهم الآخر قال القول الآخر، والبيان القرآني ينقل لنا الصّورة ببيانٍ عجيبٍ.

في سورة الأعراف ذكر ربّ العالمين: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [سورة الأعراف:121-122]، في سورة طه لم يرد (رب العالمين) لأنّه لم يرد في السّورة بهذه الكثافة التي في سورة الشّعراء، في الشّعراء تكرّر فيها من البداية: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة الشّعراء:16] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[سورة الشّعراء:23]، لمّا آمن السّحرة قالوا: ﴿آمنّا بربّ العالمين﴾ الذي ورد في السّياق حتى إبراهيم الخليل ورد في حديثه (ربّ العالمين) ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[سورة الشّعراء:77] ،(ربّ العالمين) لها حضور في سورة الشّعراء فنطق بها السّحرة في سورة الشّعراء.

قال الإمام الرّازي القرآن كلّه كأنّه كلمةٌ واحدةٌ دليل على الاتّساق والانسجام في استعمال الكلمات. السّحرة قالوا:﴿آمَنَّا بِربِّ هارُونَ ومُوسَى﴾ لم يعب عليهم أيّ شخص هذا الإيمان صحيح، فرعون قال: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[سورة يونس:90] فلم يقبل منه، لماذا؟ لأنّه آمن بعد فوات الأوان عندما أدركه الغرق قالها (حتى إذا أدركهُ الغرق قال).[34]

خاتمة: ولخّصنا فيها بعض نتائج البحث:

-مجهودات العلامة المستغانمي كبيرة في علم البيان والإعجاز القرآني، فقد استفاد ممّاجاء به القدامى في الإعجاز البياني؛ لكنّ منهجه وطريقة عرضه للمادّة العلمية جعلته ينفرد بآراء جديدة لم يسبق إليها على غرار التّجاذب اللفظيّ والأسر القرآنيّة؛

- يعدّ شخصيّة علمية بارزة، لها باع في التّحليل الدّلالي والبياني للقرآن الكريم ومؤلّفاته جديرة بالبحث والدّراسة كرسائل علميّة من أهل الاختصاص؛

-استعانته بدلالة السّياق القرآنيّة في توجيه الكثير من المشاهد المتشابهة في القصص القرآني؛

- تعدّدت مصادر المستغانمي التّفسيريّة في تصريف القول، فقد كانت من أمّهات الكتب في عناوينها؛

-يمتاز المستغانمي بتحليله للآيات تحليلاً عميقًا، متقصّيا لمعانيه حيث يكثر من تعليليه للظّواهر الدّلاليّة والبلاغيّة التي أغفلها السّابقون ويبدو أصيلاً في نهجه وطرحه؛

- يتجلى التّناسق العجيب بين التّرتيب الزّمني على وفق ترتيب النّزول، وبين ترتيب المصحف، وهذا التّناسق يقودنا إلى القول: إنّ كلّ قصة قرآنية -وإن توّزعت في سور كثيرة- يربطها خيط دقيق من التّماسك والانسجام، بحيث يشكل كتلة

واحدة متكاملة والدّلالات السّياقية هي التي تكشف هذا الوجه الرّائع من الإعجاز القرآني؛

- توافق المعاصرين مع القدامى حول فاعليّة السّياق ودلالته لتحديد المعنى؛

- العلاّمة المستغانمي من أنصار لا مترادفات في القرآن الكريم؛ وإنّما هناك فوارق دلاليّة فالقرآن متناسق وكلّ لفظ وضع بعناية ودقّة متناهيّة.

ـالمصادر و المراجع:

– الباقلاني أبوبكر محمّد بن الطّيب، إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف ط:04،1977 .

– الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السّلام هارون، دار الجيل بيروت.

– الجوهريّ، تاج اللغة وصحاح العربيّة، تح: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت ط2،1979 .

– عائشة عبد الرّحمن، التّفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر،1962.

– علي يحياوي، صيغة الصّرفية وأثرها في التّحليل الدّلالي، رسالة ماجستير، إعداد الطّالب: علي يحياوي، كليّة الآداب واللغات والفنّون، جامعة الجلفة،2015.

– الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب،ج3،

– محمّد بكر إسماعيل، قصص القرآن من آدم ﷺ إلى أصحاب الفيل–دار المنار القاهرة ط:02،1997،ص:06.

– المستغانمي أمحمّد صافي، تصريف القول في القصص القرآني–دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصة موسى ﷺ–دار ابن كثير بيروت، لبنان ،ط:02، 2018،

– المستغانمي أمحمّد صافي ،في رِحاب سورة طه الجزء:03،. http://islamiyyat.3abber.com/ تصفح يوم 18اوت2021

– المستغانمي أمحمّد صافي، سلسلة البيان القرآني، قناة المجد العلميّة، وموقع مداد كوم والطّريق إلى الله، تصفح يوم 20اوت2021 على السّاعة 16.30.

– ابن النّاظم، المصباح في المعاني والبيان والبديع، تح: حسني عبد الجليل، مكتبة آداب مصر، د ط ت.

الهوامش والمراجع:

[1] -الباقلاني أبوبكر محمّد بن الطّيب، إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، ط:04، 1977 ص:276.

[2] -الجوهريّ، تاج اللغة وصحاح العربيّة، تح: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، ط2، 1979 ص:5/ 3082.

[3] – الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السّلام هارون، دار الجيل بيروت، ص:1/ 76.

[4] -ابن النّاظم، المصباح في المعاني والبيان والبديع، تح: حسني عبد الجليل، مكتبة آداب مصر، د ط ت،ص:103.

[5] – عائشة عبد الرّحمن، التّفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر، 1962، ص:14.

[6] – الصّيغة الصّرفية وأثرها في التّحليل الدّلالي، رسالة ماجستير، إعداد الطّالب: علي يحياوي، كليّة الآداب واللغات والفنون، جامعة الجلفة ،2015.ص:17.

[7] – أحمّد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآنيّ،-دراسة بلاغيّة تحليلية لقصّة موسى عليه السلام- دار ابن كثير بيروت، لبنان ،ط:02، 2018، ص:37.

[8] – المرجع نفسه، ص:35.

[9] – محمّد بكر إسماعيل، قصص القرآن من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل-، دار المنار القاهرة،ط:1997، 02 ص:06.

[10] – المرجع نفسه،ص:07.

[11] -المرجع السابق،ص:07.

[12] – المرجع نفسه،ص:08.

[13] -http://www.dar-islam.net/. تصفح يوم :30/ 8/ 2021 على السّاعة 21.30 .

[14] – أحمّد صافي المستغانمي، المرجع السّابق، ص:21.

[15] – المرجع نفسه، ص:25—32-33.

[16] – المستغانمي أحمّد صافي، المرجع السّابق، ص:05.

[17] – المرجع نفسه، ص:13.

[18] – المستغانمي أمحمّد صافي، المرجع السّابق، ص: 30.

[19] – المستغانمي أمحمّد صافي، المرجع السّابق، ص: 12-25.

[20] – المرجع نفسه، ص:14.

[21] – المرجع السّابق، ص:14

[22] – المرجع السّابق، ص: 21.

[23] – المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني، ص: 206.

[24] – ابن عاشور الطاّهر، التّحرير والتّنوير، ج19،ص:109.

[25] – المستغانمي، المرجع السّابق، ص:207.

[26] – المرجع نفسه، ص:207.

[27] – المستغانمي، المرجع السّابق، ص:213.

(28) – المرجع نفسه، ص: 214.

[29] – المرجع السّابق، ص: 215

[30] – المرجع نفسه، ص: 215-217.

[31] – الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب،ج3، ص:89. وينظر: في رِحاب سورة طه الجزء:02، أمحمّد صافي المستغانمي.http://islamiyyat.3abber.com / تصفح يوم 18اوت2021.

[32] – أمحمّد صافي المستغانمي، سلسلة البيان القرآني، قناة المجد العلميّة، وموقع مداد كوم، والطّريق إلى الله تصفح يوم 20اوت2021 على السّاعة 16.30.

[33] – وينظر: في رِحاب سورة طه الجزء:03، أمحمّد صافي المستغانمي http://islamiyyat.3abber.com/ تصفح يوم 18اوت2021م.

[34] – في رِحاب سورة طه الجزء:03، أمحمّد صافي المستغانمي.

http://islamiyyat.3abber.com / تصفح يوم 18أوت2021م.

جماليّات الأسـلوب في كتاب (مفاتيح النّجاح) لـ أمحمّد صافي المستغانمي

The aesthetics of style in Mohamed Safi Al-Mustaghanemi's 'Keys to Success'

أ.عمارة عبد الرّحمن

ج. يحيى فارس، المديّة

ملخص: سنقوم فيما يلي، بعرض بعض جماليّات الأسلوب في الخطاب الدّعوي المعتدل من خلال دراسةٍ أسلوبيّة نقوم بها على كتـاب (مفـاتيح النّجـاح) لــ أمحمّـد صافي، الذي لم تنل مؤلّفاته حقها من الدّراسة والمدارسة وهذا تشـجيعا عـلى المزيـد من المقاربات الأسلوبيّة للخطابات الدّعويّة لاستكناه ملامحها الإبداعيّة.

كلمات مفتاحيّة: جماليّات، الأسلوب، الانزياح، مفاتيح، أمحمّد صافي..

Abstract: Below, we will present some of the aesthetics of style in moderate advocacy discourse, through a stylistic study of Mohammed-Safi's Book (Keys to Success), whose writings have not earned them the right to study and study, in order to encourage more stylistic approaches to advocacy speeches, based on their creative features.

Key words: aesthetics, style, displacement, keys, Mohammed Safi

مقدّمة: نعيش في زمنٍ عزّ فيه الخطاب المعتدل، حتى لقد افتقدناه في الكثير من المنابر فصار الواحد منا يبحث عن الخطيب الذي يرضي فضوله ويحرّك مواجيده علّه بذلك أن يدرك سرّ العبودية؛ فيعبدَ الله عن علم.

وفيما يلي، محاولة لمقاربة الخطاب الدّعويّ لدى أمحمّد صافي من خلال كتابه (مفاتيح النّجاح) من منظور المنهج الأسلوبيّ، نسعى من خلالها إلى التّعرّف على مميّزاته الفنيّة وتشكيلاته البلاغيّة.

1/ – ضبط المصطلحات والمفاهيم:

1–1 – الأسلوبية: لا يخفى على الباحثين في الدّرس الأسلوبيّ، أنّ الأسلوبيّة لم تكن لتتّضح مناهجها، لولا تلك المقارعات والمقارنات، التي كان يقوم بها الباحثون بينها وبين باقي العلوم، وعلى رأسها البلاغة؛ والتي أفضت إلى (أنّ منحى البلاغة متعالٍ بينما تتجه الأسلوبيّة اتّجاها اختباريّا، معنى ذلك أنّ المحرّك للتّفكير البلاغيّ قديمًا يتّسم بتصوّر (ماهيٍّ) بموجبه تسبق ماهيّات الأشياء وجودَها، بينما يتّسم التّفكير الأسلوبيّ بالتّصور الوجوديّ الذي بمُقتضاه لا تتحدّد للأشياء ماهياتها إلاّ من خلال وجودها)[1].

والذي يرمون إليه من وراء هذه المقارنة، أنّ الأسلوبيّة لا توجد إلّا بعد وجود النّص الأدبي فعليًّا، ومنه تستمدّ أدواتها التّحليلية وسماتها الإبداعيّة والأسلوبيّة بينما يكون الأمر مختلفا بالنّسبة إلى البلاغة، التي جرى تحديدها بجملة من القواعد المسبقة، التي تسبق الظّاهرة الأدبيّة وجوديّا، مثلما تعرّف به داخل الخطابات الأدبيّة

بعد عمليّة القراءة والتّحليل التي يقوم بها الدّارس الأسلوبي وهو الأمر الذي بدا واضحًا جدا ابتداءً من السكّاكي (ت 626هـ) الذي يُعتبر أوّل من قسّم البلاغة العربيّة على النّحو الذي هي عليه الآن: معانٍ، بيان وبديع فصارت تعريفات الظّواهر البلاغيّة والأسلوبيّة جاهزة وما على من يرنو استخراجها من النّصوص الأدبيّة سوى أن يطّلع على تلك التّعريفات ويفهمها.

وعلى أيّة حال، فإنّ التّصوّرات الأسلوبيّة قد تعدّدت، حتى لقد صنّفها (عبد السّلام المسدّي) من منظور ثلاثة أقطاب: المخاطِبُ، المخاطَب والخطاب، وهو التّصنيف عينُه الذي اعتُمد في النّقد الأدبي، بوصفه أعمق من الأسلوبيّة وأكثر احتواءً لها، على اعتبار أنّها تعدّ منهجا من مناهجه ومدخلا جيّدًا يُعوَّل عليه في الولوج إلى النّصوص الأدبيّة.

وقد أفضى هذا التّصنيف إلى ظهور بعض المناهج الأسلوبيّة، أشهرها[2]:

الأسلوبيّة التّعبيريّة (شارل بالي، ماروزو، كراسو) الأسلوبيّة النّفسيّة (كارل فوسلر، ليو سبتزر) الأسلوبيّة البنيويّة (ميشال ريفاتير) والأسلوبيّة الإحصائيّة (بيار جيرو، بوزيمان) وهذا دون أن نغفل النّقاد العرب الذين تأثّروا بهذه المناهج في الوطن العربيّ، أمثال (عبد السّلام المسدّي) في تونس، و(منذر عياشي) في سورية و(نور الدّين السّد) في الجزائر، و(حميد لحمداني) في المغرب، و(صلاح فضل) في مصر، و(محمّد الهادي الطّرابلسي) في ليبيا وغيرهم كثير.

1-2- محدّدات الأسلوب: أحصى (نور الدّين السّد) ثلاثة محدّدات كبرى للأسلوب، وهي:[3]

الاختيار، والتّركيب، والانزياح. والتي في ضوئها، يمكن للدّارس الأسلوبي تتبّع مواطن الأسلوب في مختلف الخطابات مهما كان حجمها.

والذي ينبغي التّأكيد عليه، أنّ التّقسيمات أعلاه، ليست بالبساطة التي تظهر عليها؛ إذ نجد على سبيل المثال لا الحصر، أنّ الاختيار أنواعٌ شتّى؛ أحصى منها (سعد مصلوح) نوعين: انتقاءٌ نفعيٌّ مقاميٌّ (Pragmatic selection)، وانتقاءٌ نحويٌّ (Grammatical selection). فأما الأوّل، فهو الذي (يؤثّر فيه المنشئ كلمةً أو عبارةً على أخرى لأنها أكثر مطابقةً –في رأيه للحقيقة– أو لأنّه –على عكس ذلك– يريد أن يضلّل سامعه، أو يتفادى الاصطدام بحساسيته تجاه عبارة أو كلمة معينة)[4].

وأما النّوع الثّاني، فيكون (حين يؤثّر المنشئ كلمةً على كلمة أو تركيبًا على تركيبٍ لأنّها أصحُّ عربيَّةً أو أدقُّ في توصيل ما يريد. ويدخل تحت هذا النّوع من الانتقاء كثيرٌ من موضوعات البلاغة المعروفة كالفصل والوصل، والتّقديم والتّأخير، والذّكر والحذف)[5] وغيرها من المباحث التي تنتمي إلى الفرع الأوّل من فروع البلاغة العربيّة وهو علم المعاني.

والأمر نفسه بالنّسبة إلى التّركيب؛ إذ نجد (مصطفى الغلاييني) يصنفه إلى أصناف هي: المركّب الإضافيّ، المركّب البيانيّ الذي ينقسم بدوره إلى (المركّب

الوصفيّ، المركّب التّوكيديّ، والمركّب البدَليّ)، والمركّب العطفيّ، والمركّب المزجيّ والمركّب العدديّ[6].

فالمضاف والمضاف إليه مركّب إضافيّ، والصّفة والموصوف مركّب وصفيٌّ والمؤكّد والمؤكَّد مركّبٌ توكيديٌّ، والمعطوف والمعطوف عليه مركّبٌ عطفيٌّ والكلمتان المركبّتان مركّبٌ مزجيٌّ (بعلبك، إلخ)، وفي تفصيل المركّب العدديّ ما يضيق عنه مجال هذا البحث.

وأمّا الانزياح، فهو أصل الدّراسات الأسلوبيّة، والفضاء الذي تتحرك داخله والمفتاح الذي يميّز أديبًا عن آخر، ومدرسة أدبيّة عن أخرى.

وقد كتب عنه جلّ من تصدّر للتّأليف في الدّرس الأسلوبيّ، تنظيرا وتطبيقا فكان أحسنها على نحوٍ خاصٍّ، كتاب (أحمد محمّد ويس) الذي يحمل عنوان: (الانزياح من منظور الدّراسات الأسلوبيّة)، الذي رصد فيه مفهوم الانزياح رصدا يختلف عن سابقيه؛ إذ وسّع مجال بحثه لينطلق من مجالات عدّة، جعل مبدأها الكون بأسره! يقول: "ليس استعجالًا أن نسارع إلى افتتاح البحث هذا بالقول: إنّ الانزياح ظاهرة كونية، أو إنّ الكون عوالم في انزياح دائمٍ؛ ذلك بأنّها حقيقة تستأهل أن يُفتتح بها بحثٌ يرُوم تأصيل الانزياح. وهي حقيقة ما كان لها أن تُعرف حقًّا إلاّ في زمن الكشوفات العلمية، أو إن شئتَ: زمنَ الانزياحات الكبرى الزّمنَ الكوانتيّ العجيب.

أمّا وأنّ الانزياح ظاهرة كونيّة، فإنّ الكون برُمّته مذ قال الله له: ﴿كُن﴾ راحَ ينزاحُ بعيدًا بعيدًا عن نقطة البداية"[7].

ثمّ راح من بعدها يستعرض عديد المفاهيم التي يمكن أن يحتويها مصطلح الانزياح، بشكل موسوعيّ، تعجز عن نقضه العديد من أقلام الباحثين.

وبتعدّد الخطابات تتعدّد تمظهرات الأسلوب ومن ورائه الانزياح وعلى ضوء هذا التّباين تنشأ الدّراسات الأسلوبيّة وتتوسّع فضاءات مقاربات الباحثين.

2/ – الأسلوبية وتحليل الخطاب الدّعويِّ: إنّ الخوض في علاقة الأسلوبيّة بأيّ نوعٍ من أنواع الخطابات، يستدعي بالضّرورة الحديث عن نظرية الأجناس الأدبيّة ومحلّ الخطاب المراد مقاربته منها ولذلك، ذكر (منذر عياشي) أنّ (الأسلوبيّة علمٌ يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب ولكنها –أيضا– علمٌ يدرس الخطاب موزَّعًا على مبدأ هويّة الأجناس. ولذا كان موضوع هذا العلم متعدّد المستويات، مختلف المشارب والاهتمامات متنوّع الأهداف والاتّجاهات)[8]

وفي خضمّ هذا التّصور، يتصدّر أمامنا الخطاب الدّعويّ لدى أمحمّد صافي ليكون موضوعا لدراستنا الأسلوبيّة، نسلّط من خلاله الضّوء على كتابه (مفاتيح النّجاح)، لاستكناه جماليّاته الأسلوبيّة والإبداعيّة.

3/ – كتاب (مفاتيح النّجاح)، دراسة أسلوبيّة: صدر هذا الكتاب عن دار ابن كثير بمدينة بيروت (لبنان) سنة 2017م في طبعته الأولى، وهو ينتمي إلى حقل الدّراسات الإسلاميّة، ويقع في حدود 459ص.

ناقش الكاتب من خلال هذا المؤلّـف، خمسـين مفتاحـا للنّجـاح، اقترحهـا عـلى الباحثين عن سبل النّجاح وآليات تحقيقه.

يتشكّل غلاف الكتاب من الألوان: الأزرق السّـماوي وهـو الغالـب والبرتقـالي الغامق الذي يعتبر العنوان الرّئيسيّ، والأبيض الذي يأخذ حظا من العنوان الفرعـيّ وزوايا الكتاب الأربعة، أمّا الأسود فقد تُوِّج باسم الكاتب ودار النّشر.

والذي قد يُفهم مـن هـذا التّوزيـع، مـن منظـور سـيميائي أسـلوبيّ، أنّ الأزرق السّماوي هو لون السّماء، التي تعدّ وجهة الدّاعي إذا دعا؛ يرفع يديه إلى السّـماء. فـيما قد يدلّ اللون الأبيض على لون الطّيف الذي يُعدّ مجمعا للألـوان وأصـلا لـه، وقـد يكون لونا للنّور الذي يهتدي به السّالكون إلى درب الحقّ بينما يمكن أن يـدلّ اللـون البرتقاليّ على متاع الإنسان إلى الدّار الآخرة؛ فلا نجاة لمن لا متاع له، الأمر الذي قـد يدلّ عليه اللون الأسود وهو الخطايا التي تعرقل من سير العابد إلى ربّه، فهو يسـعى إلى محوها بالمسارعة إلى رفع رأسه إلى السّماء واقتناص النّور وإدراك الهدي الرّبّانيّ.

يبتدئ الكاتب خطابه الدّعوي الإرشـاديّ بأسـلوب الاسـتفهام، وهـو الكـلام الذي يُفهم من نسقه وسـياقه معنـى **الاسـتفهام**؛ أي طلـب الفهـم، وهـذا نمـوذج لذلك: "ونحن إذ نتحدّث عن مفـاتيح النّجـاح وقـوانين الامتيـاز في الأداء وسـنن السّعادة فإنّه يتعيّن علينا التّأكيد على ضرورة وضـوح الأهـداف؛ فـلا تُـؤتي أعظـم الاستراتيجيّات أكلها إذا لم يحدّدِ المعنيّ بالأمر هدَفَه. فعليك أخي القـارئ أن تسـأل نفسك، وتحدّد ماذا يعني عندك النّجاح؟ من أنـت؟ مـاذا تريـد في هـذه الحيـاة؟ مـا

تصوّرك لمستقبلك المثاليّ؟ عليك أن تحدّد كيف ترغب أن تكون حياتك إذا ارتأيتَ تحويلَها إلى تحفة فنيّة رائعة؟ "[9]

فلا جواب بدون سؤال، كما أنّ بعض الأسئلة تحمل أجوبتها داخلها؛ وما على من يرنو تحصيلها سوى أن يمعن النّظر ويحرّك دواليب فكره، لتحقيق ذلك.

كما يتميّز الخطاب الدّعويّ لدى أمحمّد صافي **بقصر العبارات** تارة والانتقال من **العامّ إلى الخاصّ** تارة أخرى، وهذه بعض الأمثلة:

"فأنتَ المريضُ، وأنتَ الطّبيبُ، وصيدليّة الدّواء الكبرى في ذاتك، وبين يديْك. أصلحْ ما بداخلك، غيّر أفكارك، فكّر بجُرأة، تخيّل مستقبلك المشرق وارسُمْ خُطّتك للنّجاح، واستمتع بتحقيقها في مخيّلتك، وابدأ بتنفيذها، فإنّك ستجني ثمارها بإذن الله تعالى."[10]

فالذي يتصدّر للنّصيحة، ينبغي أن يكون خفيف النّفس **قصير العبارة** عميق التّأثير، عمليّ التّنفيذ، يشحذ الهمّم، ويتطلّع إلى القمم، وإلاّ مجّته الأسماع ونفرت عنه الأنفس.

(ثمّة نوعان من النّواميس والقوانين التي تحكم تصرفاتنا كبشرٍ في هذا الكون:

النّوع الأوّل: القوانين والدّساتير المنظّمة للحياة الاجتماعيّة والأخلاقيّة والزّوجيّة والفكريّة والسّياسية، وهذه أصول أحكامها موجودة في القرآن الكريم والسّنة النّبوية، وبها مساحة واسعة للاستنباط والاجتهاد والتّغيير وفق المستجدات.

النّوع الثّاني: سُننٌ إلهيّة، ونواميس كونيّة لا تتخلّف ولا تتبدّل. فإذا كان البشر لديهم من الحِيل والذّكاء ما يمكّنهم من التّخلّص أو الفرار من القوانين البشريّة فإنّ ذلك غير ممكن بالنّسبة للسّنن الإلهيّة، فهي حتميّة لا يستطيع البشر الفرار من قبضتها، أو التّخلّص من قيودها)[11]

فالمستمع إلى الخطاب والمطّلع على النّص، إنّما يستبقيه الكلام العامّ المختصرَ الذي يسهُل حفظه واستيعابه واستدعاؤه عند الحاجة. وإنّما يؤخَّر التّفصيلُ لمن يرنون التّعمّق في المسائل والتّدقيق في القضايا، ومن يملكون نفَسًا طويلا في تتبّع المعلومة كاملة غير منقوصة؛ فاقتضى الأمر من الدّاعية أن يعتمد أسلوب **الانتقال من العامّ إلى الخاصّ** أو التّحوّل من التّعميم إلى التّفصيل، حتى يجد المتلقّي راحته في كلّ الأحوال والمقامات.

ومن صيّغ الانتقال من العامّ إلى الخاصّ، لدفع الرّتابة عن المتلقّي اعتماد **أسلوب الاستدعاء وضرب المثل**؛ إذ يستعين الدّاعية بنصائح السّابقين وآرائهم في سرد الحقائق وبثّ الرّقائق، في سبيل تحقيق المنفعة والتّأثير فيقول:

(يرى بعضهم أنّ السّعادة يشعر بها المرء عندما يكون محبوبا لشخصه ومرغوبًا لذاته، ومحطّ أنظار الآخرين ولو كان ذا عيوبٍ أو مثالبَ).

(ويرى آخرون أنّ الإنسان يشعر بالسّعادة ويتلذّذ طعمها حين يصفح عن النّاس ويُحسن معاملتهم. يبيتُ وقلبه سليمٌ تجاه العالمين، ويفيق وهو محبٌّ للجميع مُتَفانٍ في خدمتهم).

ويرى أصحاب المبادئ وعاشقو القيّم أنّ المرء يكون سعيدًا حين يستنير عقلُه بمبادئه التي يعتقدها، وتنبُضُ جنَبَاتُ صدره بالقيّم التي يؤّمن بها، ويكون مسروجًا بالمُثُل العُليا، والخصال الحميدة، ويصلُ إلى درجة التّوافق بين المبادئ والأفعال، ولا يحسّ حينها بالتّعب الجسديّ والإرهاق العضليّ.

ويرى أصحاب الاتّجاه الرّوحيّ، والنّزوع الدّينيّ أنّ السّعادة تكمن في إشباع الرّوح بأشواق الإيمان العميق بالله ربّ العالمين، والشّعور بالفقر إليه والتعبُّد له والتّضرّع إليه، والتّوكّل عليه، والإخلاص له، وطاعته والفناء في محبّته وتطبيق أوامره واجتناب مناهيه).[12]

فمثل هذا الاستدعاء في عرض الأفكار وترتيبها للمتلقّي، يُسهم بلا شكّ في تذليل سبل الفهم وتوسيع آفاق الاستيعاب والتلقّي لدى المتلقّي، فيأخذ الفكرة تامّة الجوانب غير منقوصة، ويسلم من مغبّة المعلومة النّاقصة التي قد تفسد أكثر ممّا تصلح.

فضلا عمّا سبق، يستعين الدّاعية بعديد الأساليب في إيصال الأفكار والنّصائح كالاقتباس من القرآن الكريم، والأحاديث النّبوية الشّريفة وضرب المثَل وتوظيف الأبيات الشّعرية؛ والتي تعتبر أحد أكثر المسالك الأسلوبيّة نجاعةً في بثّ المعلومات والتّأثير على الآخرين وامتلاك شغاف قلوبهم.

وهذه بعض النّماذج:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[سورة البقرة الآية: 285].

وقد ذكرها في سياق الحديث عن المفتاح الأوّل، وهو الإيمان بالله وكلّ ما جاء عنه، وبأنّه واحد سبحانه جلّ في علاه.

تأمّل في رياض الأرض وانظُر إلى آثار ما صنَعَ المَلِيكُ
عُيُونٌ مِن لُجَيْنٍ شاخِصَاتٌ بأحداقٍ هِي الذَّهَبُ السَّبِيكُ
على قضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ بأنَّ اللهَ لَيسَ لَه شَرِيكُ

وهي أبيات نادرة عن أبي نواس، تقطُر إيمانًا وإقرارًا بالوحدة الإلهيّة، وبأنّ كلّ موجود حيٍّ أو جامدٍ، يقرُّ بربوبية وألوهية ربّ السّماوات والأرض، لا إله إلاّ هو.

ولأنّ الحكمة ضالة المؤّمن أنّى وجدها فهو أحقّ بها، وأدعى لأن يسارع إلى الظّفر بها، يمعن الكاتب في تعداد الحكم والأمثال والأقوال المأّثورة عن أصحابها يستعين بها على شحذ الهمّم وجلاء الأبصار لترى الحقيقة كاملة فيستشهد بقول الشّاعر والنّاقد الأمريكي.[13]

" إنّ من يحلُمون بالنّهار يرَوْنَ أشياء كثيرة، لا يراها الذين يحلُمُون باللّيل."

فالوقت يمرّ مرّ السّحاب، ومن أراد العلى سهر الليالي، وملأ نهاره بالأعمال الصّالحة، لا تكاد تمرّ عليه دقيقة دون أن يستثمرها في عمل مفيدٍ، يعود عليه بالخير في دينه ودنياه وآخرته، وذلكم هو معنى الظّفر.

ومتى تأكّدتَ من سلامة الغاية والوسيلة، فباشر هدفك ولا تؤجّله ثانيّة واحـدة قال (ستيفن كوفي): (تأكّد عندما تريد أن تتسلّق سُلَّمَ النّجاح أنَّ السُلَّمَ يرتكـز عـلى الجدار الصّحيح والمبنى الصّحيح)[14].

ولا يقتصر الخطاب الدّعويّ على الاستعانة بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويـة وضرب الأمثال والحكم وسرد الأبيات الشّعرية وقصص الصّـالحين فحسـب إنّـما يمكنه حتى أن يمتدّ إلى **استعراض الحقائق العلميّـة** عـلى سـبيل التّوكيـد والتّحفيـز وهما أسلوبان ضروريان في العمليّة الدّعوية في زمننا المعـاصر، الـذي يعـرف تقـدّما ملحوظا في التّكنولوجيا والاختراعات والأبحاث الرّائدة في شتى المجالات. (وقـد توصّلت الدّراسات الحديثة والأبحاث في علم الأحياء إلى أنّ المخّ البشـريّ ينطـوي على ذاكرةٍ تستوعب الملايين من الكتب ولكنّ الإنسان بشكلٍ عامٍّ في واقعنـا الحـاليّ لا يستعمل إلاّ قدرًا صغيرًا ضئيلًا جدًّا لا يزيـد عــن 2٪ مـن قُدراتـه البشـــريّة)[15]. ويضيف: (يُعَدُّ العقل الباطنُ مولّدًا كهربائيا كبيرا، كما أنّه يعدّ جهاز حاسوبٍ يجـب أن يكون مبرمجًا بدقّة؛ فإن تمّ توجيه أفكـار الخـوف والقلـق والفشـل نحـو العقـل الباطن، لن يُحرز المرءُ أيّ تقدّم. وفي المقابل إذا ما تمّ تحديد هدف واضحٍ وثابتٍ وتمّ ترسيخه في العقل الواعيّ؛ فإنّ العقل الباطنَ سـيقبله في النّهايـة، وسـيبدأ في إمـداد العقل الواعيّ بالخطّط والأفكار، والبصـيرة والطّاقـات الضّـــرورية لإنجـاز ذلـك الهدف)[16].

ومن هنا، وجب على الدّعاة أن يكونوا على اطّـلاعٍ بـما جـدّ في السّـاحة العلميّـة والأدبيّة والعالميّة، حتى لا يكونوا منفصلين عن الواقع والعصر الذي يعيشون فيه.

خاتمة:

لقد كانت جولة ممتعة وسريعة، قمنا بها في روضة الخطاب الدّعويّ نسائله فيفيض علينا بعضا من مكوّناته ومميّزاته البلاغيّة والأسلوبيّة. وقد توصّلنا من خلال هذه الدّراسة المتواضعة، إلى أنّ الخطاب الدّعوي يتجدّد بتجدّد الزّمان والمكان؛ فيستنبط مكوّناته من العصر الذي يوجد فيه، فذكرنا أنّ الخطيب والدّاعية يستعين بكلّ ما عساه يفيده في عمليّته التّواصلية بينه وبين المتلقّي، ومن ذلك:

- اعتماد الجمل القصيرة؛
- طرح السّؤال قبل المباشرة بعرض الأجوبة؛
- الانتقال من العامّ إلى الخاصّ؛
- الاقتباس من القرآن الكريم والسّنة النّبوية الشّريفة؛
- توظيف الأبيات الشّعرية والأمثال والحكم؛
- الاستعانة بما جدّ في السّاحة العلميّة والتّكنولوجية من معلومات.

على أنّنا لا نزعم إحاطتنا بكلّ مميّزات الخطاب الدّعوي لدى أمحمّد صافي ولا ندّعي ذلك. وندعو –من خلال هذه الورقة البحثيّة– إلى المزيد من الأبحاث والدّراسات حول أعمال هذا الرّجل، الذي بذل الكثير في سبيل ترقيّة الخطاب الدّعوي إلى مصاف الوسطية والاعتدال وحب الخير لجميع الخلائق.

الهوامش

[1]- عبد السّلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط5، بيروت لبنان 2006م ص45.

[2]– ينظر: على سبيل المثال: نور الدّين السّد، الأسلوبية وتحليل الخطاب ج1، دار هومة دط ، الجزائر 2010م ابتداء من ص55.

[3]– المرجع نفسه، ابتداء من ص173.

[4] – سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغويّة إحصائية، عالم الكتب الحديث، ط3، القاهرة، مصر 1992م ص38.

[5]– المرجع نفسه، ص39.

[6]– ينظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة موسوعة في ثلاثة أجزاء، داريابن الجوزيّ ط1 القاهرة مصر، 2009م، ص10، 11.

[7]– أحمد محمّد ويس، الانزياح من منظور الدّراسات الأسلوبيّة، مجد المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط1، بيروت لبنان، 2005م، ص11.

[8]– منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاريّ، ط1، حلب سورية 2002م ص27.

[9]– أمحمّد صافي المستغانمي، مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة رؤية تأصيليّة، دار ابن كثير ط1، بيروت لبنان 2017م، ص16.

[10]– المرجع نفسه، ص17.

[11]– المرجع نفسه، ص19.

[12]– المرجع نفسه، ص22، 23.

[13]– المرجع نفسه، ص36.

[14]– المرجع نفسه، ص68.

[15]– المرجع نفسه، ص121.

[16]– المرجع نفسه، ص126.

تنضيد آليات اشتغال الفعل الخطابيّ بين التّأثير والإقناع في كتاب

«الخطيب النّاجح بين عوامل الاقناع ووسائل الامتاع» لـأمحمّد صافي المستغانمي

د. قاضي الشّيخ
ج. عبد الحميد بن باديس
مستغانم، الجزائر

مقدمة: لعل الدّارس لسُلم تصريف القول في مختلف أجناسه، يقف على فنّ الخطابة ودورها المحوريّ في جميع اللغات وعند جميع الأمّم على مرّ السّنين، ألاّ وإنّ الخطابة كانت مربط الفرس في حضارة اليونان وفلسفتهم والقول نفسه يجري على الرّومان ومن دال بعدهم من الشّعوب والدّول على امتداد التّاريخ في السّلم والحرب، ذلك أن فنّ الخطابة كان ولا يزال لصيقا بحياة الشّعوب العقليّة والدّينيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة؛ إذْ ما من مجال إلاّ وللخطابة فيه نصيب.

ونظرا للأهميّة البالغة التي اكتسبها هذا الجنس الأدبي في الثّقافة العربيّة، عُني البلغاء والفصحاء العرب به أيما عناية، ذلك أن شأن العرب (مع الخطابة عظيم واعتناؤهم بها جسيم، وباعهم فيها طويل، وتاريخ خطبائهم حافل ومجيد، وقد ساعدت البيئة الصّحراويّة القبليّة التي حييها العرب منذ القدم على نشأة فنّ

الخطابة، وتطوّره، وخفقان رايته، واتّساع رقعته، فلا تفخر القبيلة بأحدٍ من أفرادها فخرها بخطيبها وشاعرها[1]) حيث نشروا به قيم المروءة والكرم والنّجدة في العصر الجاهليّ، حتى إذا جاء الإسلام وأشرقت المعمورة بنور الرّسالة المحمديّة اتسع مجال الخطابة، فإذا كانت عند اليونان تُمْتطى لبلوغ المقاصد في البرلمانات، فإنّها في عهد النّبوة، عضدت السيف والقلم والمنبر، وأخذت تزداد أهميّة مع اتساع رقعة الدّولة في العصر الأمويّ، وامتزاج الثّقافات في العصر العباسيّ وما بعده، وبات لها علماء يضعون لها القواعد إنّ على مستوى الشّكل أو على مستوى المضامين وكذا أساليب الالقاء بحس المواقف وما تَقْتَضِيه الأحوال من مقامات الاقناع والتّأثير.

ومن بين رواد الفكر والثّقافة في العالم العربيّ المعاصر ممّن اهتدى لأهميّة الخطابة يتقدم الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي بكتابه (الخطيب النّاجح بين عوامل الاقناع ووسائل الامتاع) حيث تعرض لهذا الفنّ بالتّفصيل الدّقيق مُمْعِنا في أنواعه من خلال المقام والمقال، ليخلص إلى كيفيّة إعداد خطبة تبلغ مقصدها وغايتها انطلاقا من جملة من الآليات المرتبطة بالأسلوب والإعداد وثقافة الخطيب وغيرها من العوامل الأخرى، وذلك بوقوفه على الصَّنْعة الخطابية في مختلف العصور، الأمر الذي أكْسبه تجربة صاغها ضمن أطر دلاليّة ومهارية في أسلوب أنيق، ينتهي بمتلقيه إلى إكسابه ملكة الخطابة من خلال تهذيب الذّوق وصقل الممارسة جنبا إلى جنب.

1- **منزلة الخطابة ومميّزاتها:** ورد الكتاب في جملة من المباحث قوامها أحد عشر مبحثا، بُسِطَ فيها القول في مفهوم فنّ الخطابة لغة واصطلاحا، ثمّ كان التّعريج إلى

السّياقات الاجتماعيّة والثّقافيّة التي ترعّرع الفنّ في كنفها، ممّا ساعد على التّتبع النّوعيّ لها من جهة وضبط آليات إعدادها من جهة أخرى، هذا ولم يهما المؤلّف لفت الإشارة إلى ميزان الأسلوب الخطابيّ الذي يعد العامل الفيصل في تميّز جنس الخطابة عن فنّون تصريف الكلام شعرا ونثرا، فكان الحاصل أنّه على قدر الامتلاك من ملكات تلكم الصّفات يكون ارتقاء الخطيب في درجات الدّربة والمراس والتّأثير والباع إقناعا وتأثيرا، باعتبار اشتراك الخطيب والجمهور المقصود بالخطابة تجمعهم علاقة سياقيّة وأخرى لفظيّة.

إنّ العلاقة بين السّياقين الاجتماعيّ واللفظيّ، علاقة تضمنيّة، بمعنى أنّ السّياق الاجتماعيّ يتضمّن السّياق اللفظيّ؛ وحيث إنّ الخطيب قبل الوصول إلى مرحلة إلقاء الخطبة، يكون قد حدّد الموضوع، ودرس مراحل إنجاز الخطبة وبحث خياراته الأسلوبيّة واللفظيّة البلاغيّة ضمن المشترك بين الطّرفين؛ إذ لا يخلو سياق لفظيّ ما من رجوعه إلى هذا السّياق الأصل أو المشترك الذي يجسّد سياق الحدث الكلاميّ فيرسم أو يختار مقوّماته اللفظيّة وأبعاده الدّلاليّة، ومن ثمّ يكون السّياق الاجتماعيّ (سياقاً مركباً) في ذاته من اللفظ والموقف، فينشأ السّياق اللغويّ الدّلاليّ المركب في ذاته من اللفظ وسياق الموقف الاجتماعيّ، وهذا ما يضمّن للغة وظيفتها الاجتماعيّة، لذا كان فرث يشترط (النّظر إلى المعنى من خلال سياق الحالة[2]) أو (سياق الظّرف[3]) ومعنى ذلك هو (مجموع الظّروف التي تحيط بالكلام[4]) فتتأكّد

(الوظيفة الاجتماعيّة للغة[5])؛ وقديما قالت العرب لكلّ مقام مقال، فالمقام هو الـذي يحدّد سلم تصريف الخطبة من البناء إلى التّركيب إلى الإلقاء.

لعله من نافلة القول: إنّ أيّما نجاح يرومه الخطيب يتوقف عـلى المصـادر الثّقافيّـة والعرفانيّة التي ينهل منها ذلكم فتنشأ علاقة جدليّة بـين عوامـل النّجـاح ومصـادر الثّقافة، ثمّ يأتي بعد ذلكـم الموضـوع وطبيعتـه ومـدى ارتباطـه مـن حيـث الأهميّـة بجمهور التّلقي، ولنا في هدي النّبيّ ﷺ قدوة في خطبه، وانطلاقا مـن ذلكـم الهـدي الذي يمثل النّموذج الأسمى للخطابـة في الـتّراث العـربيّ، راح المؤلّـف يتحسّـس درب الصّناعة فيها، أو بالأحرى سبل صقل الموهبة، متوخيا إبراز العيوب الواجـب تلافيهـا، مستأنسـا بأعلامهـا في مختلـف عصـورها، ليختـم بجملـة مـن الوصـايا والنّصائح العامة للخطباء. ما تزال الخطابة رفيعة المنزلة والدّرجة في حيـاة الشّـعوب العربيّة والاسلاميّة، في مختلف المنابر الدّينية والسّياسية والفكريّة والأدبيّـة، اقترنـت بأربع خصائص عند صافي المستغانمي، وهي:

✓ الخطبة حديث موجّه لجمهور من النّاس وليس حديثا فرديا مع فـرد أو أثنـين فالمرسل عندما يطالب غـيره بمشـاركته اعتقـاده، فـإنّ مطالبتـه لا تكتسـي صـبغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنّما تتبع في تحصيل غرضها سـبلا اسـتدلاليّة متنوّعة تجر الغـير جـرا إلى الاقتنـاع بـرأي المحـاور وقـد تـزدوج أسـاليب الإقنـاع بأساليب الإمتاع[6]، فتكون إذ ذاك، أقـدر عـلى التّـأثير في اعتقـاد المخاطـب وتوجيـه

سلوكه لما يهبها هذا الاقتناع من قوة في استحضار الأشياء ونفوذ إشهادها للمخاطب، كأنّه يراها رأي العين؛

- ✓ تعتمد على الإلقاء والصّوت الجهوريّ، وتكييفه حسب العاطفة والمضمون والاشارات الجسديّة، وللصّوت في اللغة العربيّة، شحنة دلالية كاملة في ذاته وهذه الشّحنة الكامنة في ذاته لا تتحرّر إلاّ داخل الكلمة، و دلالة الكلمة لا تتحر إلاّ داخل الجملة، ودلالة الجملة لا تتحرر إلاّ داخل النّص، والنّص لا يتحرّر إلاّ في مقام، ولا مقام إلاّ في سياق ، وهكذا مع كلّ علوم اللغة، يأتي النّحو على مستوى الحركات يوجه الدّلالة والصّرف على مستوى الصّيغ يوجه الدّلالة والصّوت على مستوى التّلفظ يوجه الدّلالة، ثمّ تحضر البلاغة بعلومها في ركاب المعنى كي تزيد على ما سلف التّأثير أو الإقناع؛
- ✓ أن تكون الخطبة مقنعة بما تستعمله من وسائل إقناعيّة تثبت صحة الفكرة فالإقناع من الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها المتكلّم من خلال خطابه بما يراه، قصد التّأثير عليه، أيّ: (إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي)[7]. وتختلف الآليات التي يتوخاها المخاطب، لاختلاف مجالات الخطابة بين السّياسية والاجتماعيّة، والعلميّة، والتّربوية، ونظرا لأهميّة الخطابة والتّخاطب، كان لابد أن يكون كلام الخطيب محددا بقصد وهدف معينين، وأن يتمكّن من تحقيقهما؛
- ✓ سيطرة عنصر الاستمالة والتّشويق، حيث يكون السّمع منفذ المتلقي إلى المضمون، وتكون براعة الخطيب على قدر حسن استمالته لجمهوره وتشويقه من

استغلال المقدرات الصوتية باعتبارها القناة المشتركة بين الطّرفين، من فـمّ الخطيـب إلى أذن السّامع، حيـث يصـير التّلقـي تحـاورا عـبر أكثـر مـن قنـاة ينتجهـا السّـياق وتستعصي على اللفظ فيحيلها على مخزونه الثّقافي تارة، والخروج من جـو الخطبـة إلى إحالاتها المختلفة تارة أخرى، وغالبا ما تكون إحالة اللفظ لسامعيه إنّـما هـي إحالـة ظرفية؛ إذ سرعان ما يعود إلى جو الخطبة أكثر تأثرا وتشوقا لسماع المزيد.

يصل أمحمّد صافي إلى أنّ الخطابة نوع من النّثر يختلـف بخصائصـه ومميّزاتـه عـن الأجناس النّثرية الأخرى، كما أنّه لا يمكن اعتبـار الخطابـة نثـرا فنّيـا أدبيـا، ونظـرا لاعتمادها على الخصائص السّالفة الذّكر، فإنّهـا (تُعـد أشـد الأنـواع الأدبيّـة إقناعـا وتأثيرا. والقبيلة العربيّة قديما لا تفخر بأحدٍ فخرها بشاعرها المفلق وخطيبها المفـوه. فشاعرها يتغنى بمآثرها ويُمجد بطولات أبنائها، ويخلد ذكر مناقبها ومفاخرهـا بـين قبائل العرب، ويذُبُّ عن حماها ويذود عـن حياضِـها. وخطيبهـا يرفـع مـن شـأنّها ويُسمع صوتها في المواقف الشّديدة الحرجة، وفي المحافل والمجـالس الكـبرى التـي تجمع ذوي العقول والنّهى وأولي الألباب والحجـى. وهـو لسـان القبيلـة الرّسـميُّ وناطقها المسموع، ويُلجأ إليه في مجالس عقد القـران، وفي تـأبين العظـماء، ومجـالس الصّلح وحقن الدّماء[8]) إلاّ أنّها ولا ريب تشـترك مـع شـتى أضرب النّثـر في أمـور كثيرة منها قصـر العبارات، وانتهائهـا بالسّـجع ذي النّـبر المتـوازن، ومثلـه التّنـاغم الدّلالي واشتراكها في الباقي عبارات قصيرة موجزة مسجوعة ذات جرس ينتج عنه تناغم في الفونيم والدّلالة في غالب الأحياء. كما تختلف عن الشّعر في الميزان والبحـر

والخيال والعاطفة؛ كونها تتميّز بالصّدق والواقعيّة وجديَّة الموضوع، وتتفرد عن النّوعين معا بخاصيتي الإقناع والاستمالة دون غيرها من أصناف كلام العرب وذلك باعتمادها على الحجج والبراهين ذي الخصائص الآتية:

- أن يكون الحجاج ضمن إطار الثّوابت القابلة للحجاج؛
- أن تكون دلالة الألفاظ محدّدة، والمرجع الذي يحيل عليه الخطاب محدّدا لئلا ينشأ عن عدم التّحديد الدّقيق مشكلة في الفهم؛
- ألا يقع الخطيب في التّناقص بقوله أو فعله؛
- موافقة الحجج لما يقبله العقل؛
- توفّر المعارف المشتركة بين طرفيّ الخطابة، مما يسوغ قبول السّامع لحجج الخطيب أو إمكانية مناقشتها أو تنفيذها، وإلاّ انقطع التّواصل بينهما، وتوقفت عمليّة الفهم والإفهام وبالتّالي الإقناع؛
- أن يأخذ الخطيب في اعتباره تكوين صورة عن المخاطَب، أقرب ما تكون إلى الواقع قدر الإمكان، لأنّ بناء الحجاج مرتبط بتنوّع المعنيين به، فهم المقصودون بفحواه، المطالبون بإنجاز محمولاته، المشاركون في صياغته وإخراجه؛
- مناسبة الخطاب الحجاجيّ للسّياق العامّ، لأنّه هو الكفيل بتسويغ الحجج الواردة في الخطاب من عدمها، فقد يكون صحيحا من النّاحية النّظرية، ولكنه غير مناسب للسّياق؛
- ضرورة خلو الحجاج من الإيهام والمغالطة والابتعاد عنها*.

2- مراحل إعداد الخطبة:

أوّلا.إختيار الموضوع، وذلك من حيث درجة أهميّته بالنسبة للمجتمع ومدى ارتباطه بحياة الأفراد، وذلك أن يكون من الأهميّة بمكان من القضايا الحساسة التي تؤّرق حياة الأفراد والجماعات. تحديد الموضوع، وذلك من خلال إفراد الخطبة بموضوع واحد، كي لا تتشتت أذهان السّامعين، وعدم الاكثار من الاستطرادات التي يمكن تشبيهها (بتلك الدّوائر التي تحدث عقب إلقاء حجر في الماء، فما يتكون منها أولاً يعد بمثابة الدّلالة المركزيّة للألفاظ يقع فهم بعض النّاس منها في نقطة المركز، وبعضهم في جوانب الدّائرة، أو على حدود محيطها[9]، ذلك أنّ السّامع قد ينجذب إلى ما هو هامشي على حساب ما هو أساسيّ ومركزيّ، كما أنّه قد يكون عرضة للخروج من موضوع إلى آخر، والنّتيجة ضياع فحوى الخطبة وهدفها (ويقصد بالموضوع الواحد أن يتناول الخطيب فكرة واحدة، يشرحها ويقيم الأدلة على صحّتها، ويدعم أفكاره الجزئيّة المنبثقة منها بشواهد من القرآن الكريم والحديث والشّعر والقصص المؤّثرة. في مثل هذه الحالة يعيش معه مع حديثه السّامعون، ويتفاعل مع كلامه المنصتون[10] لأنّ السّامع يتحد مع الخطيب في سياقاته الابستمولوجيّة وكذا الظّروف المحيطة بالخطبة من فكرتها إلى غايّة أهدافها المتوخّاة منها، وبذلك يرتقي إلى درجة يصير فيها الكلّ في نفس درجة الاهتمام فتزول الفروق بين الباث والمتلقي من أحيث أيهم أكثر اهتماما بالموضوع.

ثانيا.تنسيق عناصر الخطبة: وذلك من خلال حسن التّشييد المعماري لها، وضبط تركيب أجزائها بنائيا ودلاليا ضبطا منطقيا، من خلال جملة من الآليات التي تبدأ بالتّمهيد للموضوع المراد التّخاطب فيه، وتسلسل العناصر إن على مستوى التّتابع السّببي أو التّتابع المنطقيّ، فتقود العمليّة الحديث في سلاسة إلى خاتمة موجزة هي ما يرمي إليها الخطيب من خلال جعل كلّ فكرة تسلم إلى التي تليها، وتكون التّالية وليدة السّابقة في تناسق تلقائي وترابط محكم يجعل الخطبة في تراتبية أفكارها ومعانيها كأنّها لآلي في عقد ثمين.

أ.المقدّمة: وهي عبارات يسوقها الخطيب لنقلهم إلى جو الموضوع، بالتّالي تعمل المقدّمة على تهيئتهم، وعلى قدر إحكامها يكون التّجاوب مع الموضوع ، من خصائصها الايجاز والدّقة والتّشويق، تعطي للسّامع فكرة إجماليّة عن الموضوع وهي ضروريّة عليها يتوقف (نجاح الخطبة في كثير من الأحيان، ويشهد الواقع أن كثيرا من الخطباء المُفوهين يكمن سِرُّ نجاحهم في المقدّمات الشّائقة التي يحبرونها تحبيرا[11]) ذلك أنّ المقدّمة الجَيِّدة تتجاوز من جعل السّامع يدخل في صلب الموضوع ويتجاوب معه، إلى جرِّ المُعارض للتفاعل معها، بله، والانقلاب من المعارضة إلى التّأييد والتّحمس لغرض العامّ للخطبة.

ب.جسم الخطبة: ويعتبر السّاحة التي يتفاعل البثّ والتلقي على اختلاف درجات كلّ منهما، فإمّا بالنّسبة للبثّ فوسيلته البلاغة من تشبيهات وكنايات واستعارات وما إلى ذلك من محسّنات تيناغم فيها ما هو لفظيّ وما هو دلاليّ، ناحيّة

عمّا تسوّقه من حجج وبراهين وآليات خطابيّة إقناعيّة وتأثيريّة، وذلك من خلال (دراسة كيفيّة استعمال الكلمات وبيان علاقتها بالعمليّة الذّهنية[12]) يذهب بعض العلماء إلى أنّ الألفاظ، ليست إلاّ رموزا تعبر عن المعانيّ الكامنة في النّفس، وهي ضرورية للتّقدم العقليّ لأنّها هي التي تثبت كلّ خطوة يخطوها الذّهن البشريّ، وهم يشبهون ذلك بجيش يغزو بقعة من الأرض، وينتصر على أهلها، وينتشر في أرجائها، ولكنه لا يستطيع أن يملكها إلاّ حين ينشئ فوقها الحصون، التي يضع بها حاميته، وهم يرون أنّ الألفاظ حصون الفكر، وأنّه لا وجود للفكر بدون اللغة وأمّا من ناحية المتلقي، فيكون الجهد مضاعفا من أجل استقبال الخطيب ومحاولة فهم ما يريد الوصول إليه، وأثناء ذلك تبدأ المغالبة بين مضمرات الخطبة الآخذة في التجلّي، وبين توقع السّامع، حيث يتحدّد المراد مع الوقت عبر توالي الكلمات في سياقاتها المختلفة، وكيفيّاتها البلاغيّة والحجاجيّة، وعبر تلكم السّياقات والكيفيّات يثبت المراد ويتضح في مرحلة أولى ثمّ يأخذ في التّحول إلى اقتناع من قبل السّامع في مرحلة ثانية، ولن يكون ذلك إلاّ من خلال حرص الخطيب على جودة العرض المتمثّلة في:

- ✓ وحدة الموضوع؛
- ✓ التّرتيب؛
- ✓ الوضوح؛
- ✓ التّدليل بالأدلة المنطقيّة أو الخطابيّة.

ج.الخاتمة: هي آخر جزء في الخطبة، وآخر ما يعلّق بذهن السّامع، لذا يجب (يُسْتحب أن تكون موجزة مُركّزة مُلخصة لما سبق بسطه وعرضه في صلب الموضوع، وتكون دعوة صريحة للعمل بما جاء في الخطبة. وفيها يتجلى نجاح الخطيب أو فشله. وكلما أحسن الخطيب تدبيجها وتنميقها، وإبداع صوغ عباراتها أصاب الغرض الذي يرمي إليه والأهداف التي يتوخى[13] لأنّ الخطيب يركّز كلّ آماله عليها باعتبارها المحطة الأخيرة التي يتحقّق فيها القصد من الخطبة برمتها، كما أنّ الخطيب يبني معمار خطبيته من مقدّمة وموضوع، وينتقي خياراته الأسلوبيّة على ضوئها من خلال النّتائج المرجو الوصول إليها.

3- **بناء الخطبة وترتيب عناصرها:** ينبغي للخطيب أن يحسن بناء معمر خطبته ذلك أنّ أهميّة هذه المرحلة تتوقّف عليها جميع المراحل التي بعدها؛ فكم من خطيب شرع في بسط تفاصيل موضوعه ودقائقه والسّامع خلو الذّهن تماما، مشدوها بما فاجأه به الخطيب، حتى ليقف عاجزا، ومن الخطباء من يريد الاختصار فيبدأ بالخاتمة أو تلخيص الخاتمة، فتكون النّتيجة عجز كبير على استمالة السّامع أو إقناعه لذ وجب على الخطيب أن يحرص على جملة من الأمور:

-القراءة المستفيضة المتأنيّة حول الموضوع شرحه وبيانه؛

-حرص الخطيب على النّظرة الشّمولية للموضوع بحيث يعالجه من جميع جوانبه؛

-وضوح الهدف لدى الخطيب؛

-مراعاة الوحدة الموضوعيّة للخطبة، لأنّ تعدّد مواضيع الخطبة يُشتِّت أذهان السّامعين ويبدِّدُ جهد الخطيب؛

-الحرص على الرّبط المنطقيّ المتسلسل بين العناصر وحسن عرضها[14].

ويكون ذلك من خلال فهم المقال الذي يحدّد طبيعة المقال من حيث مضمونه وطريقة تقديمه، ذلك أنّ معنى المقال بحاجة إلى معنى المقام.

3.1.انتقاء الشّواهد والأدلة: لا مناص للخطيب من اختيار الأدلة والشّواهد التي تخدم موضوع الخطبة وتزيده جلاء ووضوحا؛ بله، وتقود السّامع إلى التّفاعل مع الموضوع فيميل إليه ويتأثّر بمضمونه ويقتنع بأهدافه، لذا على الخطيب انتقاء الأدلة التي تفيد اليقين القطعيّ، لأنّ يقينية الأدلة من صميم العمل الخطابيّ في شقي الاقناع والتّأثير، ولا أفضل للخطيب من الآيات القرآنيّة والأحاديث الشّريف، ثمّ الشّواهد الأخرى من كلام العرب وأخبارهم ويومياتهم وحكمهم وأمثالهم وللدّليل دور كبير في إقناع إذا أُحسن استخدامه في سياقه وبهذا (يتمّ الوصول إلى المعنى[15] كما يُشترط أيضا بحسب نظريّة السّياق النّظر إلى دلالة الألفاظ من خلال توزيعها اللغويّ وكيفيّة تسييقها ، ومن هنا فإنّ دراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلا للسّياقات والمواقف التي ترد فيها وهذا يعني أنّ معنى الوحدة الكلاميّة يعتمد بشكل جوهريّ على السّياق بنوعيه اللفظيّ والاجتماعيّ، ذلك أنّ عناصر الأداء التي تتشكل في السّياق اللفظيّ المنتظم؛ تتشكل في سياق آخر أوسع من هذا السّياق، هو السّياق الاجتماعيّ

فينتهي الأمر إلى سياق شامل مكوّن من عناصر لفظيّة متساوقة صوتيّا وصرفيّا ونحويّا ومعجميّا. تتضافر مع تلكم العناصر اللفظيّة، عناصر أخرى غير لفظيّة تشتمل على كلّ ما يحتويه الموقف الكلامي من المتكلّم، والسّامع، والمكان وما فيه من بواعث انفعالية أو مظاهر مختلفة، ذلك أنّ كلّ لفظ يحيل على معنى ما وهذا المعنى يظلّ غامضا إلى درجة ما، ولا يتضح إلاّ عن طريق ملاحظة استعماله في سياق معين، لذا عد الاهتمام بالمقام أو السّياق ضروريا للوصول إلى المعنى الدّقيق، لأنّ الكلمة إذا أخذت منعزلة عن السّياق لا معنى لها ولا قيمة.

2.3.خصائص الأسلوب الخطابيّ:

- **وضوح الألفاظ والعبارات:** يتوقف نجاح الخطيب على مدى براعته في المعجم، أيّ: أن يكون للخطيب معجمه الخاصّ من الألفاظ الواضحة من المتداول حتى إذا رُكبت في جمل وسياقات لم تتأثّر المعاني بالنسبة إلى الغرض والسّامع معا، فأمّا بالنّسبة للغرض فيظل واضحا مفهوما، وأمّا بالنّسبة للسّامع فأن يتزامن الفهم مع السّمع، بله ولا ضير أن يسبق الفهم قصد المتكلّم قبل انتهائه من إكمال جمله، وهذا هو الكلام الذي يسابق لفظُه معناه بحيث يكون الغرض الذي يهدف إليه الخطيب (واضحا ومفهوما لدى السّامعين، كما يحسن به تجنب التّوعر في استعمال الألفاظ الغامضة والغريبة والأساليب المجازيّة الموغلة في الخيال)[16] ذلك أنّ القصد من وراء الخطبة برمها إنّما هو إفهام

السّـامعين والتّـأثير فـيهم وإقنـاعهم، ولـن يتـأتى ذلـك إلاّ بـاللفظ الواضـح والأسلوب السّهل الذي يبين عن القصد ويظهره من أَقْصـر الطّرق؛

o الْتِزام الجمل القصيرة: يتميّز الفنّ الخطابيّ بقصر الجمل المتراصة الأركـان والعناصر، ذلك أنّه لا يليق بخطيب يصبو إلى الإقناع والإفهام والإبانة والتَّبياين أن يأتي بمبتدأ ثمّ يأتي بجملة اعتراضيّة طويلة أو جمل ثمّ يعـود إلى الإخبـار عـن المبتدأ[17]، فحينما يستهدف التّأليف معنى اللفـظ، تكـون درجـة الكتابـة في أدنـى مستويّاتها أمّا عندما يُستهدف المعنى بوصفه وسيطا إلى القصد، فتكـون الكتابـة ابتكارا وإدهاشا وتأثيرا وبيانا وسحرا، لأنّ المؤلّف خرج عن المألوف في تركيـب القول، فألبسه ثوب الفصاحة والبيان والبلاغة خدمة للقصـد، عـلى أن يتصـف هذا التّأليف بصفات منها قصر الجمل لأنّ الطّـول يضـعف التّركيـب ويشـوش المعنى، ومثله التّعليق من إلحاقٍ للنّعوت والأحوال والصّفات؛

o تنوّيع الأساليب:يقوم أسلوب الخطيـب عـلى التّنويـع في الأسـاليب حسـب المقامات ومقتضيّات الحال، حيث من الإنشائيّة يعتبر الاستفهام حافـل بـالأغراض سواء أكان حقيقي أم غير حقيقي، مثله التّعب وما يخرج إليه مـن أغـراض كـالنّهي والنّفي والتّمني والحضّ والعـرض والتّحضـيض والعتـاب وغيرهـا ممّـا تسـتدعيه المقامات المتناغمة في جسـد الخطبـة مـن خيـارات أسـلوبيّة تمليهـا ظـروف المكـان وأحـوال السّـامعين، وممارسـة (الاختيـارات الأسـلوبيّة المناسـبة جـزء هـامّ مـن استخدامنا الصّحيح والفعال للغة ومن هنا كان في التّعـدد الأسـلوبيّ لكـلّ مـتكلّم

أصلي للغة ما حكمة عمليّة، وما دام الأمر كذلك فمن الممكن -من حيث المبدأ- أن نعدّ لكلّ لهجة فرديّة نظاما لغويا منفصلا كما أنّ من الممكن -وهو ما لا يقل وجاهة- أن نعدّ كلّ أسلوب مميّز نظامًا لغويًا مميزًا[18]، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأسلوب الرّاقي المُتقن من الخطيب يشحن نفسيّة السّامع بالمعنى، فيستميله عاطفيا وهذه أسمى غايات الخطابة، حيث الهدف هو إقناع السّامع أو التّأثير فيه، بما يجعله يتبنى الموضوع؛

o **تخَيُّر الألفاظ وانتقاؤُها:** تعتمد جودة الخطابة على حسن اختيار الألفاظ وانتقائها، وقديما قال أهل البيان (اختيار الرّجل قطعة من عقله، ومدار البلاغة والبيان على تخيّر الألفاظ وحسن انتقائها، وتخيّر الألفاظ أصعب من جمعها ورصفها وتألّيفها) ذلك أن كلّ كلمة أياً كانت توقظ دائما في الذّهن صورة ما بهيجة أو حزينة راضيّة أو كريهة، كبيرة أو صغيرة، معجبة أو مضحكة، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذي تعبّر عنه وقبل أن يعرف هذا المعنى في غالب الأحيان، فالمعنى يتشكّل من جميع علاقاتها، تلك العلاقات (التي تتقابل وتتقاطع حول الكلمات، وهي التي تقوم بين الأصوات والأفكار والأشياء، هذه هي النّتائج التي يتركها في المفردات عمل العقل. وإذن فالكلمة التي تطفو في الشّعور لا تكون كلمة منعزلة. فإنّها متى مثلت أمامنا، ولو في صفة واحدة منعزلة من صفاتها مع بقاء صفاتها الأخرى في الظّلام، جرت وراءها جحافل من المعاني والعواطف التي ترتبط بها بعرى دقيقة على استعداد دائم للكشف عن نفسها. فالكلمات التي نختزنها في ذهننا تشارك في

حياتنا العقليّة والعاطفيّة كلّها. لذلك ربما كان من الممتع معرفة مقدارها)[19] لهذا نادرا ما نجد لفظة مخلصة الدّلالة لمعنى واحد، فلا تخلو لفظة من إثارة دلاليّة، أو هالة من الدّلالة تكون مصاحبة للمعنى الأولي الذي تدلّ عليه، لذا فإنّ الظّلال الدّلالية لا تغيب عن الألفاظ، وتكاد تضر بدلالتها المركزيّة، وتزحزحها عن مكانها في أذهان جماعة السّامعين، ذلك أنّ (معاني الكلمات لا تحدد فقط بالقيّم التّجريدية العامة المشار إليها في القواميس والمعجمات بل تحيط بكلّ كلمة ظلال من المعاني النّفسية والعاطفيّة المختلفة وتكسبها ألواناً مؤقّتة من الأحاسيس والأخيلة تمثّل قيمتها التّعبيرية، نرى ذلك واضحا... في عبارة (شجرة) ، فضلا عن قيمتها المعجميّة فإنّها تثير أمثلة من الأحاسيس المختلفة باختلاف النّاس فقد تثّير في نفسك البهجة والسّرور، وقد تثير في نفسي الأحزان والآلام، في حين ترتبط في نفس إنسان آخر بالآمال والرّغبات كلّ ذلك يمثل لنا القيّم التّعبيرية لكلمة شجرة[20] هي قيّم لا نهاية لها متجدّدة متغيّرة مختلفة بين الأفراد والأجيّال، الأمر الذي لا يترك للخطيب خيرا غير الدّقة في انتقاء الألفاظ الوفيّة لمدلولاتها بما يجعلها تنسجم انسجاما كليا مع الموضوع والغرض الذي كُتبت بسببه الخطبة؛

o **الايجاز وحذف فضول الكلام:** يجب أن تكون لغة الخطيب مسخرة لموضوعها غرضها، فتسوغ قصديّة الخطيب دون تطغى دلالاتها الهامشيّة على المضمون، وذلك (بأنّ يقسط الخطيب في الكلام ما يكون الكلام مع إسقاطه واضحا غير غامض، وهذا الإيجاز البليغ الذي يتفاضل به البلغاء ويتفاوت فيه

الشّعراء[21]، والخطيب كلما أوجز وأبلغ في الكلام، وقلّ عدّد لفظه وكثر عـدّد معانيـه كان أصوب، حيث لا تقتصر اللغـة عـلى صـورتها المتكلّمـة فقـط، وإنّـما تحـوي إلى جانب ذلك (الإشارات، والإيماءات، وتعبيرات الوجه)[22]. وبذلك يكون الخطيـب قد عضد المعجم بمستوييه العبارى الدّلالي والاشاريّ الرّمزي، بما يمكـن أن يؤديـه الجسد من لغة موازيّة تغني عن كثير من الكلام، وتلك من أقوى المهارات البلاغيّـة لدى الخطيب المفوه الفصيح، وقد اشترط ابن سنان لفصاحة اللفـظ شروطـا ثمانيّـة منها: تألّيف اللفظ من حروف متباعدة المخارج لتكون خفيفة على اللسان وأن نجد لتألّيف اللفظة في السّمع حسـنا ومزيّـة، وأن تكـون اللفظـة غـير متـوعّرة وحشـيّة وغير ساقطة عاميّة، وأن تكون جاريّة على الصّـرف العربيّ الصّحيح في التّصـــريف والاستعمال، وألاّ تكون الكلمة قد عبّر عنها عن أمر آخر يكره ذكره، فـإذا (أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحـت، وأن تكـون الكلمـة معتدلـة غـير كثـيرة الحروف، فإنّها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت، وخرجت عـن وجـه من وجوه الفصاحة، وأن تكون الكلمة مصـغرة في موضـع عـبّر بهـا فيـه عـن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو يجري مجرى ذلك[23]. وهذه الصّفات تمثّل أضرب الصّنعة والتّأليف، ذلك أنّ سلم تصريف القول الفنيّ، إنّما هو الخطيب والأديـب والشّـاعر نفسه من خلال خياراته؛

o **حسن استعمال المترادفـات:** مهـما تعـدّدت أنواعهـا، تشـترك في حاجتهـا إلى الحضور النّوعي للمترادفات، سواء أتعلق الأمر بما لهذه المترادفات من تأثير قويّ في

جرِّ السّامع إلى موضوع الخطبة، أم بإبقائه في جو الخطبة وموضـوعها، ناهيك عـن حضور النّبر المزدوج على مستوى الدّلالة والجرس؛ ويكون هـذا الحضـور بفاعليّـة على قدر تحكّم الخطيب في هذه الخاصيّة، ذلك أنّ المترادفات ألفاظ مختلفة تـدل عـلى ألفاظ متفقة كلما كانت متقاربة المباني، كانت مؤثّرة مقنعة في العقول والوجدان، فلا يكون المعنى هو وحده ما يحدث الوَقْعُ والأثر الذي يكون لها ردّة فعـل مـن المتلقـي وإنّما لجرس الكلام وقعه وأثره على الـنّفس، عـلى أن يكـون المسـتوى الصّـوتي مـن الوسائل التي تعضد المعنى كي لا ينصـرف التّـأليف والـنّظم إلى اللفـظ بخواصـه الجاهزة على المعنى الذي يعكس الصّنعة والموهبة والفرادة؛

o مراعاة مقتضـى الحال: يتوقف نجـاح الخطيـب المفـوّه عـلى مراعـاة السّـامع وأحوال المخاطبين، وتكون تلكم المراعاة منجزة عـلى مسـتوى خياراتـه الأسـلوبيّة بحيث يكلّم النّاس على قدر مـداركهم وعقـولهم ومنـازلهم، فهـا هـو ذا ابـن جنـي يوضح أهميّة عناية العرب بمعانيها، وذلك أن العرب (كما تعنى بألفاظها فتصـلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالشّعر تارة وبالخطب أخرى وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإنّ المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخـم قـدرًا في نفوسها. فأول ذلك، عنايّتها بألفاظها، فإنّهـا لمـا كانـت عنـوان معانيهـا وطريقًـا إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ورتبوها، وبالغوا في تحبيرهـا وتحسـينها)[24] لأنّ القول المفيد عند العرب، إنّما سـبك وحبـك وتصـوير بالألفـاظ، ومـا التّـأليف إلاّ

اختيار وعدول عن الألفاظ بما يستجيب من معاني نحو مقصديّة محدّدة، أدناها الإبلاغ، وأقصاها التّأثير والإقناع؛

o **حسن سوق الشّواهد:** أشار ابن رشيق إلى أنّ المعانيّ موجودة في طباع النّاس يستوي الجاهل فيها والحاذق؛ ولكن الجمال يكّمن في حسن السّبك، وصحة التّأليف، ذلك أنّ من يريد مدح رجل، إنّما يشبهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الإقدام بالأسد، وفي المضاء بالسّيف، وفي العزم بالسّيل، وفي الحسن بالشّمس، فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني (في أحسن حلاها من اللفظ الجيّد الجامع للرّقة والجزالة والعذوبة والطّلاوة والسّهولة لم يكن للمعنى قدر. وبعضهم وأظنه ابن وكيع مثل المعنى بالصّورة واللفظ بالكسوة؛ فإن لم تقابل الصّورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها، وتضاءلت في عين مبصره[25]، لا تغني طبيعة المعاني من حيث دلالاتها الاعتباطية على القصد من الكلام، ذلك أنّ أغراض الكلام ومقصدياته والفائدة منه، إنّما يُسبك بالتّأليف والصَّنْعة، لا بالرّصف الجاهز، وإلّا صار كلّ من رام قول شعر أو نثر، شاعرا وناثرا بمجرد الرّصف، ولكان كلّ النّاس خطباء وشعراء؛

o **التّوشيح بالحكم والأمثال وروائع الأشعار:** من أهمّ المقوّمات المعماريّة التي ترتقي بالخطب إلى مصاف الخطب العصماء المؤثّرة، حسن توشيح الخطيب كلامه (ببديع الحكم، وجميل الأمثال وروائع الأشعار، وتكّمن ذروة المتعة الفنيّة في إيراد الحكم البالغة والأمثال السّائرة في ثنايا الكلام لتقويّته في نفوس السّامعين)[26] لأنّ

الحكمة البالغة تصل مكامن الوعيّ والشّعور من السّامعين باعتبارها خلاصة تجارب إنسانيّة تراكمت على مرّ السّنون والعصور، فيها يرى الإنسان المصير والوعيّ والعقل، كأنّها وعيّ مكثّف ينقل السّامع من حال إلى حال، ويتوقف نجاح استمالة المتلقي بالاستشهاد بالحكم والأمثال على حسن توظيفها من قبل الخطيب، بحيث تكون مأثورات كلام العرب من جنس مقال الخطبة، وإلاّ تحوّلت إلى ترفٍ من القول يأتي بعكس ما كان مرجوا منه، فينفر السّامع ويدفعه للسّأم والملّل، فينصرف فكرا ووجدانا عن الخطيب وخطبته؛

o **التّناسب التّوافقيّ بين طبائع الألفاظ والموضوعات الخطابيّة:** الكلمة صورة حية لنفس قائلها، ومرآة عاكسة لروحه، منه تستمد قوّتها أو ضعفها. ولكي يوفي الخطيب كلّ مقام حقّه من التّعبير، فإنّه يحسن به أن يتخيّر ألفاظ خطبته ويجعلها تتناسب مع المقام التّخاطبي الذي يعيشه والموضوع الذي يخوض غماره، وهذا ما أشار إليه في وجوب تخيّر الألفاظ الحسنة، ذلك أنّ (إذا اكتسى لفظا حسنا، وأعاره البليغ مخرجا سهلا، ومنحه المتكلّم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى ولصدرك أملا. والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وأكسبت الأوصاف الرّفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زيّنت وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معانيّ المعارض، وصارت المعانيّ في معنى الجواريّ[27]. قد تكون بعض الألفاظ مقترنة الدّلالة اقترانا لا يمكن معه فصل بين اللفظ ومتصوّره الذّهني، لكن التّأليف يجعل منها معانٍ ساميّة راقيّة مؤثّرة ساحرة

تجعل السّامع يتفاعل ويدافع عنها بحماس وذلك كلّه راجع إلى نجاح الخطيب في اختيار اللفظ الذي يناسب موضوع المحفل التّخاطبيّ.

4- الخاتمة: لعله من نافلة القول تكّرار أهميّة الخطابة وتميّزها عن باقي أجناس كلام العرب ودرجات سلم تصريف القول لديّها؛ إلاّ أنّها –ولا ريب- لا ينتهي الكلام عنها ذلك أنّها كانت وما تزال ملتصقة بحياة الشّعوب في مختلف مجالات الحياة التّصاق الجسم بظلّه، إنّها في الفنّون والعلوم والسّياسة والوعظ والإرشاد وكلّ ما له علاقة بالإنسان، وزاد صافي المستغانمي، أنّها فنّ لا هو بالنّثر ولا هو بالشّعر، كما أنّها أخذت أجمل ما في الجنسين، فمن النّثر قصر الجمل المسجوعة ووقعها الصّوتي المتناغم مع المعنى، ومن الشّعر إيقاعاته وأوزانه، دون أن تكون شعرا أو نثرا، كما أنّها تكتب دائما لغاية مقرونة بمناسبة وغرض ومعمار وموضوع واحد، وتلقى وسط جمهور، كما أنّها تعكس طبيعة الحياة العقليّة والنّفسية للشّعوب منذ القدم، وإنّها آخذة في التّوسع والارتقاء منزلة وسيظل الأمر ما ظلت البشريّة.

مكتبة البحث:

[1]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الامتاع، دار ابن كثير ط1،2017، ص: 22.

[2]– روبير فرانك بالمر (Robert Frank Palmer) علم الدّلالة، مجيد عبد الحميد الماشطة، مطبعة العمال المركزيّة بغداد، 1985، ص: 61.

[3]– جون لاينز (John Lines)، اللغة والمعنى والسّياق، تر: عباس صادق الوهاب مراجعة: د.يوئيل يوسف عزيز، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة بغداد، ط1، 1987، ص: 228.

[4]– عبده الرّاجحي، فقه اللغة في الكتب العربيّة، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت 1972 (مقدمة المؤلّف) ص: 167.

[5]– احمد مختار عمر، علم الدّلالة، عالم الكتب، ط5، 1998، ص: 62.

[6]–هنرش بليث، البلاغة والأسلوبيّة نحو نموذج سيميائي لتحليل النّص، إفريقيا الشّرق، بيروت ط1، 1999، ص38.

[7]– هنرش بليث، البلاغة والأسلوبيّة، ص: 64.

[8]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار ابن كثير ط1،2017، ص: 21.

*ينظر: الأساليب المغالطيّة مدخلا في نقد الحجاج، النّويري محمّد، ضمن فرقة البلاغة والحجاج ص406.

[9]– استيفان اولمان، (Steven Ullmann) دور الكلمة في اللغة، تر: كمال محمّد بشر، النّاشر مكتبة الشّباب ط10، 1986، ص: 101.

[10]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص: 43.

[11]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص: 44.

[12]– علي زوين، منهج البحث اللغويّ بين التّراث وعلم اللغة الحديث، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة بغداد، ط1، 1986، ص: 89.

[13]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص: 46.

[14]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص: 48.

[15]– تمام حسان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثّقافة ، الدّار البيضاء المغرب، 1994، ص: 41.

[16]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص: 55.

[17]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص: 55.

[18]– جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، دار النّهضة العربيّة، ط1، دت، ص: 38.

[19]– جوزيف فندريس(Joseph Vendryes)، اللغة، تر: عبد الحميد الدّواخلي، محمد القصاص مكتبة الأنجلو المصريّة، 1950م، ص: 239.

[20]– علي زوين، منهج البحث اللغويّ بين التّراث وعلم اللغة الحديث، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة بغداد، ط1، 1986، ص: 92 .

[21]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص: 57.

[22]– أحمد مختار عمر، أسّس علم اللغة، عالم الكتب، ط8، 1998، ص: 35.

[23]–ابن رشيق القيروانيّ الأزدي (المتوفى: 463 هـ)، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981. ج1، ص: 89.

[24]– أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: 392هـ)، الخصائص، تح: محمّد علي النّجار، دار الكتب المصريّة، 1952،ج2، ص: 215.

[25]– ابن رشيق القيروانيّ ، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، ج1، ص: 127.

[26]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص: 60.

[27] –الجاحظ، البيان والتّبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، ج1، ص: 212.

تم إخراج وطبع بـ :



المنطقة الحضرية قطعة 1- عين النعجة رقم 1 جسر قسنطينة - الجزائر
ها : 05.50.54.83.07/ 07.71.52.50.50

البريد الالكتروني: inma.book@yahoo.com